

نظام العلم والامم

أو

الحكمة الاسلامية العليا

تأليف

العلامة المفضل خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة

الشيخ طنطاوي جوهري

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

سنة ١٣٥٠ هجرية - ١٩٣١ ميلادية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد



نظام العالم والامم

أو

الحكمة الاسلامية العليا

تأليف



العلامة المفضال خلاصة الحكماء وصفوة العلماء حضرة

الشيخ طنطاوي جوهري

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

سنة ١٣٥٠ هجرية - ١٩٣١ ميلادية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البَابُ السَّادِسُ

الكلام على الانسان

ان الناس في نظرهم للانسان أربع طوائف :

الطائفة الأولى — الشعراء

الطائفة الثانية — الرياضيون

الطائفة الثالثة — علماء التشريح (والطائفة الرابعة علماء النفس والفلسفة وسيأتي

ذلك في الباب السابع) وفي هذا المقام مبحثان

المبحث الأول — في ظواهر علم التشريح

المبحث الثاني — فيما يهم من حقائق علم التشريح وفي هذا المبحث ستة فصول

الفصل الأول — في ان جسم الانسان كآلة البخارية

الفصل الثاني — فيما يوافق الانسان من الأغذية وما لا يوافق

الفصل الثالث — في بيان ان هذه الأغذية مقسمات على مافي الجهاز

الهضمي من الآلات المعدة للهضم بالفترة

الفصل الرابع والخامس — في بيان الجهاز التنفسي والدورة الدموية

الفصل السادس — في الجهاز العصبي

الطائفة الأولى

انك إذا نظرت إلى النوع الانساني عرفت بأدنى التفاتة انهم جميعاً يلهجون بما يشاهدونه من محاسنه الظاهرة وعجائبه الباهرة المدهشة للناظرين بالحواس الخمس فتراهم يصفون كل عضو من أعضاء البدن بوصف دقيق وينثرونه وينظمونه حتى كان شعراء العرب في الجاهلية والاسلام لا ينظمون القصائد لمديح الملوك إلا ويذكرون في أوائلها دقائق المحاسن .

واذا تصفحت أكثر كلامهم وجدتهم به لمهجين وهذا شائع في الكتب لا يحمله أحد من أهل العلم فلا ترى كتاباً من كتب الأدب إلا وفيه نبذة أو نبذ من ذلك ، ولعمري ان فطر الانسان صادقة ترمي الى غاية اذ الانسان كما قلنا نهاية الاداع فقد جمع المحاسن واللاطائف كاللمس والشم والسمع والنظر ثم التخيل والعقل فقد جمعت فيه جميع المحاسن التي تليق الانسان ولا يريب انها مفرقة في هذا العالم فبعض ذلك يلتند بالنظر اليه أو لمسه أو ذوقه أو سَمعه أو شمّه أو التفكير في محاسنه أو اثنين أو أكثر والانسان هو الذي جمع هذه اللطائف والمحاسن كلها ولذلك ترى الشعراء يشبهون أجزائه بأجزاء هذا العالم فقال بعضهم :

أشمس في غلالة أرجوان	وبدر طالع أم غصن بان
وتغر ما أرى أم نظم در	ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيه تفاح وورد	عليه من العقارب حارسان

فانظر كيف شبه كل عضو بجزء من العالم وتارة يفضلونه عليها كقول بعضهم :

ما أنت مادحها يا من تشبها	بالشمس في الحسن لا بل أنت هاجبها
من أين للشمس خال فوق وجنتها	ومبسم مثل نظم السر في فيها

وهؤلاء الشعراء هم المفصحون عن النظر الظاهر في الانسان ومثلهم في ذلك العامة الذين يلهجون بتلك الأراجيز والموالى وفي هذه المرتبة كان عشاق يوسف عليه السلام

فقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ان هذا إلا بملك كريم ، ولعمرك ما هذه المحاسن الظاهرة إلا رمز لما وراءها وعنوان على ما بعدها كما ان محاسن السماء وزينتها وجمال النباتات وبهجتها وبدائع الحيوانات ودقتها اعراب عما وراءها لتتوق النفس إلى ما وراء هذا الجمال البديع .

ولقد اختلفت الفطر وبحث كل عما يرمى اليه غرضه ويصل اليه فهمه (وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) . فهذه المحاسن بالطبع تدعو الى التعاشق والتزاوج لجميع النوع الانساني كما تدعو أولى النظر للتفكر في دقيق المحاسن التي وراءها . فوقف نظر العاقل عند الظاهر واكتفى بأنواع الازدواج كما تزدوج النباتات والحيوانات فيأكلون ويشربون (كما تأكل الأنعام) وكما وقف نظر الزارع من زرعته على القوت والملابس وهكذا مربو الحيوانات المنزلية كل وقف نظره على مأكله ومشربه من ذلك ولقد ترقى عن هؤلاء قوم وهم

الطائفة الثانية

وهم الناظرون في الرياضيات

قالوا ان لكل ظاهر باطناً ولا بد لهذه المحاسن الجميلة والبدائع واللطائف من حساب متقن وهندسة محكمة إذ لسنأ كهؤلاء الشعراء والعامة الذين وقفوا على الظواهر وانما نحن أرقى منهم عقلاً وأسمى نظراً وأصح فراسة وقد قال الله تعالى (إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين) وهم أرباب الفراسة وقال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال (إن في ذلك لآياتٍ لأولى النهى) وقال (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) . ثم نظروا فوجدوا بالاستقراء ان الانسان اذا اعتدل خلقه في الرحم ولم يمسه سوء يحول وجهه خلقه كانت له مقادير معينة وأوضاع محكمة . فقامت ثمانية أشبار بشبره وقد قسمت أربعة أرباع فمن مفرق رأسه . الى رأس فؤاده شبران ومنه الى حقويه شبران ومن حقويه الى رأس ركبتيه شبران ومن رأس ركبتيه الى أسفل قدميه شبران فهذه أربعة

أقسام متساوية متى استقام وضع الجسم ولم يحصل فيه تنوع يوجب بعض الاختلاف فإذا مد يديه الى أعلى كان عشرة أشبار بشبره خمسة من رؤوس أصابع يديه الى سرته وخمسة من سرته الى أسفل قدميه وإذا مد يديه الى اليمين واليسار كان الباع كله ثمانية أشبار كطولہ فتأمل كيف كان طولہ كعرضه مع مد يديه وما هذا الوضع العجيب الغريب ثم ترى هذا الباع أيضاً مقسماً أربعة أقسام كتنقسم الطول من رؤوس الأصابع الى المرفقين الربع والى الترقوة النصف فانظر كيف تشابه التقسيان وتناسق الوضعان . ثم ان طول وجهه وهو ما بين أذنيه شبر وربع وعرضه وهو ما بين منابت شعره ورأس ذقنه شبر وثمان وطول أنفه ربع شبره وهكذا طول شق فمه وشفتيه وطول جبينه ثلث طول وجهه وطول قدمه كطول وجهه شبر وربع وطول كفه من الكرسوع الى رأس الأصابع الوسطى شبر واحد والابهام والخنصر متساويان ورأس البنصر زائد على الخنصر نصف ثمن شبره وكذلك الوسطى على البنصر وهكذا ترتيب الابهام والسبابة والوسطى كل يزيد عما تحته نصف ثمن الشبر فالوسطى اليها تنتهى الزيادة والطرفان متساويان وما حول الوسطى كذلك بل حال الأصابع وترتيبها يفهمنا ترتيب الحياة إذ يخلق الانسان من ضعف الى قوة الى ضعف من الصبا الى الشباب والكهولة الى الشيخوخة

وما بين الثديين شبر واحد ومن السرة الى العانة شبر واحد ومن رأس فؤاده الى رأس ترقوته شبر واحد وبين المنكبين شبران اثنان وهذه المقاييس تحتاج الى عناية وتدقيق ومن هذا تعلم قوله تعالى (وكلُّ شَيْءٍ عنده بمقدارٍ ، وخالق كلِّ شَيْءٍ فَقْدَرَةً تَقْدِيرًا) وقوله (وكلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) وقوله (يدبر الأمرَ يَفْصِلُ الآيَاتِ لِعَلَّكُمْ بَلَاءٌ رَّبُّكُمْ تُوقِنُونَ) ولأكتف بهذا القدر مما ذكره هؤلاء الرياضيون عن هذا الانسان العجيب فبحثوا بما يناسب فهمهم وعلى مقدار علمهم ثم ترقى عن هؤلاء قوم ونظروا فيما هو أدق من ذلك وهم علماء التشریح المدققون وهم .

الطائفة الثالثة

(علماء التشريح) رأى بعض علماء العرب والغربيين وعليه مدار التعليم في مدارسنا الآن إن الطبيعيات مؤخرة عن الرياضيات وهناك رأى آخر درج عليه صاحب الهداية وغيره يقدم الطبيعيات على الرياضيات (ولكل وجهة هو موليها) وهؤلاء نظروا فقالوا إن هذه المحاسن التي ولع بها الناس من العامة والشعراء والمقادير المقياسية التي عرفها الرياضيون لا بد من سر عجيب وكما أن انتظام أوراق الأشجار وقياسها البديع واتساق أعضاء الحيوان بمقاييس معينة وحساب الشمس والقمر وانتظام سيرهما في دورهما وهكذا الأنوار والظلمة وهندسة العالم كله دلت العماء على نظام عجيب من هذا الحساب الظاهر، فبحث النباتيون عن التحليل والتركيب في المواد وهكذا علماء الفلك حللوا الضوء بالبلورات المنشورية واستنتجوا منه المواد المكونة للشمس والقمر وبعض الكواكب ولا زالوا يوالون البحث بأنوار الآلات حتى عرفوا بعض أشياء ظنيه مما على سطح القمر والمريخ بل حاول رجل في زماننا هذا في أمريكا أن يخترع طريقة أن يكلمهم بالتلغراف الذي بلا سلك؟ فلنبحث عن هذا الانسان المشاهد أمامنا فلا بد أن يكون فيه من الحكمة العجيبة ما يحمله هؤلاء. إذ العلم ولذته هي الباقية للروح بعد الموت بل هي اللذة الحقيقية للانسان اذا عقل وهاك ملخص اجاباتهم .

تأمل في وضع جسم الانسان وما أوتي من حق اتقانه تجد عجباً عجائباً تجده كساعة بها ظاهري روق وآلات ترتب بعضها على بعض بحيث لو اختلف واحد منها لاختلف باقيها أو احتاجت الى الاصلاح فمثل الانسان كمثل الساعة متى اختلف جزء من أجزائه تأملت الأجزاء الأخرى ولكن بينهما فرق من وجوه

(١) فالساعة من مواد معدنية كالحديد والذهب والفضة وغيرها ففيها التماسك بنفسها طبعاً بخلاف الانسان فانه من مواد نباتية وأخرى حيوانية وأغلبه ماء يبلغ نحو ٨٠ جزء من مائه منه فكل هذه الاجزاء لا تماسك بطبعها فياليت شعري كيف

وضعت على وضع تراه في اتقانه أرق من الساعة بما لا يتناهى

(٢) ان الساعة اذا اختل جزء منها أسرع الخلل الى باقيا طبعاً ووقفت حركتها .
والانسان لا تقف حركته بضعف جزء منه بل ولا قطع عضو أو عضوين بل
يشتغل بالباقي في منفعه مع تركيبه من أجزاء رطبة رخوة وتركب الساعة من أجزاء متماسكة
(٣) اذا اختلت الساعة فمصلحها من خارج أما الانسان فانه يسعى على الدوام
لاصلاح جسمه بالقوت والملابس فمصلحه في أغلب الأحوال هو نفسه فيأكل ويشرب
ويدفع من يؤذيه بهذا السر العجيب وهى الروح المنبثة فيه المحركة له

(٤) وتركيب الساعة ليس فيه كثرة وانما هو بالنسبة لتركيب الجسم قليل التركيب .
واعلم أن الشيء كلما كان أكثر اتقاناً وأجمل وضعاً وأحسن تركيباً كان أكثر نفعاً
وأتمن صنعاً . وجسم الانسان حاز من حسن التركيب ودقة الوضع ما حار فيه ألو الألباب
وقاسوه بنظام السموات والأرض فقالوا اننا ننظرنا الى عالم السموات والأرض رأيت
بها مزاجاً واحداً كمزاج الانسان والله هو المدير لها وفيها ترتيب كترتيب جسم الانسان
وكم ضربوا الأمثال للعالم وخالقه بالجسم وروحه وهكذا وعلماء السياسة وعلماء
تكوين الشعوب كأبي نصر الفارابي يقولون ان المدينة الفاضلة هى التى تشبه وضع
الانسان فانظر كيف أشبه العالم كله والمدينة الفاضلة وسيرد عليك هذا فيما سأتى
بأوضح بيان ولعل هذا شاقك الى معرفة وضعه لتقيس عليه المدينة الفاضلة وترتيب
السياسات ودرجات الناس فيها فهناك

أول ما ينال الصبي شهوة الغذاء فيأتى له عرق متصل بأمه يغذيه بدم الحيض
ويدخل فى السرة وينتشر فى سائر أجزائه فلا يحتاج الى طعام من خارج ولا الى إدخاله
من الفم فاذا استهل من بطن أمه قطع ذلك العرق وعوض عنه بشدئ أمه فأول ما يعطى
شهوة الغذاء ثم حاسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر ثم قوة التخيل ثم العقل
فهذه القوى والادراكات مع الحركة يجلب ما يغذيه ويدفع ما يضره فاذا حصل الطعام
ومضغه بفمه ونزل فى المريء فالمعدة فالاثنا عشرى فالامعاء الدقيقة وهكذا حتى وصل

الى القلب فرقه على سائر أجزاء البدن بالدورة الدموية الآتية من الدم خلاصة لطيفة جداً وهي حرارة تنبعث من القلب مع الدم تسمى الروح الحيوانى وتصل الى الدماغ بكثرة وقد جعل فى هذا الأخير رطوبة طبيعية متى وصلتها تلك الحرارة المنبعثة من القلب وزعتها على سائر أعضاء البدن بالتساوى فالروح الحيوانى منشؤه القلب والموزع له مع حفظ النسب لكل قطعة من الأعضاء هو الدماغ ولذلك كانت أعصاب الحس وأعصاب الحركة انما تصدران عن الدماغ والنخاع الشوكى المتصل طبعاً به . وتوضيحه أن الانسان له حواس خمس يحس بها ما يرد عليه من خارج ليعرف ما ينافر وما يلائم فتقوم الأعضاء من اليدين والرجلين وغيرها بدفع المنافر وجلب الملائم بها فما من العضلات والعظام والرباطات والأوتار .

فهنا حركتان إحداهما من الخارج إلى الداخل حتى تصل إلى الدماغ والأخرى من الداخل الى الخارج

فالحواس تحس بالخارج وتوصله أعصاب الحس الى الدماغ ثم يأمر الحاكم الذى فى الدماغ أعصاب الحركة فتحرك الأعضاء تارة للطلب وأخرى للهرب فكل من أعصاب الحس وأعصاب الحركات لم يكن منشؤها الا من الدماغ أو النخاع الشوكى إلا أنها ثلاث درجات فمنها أعصاب تحتاج الى أن تكون حرارتها الحيوانية خالصة من المادة الكربونية وهي أكثر أعصاب الاحساس فكان محلها الدماغ إذا الحس لطيف فوجب فى الحكمة خلوص الحرارة الحيوانية لأعصابه

ومنها أعصاب تحتاج مع الحرارة إلى مادة تكسيها لزوجة لتقوى على فعلها . وتلك هي أكثر أعصاب الحركة فكانت مغارزها فى النخاع الشوكى .

ومنها أعصاب تحتاج الى زيادة ييسر عما قبلها فكانت مغارزها فى العصص أسفل فقرات الظهر وعدد الجميع ثمانية وعشرون فى الرقبة سبعة وفى الظهر اثنا عشر وفى القطن خمسة والعجز عظم واحد مفصل إلى ستة ملتحمة من بعد الولادة والعصص ثلاثة ولا تلتحم إلا فى سن الأربعين فهذه ثمانية وعشرون فقرة

فتأمل كيف وضع كل شيء في موضعه فان هذه الأعصاب لو كانت مغارزها في القلب نفسه لاحتترقت لشدة حرارته فانظر كيف اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مغارزها في الدماغ الذي جعلت فيه رطوبة حتى في الملمس لتلطف تلك الحرارة وتأمل كيف كانت أعصاب الإحساس ناجمة من الدماغ الذي يتعالى عن المواد الكربونية الدخانية وأعضاء الحركة تحتاج الى لزوجة تساعد على الانقباض والانبساط لتسهيل بها الحركة فكانت مغارزها في النخاع الشوكي المتصل بالدماغ وبالجملة فكما كان عمل الأعصاب أثلى وكما كان عملها محتاجاً الى معاناة وشغل جئاني كانت مغارزها أسفل بمقدار تلك المعاناة والنصب . فالقاعدة في أعمال الجسم ان الأعلى أشرف والأدنى أنزل منه بترتيب محكم ووضع متقن

وإذا نظرت الى صورة الجسم وتلك الأعصاب رأيتها كشجرة أصلها ثابت في الرأس وساقها مار بالنخاع الشوكي والفروع خارجة من الجذع الذي في الرأس ومن الساق في جميع أنحاء الجسم . وبالجملة فالدماغ بمنزلة ملك المدينة الفاصلة يوزع الحرارة الحيوانية بمقادير مخصوصة لكل عضو من أعضائه ويخص تلك الأعصاب بفضل عنايته كما رأيت وباعتدال الحرارة يعتدل فعل القوة الخييلة التي تحلل وتركب وتمثل الصور التي نقلتها الحواس بواسطة الأعصاب الى الحس المشترك وهو يعطى الخييلة مالم يده منها . ويعتدل فعل القوة الناطقة التي تنظر في الكليات . ولسنا الآن بصدد بيان تلك القوى وإنما ذكرناها لبيان اعتدالها بواسطة فعل الدماغ وعدله في توزيع الحرارة الحيوانية . وفي كتابنا ميزان الجواهر مافية الكفاية لمعرفة فراجع ان شئت وسيأتى في هذا الكتاب أيضاً

ويلى الدماغ في المرتبة القلب إذ منه ينبعث الدم لسائر البدن وكذا الحرارة والدماغ هو المنظم لها والأمر والنهى والمحرك والمسكن .

فالقلب مشغول بمعالجة المادة الغليظة وهو الدم . والدماغ أما يعالج ماهو الطيف وأشرف وهي الحرارة الحيوانية التي هي الخلاصة . ومن آثار ذلك ان الدم اذا تغير

انحرف الدماغ واذا اعتدل اعتدل اذن الأشرف يعالج الأنطف ، والأقل مرتبة يعالج ماهو غليظ . . والرأس أعلى البدن أما القلب فهو في وسطه فالقلب كالوزير والدماغ كالملك ولا تظن ان هذا التشبيه بعيد بل هو قريب . وما مثل الدماغ مع سائر البدن الا كمثل ملك أمامه خدام البريد ومعهم آلات التاخراف الواصلة الى أطراف المملكة فيقبل الاخبار من الخارج ويصدر أوامر اليه فاليه الوارد ومنه الصادر وهو المدير للحركة العمومية وقد وضع المقام لكل ذى لب

والدماغ وزيران أحدهما القلب والآخر القوة المولدة وأيضا ان الإنسان خلق في الدنيا ولا بد له من الحياة الى أجل مسمى واقتضت الحكمة الالهية والعدل أن يموت ليقوم في مادته صور أخرى كثيرة وكما خلعت صورة لبست أخرى إظهاراً للقسط والعدل فلا بد من الموت والحياة وإلا لكان العالم بلا عدل ولا حكمة تامة واذا كانت الأشخاص تموت فلا بد من بقاء النوع لتحصل عمارة الأرض ويكثر المنعم عليهم . فجعل لبقاء الشخص القلب ولبقاء النوع قوة التوليد فالقلب كالوزير الأول وقوة التوليد كالوزير الثانى أما القلب فتخدمه الرئة فى الصدر والكبد تحت الحجاب الحاجز بين البطن والصدر فالأول يأتي له بالهواء والثانى بالدم وإيضاحه

ان الانسان يحس بحواسه فيعرف الأغذية ويتناولها بيديه ففمه فيمضغها ويساعد الريق فيه على هضمها وهو المسمى بالهضم الأول ثم يندفع الى البلعوم فالمرىء فالعدة وهناك يطبخ بمساعدة سوائل أخرى هناك حتى يصير كماء الشعير وتسمى كيموسا ثم ينزل منها الى الاثنا عشرى فيزيد طبخه بمساعدة البنكرياس والمادة الصفراوية الآتية من الصفراء المنفزة فى الكبد لتحلل المادة الزيتية الباقية فى الطعام وبعد أن يتم نضجها فى الاثنا عشرى تنزل فى بقية الامعاء الدقاق الموضوعه وضعا تعريجياً وفيها غدد صغيرة لا ترى الا بالنظارة المعظمة كثيرة جدا تمتص خلاصة ذلك المطبوخ على هيئة مادة بيضاء كاللبن الأبيض تسمى كيلوساً تذهب فى الوريد الذى يذهب صاعداً الى أعلى ثم تصل الى الكبد فيطبخ تلك المادة

معنى قول القدماء الصفراء والدم والبلغم والسوداء

وأنت تعلم أن كل مطبوخ فلا بد له من مادة غليظة أسفلها ورغوة في أعلاه ومائية تتخلله ولا يمكن هذا المطبوخ أن يؤدي وظيفته إلا إذا خلص من تلك الشوائب فالرغوة في الدم إنما هي الصفراء فاقتضت الحكمة الالهية أن تذهب تلك المادة إلى عضو رقيق يسمونه المرارة تجتمع فيه الصفراء وتذهب إلى الاثنا عشرى كما تقدم وهو أول الامعاء الدقاق مما يلي المعدة ويسمى بذلك لأنه اثنا عشر قيراطاً ثم تسير مع الغذاء في مجراه وتسلك سبيله هذا غاية المادة الصفراوية أما الماء فيذهب في عروق إلى الكليتين وهما يدفعانه إلى الحالبين إلى المثانة إلى القضيب إلى الخارج

أقوال القدماء وحكاماء العصر في الكبد

وظهور حكمة الله تعالى فيه

وبقيت المادة الغليظة التي تكون عادة في أسفل المطبوخ المسماة بالدردي والعكر وهي المسماة بالسوداء فقال الأقدمون أنها تصل إلى الطحال وهو يجعلها جزئين جزء يصل إلى فم المعدة فيحرك الشهوة وجزء يذهب مع الخارج من الامعاء الغلاظ ولكن المحدثون لم يكتشفوا إلى الآن له وظيفة يعرفونها وغاية الأمر أنهم عرفوا أن في الجسم كرات بيضاء ذات حياة تحترق كافة العضلات والأوتار والعروق وهذه تارة تكثر وتارة تقل وظيفتها أنها إذا وجدت مواد سمية اجتمع منها عدد وأخذ تلك المواد ووضعها في ناحية من نواحي الجسم لا يضره هذا السم وكذلك إذا حصل قرح في عضو من الخارج أسرع إلى تلك الحيوانات كبح البصر وتراكت على ذلك المكان فامتصت الحرارة المحرقة له وصارت هي نفس القيح الذي به تقل الحرارة عن الجرح فيستريح المريض فإذا قارب الشفاء تراكت أيضاً فصارت لحماً يلتئم به الجرح وهذا في المكتشفات

الحديثة فهذه الكرات البيضاء المائلة لاجزاء الجسم ولا ترى الا بالمنظار المعظم قد اكتشف
 نها كما كثرت في الجسم كبر الطحال فلا بد اذن من علاقة بينها وبين الطحال
 (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ) . ولقد صنعوا تجربة
 فقطعوا طحال كلب فكثرت تلك الكرات البيضاء في الدم جداً فمات ذلك الحيوان
 وهذا أمر عجيب جداً فقد قارب المتأخرون أن يكتشفوا ما ذكره الأقدمون فان
 هذه الكرات البيضاء ما هي الا فضلات الدم التي سماها الأقدمون السوداء والكبد
 هو المصروف لها وفي ظني أن بين أقوال الفريقين قرباً يظهره المستقبل .

هذا آخر ما وصل إليه النوع الانساني فالأقدمون هكذا تقريرهم والمحدثون أنكروا
 أولاً فعله في الجسم بالكيفية وقالوا لم يعرف له وظيفة ثم اكتشفوا تلك الكرات البيضاء
 ولا حظوا تلك العلاقة معه تخميناً .

موازنة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح

لعمري لقد حار الأقدمون والمحدثون في الكشف والعلم وأقروا بالعجز وانبهر
 حكاؤهم وعجز علماءهم وقالوا لا علم لنا الا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم . ان نظرنا
 الى علماء الفلك وجدناهم صاغرين أمام هذه الحكمة الباهرة مقرين بالعجز والتقصير
 غير معجبين بعقولهم يثبتون اليوم ما نقوه بالأمس ثم يقرون على ما نقوه فيثبتونه .
 فيالله والعدل فكأن الله لما نظم ملكه على العدل وحسن النظام أراد أن يرينا العدل
 أيضاً في العلم والاعتقاد . فترى علماء الفلك قبل بطليموس كانوا يحكمون
 بدوران الأرض حول الشمس ثم عكس القضية بطليموس ثم جاء من بعدهم كورنيكوس
 وأرجع الهيئة الى حالها الأولى والاعتقاد الأول وسبقه الى ذلك علماء الاسلام كما أوضحناه
 في جواهر العلوم . وان نظرنا الى علماء الطبيعة نراهم حيرتهم أجسام الانسان وفعلوا في
 التشريح فعل علماء الهيئة في الافلاك من الاثبات تارة والنفي أخرى فهناك مسألة الطحال
 أثبت له الأقدمون فعلاً كما علمت وجاء المتأخرون فقالوا أولاً لا وظيفة له ثم قالوا له
 علاقة بالكرات البيضاء فقد قاربوا أن يكتشفوا عمله هذا ولنرجع الى مانحن فيه فنقول

ترتيب الأعضاء الباطنة في جسم الإنسان

اعلم أن الخادم للكبد ثلاثة أعضاء وهي المرارة والكلى والأمعاء باتفاق الحكماء الماضين والحاضرين ولكل منها خواص درجات بعضها فرق بعض فيخدم المرارة العرق الموصل إلى الأثناعشرى وهو يخدم ما بعده المخدوم بما بعده وهكذا الكلىتان وهما موضوعتان في الجزء العلوى من البطن وشكلهما كحبة اللوبيا يخدمهما الحالبان فالثلاثة فالقناة البولية والأمعاء تخدمها المعدة فالقلم قاليد . فالكبد هو المخدوم لهذه كلها بعضها يجلب الدم وبعضها يدفع الضار ويبقى خالص الدم فيؤديه إلى القلب وهو المقصود الحقيقى أما تلك الشوائب فإنها تخرج منه لمصالح وحكم عجيبة فانظر كيف كانت المرارة مساعدة على تحليل مواد الغذاء الحاصلة في الأثناعشرى فما أعجب هذه الحكم وأدقها حتى قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) إشارة إلى هذه الحكم العجيبة

وهذه الخواص كما رأيت كل واحد منها خادم من جهة ومخدوم للآخرى من جهة إلا الأطراف فإنها خادمة لا مخدومة كاليد وكلها كما رأيت موصلة للكبد وهو يخدم القلب فهو خادم ومخدوم أيضا والقلب يخدم الدماغ فهو مخدوم وليس عليه رئيس فالرئاسة الكبرى للدماغ الذى ليس عليه رئيس وبقية الأعضاء خادمة ومخدومة باعتبارين إلى أن تصل إلى الأطراف فتجدها خادمة لا غير . وكما كان فعل العضو أقرب إلى الرئيس كان عمله أشرف . ثم الشرف والخسة تارة يكونان باعتبار المادة التى فيها العمل ولا ريب أن الحرارة الحيوانية أشرف من البول فعلى الأول وهو الدماغ أشرف من عضو الثانى وهى المثانة

وتارة يكون باعتبار كثرة العمل وقلته فالقلب يلا ريب أكثر عملا من الكبد مثلا فهو أشرف بهذا الاعتبار وتارة باعتبار كثرة النفع وقلته فرب عامل يعمل قليلا ومنفعته أكثر ممن يعمل كثيرا كأعصاب الحركة فإن معاناتها أشق وأصعب ولكن أعصاب الحس أكثر نفعاً إذ هى موجبة للعلم وهو أشرف من العمل .

وإلى هنا عرفنا الحكمة الإلهية في الكبد وخوادمه

ان الغذاء بعد مروره من الامعاء الدقيقة وقد أخذ الكبد خالصه تبقى هناك حالة فتخرج في وعاء متعرج يسمى الأعور منسد من أسفل مفتوح من أعلى فتصل إلى الامعاء الغلاظ فتذهب فيه تلك الفضلات إلى وعاء متعرج يسمى السيني وتنزل منه إلى وعاء آخر نازل على الاستقامة إلى أسفل يسمى بالمستقيم فكان الطعام في مروره من أعلى إلى أسفل انطبخ حتى إذا وصل إلى وسط الانسان أخذت خلاصته وذهب بقية إلى أسفل فله الحكمة البالغة والصنع العجيب (صنع الله الذي أتقن كل شيء) فمن هنا نفهم اتقان شخص الانسان أما اتقان النوع فيكون عند ذكر المدينة الفاضلة وقياسه تماماً على جسم الشخص الواحد لنفهم معنى قوله تعالى : (ما خلَقكُمْ ولا بِعْشُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذا ما أردنا ذكره بالنسبة للكبد الذي هو أحد خادمي القلب أما الخادم الثاني

فهو الرئة

• الرئة

اعلم أن الحكيم جلت قدرته جعل الغم باب الجسم يدخل منه الطعام والشراب والواصلان إلى المعدة أسفل الحجاب الحاجز في الجهة اليسرى من البدن ويدخل الهواء أيضاً منه إلى الحنجرة إلى القصبة الهوائية المتفرعة فرعين داخلين في الرئتين اللتين وضعهما الحكيم جلت قدرته في الصدر وهما عبارة عن أنسجة كالاسفنج تتخللها تلك الشعب الدقيقة الحاملة للهواء . ودخول الهواء في الرئتين يحدث بحركتين شبيهتين بحركة التنفخ إحداها حركة الدخول بانتفاخ الصدر المسماة بالشهيق والأخرى حركة خروج بالانقباض المسماة بالزفير ولكل منهما حكمة عجيبة . أما حركة (الشهيق) فيها يدخل الهواء في الرئة وقد علم في المكتشفات الحديثة أنه مركب من خمسة عناصر وهي الأكسوجين والأزوت (النيتروجين) وحمض الكربونيك وبخار الماء والأرغون

وهو عنصر استكشف حديثاً وحمض الكربوليك عبارة عن كربون وأكسوجين وأدرجين فالعناصر البسيطة له خمس وهي :

(الأكسوجين والأزوت والكربون والادروجين والأرغون) فيقابل الدم هناك بواسطة الدورة الدموية .

الدورة الدموية

عملت فيما ذكرنا آنفاً أن خالص الغذاء يصل بعد نضجه في الكبد وصيرورته دماً إلى الكبد وتقال الآن أنه يترشح بالدورة الدموية وذلك أن القلب مقسم أربعة أقسام مجوفات فالنجوفان الأعلى هما الأذنان والسفليان هما البطينان والدم إذا تقابل مع الهواء في الرئتين وهو مسود المزاج متغير أخذ من الهواء مادة الأكسوجين لتعطيه الحرارة التي بها الحياة واعطاه المادة الفحمية وهي الكربون إذ الدم إذا أعطى كل عضو ما يستحقه بالحرارة الغريزية والتفاعل العجيب في الجسم فلا جرم تتخلل فيه أجزاء فحمية دخانية تعكره مع تركه ما فيه من المواد الصالحة للغذاء في الأعضاء فقد أخذت الأعضاء من الدم الجيد وأعطته الخبيث فانظر هذا العجب العجيب كيف دخل الهواء فأعطى الدم ما فقده في الأعضاء وهو الأكسوجين وأخذ منه تلك المادة الفحمية فيصفو الدم ويذهب إلى الوريد الرئوي إلى الأذين الأيسر فالبطين الأيسر بواسطة فتحة بين الأول الذي هو أعلى والثاني وهو الأسفل ذات صمامة تفتح وتغلق سريعاً على حسب الانقباض والانقباض بنظام محكم عجز عنه مهندسو القناطر وغيرها ومن البطين الأيسر يخرج في الأورطى وهو يوزع الدم في البدن كله بتقدير محكم فيعطى الغليظة غليظاً والدقيق دقيقاً والكبير كثيراً والصغير قليلاً . ولولا هذا لكانت العين كالرأس والرأس كالعين والأنف كالرجل والرجل كالأنف حكمة قد حيرت من يبصر

وهناك يؤدي مادة الحياة والغذاء إلى تلك الأعضاء فيصير لحماً وعظاماً وعروقاً واربطة وشرايين وأوردة وعيناً وأنفاً وفماً ونحاً وظفراً وجمالاً وحسناً وبها وبهجة ، فانظر كيف

صار التراب حسناً وبهجة . وكيف أصبح الجماد حيواناً وانساناً (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) ثم يذهب ذلك الدم الباقي مادة سوداء في تلك العروق الشعرية المنتشرة في الجسم الآخذة للدم الصافي عن العروق الكبرى الوريدية المعطية الدم الأسود للعروق الشريانية ومنها الى الاجوف الذى هو مجتمع العروق الشريانية إلى الأذين الأيمن ومنه ينزل الى البطين الأيمن بصمامة كالمتقدمة فى الأيسر ويندفع منه الدم الى الشريان الرئوى المتفرع الى فروع داخلية فى الرئة وهناك يتقابل مع الهواء الجوى وهكذا يدور دورات لانهاية لها (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) واننى ليعجبني ان هذه الآية ذكرت فى مسألة دوران النيرات العلوية ، فانظر كيف ذكر هناك التقدير وان ذلك كله ليسير بمقادير معينة وأوضاع محكمة وما أشبه العلوى بالسفلى بل ما أشبه الانسان الصغير بهذا العالم الكبير

ولبنا نقول هذا من باب التقليد وانما نقوله علماً وفهماً فتأمل معي أيها الأخ فهأنت ذا رأيت هذه الدورة ونظامها المحكم فقارنها رعاك الله بسير الكواكب التى يحدث منها اظلام وضاءة أليست كالليرة الدموية وان جرى الدم فى الجهة الشريانية اليمنى كالليل وفى الجهة الوريدية اليسرى كالنهار اذ الأول دمه خال من مادة الحياة والثانى فيه الغذاء والحياة وانه لو انقطع التنفس لحظة لوقفت حركة الدم ومات الانسان كما ان الكواكب لو وقفت لحظة لفنى العالم فالحركة فى العوالم كلها لا تنتهى . طبع العالم على الحركة علوية وسفلية

ألست تشاهد الرياح فأنت تراها تتحرك يمينا وشمالا وقد قال علماء الطبيعة ان هناك رياحا دورية تجول فى الجو كما تدور الدورة الدموية وكما تدور الكواكب حلق ببصرك قليلا واجل طرفك فى الماء ودورانه ألست تجده فى البحار الملحة فالسحاب فالأرض فالنبات فيتبخر فيصير سحابة فيرجع ثانياً وينزل فى البحر الملح . أليست هذه كلها دورانا متشابهة

تأمل في الطعام فانك تراه ينقسم الى قسمين أحدهما يصير دماً والآخر ينزل فضلات من الانسان والحيوان ويجعل سماً ويطرق ثانياً وهكذا حتى يرجع فيصير دماً أو ينزل الى الخارج وهكذا فما من شيء الا وهو مستعد دائماً للترقى ومهما سفل فانه يرجع كوة أخرى طالبا العلو

ولقد علمت ما ذكرناه في الصفراء الذاهبة مع البنكرياس الى الاثنا عشرى وماهى إلا افراز من الكبد ذهبت إلى الطعام تهضمه حتى يصير دماً آخر .

فيا عجباً كيف كان كل ما لفظته الطبايع يرجع لها فيصير نافعاً فلولا الصفراء ماتم هضم الغذاء ولولا براز الحيوان وبقايا النباتات ما نما نبات ولما كانت الحياة رديئة (كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآياتٍ لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وكما خلقنا فيها وبعيدنا ويخرجنا فهكذا يفعل مع كل ما رأيته في الكائنات وكأن هذه الآيات لفت لأولى النهى والألباب الى هذه البدائع المعجبية

وتأمل ثم تأمل كيف رأيت الصفراء التي هى ألطف من الفضلة الغليظة جعلت طابخة خالصة الغذاء في الجسم أما الفضلات الغليظة فخرجت لتصلح النبات الذى هو في غاية البعد عن الانسان فله الحكمة البالغة .

ولعمرك أيها الأخ ما هذه الكائنات كلها إلا طالبات للترقى الى الأعلى فهناك مقالاً حسناً .

تأمل في التراب كيف يصير نباتاً بتلك الأسمدة من فضلات الحيوان والانسان وبقايا النباتات فينمو حتى اذا بلغ حصاده درس وازيل المحمول وهو غذاء الانسان عن الحامل وهو غذاء الحيوان كالتبن وتأمل كيف كان الأعلى للانسان والأسفل للحيوان في نحو البر عدلاً وحكمة واتقاناً للصنع .

واذا فصل البر من التبن فانه لا يصلح للدخول في جسم الانسان وإنما يحتاج الى صناعات نحو ما يفعل به اذا دخل الجسم أعضاء الهضم فانه يفريل ليفصل منه بقية

المادة الغريبة ثم يطحن ويفصل منه المادة غير المقصودة . فمن وقت حصاده الى نخله تعمل فيه اعمال لفصل مالا لزوم له فاذا تم ذلك لم يصلح لدخوله الجسم وهو على هذه الحال . وهذه الاعمال هندسية من حيث كميته . أما كيفيته فلا بد له من عجن وخبز وبعد ذلك يصلح للأكل فاذا تمت أفعال الهضم داخل الجسم صار بعضه انساناً سمعاً وبصراً وحركة وبعضه صار مبدأ لانسان آخر مثله وبعضه مادة تسمد النباتات أو يأكلها الحيوان فها هو غذاء الانسان صار انساناً حياً ومبدأ انسان سيحيي وغذاء لحيوان أو نبات وكل واحد من ذلك يرجع الى الترقى كما صار اليه الارقى وهو القسم الذى صار سمعاً وبصراً وعقلاً وهكذا فتأمل فى هذه السلسلة من ابتداء كونه تراباً الى نهاية كونه انساناً فلما كان نباتاً عامت ان الأعلى ذهب الى ما ذكرنا واما الأسفل وهو التبن فانه أكل الحيوان أو منفعة للانسان أدنى من الأكل كأن يجعله وقوداً أو دخلاً فى البناء

فانظر كيف كانت الأشياء موضوعة مواضعها والجاهل لا يعقل لها معنى وهذا من ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله لسيدنا ابراهيم اذ قال : (وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) فهذا حق الايقان واليقين الذى يرينا كيف يكون النظام ثم غذاء الحيوان طبعاً ترقية له ويحصل فيه اتقسام كاتقسامه فى بدن الانسان فمما يصير حيواناً سمعاً وبصراً وذوقاً وشماً ومنه ما يكون مبدأ لحيوان آخر ومنه ما يخرج فيصير غذاء للنبات وكل واحد من هذه يترقى الى المرتبة التى فوقه

فتأمل بعقلك كيف كانت جميع هذه المواد طالبة للرفعة والتنقل من أسفل إلى أعلى وكلما صارت تراباً رجعت الى العلو ولا تظن من التعبير اننا نقصد انها هى التى تطلب فانه غير معقول وانما نقول نظاماً وأحكاماً وحكمة عالية دبرت هذه المواد وبرهنت للعلماء والحكماء على حسن الابداع وجمال الصانع وغرابة أفعاله حتى أدهشهم وحيرتهم وكلما زادوا تعمقاً فى البحث ازدادوا شوقاً واستطلاعاً وازدادت الحقائق تقصياً واستبعاداً

ولقد ضرب رئيس المجمع البريطاني في آخر القرن التاسع عشر مثلاً لذلك (فقال كان الأقدمون يقولون إن الهواء بسيط وآخر اكتشاف وصلنا اليه أنه من خمسة عناصر فأصبح كل عنصر يحتاج الى بحث وحده ولعله مركب من عناصر وهي مركبة من أخرى الى ما لا يتناهى فيها هو ازداد العلم وتباعدت الحقائق) ويقرب من هذا أن نعيم الجنة لا يتناهى وهو يتزايد كلما امتد الزمان كما أنه بالعلم بازدياده تزداد الاشواق وتبتعد الحقائق ثم تأمل في سوق النباتات وجذوع الأشجار وفضلات الحيوان التي قلنا انها منافع للانسان في خارج جسمه أو للحيوان في أسكله اذا احترقت فانك ترى ناراً ودخاناً ثم ناراً صافية ولعمري انها تعبر عما يؤول اليه حال الرماد الباقي إذ هو مستعد تمام الاستعداد الى الدخول في جسم النبات ثم يترقى في زمان طويل أو قصير الى أن يصير حيواناً أو إنساناً ألا ترى أن النار الخالصة من شائبة الدخان كانت نهاية الاحتراق فهكذا يرتقى الى النور الخالص والعقل في الانسان وكأن النار في شيوها تمثل حركة نمو هذه الحوادث وتشير بلطف خفي الى رقيها من أحسن الى أشرف . وهنا نكتة لطيفة وهي أن مركبات العناصر تارة لاتقبل النار اذا كانت في مرتبة الحجرية والثرابية فاذا ترقت نباتاً قبلتها وتدمج فيها بدرجات مختلفة على حسب المواد الزيتية قليلة أو كثيرة الى الزيتون فاذا ترقت حيواناً قبلت الاحساس مترقياً فيها من أسفل الى أعلى الى مرتبة النبوة التي هي نهاية العقول فلذلك ضربت الأمثال للعلوم والعقول بالنور (الله نور السموات والأرض مثل نور كمشكاة الآية) ويشير اليه قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً)

وهذه العناصر في الترقى مختلفة فمنها ما يطول أمده ومنها ما يقصر على حسب ما يصادفها في سيرها ومنها ما يرجع الى أول أمره ثانياً وهكذا ومتى وصل العنصر الى النهاية رجع ثانياً وانحل الى أسفل وقام غيره . قامه في الدخول في جسم الانسان القائم بالخلافة . فأنت ترى أن المستضعف منها السافل هو الذي يأخذ في الترقى وأن ما وصل الى النهاية رجع الى أسفل سافلين كما في قصة ابن افعى الجرهمي وأبناء نزار وقولهم ان

الشراب تغذى من جسم ميت فاذا هو أبوه فقد صار جسم الانسان غذاء نبات بعد انحلاله الى عناصر .

وههنا جواهر

(الجوهرة الأولى) ان سنة العالم الترقى مهما عاقته العوائق وهكذا النوع البشرى يترقى فى مدنيته فى الدنيا والشخص الواحد يترقى بعد موته فيما هو فيه . ومن هنا نفهم أنه كيف استدل على البعث بهذه الآية وهى قوله تعالى (ياأيها الناس إنا كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نُخْرِجُكُمْ طفلاً ثم لتبأغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُخَيِّبُ الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) فانظر هذه الآية كيف استدل بها على البعث أليس ذلك لتشابه العالم وأن أوله كآخره فى سنن الترقى .

(الجوهرة الثانية) ان سنة الكون وان كانت كلها فى الترقى فهى تختلف فى تعريج سيرها واليه الإشارة بقوله مخلقة وغير مخلقة ثم أعقبه بقوله لنبين لكم إذ السير ليس متحداً بين أنواع السائرين

(الجوهرة الثالثة) ان الذى يصل الى النهاية هو الذى ينزل الى أسفل سافلين من العناصر ويقوم غيره مقامه ومن هذا يعلم أن الأمة المستضعفة هى المستعدة للترقى الى أن تصل الى نهاية العزة وتقوم مقام غيرها ألا تراه تعالى يقول (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً وتجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض) ويقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

وهذا حقيقة مقتضى العدل وسنة الكون لا تجد دولة تبقى أمداً طويلاً فللدول

أعمار وآجال كاعمار الانسان وآجاله اليها تنتهى وتقوم أخرى مقامها .
 (الجوهرة الرابعة) لما علمت ان سنة الكون هي الترقى وان المستضعف هو الذى
 يرفى فاليأسون أغبي الجاهلين ولذلك قال (أَنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ) فكل أمة تيأس من الترقى فقد دلت على جهلها بنواميس الكون
 ووقوعها فى مهواة الانحطاط ودرك الخسران فى الدنيا . أولا يرون ان دوران العالم كله
 كالدورة الدموية فى الجسم التى نحن بصددھا فبينما يكون الدم وريديا اذا هو شرياني
 فيرتفع تارة وينخفض أخرى وهكذا نجوم السماء وماء البحر وكذا الجو

(الجوهرة الخامسة) إن الآية المتقدمة مذكورة فى سورة الحج ومن العجيب ان
 الحج عبارة عن أعمال مخصوصة من العبادات فى مكان يحجه أى يقصده جميع المسلمين
 من أقطار الأرض ويجب على القادر أن يحجه فى العمر مرة فتأمل كيف ناسب الوضع
 الدينى نواميس الكون إذ كلها تنتهى الى نقطة واحدة وهو الترقى وان اختلف سيرها
 بطئا واسراعاً فهكذا الحجاج يذهبون لمكان واحد وان اختلفت المسافات قربا وبعداً
 بل الدين كله عبارة عن قصد الى رقى النفس وان اختلفت العبارات وتنوعت الاشارات
 وتباينت العقول .

(الجوهرة السادسة) من المدهش العجيب ان البعث الذى استدل عليه الله
 سبحانه وتعالى بالآية المتقدمة الدالة على ترقى الكون يناسب تمام المناسبة لسنن ترقى
 العناصر ألا ترى ان الصراط يختلف مرور الناس عليه فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من
 هو كالنجم وهكذا الى من يمشى على بطنه فهناك اختلاف فى السير من باب ضرب
 الأمثال كما اختلفت العناصر فى سيرها لتترقى وهكذا الحجاج والعباد على اختلاف
 طبقاتهم فيبين الحج والبعث وترقى العناصر مناسبة فلهذا استدل به الله تعالى فكأنه
 يقول ها أنتم أولا شاهدتم سير العناصر فى الترقى من نقطة وعلقة وهكذا الى أن تصير بشراً
 سويا وسنتنا واحدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا فأنتم هكذا
 تترقون فى عالم آخر ولقد وضعنا لكم سننا تسيرون على مقتضاها عبادة وعلمنا ترمز
 الى ذلك « أَفَلَا تُبْصِرُونَ »

(الجوهرة السابعة) هذه الحركة المستمرة في الدورة الدموية ونظائرها في الكواكب والماء والعناصر تستفز الانسان الى التشمير عن ساعد الجد والنشاط فمن وقف عن الاستطلاع الى المعالي لحظة واحدة فهو جاهل بسنن الكون حائد عن الوجهة التي خلق لها أولا يرى ان الحركة عامة في جميع الكائنات حتى الذرات الصغيرة بل لولا الحركة ما أمكن التجاذب الذي به حفظ النظام فأية أمة أو انسان لم يفقه ما خلق له ولم يجتهد في الاعمال النافعة المرقية له ولأتمته فجزاؤه السقوط في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . وليغالب عقبات الدهر وتقلبات الحوادث مستعيناً بمن سن هذه القوانين قارئاً (إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(الجوهرة الثامنة) الدورة الدموية تجري بنظام محدود وقانون لا تتعداه وبهذا السر دام الكون كله فمن لم تكن أوقاته كلها مرتبة وكذا أمكنته وعلومه وأعماله فهو من الأخسرين اعمالاً (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَنَعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) ولا ريب ان من الآيات المذكورة حسن النظام في جميع ما يدور في العالم .

(الجوهرة التاسعة) ربما يظن ان موت فلان وحياة فلان وتحرك الأشجار وتمايل الأغصان وهبوب الرياح بلا نظام حسب ما يصادف من الأحوال وترى الدم في العروق الشعرية في الجسم كأنه ساكن وهو يزيد وينقص بالاتفاق . ومن علم ان الدورة بنظام فلا جرم ان ما نتج عنها بنظام تبعاً لها وإنما كثرة الفروع التي لا يمكن عدها حتى كان كل عضلة من عضلات الجسم مركبة من عروق شعرية لا تكاد تحس أوجبت عدم تمييز الدورات فيها وتمييز النظام وقس عليه ما ترى في الماء والعناصر والتفرق والاجتماع والموت والحياة كل ذلك بمقدار تابع لنظام السموات السائر بقوانين محدودة (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

(الجوهرة العاشرة) سير هذه الدورة والدورات المناظرة لها بنظام ينتج منه العدل وبيانه اننا لو نظرنا كوكباً من الكواكب سائراً في جو هذا الأثير فبالله أي نقطة

أولى به من الأخرى وكل نقطة يجب أن يكون ملازماً لها الكوكب فتعارض أمران بقاء الكواكب في موضع واحد دائماً أبداً من حرمان النقط الأخرى من الدائرة منه وصيره في جميع النقط واحدة بعد الأخرى مع ان كل واحدة منهن تطلبه لها دائماً فلم يمكن الا أن يمر بالنقطة الواحدة حيناً بعد حين ويمر جميع نقط الدائرة . وان سألت عن العدل لم تجده سوى هذا فقد حصل دوام الوجود في كل نقطة ولكن وقتاً بعد وقت ووفيت كل واحدة قسطها من الكواكب ومثل هذا ما نحن فيه من الدورة الدموية والرياح والماء والعناصر فبين النظام والعدل مناسبة تامة وهذا هو المعبر عنه بقوله تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان فتي فهمت هذا الكتاب عرفت مقصود الميزان والعدل والقسط المذكور في قوله تعالى (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم)

فيا ليت شعري ما للنفوس البشرية معرضة عن ادراك كنه ما حولها من الكائنات (الجوهرة الحادية عشرة) واذا عرفت أن سنة الكون انما هو العدل فيجب علينا أن نعدل في جميع أقوالنا وأفعالنا بأن نضعها في مواضعها اللائقة ونحكم بين الناس بالعدل كما شاهدنا في الكائنات وعلى طبقها جاءت اشارات الكتب السماوية

هذا ما خطر بالبال عند ذكر الدورة الدموية أثبتته ليكون تذكرة لى ولاخ صادق الرغبة في العلوم

ولقد أطيننا في هذا المقام لغرابته وحسنه واذا قد عرفنا وظائف الكبد والرئتين الخادمين للقلب الخادم للدماغ وقد قدمنا ان القلب وحركة الدم فيه وضعت لبقاء الشخص فلندكر الآن ما به بقاء النوع وهو أعضاء التوليد التي بها يلد الانسان والحيوان والنبات مثله

أعضاء التوليد

قضت سنة الكون ان الأشخاص تفنى ولا يبقى الا الأنواع رحمة من واضع هذه النواميس وعدلاً . ألتست ترى ان هذه المادة التى منها صنع هذا الكون كما علمت مما قدمنا فى مواضيع من هذا الكتاب — مادة بسيطة خالية من كل نقش وصورة أدركتها العقول ولم تتجمل للحواس إلا فى جلايب الصور والأشكال وأنت أيها الذكى ترى ان الأشكال لا تنتهى عدداً فبحقك قل لى أى صورة أولى بالمادة من الأخرى ، أليست كل صورة لها الحق أن تكون فى المادة فتساوت جميع الصور بالنسبة لها فى الحق فكانت كل واحدة يجب أن تنفرد بالصورة وحدها دون ماعداها ومن جهة أخرى فالصورة الواحدة اذا تشكلت بها المادة كان الواجب أن تبقى أبداً لا بدلين ودهر الداهرين فلا يموت انسان ولا يذبح حيوان ولا يحصل تغيير البتة .

فلما تعارض هذان الأمران حكم ذو العدل والميزان والقسط اللطيف الخبير منظم الأعمال فأوجب أن تلبس المادة صورة بعد صورة وشكلاً بعد شكل بحكم النظرية الأولى فكان الموت والحياة والزرع والحصاد ودوران الأفلاك وهذه الحركة العامة . ثم أخذت خلاصته من الصور لىبقى مثلها فتفنى الأشخاص وتبقى الأنواع فنوع الإنسان مثلاً يموت اشخاصه ولكن يبقى نوعه وبقاء النوع بحكم القضية الثانية فبقاء الأشخاص لثلا يحصل الاجحاف وبقاء الأنواع ليكون لها نوع من البقاء فهذا هو الامكان المذكور فى قول الغزالى ليس فى الامكان أبدع مما كان .

ولعمرك لولا الموت والحياة والزرع والحصاد لبطلت الحركات وسكن الكون ووقفت الكواكب وتحطم الكون كله واليه الاشارة بقوله : (الذى خلق الموت والحياة) (هو يحيى ويميت فاذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) فتأمل كيف عبر بلفظة قضى اشارة الى ما علمت فى النظريتين السابقتين

واذا علمت هذا فلنذكر كيفية التناسل فنقول : إن السم اذا غذى أعضاء الجسم

وأخذ كل قسطه منه بقيت هناك مادة تتحول الى منى فان الغذاء يطبخ أولاً في الجهاز الهضمي وثانياً في الكبد وثالثاً في الأعضاء ورابعاً تصير البقية منياً يتم نضجه في عروق تحت العناية تعينها الأثنان فاذا تم النضج أخذت تطلب الخروج الى ما خلقت له الى الرحم بواسطة عضو التناسل فيفعل الإنسان فعل الطبيب بالمريض . فكما أن الطبيب لا بد له من عقاقير وآلات يديرها بها ومن تلك الآلات ما هو متصل به تمام الاتصال وهو اليد ومنها ماله به نوع اتصال وهو المبضع الذي به دخول الدواء في جسم المريض فكذلك الرجل آتته في تدبير مادة التناسل هي تلك العروق تحت العناية مع مساعدة الأثنين وهي قائمة مقام اليد في الطبيب وآتته في ادخال تلك المادة هي آلة التناسل بها تدخل المادة في الرحم وهي قائمة مقام المبضع وكلاهما في المرتبة الثانية في العمل . فالمبضع بعد اليد المحركة للدواء المعطية له قوام ما يليق بالمريض والعروق التي تحت العناية أعطت لمادة التناسل قوامها وشكلها بتدبير الحكيم العليم .

وكما أن الطبيب ليس له عمل الا ادخال الدواء في جسم المريض ثم تتم هناك أفعال الدواء ولا علم للمريض بها ولا دخل له بل ربما تتم أفعالها وهو ميت فكذلك الرجل متى وضع المادة في الرحم حصلت تلك الأفعال التي بها يتم خلق الجنين في الرحم ولا علم للرجل ولا للمرأة به كما أنه لا علم للطبيب ولا للمريض بما يفعله الدواء في الجسم .

واعلم أن ماء المرأة منه يخلق الجنين ومنى الرجل هو الذي يعطى الصورة فقط وما مثلها الا كمثل الأنفحة واللبن والخير والعجين فليس للأنفحة بالنسبة للبن إلا اعطاء الصورة فقط فيصير جامداً بعد أن كان سائلاً وهكذا الخير إنما يعطى العجين صورة الانتفاخ وخروج المواد التي يضر بقاؤها منه فهكذا منى الرجل يتوقف عليه تخلق الجنين .

فالولد إنما يخلق من مادة في رحم المرأة وان كنت في شك من ذلك فتأمل في دم الحيض أليس تراه ينقطع أيام الحمل أليس ذلك لتغذية الجنين ولا ريب ان

الغذاء به التوافق كما تشكل هذه المواد بهذا الهيكل فأنما يكون بحول مدة الرجل فيه واذن تخلق الأعضاء وتتشكل بنظم عجيب وسر غريب . وياليت شعري ما الذى ينتش تلك الصورة فى داخل رحم المرأة ونحن لا نرى نقاشا لا داخل الرحم ولا خارجه حتى صنع العين والحوار والاصداغ والنظر والانف وتقويسه والثغر وحسنه والثنايا وبريقها ورقتها والشفة ودقتها وما الذى أوجب تناسب الأطراف فجعل مد اليدين يساوى طول الانسان وان الطول والعرض متساويان وانهما ثمانية أشبار وما الذى أوجب تلك النسبة ثم ما الذى قوس الحاجبين لم نر قلما يسطر ولا نقاشا يهندس هذه هى العجائب التى حارت فيها عقول الحكماء

وياليت شعري ما المناسبة بين منى الرجل وبين هذه الاعاجيب وهل هو الذى ساق المواد الى ما تصلح له فأعطى العين مع رقبتها والأذن مع دقتها والمخ مع لطفه والاتخاذ مع غلظها والعظام مع جمودها المواد الصالحة لكل بحسبه فالمواد الداخلة فى عنصر الدم مختلفة كثيرة على حسب اختلاف الأعضاء ثم توزع بعد الدخول فى الرحم الى ما اريدت له ذلك تقدير العزيز العليم

فهذه العظام تدخل فيها المادة القصفورية التى تعجن مع مواد أخرى وتوضع على أعواد الكبريت وبها يوقد الناس وهى التى يظهر ضوءها من منافذ المقار عند تحلل العظام فى القبور فهذه المادة فى مواد الغذاء كيف تخرج من الدم وتذهب الى العظام وهكذا حدقة العين كيف تذهب اليها المادة الزجاجية المشابهة لما تصنع منها العدسات . ان هذه لحكمة حار فيها العقلاء وان أردت المزيد فعليك بما سطرناه فى كتابنا ميزان الجواهر فاذا فصلت الأجزاء تميز القلب أولا ثم أخذت الأعضاء فى التفصيل وآخرها وجود أعضاء التناسل وبها يتميز الذكر عن الأنثى وهذه عامة فى نوع الانسان وهكذا الحيوان فترى الذكر والأنثى منفصلين ولما كان الحيوان أقل شرفا من الانسان واضعف تركيبا وجد بعضه وليست وظيفة الذكورية كاملة فيه كبعض الاسماك تبيض انشاء فى أنثى الذكر فينزو على البيض فيصيب بعضه ولا يصيب الآخر فهى ذه وظيفة الذكورية لم

تتل تماماً كما في الحيوانات العليا وكما في الانسان . ثم بعض الحيوان يتحاك الذكور مع الانثى فينزوان على بيضهما .

أما النبات فالذكر والانثى فيه غير متميزين تميزهما في الحيوان وقد علمت أن وظيفة الذكورة اعطاء الصورة ووظيفة الأنوثة تكون المادة فهامى ذه جميع الحبوب والنوى توضع في الأرض فتنبت وتخصر بما نالت من قوة الذكورة والأنوثة معا وهذا باعتبار ما عرفه الاقدمون وتأمل كيف أظهر الكشف تفصيلا أوسع وعلم أن النبات فيه ذكور واثاث تارة في نبات واحد وتارة في نباتين وتارة في زهرة واحدة وتارة في زهرتين (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) ولما كان من أعجب التدبير وأتم التفصيل ما رآه الناس في النبات من الذكورة والأنوثة أعقبه بقوله (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فالذكورة والأنوثة علم انهما واضحا في النبات كله وفي النخيل المعروف أمره من قديم قمرى الزهرة الذكر تعطى الزهرة الانثى مادة فيها فتظهر صورتها وتتخلق كما يتخلق الجنين ويبقى حيا أو نوى ويمضى زمان فيزرع ويخرج بما نال من القوتين المودعتين فيه . غاية الأمر أن الحيوان يحتاج الى الدقة والنبات بخلافه اذ يمكث جنينه مدة طويلة ويقرب من النبات الحيوانات التي تبيض وارفع منها ما تحمل وترضع فتأمل كيف كان أرفع المولدات شروطه أكثر ومقيداته أعظم لما أعطى من العقل والقوة وما كان أوسط كالدجاج جعل بيضه يبقى مدة قصيرة ليحضن وان زاد عنها فسد أما النبات فان ما هو بمنزلة البيض فيه وهى الحبوب والنوى تعطى مواد التغذية داخلة فيها كما فى البيض وتبقى أمدا طويلا شهورا بل سنين ثم تزرع فتخرج زاهرة ناضرة .

فالاقدمون عرفوا الذكورة والأنوثة فى نفس الحب والنوى ولم يعلموا ما سبب ذلك وكشفه المتأخرون

هذا هو الأجمال في تزواج النبات وإن أردت المزيد فعليك بكتائينا ميزان الجواهر وجواهر العلوم وأول هذا الكتاب أيضا فقد أودعناها ما يكفيك قراءته ولكن لا بد لنا من ذكر آية (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ) فذكر أولا عند التبصرة البهجة والتزواج وعمم جميع الاصناف وخصص في قوله جنات وحب الحصيد وعم الخلق كلهم في الرزق

فكانه يقول إن جميع النبات فيه تزواج ذكور وإناث مع بهجة وجمال وحسن وبهاء وهذه تكون ذكري للخواص لا للعوام فبهجتهم تكون بكل نبات متى ادركوا حكمته وما فيه من العجب . وأما كافة الناس فإن رزقهم يكون من أصناف معلومة كالجنات وحب الحصيد والنخل ذات الطلع النضيد . فهذه أمور مشتركة بين جميع الناس الخاص والعام ولم يذكر معها بهجة ولم يخصصها بأحد ولم تعم جميع النبات أما في الخواص فقد أشار إلى أن رزقهم التبصرة والتذكر والتعقل الراجعة إلى البهجة وإدراك الجمال والحسن والرواق فلذلك ذكر في جانبهم البهجة أما هؤلاء فلذاتهم أمور حيوانية إذ الأكل مشترك فيه الحيوان والنبات والإنسان . وإدراك الجمال لاولى الألباب الذين عرفوا ماهي لذتهم وما الختف بهم وما هو جمالهم وبهاؤهم وأشراقهم وبهجتهم . فلعمرك إن معرفة قوة الذكورة والأنوثة من أغرب ما يدهش العقلاء ويحير الحكماء في أصناف النبات والحيوان والإنسان فانظر كيف يخلق الرجل والمرأة متشابهين في الخواص والأعضاء ما عدا عضوى التذكير والتأنيث وهكذا في القوى والإدراك إلا في أمور تميز فيها الذكور عن الإناث فأعضاء الحركة والتحرك في الرجل أقوى منها في الأنثى وهكذا الحرارة فيه أقوى منها وما كان من الصفات قوة وشدة فانها في الرجل أقوى وما كان فيها من رحمة ورأفة فهي في الأنثى أقوى وأما فيما عدا ذلك فيتقاربان ويحصل اختلاف واتفاق على حسب الأحوال

أبداع غريب وحسن وضع وترتيب في الكبد والرئة والحواس

ليعزني قارىء كتابي هذا سمعاً وليصغ الى ما أقول الآن ولينا جى بضميره وليدخل معى فى عباب هذا البحر من العلم ولينظر الرئة والكبد وترتيبهما مع المواد العنصرية فياليت شعرى اننا نرى ماينفع الانسان اما غاية فى اللطافة أو الكثافة والأول هو الضوء والثانى عناصر طبقات الأرض المكونة للنبات . واما متوسطة بينهما وهذا المتوسط اما أقرب الى اللطافة وهو الهواء أو الى الكثافة وهى عناصر الماء .

ثم تأمل كيف كانت هذه الأقسام الأربعة موضوعة بترتيب درجاتها فالأثقل فى أسفل وهى الأرض وما يقرب منه فوقه وهو الماء ويليه عناصر الهواء ويدخلها من فوقها الضوء اللطيف الذى لا وزن له وانما هو حركات فى الأثير آتية من الكواكب سارية فى هذه الأجسام الشفافة اللطيفة للمناسبة .

هذا هو وضع مايحيط بالانسان والانسان فى وسطها كأنه جنين يحيط به الهواء المتدخل فيه كرات الماء (البخار) وفيه الضوء ومن تحته الأرض فهذه كلها محيطة به احاطة الرحم بالجنين فى بطن المرأة ليتبين للعلاء تمثيل احاطة الرأفة من ذلك المبدع بهم وكيف تمثل احاطته بالناس وما مقدار تحببه اليهم والذى يهمنى الآن أن ننظر لوضع جسم الانسان وترتيبه ومقارنته بها فنقول :

هذه المعدة تحت الحجاب الحاجز فى البطن ومعها الامعاء وكلاهما فيه الطعام يطبخ والكبد يأخذ مارق وراق ولا يدخل لهذه الأعضاء مما حولنا الا المواد العنصرية الأرضية الثقيلة مع الماء وماتركب منهما ، فانظر كيف وضعت هذه المذكورات أسفل لمناسبتها لما تأخذ منه (الأرض والماء) وتأمل كيف وضعت الرئة أعلى وأخذت من الهواء اذ هو أعلى من سابقه فما هذا التناسب العجيب فما كان فى البطن فادته الأرض والماء وهما أسفل وما كان فى الصدر فادته الهواء وهو أعلى منهما ثم انظر أيضاً فى الحواس

الخمس فانك تعلم ان حاسة اللمس وان كانت تعم الجسم كله يتمكن اعتبار اليد هي التي بها الاحساس اعم من غيرها لانها تمر على الجسم كله فيمكن اعتبارها عضو الاحساس .
واللسان للذوق والانف للشم والاذن للسمع والعين للأبصار فكل واحد منها وضع بازاء ما يناسبه وهالك البيان . اللمس يكون للمواد الغليظة الثقلية وغيرها فلذلك عم الجسم كله واليد جعلت أسفل من الحواس الأخرى لأن عملها في الاحساس انما يغلب في المواد الأرضية والمائية والذوق وضع في اللسان لأنه لا يذوق كل شيء وانما يختار بعض ما يتمكن بخلاف اليد فهي تبشر كل شيء . والذوق خلاصتها فلذلك وضع أعلى في النعم للطف ما يذوق نوعاً وانه خلاصة لما يلمس باليد والانف فوق الاثنين لأنه عضو الشم ويأخذ المواد اللطيفة بواسطة الهواء فلذلك كان يشم القريب والبعيد ويحتاج الى العناصر الدقيقة المتخللة في الهواء فهو أرفع من حاسة الذوق . وأقرب الى حاسة السمع التي تسمع الأصوات وهي حركات في الهواء لا دخل للعناصر فيها ولا مواد تخللها وتسمع من بعد كثير فهي أرق من حاسة الشم ووضعت في الجانبين اللذين هما أقل من المقدم الذي فيه البصر لأنه لا يرى الا بالضوء ويميز الاشكال والصور والألوان والأضواء (الآتية من الكواكب المناسبة لوضع العين فهي أشرف وأعلى) والقرب والبعد والصر والكلب فهو أشرف الحواس لارتفاع مكانه وسدّة تمييزه وحس ما به أبصاره فهو مقدم بالمكان والشرف والرتبة على سائر الحواس ويرى من بعد عظيم الى مسافة مئات ملايين من الفراسخ والكواكب ذات البعد الذي يعجز الانسان عن تقديره وهذه لم تصلها حاسة غير النظر

ولاريب ان كل حاسة تميز على بعد أكبر فهي أشرف وانعكس بالعكس فتأمل كيف كانت حاسة اللمس وهي أسفل لا تحس الا بالملصق ويلبها الذوق ويعلو عنهما الشم فالسمع فالبصر وبالجملة فكل حاسة تميز بأربعة مميزات المساعدة المستعملة هي لها وقوتها في إدراك القريب والبعيد ومكانها في الجسم ووضعها بما يناسب ما تستعمله فهذه من حكم وضع جسم الانسان العجيبة التي ترفع أن ينالها من يضع أوقاته

فى اللعب واللهو ومن يشغل الاوقات باظهار مسئلة عرفها ليفتخر على الاقران فمثل هؤلاء يظنون أن المقصود من العلم إنما هو غلبة الاقران فى المجالس والتظاهر ولم يعلموا أن نفوسهم تطالبهم كل آونة باشباعها من هذه الحكم الغريبة المودعة فيما حولهم من الكائنات فياليت شعرى كيف يقر لعاقل قرار اذا لم يعرف حكم هذا الكون التى تركت فطاحل العلماء والهين بها صاغرين أمامها فرحين بما آتاهم الله من فضله قارئين (فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

أولم يروا أنهم يأسفون على الحياة اذا لمعت لهم بارقة من بوارق العلم ويتأفون حسرة على ما فرطوا ثم يرجعون لاهين على عاداتهم (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض إن نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء)

وهاك حاسة أرقى من هذه التى هى مشتركة بين طوائف الحيوان والانسان وهى حاسة العقل ولذلك كان اتصالها بالدماغ أعلى من الجميع مستخدماً لما يرد عليه من هذه الحواس بقوته الآتية من عالم فوق عالم الكواكب وهو الجمال العقلى يرتفع عن الأجسام ومخالطتها إذ أنت ترى أن الحواس قد حكمت على جميع ما نشاهد حتى أضواء الكواكب فلم يبق لقوة العقل إلا عالم فوق ما نشاهد وإلا فلا عقل ولا عوالم واذا كانت هذه الحواس كل منها له مواد بها اشتغاله وهى تمدّه فما الذى به صرنا عقلاء وما مادته وبهذا وحده تظهر قوة العقل ويعلم أن له عالماً يستمد منه يناسبه تمام المناسبه عبر عنه الأقدمون من اليونان بالعقول العشرة وعلماء الديانات بالملائكة يخافون ربهم من فوقهم ويناسب ما نحن فيه بعض المناسبه تكسير الخليل الأصنام ونظره فى الكواكب حتى وصل الى الشمس ثم استدل على المبدع (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً) . وآية النحل (أولم يروا الى ما خلق الله من شئ يتفياً^٤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون والله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم

وَيَقْعُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وقصدنا من هذا موازنة ما يذكر في الكتاب السماوي بما أدركته العقول فوجدنا اتحاداً بينهم ما فهذا الخليل نظر من الأسفل إلى الأعلى إلى الأصنام ثم الزهرة والقمر فالشمس وما وراءها إلى ما فوقها وها هي ذه الآيات الأخرى ذكرت فيها فيها الظلال للأشباح الأرضية ثم السموات والأرض الشاملة للسبب والمسبب ثم ما فوق ذلك من العالم الذي يستمد منه العقل المناسب له فتأمل ألت ترى بين هذه كلها تناسباً تاماً

ثم ان هذه الحواس مرتبة أيضاً من أسفل إلى أعلى من حيث الوجود إذ الجنين أول ما يخلق توجد له مادة التغذية فالخس فالذوق فالشم فالسمع فالبصر فها أنت ذا تراها مرتبة من أسفل إلى أعلى وجوداً ومن أعلى إلى أسفل شرفاً وترى كل ما كان أسفل كسليم لما هو أعلى على الترتيب الطبيعي في الوجود من جعل الأسفل مقصوداً للأعلى وهل بعد البصر إلا العقل الذي هو المقصود الحقيقي المستمد من عالم ليس بمادة وإذا تكبر البصر عن الاستمداد من المادة وإنما استمد من الضوء وهو أرفع منها قدرًا فما جالك بالعقل ومن هنا نفهم قولهم الله منزّه عن المادة ونعلم كيف يكون البقاء بعد الموت وإن إلى ربك المنتهى . ومن هنا نعرف قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وقال (الذي أحسن كل شيء خلقه وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) فكأنه يقول كل شيء في العالم حسن والإنسان أحسن العالم تقوياً لأننا بدأناه من طين ثم ترقى بهذه الأوضاع في المواد المختلفة بحكمة عجيبه حتى استحق أن يلهم العقل الذي يستمد من عالم المجردات (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) وهذه الآية ذكرت في قصة يوسف عند مسألة صواع الملك وما ترتب عليه من السياسة الموجبة لاجتماع شملهم وحضور أبويه وأخوته ليعلم مالوك الأرض كيف يحتالون في السياسات وهكذا وضع ألف سياسة في وضع جسم الإنسان وأخراجه من المواد للينة إلى أن صار في أحسن تقويم ، وهذا هو أعجب سياسة تحويل عناصر مينة إلى عاقل متعلم متصرف (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

فآخر ما وصل اليه الإحساس في البدن تلك الأضواء الآتية إلينا من الكواكب التي هي آلة الضوء في الإحساس وهذا الضوء أمره عجيب جداً فانه حار فيه عقول الحكماء قديماً وحديثاً فان العوالم التي نشاهدها إما اجرام واما اعراض وهذا الذي نسميه ضوءاً الا ندرى أى شيء هو فان كان جسماً عارضه اننا إذا أقفلنا المكان الذي فيه الضوء أو توارت الشمس بالحجاب أو غاب الكوكب ذهب النور وهذه تخالف صفات الأجسام اذ الجسم يبقى في المكان بعد ذهاب واضعه فاما ذهابه بذهاب سببه فلم يعد قط فاذن هو ليس بجسم وإن قلنا انه عرض فما لنا نراه ينتقل من مكان الى مكان وكيف ينتقل العرض إذ الأعراض كالبياض ، والسواد ، والطول والقصر ، والحسن والجمال ، لا تتحرك بنفسها وانما تتحرك بغيرها وإذا لم يكن عرضاً ولا جسماً ، فما هو اذن ولما رأي الا قدمون هذا التعارض قالوا انه يخلق بمجرد مقابلة الكوكب لما أمامه ويكون ظهور الكواكب سبباً عادياً خلقه وجعلوا هذا ليخلصوا من تعليله ، ثم جاء حكماء الافرنج وفرضوا انه حركات في الأثير وهو هذا الموجود الذي لا يدركه الحس وانما أدركه العقل فاذا قابل الكوكب المريآت تحرك الأثير الذي لا يرى بحركات سريعة لا يمكن إدراك كنهها تبلغ في الثانية الواحدة مئات الآلاف، فهذه الحركات ينشأ عنها هذا الضوء الذي نراه بأبصارنا وهذا الغرض الذي تخيلوه لم يجعلوه آخر الآراء وانما فرضوا ذلك لحل المشكلة مؤقتاً حتى يجعل الله لها سبيلاً آخر في المستقبل وهأنذا تعلم أن الأثير ألطف من المادة وهو شيء أقرب إلى المجردات فبالأولى تكون حركاته ألطف وأبهج ولذلك ترى الضوء أمامنا أجمل شيء نراه حتى حمل الصابئين على عبادة الكواكب والمجوس على عبادة النار لما فيها من النور فياليت شعري ما للناس أصبحوا سكارى وماهم بسكارى ولكن الشهوات شديدة والآلام المعنوية عديدة ، ها هوذا الضوء ينادى جميع الأمم يوبخهم انهم لم يعرفوا كنهه بل حاروا في ظواهره ونواميسه التي بها تدرك العين الموضوعه طبقاتها وضعاً غريباً فهي من مواد زجاجية أشبه بالرمل وما معه من مواد الزجاج ويتنوع هذا النور فيها تنوعاً سنأتى على تفصيل بعضه فيما

بعد والذي تختاره في ترتيب العوالم ما أشرنا إليه من أنها تأخذ في اللطف من أسفل إلى أعلى حتى تصل إلى الضوء وهو وسط بين الأجسام والمعنويات وبه تدرك الابصار وتراه داخلها فيما لا يدخله الهواء نشدة لطفه جداً فإذا تراقينا عن العين رأينا الدماغ وهو مناط الروح والإدراك واذن يجدر بنا أن نتكلم على علم النفس انتهى المبحث الأول في ظواهر علم التشريح من مباحث الطائفة الثالثة وهم علماء التشريح .

المبحث الثاني

فيما يهم من حقائق علم التشريح

اعلم أني قبل أن أصل إلى هذا المقام اطاع على ما تقدم بعض العلماء فقال : هذا حسن ولكنه تشريح مجمل
فها فصلت بعض الأعضاء المهمة تفصيلاً فأين أنت مما كنت أسمعه من أساتذتي إذ كانوا يقولون أن الجسم كالآلة البخارية ولا جرم أن الآلة البخارية لا بد لها من وقود والوقود مختلف الأنواع والأوصاف فمنه الجامد مثل الفحم الحجري والنباتي والخشب والحطب ومنه السائل كالبتروول والبنزين ونحوهما ومنه المواد اللطيفة التي لا تراها العيون كالكهرباء ، فكل هذه وقود لتلك الآلات ثم إنها تختلف أحوالها باختلاف ذلك الوقود جموداً وسيولة ولطافة وكل واحد من هذه الثلاثة أصناف وأنواع كثيرة وعلى مقتضاها تكون الآلة وتكون نتائجها وإذا غنى هذا الإنسان بهذه الآلات أفلا يعتنى عناية أشد ويهتم اهتماماً أكمل بآلة جسمه وهيكله فيدرس أنواع الطعام للإنسان القائمات مقام أنواع الوقود للآلات علماً منه أن حوال الأجسام الإنسانية تختلف تبع اختلاف طعامها كما تختلف أحوال ونتائج الآلات الدائرات لطحن أو خبز أو رفع ماء ونحوها باختلاف أنواع وقودها
وليس اجتهد الأطباء في شفاء الأمراض بمنغن فتيلة عما يجب على العلماء القائمين بثقافة الأمم العامة من بحث الأغذية بحثاً عاماً محافظة على الصحة وإبقاء للأجسام

صحيحة حتى لا يقع الناس في المرض فيعوزهم الطبيب
أن الأطباء شغلهم معالجة الامراض واحضار الأدوية ودرس العقاقير وابتادة الحيوانات
الذرية تارة والاحتراس منها تارة أخرى عن النظرات العامة في حفظ الصحة — إذن
هذا العمل مختص بأمثال هذا الكتاب من كل كتاب عام لمؤلف يعيش لنفع الجمهور
ولا ريب ان كتاب نظام العالم والامم كتاب علم حريص أشد الحرص على
الثقافة العامة وأى نوع من الثقافة العامة أهم وأجدر بالعناية من أنواع الغذاء

ثم انك ذكرت بعض الأعضاء الباطنة ولم توضح أشكالها ولم ترسم صورها مع
انك قلت في كتابك الجواهر في تفسير القرآن ان هذا الزمان أنسب الأزمنة لظهور
الحقائق اذ يقول الله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) وهذه الآراء
لن تتم إلا بالمشاهدة والمعاينة التي بها أيقن الخليل عليه السلام

فهل رسمت لنا الجهاز الهضمي وأوضحت تقسيم أنواع النبات والحيوان المتقدمات
في هذا الكتاب على تلك المصانع المعدة لتلك الأطعمة في الجهاز الهضمي حتى يعرف الناس
ان هذه الأطعمة المنتشرة في الأرض مقسمات تقسيما منظما على تلك الهواضم المختلفة
في الجهاز الهضمي وان هذا وذاك كتاب مفتوح يقرؤه العلماء ويعقله الحكماء ثم ترسم بعد
ذلك الجهاز التنفسي الذي له السلطان على الدائرة الدموية ثم ترسمها وترسم الجهاز العصبي
الذي له السلطان على القوة الفكرية وقوى الذكر والحفظ والخيال والعقل ، وهناك
يحق لك أن تنتقل الى الباب السابع الذي فيه العلوم والمعارف وعلم النفس أما الآن فلا
قلت له : نعم سأفصل الكلام في هذا المقام تفصيلا واجعله في ستة فصول :

الفصل الأول في ان جسم الانسان كآلة البخارية الفصل الثاني في ذكر ما أجمع عليه
أكابر أطباء عصرنا من الأغذية النافعة والضارة حتى يسهل على أهل العلم أمر التغذية
وتقل الأمراض وتطول الأعمار اذا أراد الله ذلك الفصل الثالث في بيان ان هذه
الأغذية مقسمات على ما في الجهاز الهضمي من آلات الهضم المختلفة الفصل الرابع
في بيان الجهاز التنفسي الفصل الخامس في الكلام على الدورة الدموية تفصيلا الفصل
السادس في الكلام على الجهاز العصبي

الفصل الأول

من البحث الثاني

في أن جسم الانسان كآلة البخارية الطاحنة

من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن عند آية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) في سورة الأعراف في المجلد الرابع وهذا نص ما اختصرته منه :
ان البدن الانساني كله قوامه الهيكل العظمي وأهمه العمود الفقري الذي ينتهي بالجمجمة الكاسية للمخ الذي تتفرع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة وفي هذا العمود الفقري تفرس الأضلاع المنحنية المكونة لما يشبه صندوقا يحتوى على القلب والرئتين وتحت هذا الصندوق البطن وفيه المعدة والأمعاء والكبد والكليتان . ثم أن هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى فبالرجلين نسعى لجلب الطعام وباليدين نتناوله ونضعه في الفم وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواخين التي صنعها الانسان ليصلح أن يدخل في المرء الموصل الى المعدة فيستقر هناك زمناً ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دماً

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلاً لا بد لها من وقود . هكذا كانت أجسامنا فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود وما هو إذن هو الطعام . ان الجسم ليس موقداً توقد فيه النار حقاً ولكن فيه الطعام الذي يدفئنا بلا دخان ولا نار وينقلب دماً يجري في شراييننا فينتشر من القلب الى جمجمة الرأس وإلى نهاية أصابع اليدين والرجلين ، وما القلب إلا كالطلمبة الماصة الكاسية فهو يجذب الدم اليه ثم هو يدفعه دائماً ولن يدوم القلب في حركته التي لا نعيش إلا بها إلا اذا استوفينا شروطاً لا بد منها لتلك الدوام فضلاً عن الطعام كالهواء النقي والضوء والرياضة البدنية . اذا تم هذا كله فان الفضلات لا بد من إخراجها وهي تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والأمعاء فبالجلد يخرج العرق وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون أى المادة

الفحمية وبالأمعاء تخرج الفضلة الغليظة ، ومعلوم أن السكيتين يأخذ الماء عنهما الخالبان وهما يوصلانه إلى أحد السبيلين ، إذا عرفت هذا وقت بما يوجب صحة بدنك ومضغت الطعام جيداً ولم ترفى ذلك أى ضرر فأنك تكون فى صحة جيدة ولكن لا يتم ذلك إلا بخمسة أمور وهذا بيانها .

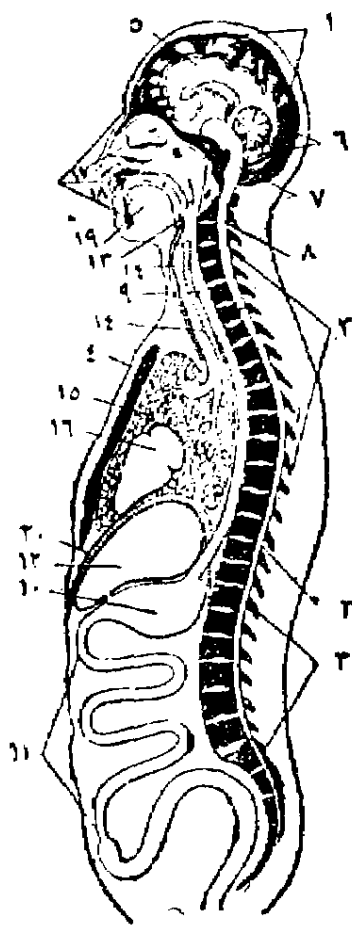
- (١) أن تكون مسروراً بما حولك وبعملك
- (٢) وأن تكون آراؤك وأمياالك موزونة لامضطربة
- (٣) وأن تكون قانعاً بما لديك من أمور هذه الدنيا
- (٤) وأن تكون صابراً عند الملمات والحوادث المزعجة
- (٥) وأن تجعل لك فى وقت فراغك عملاً مقبولا لأنك اذا تركت نفسك لحظة تنازعها الأهواء فضلت فأحزنك فمنعت الصحة

اعلم أيها الذكى أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت وإذا فقد الصحة الغنى والفقير فقد فقد السعادة والسرور ، فالصحة شرط للسعادة متى صح جسمك نفعت نفسك ونفعت غيرك وكنت سعيداً فإياك أن تأكل فوق الشبع مثلاً أو تعرض نفسك للبرد أو تأكل ما يضرك بل عليك بالنظام الذى يشير به الأطباء

ان الدم الجارى فى الأوعية الدموية يعوض ما تفقده كما تقدم فانه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شا كل ذلك فاذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والخبز عماد الحياة وقوامها فانه يحتوى على مادة اللحم والمادة التى تحدث فى الجسم حرارة ومن الأغذية الفاكهة والخضر والبن والبيض ، ثم أن الملح فى الطعام وبعض المعادن الأخرى التى تدخل فى الأطعمة كلها يتكون منها العظم ولا وصلت الى هذا المقام حضر صديقى العالم واطلع عليه وقال لقد شرحت صدرى ولكن يظهر لى انه يجب أن تبين بالشكل مجموع الجسم الانسانى حتى نراه بالعين وتوضح الكلام عليه بأكثر مما ذكرت لأن هذا المقام يعوزه الايضاح فقلت جاء فى كتاب الصحة تأليف الدكتور جون سايكس مانصه :

تركيب جسم الانسان

يجب معرفة تركيب الجسم باختصار ليسهل معرفة وظائفه :



(شكل ١)

قطاع عمودى لجسم الانسان
وفيه مجاورة الأعضاء بعضها البعض

يتركب جسم الانسان من الرأس والعنق
والجذع والأطراف .

فالرأس فيه المخ وجزء من النخاع وعصو
الابصار والسمع والتكلم والتذوق والشم ومنافذ
جهازى الهضم والتنفس .

والعنق فيه الحنجرة (وهى عضو الصوت)
وفتحة القصبة الهوائية وهذه عبارة عن أنبوبة توصل
الهواء من البلعوم إلى الرئتين وفتحة المريء وهو
عبارة عن أنبوبة خلف القصبة الهوائية توصل الغذاء
من البلعوم إلى المعدة . وفيه أيضاً العروق التى يصعد
فيها الدم إلى الرأس وفيه الجزء العلوى من العمود
الفقرى المحتوى على جزء من النخاع

والجذع مركب من جزأين علوى وسفلى :
فالعلوى هو الصدر وهو تجويف مخروطى الشكل
محدود من الخلف بالعمود الفقرى ومن الجانبين
والأمام بالأضلاع وعظام القص .

- (١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه مع الأسنان (٣) العمود الفقرى
(فقرات العنق والظهر والبطن) (٤) القص (عظام الصدر) (٥) قطاع المخ
(٦) قطاع المخيخ (٧) اتصال الدماغ بالجزء العلوى للنخاع الشوكى (٨) النخاع
الشوكى (٩) المريء (١٠) المعدة (١١) الامعاء (١٢) الكبد (١٣) لسان
الزمار (١٤) القصبة الهوائية والحنجرة (١٥) الرئتين (١٦) القلب (١٧) الحفرة
الانفية (١٨) تجويف الفم (١٩) اللسان (٢٠) الحجاب الحاجز .

والصدر محتوى فى الجهة اليسرى المقدمة على القلب والشرابين الكبيرة وعلى الرئتين وينتهى الصدر من الأسفل بالحجاب الحاجز الفاصل بين جزأى الجذع ويحترق هذا الحجاب شريان عظيم (الأورطى) والمرى، والوريد الأجوف السفلى والقناة الليفنفاوية . والسفلى هو البطن المكون من الأمام والجانبين من عضلات ومن الخلف منها ومن العمود الفقرى وينتهى من أعلى بالحجاب الحاجز ومن أسفل بعظام الحوض ويحتوى على الأعضاء الآتية وهى : الكبد والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والبنكرياس والطحال والكليتان والمثانة .

فالكبد يشغل الجهة اليمنى العليا من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة : والمعدة معظمها فى الجهة اليسرى العليا .

والأمعاء الدقيقة تملأ الفراغ أمام المعدة وأسفلها وطولها نحو ستة أمتار والغليظة تبتدى من أسفل الجانب الأيمن للبطن ثم تصعد نحو الكبد ثم تتجه إلى الشمال مارة أسفل المعدة ثم إلى الأسفل مخترقة الحوض وتنتهى بالمستقيم وطولها نحو متر وثمانية سنتيمترات .

والبنكرياس محله خلف المعدة .

والطحال محله فى الجانب الأيسر تحت الحجاب الحاجز .

والكليتان مجاورتان للعمود الفقرى واليمنى تحت الكبد واليسرى تحت الطحال والمثانة موجودة فى أسفل البطن أمام المستقيم .

والأطراف أربعة : الذراعان والطرفان السفليان ولا حاجة لشرح أجزائهما :

وظائف جسم الإنسان

وظيفة الجسم تتكون من وظائف أعضائه ، وهذه الوظائف تنحصر فى الحركة ودورة الدم والتنفس والهضم والافراز الداخلى والخارجى والادراك والحواس وانتظام الحرارة .

الحركة هي المميز بين الحى والميت ويلزم لاييجاد هذه الحركة سواء كانت عمومية أو قاصرة على بعض أعضاء الجسم (كحركة القلب والرئتين) مادة مركبة تحترق فى الجسم فيأخذ منها غذاءه ويفرز منها مالا يفيد ، فمثل الجسم فى حركته وتغذيته كمثل الآلة البخارية التى لا يمكنها أن تتحرك إلا بتغذيتها بالقصم فتنتفع بما يحترق منه وترمى فضلاته .

الفقد والتعويض — والحركة تنشأ عن تحليل وتركيب (تفاعلات) فى جسم الانسان وذلك بواسطة خلاياه أو الذرات الأصلية التى يتركب منها الجسم فلاحترق والاستحالة يحصلان فى الخلايا ومنهما تتولد حرارة الجسم ولو استمرت هذه الظواهر بدون غذاء لتحلل الجسم وفنى ولذا كان من الواجب لتقوية الجسم تعويض ما فقد من تلك المواد المركبة وذلك بواسطة الغذاء (المكون من مواد صلبة وسائلة وغازية) الذى يحمله الدم للخلايا .

وتأخذ خلايا الجسم وأنسجته الغذاء الضرورى لتموها ولإعادتها لحالتها الأولى وأوكسيجينها اللازم لحياتها من الدم عند وروده اليها ويتركها حاملا لفضلات غذائها مثل حمض الكاربونيك الناتج من الاحتراق . والدم يأخذ هذه المواد الغذائية من مصدرين وهما الهواء بواسطة الرئتين والغذاء من طريق القناة الهضمية فيحمل كل ذلك إلى جميع أجزاء الجسم .

الافراز إما داخلى أو خارجى

الافراز الداخلى : يوجد داخل بعض أجزاء الجسم فراغ منددة أغشيته على الدوام بمنفردات مخصوصة وذلك كالأغشية التى تبطن المفاصل أو التى تغلف القلب والرئتين وأحشاء البطن وذلك لسهولة حركتها . وأما أعضاء الافراز الحقيقية فهى الغدد من الكبد إلى أصغر غدة .

الافراز الخارجى : لا بد للجسم من مخلصه من بقايا وفضلات الغذاء وهذا لا يكون إلا بخروجها خارج الجسم كالماء الزائد عن الحاجة بواسطة الأمعاء والكلى والرئتين

والجلد ويصل إلى الأعضاء الثلاثة الأخيرة من طريق الدم ولذا سميت أجهزة الافراز .
ولسهولة الفهم يمكن وضع ذلك على شكل جدول كما هو آت :

اسم الجهاز	ما يدخل الجسم	ما يخرج من الجسم
الهضمى	أطعمة صلبة رطل ونصف انجلىزى ماء ... ٥٠ أوقية	براز ٤ أوقيات
التنفسى	أوكسجين ٢٨ قدما مكعبا	ماء نصف رطل حامض الكربونيك { رطلين تقريبا ١٤ قدما مكعبا
البولى	—	بولينا مواد صلبة { أوقية واحدة ما يقرب من ٥٠٠ قحه ماء رطلين
الجلدى	—	مواد دهنية

أجهزة الجسم هى :

- (١) جهاز الحركة ويدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الارادية وأوتارها ؛
- (٢) الجهاز الدورى وأعضاؤه ثلاثة : القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية ؛
- (٣) الجهاز التنفسى وأعضاؤه أربعة : الحنجرة والقصبه والشعب والرئتان ؛
- (٤) الجهاز الهضمى وأعضاؤه تسعة : الفم والأسنان وغدد اللعاب والبلعوم والمرىء والمعدة والبنكرياس والكبد والامعاء ؛
- (٥) الجهاز اللىنفاوى وأعضاؤه عروق الدم : الأبيض والأوعية البنينة والطحال وبعض الغدد ؛
- (٦) الجهاز البولى وأعضاؤه : الكلى والحالبان والمثانة ومجرى البول ؛
- (٧) الجهاز الجلدى وأعضاؤه : غدد العرق والغدد الدهنية والشعر والأظافر وطبقات الجلد ؛

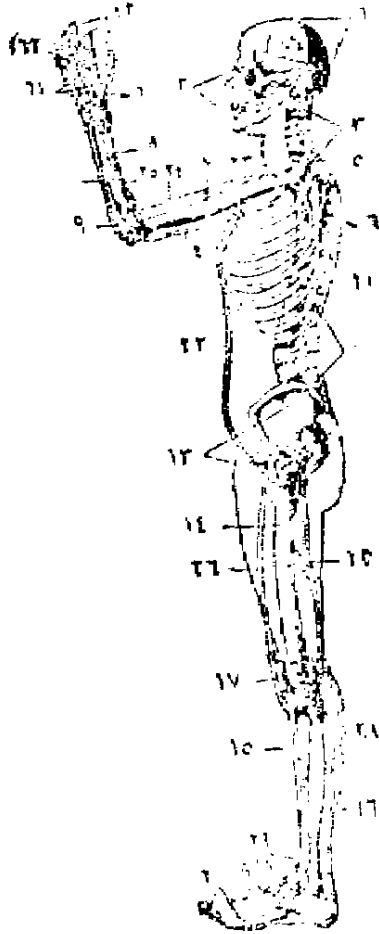
(٨) الجهاز العصبي وأعضاؤه : المخ والنخاع والأعصاب بأنواعها وأعصاب الخواص الخمس .

جهاز الحركة

يتكون هذا الجهاز من الهيكل العظمي الذي تتصل عظامه بعضها ببعض بواسطة المفاصل ومن العضلات التي تحركها وتحرك العظام .

الأطراف السفلى تحمل الحوض الذي يتصل بها وتحمل العمود الفقري الذي يحمل من أعلاه الجمجمة ويتصل به في جزئه الخلفي اثنا عشر زوجاً من الأضلاع وبذلك يتكون الصدر المتصلة به الأطراف العليا أنظر (شكل ٢)

حركات المفاصل تختلف باختلافها فحركات مفصل اليد مثلاً مخالفة لحركات مفاصل العمود الفقري ولا يمكن أن تقوم إحداها مقام الأخرى والمفاصل مغطاة بغضروف أو بما يشابهه ومبطنة بغشاء مندبى على الدوام بسائل لزج .



(شكل ٢) الهيكل العظمي

- (١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه (الفك السفلى والعلوى) . (٣) الفقرات .
- (٤) القص . (٥) الفقرة الأولى الظهرية . (٦) عظم اللوح . (٧) عظم العضد . (٨) عظم الزند (٩) عظم الكعبرة (١٠) عظام الرسغ (١١) عظام المشط (١٢) عظام الأصابع (١٣) الحرقفة (١٤) عظم الفخذ (١٥ و ١٦) عظام الساق (١٧) الرضفة (١٨) عظام القدم (١٩) عظام المشط (٢٠) نلاميات القدم
- (٢١) عضلات العمود الفقري (٢٢) العضلات المستقيمة للبطن (٢٣) العضلات المقدمة للرقبة (٢٤) عضلات الذراع (٢٥) عضلات الساعد (٢٦) عضلات الفخذ المقدمة (٢٧) عضلات الفخذ الخلفية (٢٨) عضلات الساق الخلفية (٢٩) عضلات الساق المقدمة

العضلات إرادية وغير إرادية :

فالأولى كعضلات الهيكل تتصل أطرافها بالعظام فتنتهي هذه متى انكشفت وتنبسط متى انبسطت وتدور حيثما دارت
والثانية لاتسلط للارادة عليها كعضلات القلب والمعدة والأمعاء .

الفصل الثاني

من المبحث الثاني

في الكلام على ما يوافق من الأغذية وما لا يوافق منقولاً ومختصراً من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن في سورة ص في المجلد الثامن عشر وهاهو ذا أقصه عليك فهو كاف لك أيها الذكي فإن آيت إلا التفصيل فارجع إلى ذلك التفسير وذلك في قوله تعالى : (فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وبيان أن بني آدم مثلوا قصة أبيهم فهام أولاء الذين يكسون ورق الموز في بلاد السودان في الرسم المتقدم في آخر سورة يس وتلك العراة هناك ، ويشابه الأولون آدم بعد الأكل من الشجرة والآخرين يشبهونه قبل الأكل منها ، وهام أولاء أهل المدينة الحاضرة كلهم يشابهونه لما طرد من الجنة ، وسرُّ تكرار هذه القصة في القرآن أن نحترس مما دفعنا إليه جهلنا بفوائد الخبز الذي لم ينخل دقيقه والخضر التي لم تطبخ وبفوائد ضوء الشمس وبضرر الإكثار من الطعام والتوابل وهكذا وبيان أن الطب الحديث وكشف الفيتامين قد أضافا إلى معجزات الاسلام معجزات جديدة ، فهاهو ذا الخبز الذي ينخل دقيقه وعدم طبخ الطعام هذان وردا في الأحاديث السابقة ، والعلم الحديث يقول : « إن الفيتامين أى قوة الحياة في النخالة وفي الطعام الذي لم يطبخ » إذن دين الاسلام ابتدأت تظهر أسرارها الآن ، وإذا كان الأمر كذلك فلنذكر ما جاء في كتاب

« دستور التعدية » المترجم عن علماء أوروبا وكيف يقولون « إن الانسان يمكنه أن يعيش مائتي سنة بحسب ظنهم ، وأن التداوى بالقاقير مهلك . وخير التداوى ما كان بالشمس . والحية وتدير الأغذية والمركبات الطبية مهلكة للناس . والطبيب قد يكون شرا من المرض »

وهناك أسلوب الدكتور هيچ و كانتاني وسوير وسكى وكوهن إذ يقول الأول « حمض البولييك هو أصل الشقاء . وهذا الحمض سببه ما يتخلف من الأغذية فهو يسد المسام . وأمر باقلال اللحم والبقول والعدس والبازلا والفاصوليا واللوييا الجافة والكربن والقنبيط والشاي والقهوة والكافور ومتى ترك الانسان هذه الأشياء وأكل الخبازى والاسفاناج والكربن والفواكه والبن والجبن والقنبيط صح جسمه » وكانتاني يمنع الدهنيات والسكر والنشا والخل والمخللات والبن والجبن يخالف هيچ فى هذين والأمراق والعجينيات والارز والبطاطس والحلوى والتوابل ويكتفى بالبيض والنباتات الخضراء والفواكه مع الحركة فى الهواء الطلق

وسوير ويسكى أمر بالفواكه أيضا والليمون والنباتات كالشكوريا والكهثرى والحماض والمهندبا والחס والكرفس والجرجير والفجل

ومثل هؤلاء كوهن فانه يمنع التوابل واللحم والأشربة المخدرة كالنبذ والعرقى والقهوة والشاي والنشوق والتبغ وهكذا الأبخرة الصاعدة من أمانها والغبارة وهو يقول باستعمال الحمامات الجلوسية مع ذلك الجسم بفوطه خشنة مبتلة والحمامات البخارية ثم ذكر ملخص لذلك

(الفصل الثانى) فى ضرب مثل لأجسامنا ودمها وغذائها وأمراضها بالأرض المصرية ونيلها والغرين الذى فيها . فالجسم كالأرض ، والسم كالماء . والغرين فى الماء كالمواد الغذائية فى الدم . والسدود فى النيل كسدود العروق وإزالتها بالحمامات أو بالبقول والفواكه النخ كإزالة السدود من النيل وكثرة الأورام والأمراض بسبب انسداد العروق كهلاك الزرع بقله الماء أو كثرتة فى البلاد المصرية . والانسان بعد

حفظ صحته أشبه بالأمة المصرية التي بلغت الآن (١٤) مليوناً والانسان إذا لم يحافظ على صحته يكون أشبه بالأمة المصرية قبل أيام (محمد علي باشا) إذ لم يكن للنيل قناطر تحفظ الماء فكان السكان نحو مليونين أو ثلاثة . فأنت أيها الذي إيماناً تكون كآدم قبل الأكل من الشجرة فتتبع نصائح الأطباء وأما أن أن تكون كآدم بعد الأكل من الشجرة فتتبع العادة ، إن سر هذه القصة ظهر الآن

(نصائح عامة) نصيحة الأستاذ (هند هيد) انه قال : « ان الناس يدفعون الأثمان عالية ولا يشتررون إلا الموت باللحم والبيض وقال : يكفى من المادة المغذية من (٢٠) الى (٢٥) غراماً بدل (٨١) في الرأى القديم وهذه تحصل من ثلاثة أرطال من البطاطس وقد أعطى هذا المقدار لرجلين مع أشياء أخرى فغلبا في الجرى من أكلوا اللحم ، إن الوفيات في المدن أربعة أضعافها في القرى لكثرة اللحوم في المدن ، والخبز والتمر يجعلان في البدن صلابة وقوة تدهش الاوروبيين »

(نصيحة دورفيل) يقول : « إن دولة قوة المصارعين الذين يأكلون اللحم قصيرة الأمد ، والذين يمتثلون شحاً بالأغذية الغنية إما أن يمرضوا بالبهثور ونحوها ، وأما أنهم تظهر عليهم علامات الصحة والجمال . فالمرضى هو القوى لأن جسمه صرف مافيه من الفضلات والذي لا يمرض هو الضعيف لأن جسمه عجز عن استخراج الفضلات وهذا يموت فجأة في عشية أو صباحها »

(ضرر الأغذية المركزة) لدورفيل أيضاً . يقول : « إن مستخرجات اللحم والأنبذة والبرشامات وما أشبه ذلك أشبه بضربة سوط للحصان يجرى ثم يقع »

(ضرر السكر الصناعى وفوائد الطبيعى) السكر المعلوم مهلك فيجب الاقلال منه . نعم الصغار تظهر عليهم ملامح الصحة واسكن ذلك لا يدوم فيجب أن يستغنى الناس بالفواكه عن السكر ولا فرق في الضرر بين السكر والخمر واللحم وهذه هي الأغذية الثلاث المميتة

نصائح الاستاذ بلز : متى نأكل وكيف نأكل ؟ يجب إطالة المضغ ونظافة الاسنان

وعدم شرب مائهو حار . والأحسن أن يضطجع بعد الأكل من نصف ساعة الى ثلاثة أربع ساعة . الفواكه والحبوب هي أجود الأغذية وأفضل الحبوب القمح ومثل الحبوب النباتات

نصائح دوفورست :

- (١) لا تأكل بين أكلتين ولو تفاحة
- (٢) لا تأكل بسرعة بل امضغ جيداً كل الطعام وأجد المضغ
- (٣ و ٤) لا تأكل غذاء حاراً ولا بارداً يرداً مفروطاً
- (٥) الأغذية الدسمة المقلوبة مضرّة
- (٦) احذر الفلفل والخردل والقرفة والقرنفل وجميع التوابل لأنها تحدث النزلات والأمراض
- (٧) الجبن وكل مخلل واللحم وما يستعمل نقلاً من الأجسام الدسمة المركبة ، كل هذا يجب منعه

الكلام على الفيتامين أى سر الحياة ، الفيتامين هو (ا . ب . ج . د) وهذه قد كشفوها فى الغذاء الطازج النيء . على حاله الطبيعية ، وقد حبسوا بعض الحيوانات فى مكان مظلم وأعطوها أغذية مطبوخة فصارت ضعيفة جداً ، فلما رأّت نور الشمس وأكلت الماء كل النيتة صحت أجسامها ، ووجدوا ركاب البحار الذين يأكلون طعاماً محفوظاً فى العلب مرضى لأن الطعام لا حياة فيه فأطعموهم أغذية نيئة وعرضوهم للشمس فشفوا ، ووجدوا أن مرض الأسقريوط شفى بالليمون المالح والبرتقال والخضر النيئة ولم يشف بشربات البرتقال ولا بالخضر المغلى على النار ، وثبت ثبوتاً لا شك فيه أن الأغذية النيئة هي المشبعة بالحياة والزيوت النيئة كذلك ، أما التى مر عليها زمن أو التى غليت بالنار فانها لم تفد

الحبوب كالقمح والفلول والذرة اذا استعملت نيئة كما تأكل الحيوانات أعطت قوة جيدة جداً . طبيب روسى جرب فى مكتبه (٢٠) سنة تجارب فأعلن أن الانسان

إن أكثره (١) يفسد الريق (٢) ويضر حاسة الذوق والشم والبصر (٣) ويضعف المعدة (٤) ويقلل شهوة الطعام (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية فى الزئفة (٦) ويورث الخفقان فى القلب (٧) ويضعف الأعصاب (٨) ويجعل فى المخ ارتجاجا وتحديراً (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة (١٠) ويضعف القوة المفكرة (١١) وقوة الإرادة (١٢) وربما يحدث الجنون (١٣) وتارة يحدث الرمد فى العينين (١٤) وفى المجموع العصبى يجعل فتورا (١٥) ويعيق الجسم عن النمو . وقد حله الأطباء كيموايا فوجدوا أنه يحتوى على مادة سامة إذا وضع منها خمس نقط فى فم كلب مات فى الحال أو عشر نقط فى فم جمل كفت لقتله . وهاك حكاية ..

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطى التدخين فلم يزد المريض إلا غراما به فبينما هو سائر ذات يوم إذ رآه الطبيب يسعل وهو لا يستطيع المشى ولا أى عمل الا ببطء وقد أصبح يحمل العصا لتعينه فقال الطبيب له لقد صدق من قال (الذى يفرط فى استعمال «الطباق» لا يسرق متاعه لص ولا يعضه كلب ولا يبيض له شعر) فلما استفهم المريض عن سبب ذلك قال الطبيب لأنه يسعل الليل كله لمرضه فيظنه للص مستيقظا فلا يسرق منزله وعصاه التى يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب وهو يموت فى ريعان شبابه فكيف يبيض شعره وقد ضمه القبر فاعتبر المريض وتحمل فراق «الطباق» وعاش قرير العين اهـ

﴿ ويلحق بالدخان الأفيون ﴾

هو عصير الخشخاش يعصر منه قبل تمام شجره فاذا يبس تراه أسود اللون مر الطعم وهو خطر شديد يورث إخلال العقل ويهذى الانسان ولا يعقل مايقول . ومتى حلت هذه العادة الانسان أصبح فى عبودية لها لاتطاق ومثل ذلك أيضا ما يسمى

﴿ الحشيش ﴾

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول . وهو من نبات ينبت فى البلاد

الحارة . وتستعمله الطبقات المنحطة في بعض البلاد كبلاد مصر والحكومة ترقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالخس وهو سم مهلك لمن استعمله إلا من تاب . وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثلاً ينسج على منواله المسلمون وينشرون . مضار هذه السموم بينهم حتى يخرجوا من عداد المذكورين في قوله تعالى : — إنه لا يحب المسرفين — وهذا كله من الإسراف المذكور في الآية وأن هذا البيان الذي ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره فالسلم الذي يتعاطى الدخان أو القهوة أو غيرها مما هو أشد فتكاً كالشاي والخمر والحشيش والأفيون . أو أقل فتكاً مثل الكاكاو وغيره معدود من المسرفين ويقول الله تعالى : — إنه لا يحب المسرفين — ولما قل حب الله لنا بسبب تعاطى هذه المضار سلط علينا الأمم فهو لا يحب أكثرنا لجهلنا بأمرين القرآن وعجائب صنعه لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

من البحث الثاني

في بيان أن هذه الأغذية مقسمات على ما في الجهاز الهضمي

من الآلات المعدة للهضم بالفطرة

مختصراً مما جاء في سورة فصلت في آية (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً الْح) في المجلد التاسع عشر من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن وهذا نصه : سمعناك ياربنا تقول — وقدّر فيها أقواتها — . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات فوجدنا عجبا ! وجدنا أن أسبابها هي المشرقات العجيبات من الشمس والكواكب والأقمار . أدركنا الطرف إلى تلك المشرقات فالفيناها لانفتاح تلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل

فيه ولا خطأ ولا خلل . ورأينا صيفا وشتاء ، وربيعاً وخريفاً ، وليلاً ونهاراً كلهن بحساب . ثم أن الأنوار الواصلة إلى الأرض مختلفات ضعفاً وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدة النبات في الأرض فقلنا لعل الحساب في تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلا حساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكن لما نظرنا في أمر النبات وأخذنا نستقرى أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأينا موضوعاً أيضاً بدقة لأنه معمول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج في اليوم واليلة من الغذاء إلى مقدار أقله نحو نصف كيلو جرام وأكثره نحو كيلو جرام . وسيأتى تفصيل هذا المقام في أول (سورة الجاثية) فراجعه

رأينا أن الانسان يحتاج إلى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غير عضوية كالأملاح المختلفة والماء : والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطاً فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع ما يحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام النشاء (٤) كالورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كالورى ، فإذا كان في الطعام (٣) كيلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

(غذاؤنا لا بد فيه من مواد دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية)

فالدهنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه فى طعامنا ألفيناه فى النبات وفى الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء ، وتارة نكثر من الدهن ، وتارة نكثر من الزلال ، ثم اننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضاً فعرفنا أن ههنا حساباً موضوعاً بدقة لنستعمل ما يوافقنا منه بعد التروى والبحث والتنقيب . وهالك مثلاً لذلك :

(المواد النشوية)

رأينا المادة النشوية تكثر في الأرز والذرة والقمح والبرلة الناشفة والبقول الناشف واللوية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى السكرنب والطماطم والسبانخ والخص وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقل من عشرة في المائة مواد نشوية . ونرى البقول السوداني والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروة وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة في المائة .

(المواد الدهنية)

ونرى المواد الدهنية تكثر في اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهي في هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن في الديك الرومي والأوز والضاني والبقري والبقول السوداني والبيض أكثر من عشرة في المائة . ونراه في القمح والذرة والابن والبطاطس والبطاطة واللوية الخضراء وما أشبه ذلك قليلا جدا

(المواد الزلالية ، الآزوتية ،)

اننا نرى المواد الزلالية في الديك الرومي والأوز والفراخ والضاني والبقري والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والبقول السوداني والعدس واللوية الناشفة والبقول الناشف والبرلة الناشفة في كل هؤلاء أكثر من عشرة في المائة ، ونراها أقل من عشرة في المائة في البرلة المقشرة وفي السكرنب والطماطم وهكذا الى أن قلت نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حقا ويملؤها جمالا ويبهرها أنوارا

أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقتها للجهاز الهضمي بإسبحان الله . نرى الانسان يعوده في اليوم (١٨٠٠) سعر إذا كان في فراشه . وقد عرفنا ماهو السعر فيما تقدم قريبا أن الذي يحدثه في الجسم هو المادة الدهنية والنشوية

بيان مافى الرطل المصرى من المواد المغذية وذكر نموذج لها ٥٣

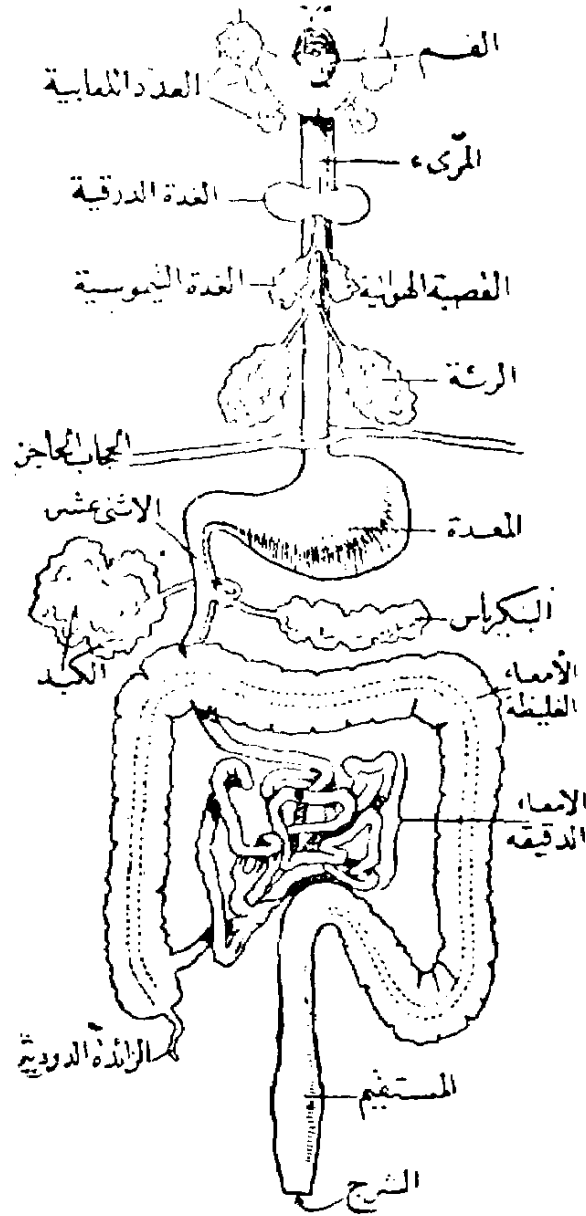
والأزوتية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر ان كان فى شغل شاق والى نحو (٣٠٠٠) اذا كان فى شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر فى الذرة والقمح والصنوبر والفول السودانى فماذا نجد ؟ نجد الجدول الآتى

القيمة الغذائية للرطل المصرى	نشوية	دهنية	آزوتية زلالية	ماء	الصنف
١٥٦٤	٧٤ ر ٨	١ ر ١	١٠ ر ٨	١٢ ر ٨	قمح
١٥٤٧	٧٦ ر ٣	٢ ر ٨	٩ ر ٩	٩ ر ٣	أذرة
٣٠٤٠	١٧ ر ٣	٦١ ر ٩	١٤ ر ٦	٣ ر ٤	صنوبر
٢٤٣٤	٢٤ ر ٤	٣٨ ر ٦	٢٥ ر ٨	٩ ر ٢	فول سودانى

انما اخترت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت فى مقدار السعر وفى المقادير الدهنية والأزوتية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى فى المادة الأزوتية والصنوبر فى الدهنية . والقمح والذرة فى النشوية وارتفع الصنوبر فى قيمة التغذية ويليه الفول السودانى وأقل منهما الذرة والقمح

هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية فى النبات ، ان كل نبات لا يخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفات كما يختلف الناس أوطاناً وقوى وأجساماً وقبائل وعادات فاختلفت النباتات كما اختلفوا . وهنا مدهشات وعجائب ! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمى للانسان مثلاً . أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التى تقدم وصفها فى (سورة يس) عند آية — سبحانه الذى خلق الأزواج كلها — يارب عجايب (انظر الموضوع هناك اذ ترى صور الورقات ، ووصف الحجرات فى كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوفاً وملايين فى الورقة الواحدة والمادة الملونة فى تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس فى اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا نرى

جذور الأشجار والزرورع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التي يتمثل بها النبات ، وفتحات هذه الأنايب هي مفاتيح سر النبات ، فتكون في الصنوبر غيرها في الفول السوداني غيرها في الذرة والقمح بحيث لو اختلت أو اضطربت فدخلت مواد تزيد في المادة الدهنية أو النشوية أو الأزوتية عما هو مقرر لكل منها لم



(شكل ٣) رسم الجهاز الهضمي

يكن في الأرض فول سوداني ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر ، فنظام هذا العالم نظام أدبي عجيب ، لو اختلت الأوراق في حجراتها أو الجذور في فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يعيش حيوان ولا إنسان قال تعالى : (وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) . والأمر الأعجب أمر الجهاز الهضمي (انظر شكل ٣)

تعجب لهذا الجهاز . انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة في النبات ، فكما نرى في كل نبات :

(١) مادة نشوية وتغلب في الحبوب كالقمح والشعير والأرز، وفي الخضروات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجذر والبنجر ، وفي البقول كالفول والعدس واللوبيّة والبزلة (الجافة)

(٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب في البقول واللحوم

(٣) ومادة دهنية وتغلب في الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور) هكذا نرى في هذا الجهاز المرسوم في الصحيفة السابقة :

أولا - (١) مصانع في الفم وهي (٦) ينابيع تهضم بعض المواد النشوية

(٢) وما بقي من النشاء بلا هضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه

المادة هضما (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

ثانيا - المواد الدهنية وهي تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ،

وثانيهما ما يفرزه الكبد من الصفراء

ثالثا - المواد الآزوتية وهي تهضم بالعصير المعدي والبنكرياس

المواد	الهواضم
النشاء	(١) لعاب الفم وهو يست ينابيع
الآزوتية	(٢) العصير المعدي
الدهنية	(٣) الصفراء
النشاء الدهنية الآزوتية	(٤) البنكرياس
النشاء	(٥) عصير الأمعاء الدقاق

فإذا نحن جاوزنا لعب الفم ألفينا عجا ! ألفينا التبتكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، وألفينا العصير المعدى والصفراء والأمعاء قدوزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعاً عادلاً فساعد كل مصنع في هضم مادة من المواد ، اذن لكل مادة نوعان من الهواضم اذا استثنينا لعب الفم ثل المواد النشوية

ههنا ننظر في ضوء الشمس ، وفي حجرات الأوراق ، وفي فتحات الأنايب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حساباً متقناً حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبحت في الجهاز الهضمي فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد التي عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجنور الشعرية

الفصل الرابع

من البحث الثاني

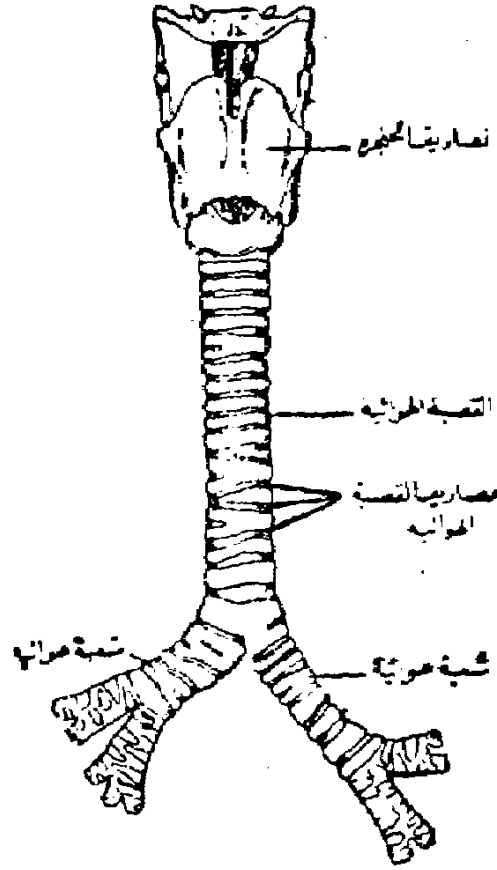
في بيان الجهاز التنفسي

أنت تعلم أيها الذكي ان ماتقدم من الأطعمة المشروحة في الفصل الثاني من البحث الثاني الذي نحن بصدد الكلام عليه من الأطعمة النشوية الدهنية والزلاية متى تم هضمها صارت خلاصتها دماً

وتعلم ان ذلك الدم لا بد له من اكسوجين الهواء وهذا الاكسوجين هو أهم مادة الحياة في أجسام الحيوان وقد دبرت له الحكمة العالية شهيقاً وزفيراً لادخاله واخراجه فوجب أن نبين جهاز التنفس (١) فنريك القصبه الهوائية (٢) والحويصلات الهوائية (٣) ونسيج القصبه الهوائية البطن لها لتعلم حسن صنع الله جمال الوضع وبهجة الابداع والرحمة والعناية (٤) ثم الرئتين وتفرع القصبه الهوائية فيها (٥) ثم نرسم الدورة الدموية ونشرحها في هذا الفصل أربع جواهر

(الجوهرة الأولى) القصبه الهوائية من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن المجلد

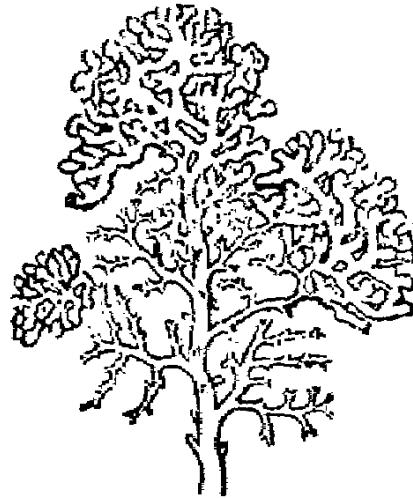
السابع عشر



(شكل ٤) القصبه الهوائية وفروعها

(الجوهرة الثانية والثالثة والرابعة) في الحويصلات الهوائية والنسيج الهدي.

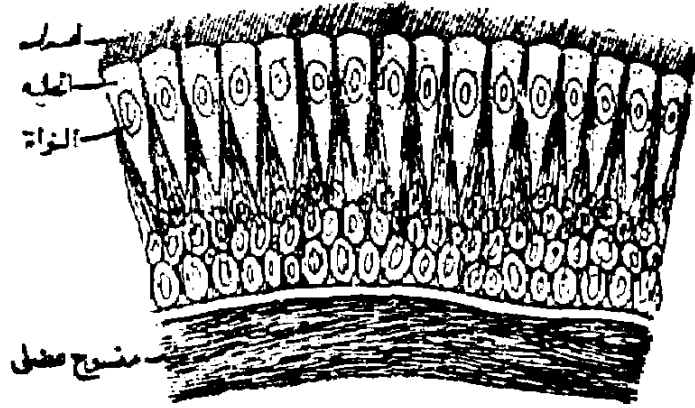
المبطن للقصبه الهوائية والرئتين وتفرع القصبه الهوائية فيها



اعلم ان القصبه
الهوائية تكون منها
شعبتان هوائيتان
وهاتان الشعبتان
يخرج منهما ما يشابه
الأشجار ويسمونه
بالحويصلات الهوائية
(أنظر شكل ٥)

(شكل ٥) الحويصلات الهوائية

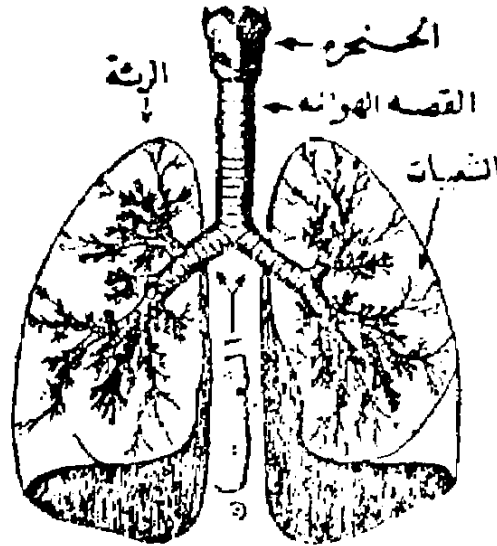
وعند تأمله في القصبة الهوائية يجد فيها الحكيم عجبا ! يرى نسيجا هديا مبطنا للقصبة (أنظر شكل ٦)



(شكل ٦) النسيج الهدبي المبطن للقصبة الهوائية

فيقول : « ما عمل هذا النسيج ؟ إن فيه لأهدابا وخلايا ومنسوجا عضليا » ثم يهتدى أخيراً إلى أن هذه الأهداب أشبه بالكناسين والزبالين لأنها دائماً ليلاً ونهاراً تتحرك من الداخل إلى الخارج ، لماذا هذا ؟ لتطرد الغبار الداخل مع النفس في القصبة الهوائية ، فهذه الأهداب حوافظ وخفراء تطرد الأجانب لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للمملكة الدموية ، فلذاب يرسل جنوده الدموية المهيكلة القوي المتعبة فتأني إلى الرئة فيقابلها الخدام والحفظة فينظفونهم ويحمون ماخالطهم من الأدران ويرمون به في الخارج فضلا عن امداد هؤلاء الجنود بالغذاء وهناك يسافرون الى الجسم كرة أخرى ويفعلون ما فعلوه سابقا ، وفي أثناء سيرهم يتقابلون مع جنود أخرى يأتون اليهم من الغذاء المهضوم النقي الذي تمتصه الشبكة الدموية في الامعاء ليكون عوضا عن السم الذي تمثل بالجسم ، فيقول ذلك الحكيم إذ ذاك : « كيف يفهم المسلمون آية (وَكُلْ شَيْءًا فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا) إلا بهذا وأمثله ، أو آية (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) أو آية (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا خَبِيرًا
(أنظر شكل ٧)



(شكل ٧) الرئتان وتفرع القصبه الهوائية فيهما

ثم يقول : « هاتان شعبتان هوائيتان قد تشعبتا في الرئة وهناك قابلا الأوردة والشرابين » هنالك يهوله الأمر ويزيد عجبه إذ يرى ما يشبه الأشجار التي في الحدائق قد نبتت من القصبه الهوائية وأخرى امتدت من القلب وتقابل الأعلى والأدنى من فروع وفريعات يماثل أداها أعلاها حتى يمكن الاقتباس والالتئاس والأعمال الكيميائية، وهنالك ينظر ذلك الحكيم نظرة أعلي فيقول : « ماهذه الغدد التي أراها على أنواع مختلفة فمنها البسيطة والأنبوبية والعنقودية »

والى هنا يقف القلم عن الايغال في هذا المقام ففيا ذكرناه كفاية ومن أراد الزيادة فليقرأ نفس الكتاب المذكور

الفصل الخامس

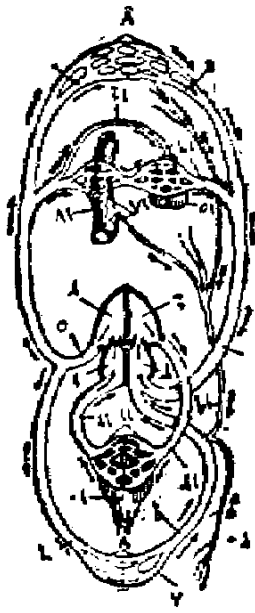
من المبحث الثاني

في الدورة الدموية

جاء في كتاب قانون الصحة المنزلية تأليف الدكتور (جون سايكس) مانصه :
القلب : هو عضو عضلي لا حكم للأرادة عليه فينبض وينبسط بنظام خاص
وله أوعية خاصة به وهو مخروطي الشكل ومغلف بغشاء وينقسم الى أربعة تجاويف :
العلويان منها يسميان بالأذنين والسفليان يسميان بالبطينين ففي الجهة اليمنى أذين
وبطين وفي اليسرى مثلهما ولا تتصل تجاويف جهة بالجهة الأخرى بل يفصل الجهة
اليمنى عن اليسرى حاجز عضلي ، ولكل بطين فتحة لها صمام يسمح بمرور الدم من
الأذين للبطين لا العكس ، ويذهب الدم الى أجزاء الجسم من البطين بواسطة عروق
تسمى بالشرايين

يمر الدم مرتين في القلب ليم دورته ففي المرة الأولى يذهب من البطين الأيسر
الى جميع أجزاء الجسم ثم يعود الى البطين الأيمن وهذه تسمى بالدورة الكبرى وفي
لثانية يذهب من هذا البطين الى الرئتين ثم يعود الى البطين الأيسر وهذه تسمى
بالدورة الصغرى (أنظر شكل ٨)

فتبتدى الدورة بمرور الدم من البطين الأيسر الى أكبر شريان (الأورطى)
ثم الى فروعه الكبيرة والصغيرة فالشعرية التي هي أدق أوعية الجسم ووظيفتها
تغذية خلايا الجسم وأنسجته ثم يرجع الدم بعد تغذيتها الى القلب بواسطة الأوردة
الصغيرة التي تصب في وريدين كبيرين يسميان بالوريدين الأجوفين (السفلى
والعلوى) وهذان يصبان في الأذين الأيمن حيث يمر الدم منه الى البطين الأيمن



(شكل ٨)

القلب والأوعية الدموية
وسير الدورة فيها

ثم منه الى الرئة وذلك بمروره في الشريان الرئوي وفروعه ثم يصل بعد اتصاله بواسطة الهواء الى الوريد الرئوي ومنه الى الأذنين الأيسر ثم البطين الأيسر أعنى حيث تبتدىء الدورة وهناك فرع آخر للدورة يسمى بالدورة الكبدية وهي أن الدم بعد مروره بفروع الأورطى البطنى لتغذية الأعضاء يجتمع في أوعية وريدية تصب في وريد أغلظ ولكن بعض الأوردة الآتية من المعدة والأمعاء والطحال والبنكرياس تجتمع وتصب في وريد واحد يسمى بالوريد الباب الذى يذهب الى الكبد ويتفرع فيها الى أوعية شعرية وهي التى يتكون من اتحادها بأوعية السكبد الأصلية الوريد الكبدى الذى يصب في الوريد الأجوف السفلى .

الدم - مكون من سائل شفاف مصلى يسمى (بالبلازما) ساجح فيه كرات صغيرة تسمى بالكرات الدموية وهي نوعان حمراء وبيضاء وعدد الحمراء خمسة ملايين عادة في المليتر المكعب من الدم والبيضاء من خمسة الى ثمانية آلاف والحمراء تحتوى على الأكسى هيموجلوبين الذى يحتوى على الأوكسجين والبيضاء أكبر بكثير من الحمراء ولها أشكال مختلفة

- (١) الأذنين الأيسر . (٢) البطين الأيسر . (٣) الأذنين اليمين .
- (٤) البطين اليمين (٥) الأبر أو الأورطى . (٦) فروع من الأورطى .
- (٧) الأوعية الشعرية . (٨) أوعية شعرية موصلة للأوردة . (٩) وريد .
- (١٠) الرئتين . (١١) الأوعية الشعرية الرئوية . (١٢) الوريد الرئوي .
- (١٣) الشريان الرئوي . (١٤) الشريان الكبدى . (١٥) الكبد .
- (١٦) الوريد الكبدى . (١٧) القناة الهضمية . (١٨ و ١٩) القناة الصدرية .
- (٢٠) الأوعية اللفاوية .

والدم إذا سال خارج الجسم يتجمد ويكون جلطاً دموية مركبة من الكرات الحمراء والبيضاء في شبكة من ليفية الدم وهذه الجلط مغمورة في سائل شفاف يسمى بمصل الدم

الأوعية — هي التي تحمل الدم وهي على ثلاثة أنواع : الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة . فالشرايين أنابيب مرنة تنقبض وتنبسط بمرور الدم فيها وبذلك تحدث النبض . وتنقسم الشرايين الى شرايين شعيرية دقيقة تغذى الجسم بما احتوته من الدم الأحمر وهذا الدم يتحول بعد الغذاء الى دم أسود اللون يتجمع فيما يسمى بالأوردة الشعرية ويمر منها الى أوردة كبيرة . وهذه الاوردة الاخيرة صمامات تمنع رجوع الدم الى الوراء .

القلب قصر يباهى ايوان كسرى

جاء في كتاب تنوير الأفهام لأستاذنا المرحوم علي مبارك باشا مانصه :
يا بني خذ عني قبل بسط الكلام على القلب رواية كنت سمعتها في حادثة سني وحكاية لم تغب عن ذهني وهي انه كان بأحسن مكان في سالف الزمان رجل مرفه الحال منعم بالمال كثير المال بغناه تضرب الأمثال حتى أجمع المقلون والمكثرون على انه أغنى من قارون لأنه عثر على كنز مشتمل من الجواهر والأموال على مقدار لا يعد ولا يكال وقد هجس بخاطره في بعض الأيام انه يننى لنفسه قصرأ يأوى اليه ويفخر به ايوان كسرى بحيث لا يكون له بين القصور نظير في حسن وضعه ورصانة بنائه وهندمته وزخرفته واتقان صنعه وأن يكون فيه من الفرش وباقي الأثاث ما يأخذ بالباب المذكور والانات ولا شك انه قادر على ذلك لأنه حائز من الدراهم على ما يدفع به كل محظور وتسهل به جميع الأمور

ولما قويت عزيمته على هذا المشروع استنفض اليه من جميع أقطار الدنيا كل من أتقن فن النقوش والعمارة وأظهر فيها الابداع والمهارة وذلك بما بذله من درهمه

وديناره وصرف همته في ليلة ونهاره فطلب منهم أن يرسموا لهذا القصر صورة بديعة ولا يلتفتون فيها الى ما يصرف على عمارته من النفقة فعمل له مهرة المهندسين عدة رسوم اختار منها أبدعها وأتقنها وأحسنها منظراً وأعجبها وحول العملة إلى قطعة معتدلة الهواء وأمرهم ببذل الهمة في وضع ما استحسنه من الرسم عنها فشرعوا في العمل بعد ما جلب لهم فوق كفايتهم من المرمر والرخام والأخشاب على اختلاف أنواعها وغير ذلك من المهمات ومكثوا على ذلك مدة يسيرة من الزمن فتم بناء القصر المذكور وجاء في اتقانه واحكامه على وفق مقصوده ومرامه هنالك نظاماً وزخرفه بالنقوش الفاخرة والفرش التي هي للعقول بأهرة وبهذه المثابة ظهر من حيز العدم الى حيز الوجود بديع الأوصاف متين العقود ماشاد مثله في جميع البلاد أحد من العباد وهو في لطفه غاية وفي ظرفه نهاية

لكن مع أنه كان نموذجاً للمباني الرفيعة ذات الصنائع المتقنة البديعة خرج عن شرط لا بد منه وأمر مهم لا غنى عنه غفل عنه المهندس وغاب عن فكر المؤسس وهو ان وضعه كان في أرض عن المياه بعيدة فكان ذلك موجبا لتكدر خاطر صاحبه وتبدل فرحه بالترح حتى كاد يتميز من الغيظ وانتهى به الحال الى كونه اهتم كل الاهتمام بحجاب ما يلزم من الماء الى هذا القصر فتشبت بالطرق التي يتأتى له بواسطتها أن يسوق اليه من المياه العذبة ما يجري حوله بالليل والنهار وبث جملة من المهندسين في عدة من الجهات ليبحثوا عن تلك المياه بغاية الالتفات وقد احتفلوا بما فوض اليهم وما أحيل من طرفه عليهم فعثروا بعد العناء والسكد على نهير صغير متباعد عن القصر بمقدار بعض فراسخ وفي الحال كروا راجعين اليه وعرضوا عليه نتيجة مشاهدته والتسوا منه أن يصرح لهم بجلب الماء الى قصره من هذا النهر فبعد أن ذهب عنه غضبه وزال ما كان يحده في نفسه من الغيظ أخذ بيده ورقة وكتب فيها للمهندسين هذه الشروط الثلاثة وهي :

أولاً — ان الماء لا يؤخذ الا من نفس أرضه

ثانياً — انه لا يزال جازياً ليلا ونهاراً في كل مكان من قصره
 ثالثاً — ان يكون كافياً جيد الخواص . ثم رعى اليهم بهذه الورقة وخرج من غير
 أن يتكلم معهم بكلمة واحدة فلما وقف عابها المهندسون تعجبوا مما جاء به فيها عما يدل
 على جهله وسخافة عقله وتشبهه بطلب الحال فتداولوا في مفارقتها بقصره والتخلي عنه
 وتركه يهيم في أودية جنونه وينفق أمواله كما يشتهي فيما لا يعود عليه بأدنى فائدة
 وبينما هم معولون على الانصراف إذ قام من بينهم واحد منهم وقال اعلمو يا اخواني
 ان العار يلحقنا لما نحصلنا عليه من العلوم والفنون وعجزنا عن القيام بما يفى بمرامه
 واني قد قدحت فكرتي في أثناء مداونتكم فعمرت على طريقة لائقة بهذا المقام وها أنا
 أشرحها لكم فأقول :

انني عند ما كنت مشتغلاً بالبحث مثلكم عما يحير خلل ما وقع منافي وضع القصر
 بقطعة أرض خالية من الماء أخذت معي رجلاً له خبرة باستكشاف المعادن والسيون
 ليرشدني إلى ما يأتني به حل هذه المسئلة الصعبة فدلني على قناة تحت سطح الأرض
 بين طبقتين من الطين يجتمع فيها ماء المطر وينصب في مستنقع يجاور للقصر إلا أن هذا
 الماء لما كان راكداً كرهه الرائحة غير نقي كان غير موافق للصحة وحيث ان القناة
 المذكورة قريبة من هذا المستنقع فلا شك انها تكون وافية بالمراد وان نحن توصلنا إلى
 ازالة ما فيها من العيوب انحلت المشكلات وسهلت الصعوبات وبلغنا المرام ووصلنا إلى
 المقصود وهذا الأمر لا يتيسر الا بعمل الماء جارياً وتعريضه للهواء ليصلحه ولقد وفقني
 الله إلى حل ذلك ووصلت إلى كشف الغطاء عنه فاستعمل طلمبة تصل منها بحار متعددة
 إلى جميع نقط القناة وتمتص منها الماء وبعد أن تجتمع في مجرى واحد غليظ منته برشاشة
 تكبسه بقوة فيخرج من خروق هذه الرشاشه في هيئة مطر رفيع النقط يجتمع كله في
 حوض معرض للهواء به طلمبة أخرى تبدأ بامتصاصه ثم تكبسه ثانياً في مجرى غليظ
 تنفرع منه بحار صغيرة متعددة بقدر عدد أمكنة القصر المذكور وبهذه المثابة يمكن
 الوصول بلا شك إلى مرغوب السيد المالك وحيث أنه لم يبق علينا غير صعوبة واحدة

وهي عدم كفاية ماء القناة لأداء جميع اللوازم فإن هذه الصعوبة يمكن إزالتها أيضاً بأسهل طريقة وهي أن نضع تحت كل بزبوز حوضاً صغيراً يخرج منه مجرى وظيفته توصيل الماء الساقط إلى الطلمبة الخاصة المعدة لامتصاص ماء القناة الأصلية فتمتصه في أثناء تشغيل الطلمبة ويرجع إلى حوض الهواء فتأخذ الطلمبة الثانية وتبعث به مع غيره إلى الأرض ثانياً وعلى هذا المنوال يستمر العمل فيكون كل ما أتى من القناة في كل دفعة فيه كفاية لأداء لوازم سكان القصر وحيث أنه يمكن في بعض الأحيان أن سكانه يحتاجون إلى غسل أيديهم وخلافها من البزاييز فيحدث من ذلك بعض أوساخ مضرّة بنقاوة الماء فينبغي لإزالة هذه المضرّة أن توضع مصاف في مجارى البزاييز ليتخلص الماء من هذه الأوساخ ويصير حوض الهواء نقياً

وبسبب استمرار الماء على الحركة في المجارى تضيع خواصه الأولية ويكون من الجودة في أعلى درجة بحيث لا يختلف عن المياه الصافية المعتادة بأدنى شئ فلما سمع رفقائه منه ما أتى به مما يتوصل به إلى بلوغ المرام فرحوا فرحاً شديداً ما عليه من مزيد وشكروه وأثنوا على أفكاره الجليلة ثم توجهوا بأجمعهم إلى صاحب القصر وأخبروه بما عثروا عليه وتوصلوا إليه وعرضوا عليه مشروعاتهم وبيّنوا له في الرسم المحل الذي توضع فيه الآلة اللازمة لتحريك المجارى العديدة المذكورة آنفاً فلما مثلوا بين يديه وأنشأوا ما بدا لهم إليه عبس في وجوههم وبسروا وقال لهم أنه لا يمكنني الاستغناء إلا عن هذا المحل وأشار بيده إلى خزانة ضيقة مظلمة لا تزيد سعتها عن بعض أقدام مربعة في ركن غير ظاهر من القصر واشترط عليهم أنه لا يجوز بسبب القرب من محلات السكنى أن يوقد به فحم ولا خلافه لما ينشأ عن ذلك من الوساخة وإن لا يوضع بمجوار هذه المحلات أفران أو قزانات أو نحو ذلك مما يترتب على وجوده ضجره وعدم راحته وتكدره من الدخان الذي يحدث منه تشويه قصره وكراهة الإقامة به وفزع من الحريق وانفجار القزانات وغير ذلك مما لا ينبغي وجوده بمحلات السكنى المذكورة التي لا يخفى على

أحد مقدار ما صرف على عمارتها من الأموال ثم ختم كلامه بقوله مخاطباً لهم انه لا يسوغ لكم أن تأخذوا إلا الخزانة الضيقة التي سبق التنويه بذكرها بشرط أن لا يقع منكم ما يحصل لى منه أدنى جزع ومما أحيطكم به علماً هو انى أكره الارتجاج الذى ينشأ من العجلات عند سيرها والصوت الذى يخرج منها فى حالة احتكاك أضرارها ثم تركهم وانصرف فحاضوا فى الكلام وأكثروا من اللفظ فى هذا الخصوص وتخيروا فيما يفعلون ليتحصلوا على الغرض المطلوب ، وانتهى بهم الحال إلى كونهم رجحوا الفرار عنه لما قام بنحواطهم من اصراره على تعجيزهم وهضم جانبهم باطفاء أنوار شهرتهم والاهتمام باخاد ذكركم وانكار معارفهم

وبينما هم عازمون على الفرار اذ ظهرت لهم جنية تميل بطبعها الى العلماء وترشدهم الى الاستكشافات العلمية ورفعت عصاها وضربت بها الأرض فخرجت من تحت رجلها بنت صغيرة فقيرة عليها ملابس رثة وأطوار بالية . فقالت للعلماء قد علمت ما أنتم بصدده وما لقيتم من التعب والعناء فأخذتني عليكم الشفقة ورأيت انه لا يسوغ لى ترككم تركضون بافراس أفكاركم فى ميادين القيل والقال ولشغفى بحكم بين الأمم بادرت مسرعة اليكم وأحضرت معى هذه البنت وأعطيتهام نموذجاً تصلون بانبايع فى العمل إلى أقصى المرام . ثم خلت سبيلهم وانصرفت وعن أعينهم فى الحال اختفت . هنالك أحاطوا بالبنت وطلبوا منها النموذج فأخرجت لهم من تحت ابطها ملفاً صغيراً قدر مجمع الكف به خيوط عددها غير متناه وقالت لهم هذه الآلة الموافقة لأغراض السيد صاحب القصر فلما تأملوا فيها وجدوها عبارة عن كيس طويل ضيق من جهة ومقفول من جميع جهاته ومنقسم من داخله الى شقين بحاجز ممتد من أعلى إلى أسفل وكل شق تخرج منه قناة غليظة متفرعة الى غير نهاية وفوقه شىء مجوف كالخق تخرج منه قناة كالأولى وكلها كانت تنقبض وتنبسط بالتعاقب على الدوام فلما امتحنها المهندسون ظهر لهم انها مستوفية لجميع الشروط فاما الشق الأيمن وهو الأول فهو مع حقه قائم مقام الطلبة الأولى التى من خصائصها امتصاص ماء المجرى والماء الوارد من البرايز وكانت جميع المجارى الموصلة لماء القناة والموصلة لماء البرايز مجتمعة كلها فى الحق المذكور

الذى اذا تمدد حصل به فراغ ينصب فيه الماء فيملؤه واذا انقبض أغلق الباب الذى يدخل منه اليه الماء بصمام وبتأثير الماء على داخله ينفتح باب آخر شبيه بالأول وينساب فى الشق الأكبر الذى هو فيه ويكون تأثيره فيه كتأثيره فى الحق بمعنى ان هذا الشق يتمدد فيدخل فيه الماء ثم ينقبض فيغلق الباب الذى دخل فيه وراءه وبذلك يدخل طوعاً أو كرهاً فى الحوض المعد للهواء . وأما الشق الأيسر وهو الثانى فإنه يبتدىء هنالك مع حقه فى عمله بمعنى ان هذا الحق يتمدد فيمتص ماء الحوض ويدخله فيه ، ثم يدفعه إلى الشق الأكبر فيكبسه كبساً عنيقاً فى مجرى التوزيع العمومى ، ثم يمتصه الشق الأيمن ويبعث به إلى الحوض كما سبقت الإشارة إلى ذلك ومنه يستمد الشق الأيسر ويرسل به إلى جهات القصر وهلم جرا وحينئذ لا يكون أبسط من النموذج الذى قواعده الأصلية هى صامات تفتح من جهة واحدة فقط ومادة مرنة تنقبض وتتمدد أو تتمدد على حسب الارادة فتعجب المهندسون من ذلك وعزموا على شرائه من البنات ليعملوا مثله وقالوا ها ان صاحب القصر لا يتأخر عن دفع أى مبلغ تطيبينه منه فاطلبى ما تريدن فقال البنات لا يتسنى لى أن أبيع الكيس . لئذ كور فى صدر هذه الحكاية حيث انه لاغنى لى عنه فإنه قابى ثم اختفت فى الحال عن أعينهم وتركهم يتوجون فى بعضهم فأجهدوا أنفسهم فى البحث عنها فلم يقفوا لها على خبر ولم يقفوا لها على أثر وهذه الحكاية الطويلة لا تخلو عن الفوائد التى لا بد انك وقفت منها على ماأملت لأننى شرحت لك فيها دورة الدم وبسطت لك الكلام على القلب وأوضحت لك جميع كفياته وتبين انه هو الكيس المذكور آنفاً والمراد فى تلك الحكاية بالشقين البطين الأيمن والبطين الأيسر والغرض من الحق فى كل منهما الأذين وهو الأيمن فى الشق الأيمن والأيسر فى الشق الأيسر والأبواب هى الصامات وحوض الهواء هى الرئة التى يتحد فيها الدم مع الهواء والقناة الموجودة تحت الأرض التى يحبس فيها الماء ويبقى راكداً غير تقي هى المعى الدقيق الذى يجتمع فيه الكيلوس ويتوجه إلى القلب بواسطة المجارى الصغيرة المعروفة بالأوعية الكيلوسية ومجارى توزيع الماء فى القصر

هى الشرايين أو عروق الدم الأحمر والمجارى التى يرجع منها المائع بعد استعماله هى الاوردة وهى عروق الدم الأسود والمصافى التى ذكرناها معدة لتصفية الماء من أوساخه هى هذه الأماكن الصغيرة التى سبق ان الدم يخزن فيها عند مروره من بين المواد غير النافعة ويجهتد فى التخلص منها

فهل هذه الآلة التى صنعها البارى وأودعها فى جوف الانسان أتم وأحكم أم الآلة البخارية التى أراد المهندسون تركيبها أفد الجواب واحكم فى ذلك بما تراه من الصواب اه

جمال الوضع وبهجة الصنع وجمال الحكمة

لعل ماوضح فى هذه الأشكال يدعو العقلاء حثيثا الى الدهشة والتعجب من الابداع والاتقان وانى عند كتابة هذا الموضوع تذكرت انى سطرت فى سورة آل عمران فى المجلد الثانى من الجواهر فى تفسير القرآن عند قوله تعالى : (هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فى الأرحامِ كَيْفَ يَشَاءُ) كلاما عاما فى بدائع هذه الأعضاء الباطنة فأحببت ذكره هنا ليتجهج الأذكاء وتنشرح صدور الأولياء والحكماء فهاهو ذا

✽ تفصيل أفعال القوى الانسانية فى الجسم وأنها أشبه بما فى المدن من الصناعات ✽
فتأمل أيها الفطن فى المدن والقرى تجد أولا الخبازين والطباخين وثاناً العصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبد والسمن من لبن الحيوان وثالثا الخلالين والدباسين والذين يعملون السكنجيين ورابعاً الذين يعملون الماورد ويصعدون الخل ويقطرون الرطوبات اللطيفة وخامساً الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون وسادسا الكناسين والزبالين والسمادين وسابعاً الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليحروا المياه فى خلال المنازل وثامنا العجائين وصانعى الحلاوة وتاسعاً الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج وعاشراً النجارين الذين ينحرون الأساطين وقوائم الأسرة حادى عشر صانعى المفاتيح والصناديق ثانى عشر صانعى السفن ثالث عشر سجين يعملون التماق والأباريق رابع عشر

النحاتين خامس عشر الفزائين والحبالين والفتالين سادس عشر الحاككة والنساجين
سابع عشر الرقائين والحرارزين والحياطين ثامن عشر الزراعين والفارسين (١٩) الذين
يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن
والكتان (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير ورقيق من الثياب (٢٢) أفعال الصباغين
والمزوقين والدهانين (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب النعب

هذه الثلاث والعشرون من الصناعات لها نظائر في جسم الانسان والناس ناثون
لا يعلمون أن كل تلك الصناعات في الطعام الذي أدخلوه في معداتهم وهي تدفع الطعام
الى الأمعاء ثم يكون ما لافائدة فيه مدفوعا الى الامعاء الغلاظ ثم يكون مستعداً
للخروج

فلنذكر كل صناعة في المدينة ونظيرها في الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل
تناولا فيها كه

الصناعة في المدينة	نظيرها في جسم الانسان
(١) صناعة الخبازين والطباخين	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وانضاجه بالحرارة الغريزية
(٢) صناعة المعصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد	(٢) تصفية المعدة للكيوس وأخذ لطيفه ودفعه الى الكبد ودفع عكره الى الأمعاء
(٣) صنع الخلالين والدباسين وعمل السكنجين	(٣) طبخ الكيوس في الكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دماً ودفع عكره الى الطحال واللطيف الى المرارة والرقيق الى المثانة والمعتدل الى القلب
(٤) صنع الماورد وتصفيد الخل وتقطير الرطوبات اللطيفة	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة في الرئتين وجريه في القلب والعروق

- الصناعة في المدينة نظيرها في جسم الانسان
- (٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن (٥) تلطيف الدم في الدماغ حتى يصير
البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون رطوبة لطيفة روحانية في الأذنين
والمنخرين والعينين واللسان وما به
انفعالات الحواس
- (٦) صنع الكناسين والزبالين والسمادين (٦) دفع ثقل الكيموس من المعدة الى
الأمعاء والمصارين واخراجها من
الجسد
- (٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقي (٧) اجراء الدم في الأوردة الى سائر
الأطراف والأشهار
- (٨) صنع الذين يعملون الحلواء والمجانين (٨) تجفيف المادة الدموية حتى تصير
لحما وشحما
- (٩) صنع الذين يطبخون الآجر والخزف (٩) تصليب المادة حتى تصير عظاما
والزجاج
- (١٠) صنع النجارين الذين ينحرون (١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين
الأساطين وقوائم الأسرة
- (١١) صنع أسنان المفاتيح وهندسة (١١) تركيب مفاصيل الركبتين والفخذين
والذراعين والأصابع الصناديق
- (١٢) صنع السفن (١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة
والأضلاع
- (١٣) صنع القاتم والآباريق (١٣) تركيب عظام القحف وهندامها
- (١٤) صنع النحاتين الذين يصنعون (١٤) خلقة الاسنان وتركيبها وترصيعها
الأرحية والطواحين

- الصناعة في المدينة نظيرها في جسم الانسان
- (١٥) صنع الخزائن والخبالين والقتالين (١٥) خلقة الأعصاب وتديدها وفتلها ونصبها على الأعضاء
- (١٦) صنع النساجين والحاكه (١٦) خاق الجلود والفسوات
- (١٧) صنع الرفاثين والخرازين والحياطين (١٧) إلحام الجراحات والقروح
- (١٨) صنع الزراعين والغراسين (١٨) ظهور الشعر على الجلد
- (١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح (١٩) خلقة الكروش والغليظ من الثياب
- (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن (٢٠) خلقة الأمعاء والكثان
- (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير (٢١) خلقة الأغشية الرقيقة في العين والرقيق من الثياب
- (٢٢) أفعال الصباغين والمزوقين والدهانين (٢٢) تبييض العظام وتحمير اللحم وتصغير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير
- (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب (٢٣) تصوير الجنين وخلق الفراعخ اللعب في البيض
- هذه شذرة من الصناعات التي في أجسامنا تصرف في الطعام والشراب الذي أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن فكانت الصناعات التي ذكرناها ٢٣ صناعة نراها في المدن ولها نظائر في أجسامنا من الذين يصنعون مالطف ورق ومن الذين ينقون المدن من الأدران ومن الحفارين والعجائين وضرابي اللبن وما أشبه ذلك .

لفصل السائر

من البحث الثانى

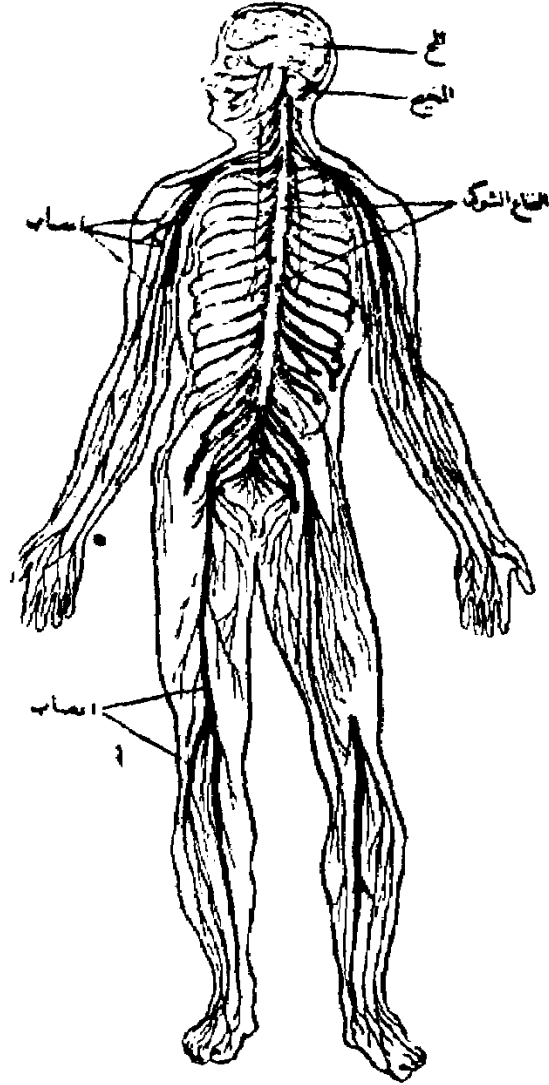
الجهاز العصبى

اعلم ان الطعام النباتى والحيوانى الذى صار دما بواسطة الدائرة الهضمية ووزعته الدائرة الدموية بالعدل على أجزاء الجسم كانت نتيجة المقصودة منه الدائرة الفكرية وهل يتم ذلك الا بالجهاز العصبى فلا تقل باختصار ما جاء فى كتاب الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة فصلت تحت عنوان نظرة عامة فى أعصاب الحسّ وأعصاب الحركة لذلك

الحكيم

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى ويتتبع سير الدم فيقول ان الدم الآن قد تحول الى هذه العظام وهذه العضلات وهذه العروق وهذه الأعصاب وهذا الشعر فلا ننظر

ان الناس يشناقون الى صعود الجوّ بالطيارات والى قراءة علم الشمس والأقمار بل يودّون الصعود الى تلك العوالم ، ولكن لماذا حبسنى الله الذى وضعنى فى هذا الجسم وألقانى فيه الى أمد معلوم ؟ فيظهر لى انى حبست فيه لأدرسه ، واذا عجزت عن دراسة جسمى فأنا عن دراسة العوالم العلوية التى أشتاق اليها أعجز وعن فهم ما فوق ذلك أشدّ عجزاً ، إذن انظر فى هذا الهيكل الذى كان أصله هذا الدم الذى كان غذاء والغذاء كان نباتاً وحيواناً ومعادن . ولقد درست هذه العوالم من قبل لأنها مقدمات لحياتى فلم يبق إلا أن أدرس نفس جسمى لأنه نتيجة ذلك كله ، ولقد وجدت الأمم تبدأ بما حولها أولاً ثم تنظر فى أجسامها ثانياً لأن ما حولنا أسهل فهما من أجسامنا فضلاً عن انه مقدّمة لها والله يقول — وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون — قدّم ما فى الأرض لأنه أسهل وأيضاً أنا محتاج اليه فى حياتى وحياة أمتى ، إذن ينظر فيرى عوالم أخرى وهى عوالم الحسّ والحركة (انظر شكل ٩)



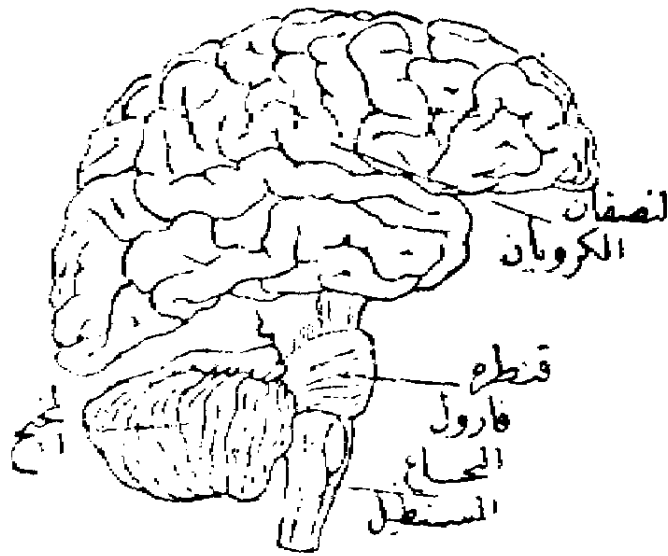
(شكل ٩) الهيكل العصبي للإنسان ، مصغر اثنتي عشرة مرة

وهذه الصورة لا تكرر فيها مع صور الإنسان المتقدمة في (سورة المؤمنون) ،
 وغيرها لأن هذه الأعصاب وتلك للأعضاء والعضلات ونحوها ، وههنا ينظر الحكيم
 فيعجب من عالم جديد . ما هو هذا العالم ؟ هو عالم لا هو نبات ولا حيوان ولا معدن .
 ولا هو كيموس أو كيلاوس ذو قوام لبني ولا هو دم ولا هو لحم وعظم بل هو عالم
 يقرب من العالم الروحي وعالم الأثير وعالم الملائكة لأن هذه الأعصاب خارجات من
 المخ والنخاع الشوكي .

أما المخ ففيه أولاً نصفان كرويان أكبرهما تسعة أعشاره تقريباً وهما قسمان : أيمن وأيسر . وهذان النصفان هما مركز الحس والشعور والذكاء والفكر والذاكرة والارادة ثانياً فيه الخيخ وهو الجزء الصغير الحجم الظاهر في الرسم وهو منظم للحركات العضلية ووربطها وحفظ توازن الجسم لأنه متى اختل هو اختل نظام توازن حركات الجسم فليس له الا التنظيم . ولكن مصدر الحركات هما النصفان المتقدمان

وثالثاً النخاع المستطيل وهو ٢ سنتيمتراً ونصف ويوصل قنطرة فارول بالحبل الشوكي . وهذا النخاع المستطيل يحكم وينظم حركات التنفس والقلب والبلع وينظم افراز العرق وحجم الأوعية الدموية وهكذا وفيه تمر جميع التيارات العصبية الصادرة من المخ الى الحبل الشوكي الآتي ذكره والتيارات الواردة من الحبل الشوكي الى المخ . وإذا أصيب النخاع المستطيل بضرر ما ظهرت أعراض خطيرة

ورابعاً (قنطرة فارول) التي هي ألياف متصلة من أعلى بالمخ والخيخ ومن أسفل بالنخاع المستطيل وهي موصلة التيارات العصبية المتبادلة بين الحبل الشوكي والمخ والخيخ هذه الأربعة هي المخ (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠) المخ

ما الحبل الشوكي فهو يمتد من النخاع المستطيل الى أسفل . يمتد داخل القناة

الشوكية في العمود الفقري ويبلغ طوله (٤٥) سنتيمترا تقريبا وقطره ثمانية مليمترات وهو ينقل الاشارات بين المخ وأطراف الجسم وبالعكس وهو مركز منظم للحركات القلبية الآتية :

ههنا يعرف ذلك الحكيم أن المخ والنخاع الشوكي هما الجهاز العصبي المركزي . ثم ينظر في المخ نظرة أخرى فماذا يرى ؟ يرى هناك اثني عشر زوجا من الأعصاب تخرج منه موزعات في المنطقة الرأسية وما حولها لأن المخ أشبه بقصر الملك والملك معه الآلة التلفونية والتلغرافية فيصدر أوامره بتلك الأزواج العصبية الى أعضاء الجسم كالعين والأذن والفم واللسان . فيقول للعين يا عين أبصرى والموصل عصبها وللأذن اسمعى والموصل عصبها وغنده هو جهاز الآلة التلفونية أوالتلغرافية (البرقية) وبعض الأعصاب أيضا محرك فهو يأمر العين مثلا بالنظر فتخبره فيصدر أمرا أسرع من البرق الى أعضاء الحركة بواسطة أعصاب الحركة وهكذا

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى في الحبل الشوكي فيجد أمرا عجيبا مدهشا . يجد هناك ثقبوا موضوعة بين الفقرات يمر بها أعصاب متقابلة من الجانب الأيمن والأيسر وتمر من تلك الثقوب ، وعدد تلك الأعصاب ٣١ زوجاً موزعات في جانبي الجسم بالتساوي وكل عصب من تلك الأعصاب الشوكية عند خروجه من الحبل الشوكي له (جذران * أحدهما) أمامي مركب من ألياف محركة ، والآخر خلفي مركب من ألياف حساسة وبه انتفاخ صغير هو عقدة عصبية ويتحد الجذران بعد مسافة قليلة ويكونان عصباً واحداً يتفرع الى فروع منتشرة في الجلد والعضلات الارادية

ثم ينظر ذلك الحكيم فيرى أن الاثني عشر زوجاً الخارجة من المخ والاحدى والثلاثين زوجاً الخارجة من الحبل الشوكي لا سلطان لها إلا على الأعضاء الارادية كاليدن والرجلين

أما الغدد اللعابية مثلاً في الفم وهكذا القلب والأوعية الدموية وأجزاء القناة الهضمية المشروحة سابقا والثانة وأعضاء التناسل والغدد العرقية وهكذا ، فهذه كلها

لا سلطان للجهاز العصبي المركزي عليها الذي يتفرع منه الأعصاب المتقدمة الباقية (٤٣) زوجا يسمونها الجهاز العصبي الطرفي ، فما الذي يؤثر إذن في الأعضاء التي ليست تحت ارادتنا ، وبعد البحث يجد هناك جهازا آخر غير الجهاز العصبي المركزي وما هو ذا ؟ هو عقد على جانبي السلسلة الفقرية ممتدة من أول العنق الى الحوض يسمونها الأذراب ، ومن هذه العقد تخرج أعصاب تتوزع في الغدد اللعابية والرئتين وهكذا الى آخر ما تقدم أي في الأعضاء التي لا سلطان لنا عليها ، وهنا يدعش الحكيم ويقول : « يا سبحان الله . نظام محكم وآداب جمعة ، إن الذي لنا سلطان عليه كانت له عناية خاصة فكان نفس المخ ونفس الحبل الشوكي قائمين بتدبيره وتدير الحبل الشوكي متجه الى الأطراف وتدير المخ متجه الى الحواس التي بالقرب منه . فالأعلى يدبر الأعلى والأسفل يدبر الأسفل

(جوهرة) في مقال عام في أشكال التركيب من كلام اللورد افبرى

قال نريد بالإشكال التعقيد وضد البساطة ، والإشكال في تركيب أجسام الحيوانات أعجب من ضخامتها وأغرب ، فربّ دويبة كدودة الحرير مثلا يكون لها أكثر من ٢١٠٠٠ عضلة . وفي جسم الانسان نحو ٢١٠٠٠٠٠٠ من الغدد لإفراز العرق . وهذه الغدد متصلة بظاهر الجلد بأنابيب شعرية يبلغ طولها جميعا نحو عشرة أميال . أما طول العروق والشرابين الإجمالى فأكثر من ذلك أيضا وفي الدم ملايين الملايين من الكريات البيضاء والحمراء ؛ وكل منها تركيب حيوى مستقل بذاته ، وفي العين ما يسمونه بالمص (وهى قوايل النور) ما قدر عدده بنحو ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ . وقدر عدد خلايا المخ بلا أقل من ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ خلية . وأن القلم واللسان ليعجزان عن وصف تلك التراكييب العجيبة التي إن تُرُ فبالمجهر وغير واضحة جلية

(تذكرة) ان الجهاز العصبي الذي اتضح رسمه الآن له عملان عمل ظاهر وعمل باطن فأما عمله الظاهر فأهمه الحواس الخمس المعروفة وأما عمله الباطن فهى القوى

البطنة في الدماغ والثانية بعلم النفس اليق والأولى بهذا المقام الصق ولما كان أهم الحواس الخمس السمع والبصر أحببت أن أنقل هنا ماجاء في كتاب الصحة المذكور سابقاً :

حاسة السمع — عضو السمع هو الأذن وينقسم الى أذن ظاهرة وأذن متوسطة وأذن باطنة (الأذن الباطنة هي التي نحتوى على أعضاء أى أعصاب السمع) فالأذن الظاهرة تتركب من الصيوان والقناة السمعية الظاهرة ويوجد بها شعر وغدد تفرز مادة شمعية تسمى بالصملاخ وهي تتراكم اذا لم تنظف وتضعف السمع ، والأذن المتوسطة تتكون من الطبلية وغشائها وثلاث عظام صغيرة والأذن الباطنة مكونة من تجويف



في عظم الصدغ مبطن بغشاء ينتهي فيه أطراف العصب السمعى واذا حدث صوت بجوار الأذن يخترق الأذن الظاهرة ثم الأذن المتوسطة ثم الباطنة فينتبه العصب السمعى فينقل الصوت الى مركزه في المخ فيوجه المخ الاحساس الى الأذن فيجعلنا نشعر

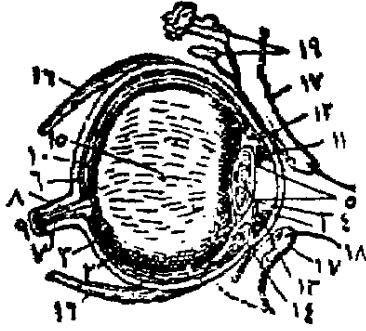
كأن الأذن هي التي أحست بالسمع (أنظر شكل ١١) (شكل ١١) الأذن

تحدث نغمات الصوت الأساسية باهتزاز الحبال الصوتية للحنجرة بواسطة هواء الزفير ويتنوع الصوت باللسان والأسنان والشفيتين ، والكلام يحصل بتغيير نغمات الصوت في التجاويف التي فوق الحبال الصوتية فمثلا تغيير حجم وشكل البلعوم والفم والأنف يحدث نغمات مختلفة تكون حروف النطق .

حاسة الابصار — مركزها العين وتوجد هذه في تجويف الحجاج ومعها الأوعية والأعصاب التي تغذيها وفي مقدمتها الجفون والجهاز الدمعى

- (١) الأذن الظاهرة (صيوان الأذن) (٢) قناة السمع الظاهرة (٣) طبلية الأذن (٤) صندوق الطبلية (٥) قناة استاك نوس (٦) المطرقة (٧) السندان (٨) الركاب (٩) التيه (١٠) مدخل القوقعة (١١) القوقعة (١٢) القنوات النصف الهلالية (١٣) العصب السمعى .

والجفون في حافتها الأهداب وهي تقي العين ليلا ونهارا من الأجسام الغريبة التي تصادفها (أنظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)

قطاع من مقلة العين

والجهاز الدمعي في الجهة الوحشية للحجاج ويفرز الدمع منعاً لجفاف الملتحمة (أنظر شكل ١٢) والعين مكونة على التوالي من الطبقات الآتية : وهي الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية : والعين مملوءة بالروطبة المائية والجسم الزجاجي والبلورية وتجويفها ينقسم بالقزحية الى قسمين وهي ستار قابل للانقباض والانبساط ومنقوبة في وسطها بالحدقة

التي وظيفتها تنظيم كمية الضوء الداخل في العين ، وتوجد القزحية عند ملتقى الصلبة بالقرنية ووظيفتها اعداد العين للرؤية وهي تؤثر في تحديب البلورية بانقباضها وانبساطها فتري الأشياء على أبعاد مختلفة ، وفي الشبكية ينتهي العصب البصري (أنظر شكل ١٢) والعين تماثل صندوق التصوير الشمسي فأشعة الشيء المرئي تمر بالقرنية والبلورية والروطبة المائية والجسم الزجاجي فتنتطبع صورته معكوسة على الشبكية التي تشبه زجاجة التصوير فينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل الى المخ فيردها هذا الى العين غير معكوسة فنشعر برؤية الشيء ونحكم على شكله ولونه وحجمه اهـ

- (١) القرنية (٢) الصلبة (٣) المشيمة (٤) القزحية (٥) الحدقة (٦) الشبكية
- (٧) العصب البصري (٨) الشريان المركزي للشبكية (٩) قطاع العصب البصري
- (١٠) البقعة الصفراء (١١) الخزانة المقدمة (١٢) الخزانة الخلفية (١٣) البلورية
- (١٤) العضلة الهدية (١٥) الجسم الزجاجي (١٦) العضلات المحركة للعين
- (١٧) الجفنان (١٨) الأهداب (١٩) الغدد الدمعية .

شرح رؤية العين

ويحذر الآن أن نذكر نبذة لطيفة في أبصار العين وما فيه من التدبير الجيب فان للنور نواميس لا يتعدها فوضعت العين على حسب تلك النواميس ولولا هذا لما أبصر حيوان فمنها أن الصور تنتقل في الضوء على خطوط مستقيمة دائماً فإذا مرت بجسم اللطف مما هي فيه زاد افتراقها وان مرت بجسم أكثف مما هي مارة فيه انضمت أجزاؤها واقتربت فإذا نفذ الضوء من الهواء إلى الماء تضامت خطوطه أو من الماء إلى الهواء تفرقت وهكذا يضم خطوط النور الأجسام المحدبة بوجهيها أو المقعرة من وجه وهي محدبة من الآخر أو محدبة وجه واحد ومستوية الآخر ثم ان السواد يتشرب النور فلا ينعكس عنه بخلاف بقية الألوان والصورة لا ترسم على شيء إلا إذا كان في بعد مخصوص من المرئي أو من الجسم الشفاف الذي مر فيه النور فهذه أربع نواميس في جمع النور وافتراقه وتشر به وارتسامه على بعد مخصوص وهناك ناموسان آخران وهما أن النور ينحل لألوانه السبعة المعروفة في قوس قزح إذا مر بجسم محدب وان الصورة توضع مقلوبة إذا مرت بجسم يجمع النور فهذه ست نواميس للنور وضعت العين على مقتضاها . فإذا جاءت الأشعة من الجسم المرئي ومرت بالهواء ووصلت إلى الشبكية وهي أعصاب منغرس في مؤخر العين لم ترسم الصورة فيها قط لأنها تكون مفرقة فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون القرنية التي تراها محدبة من الخارج مقعرة من الداخل محيطة بالعين من الامام لتتلاقى النور فتجمعه بعض التجمع ويمر في أوساط أخرى تزيد في تجمعه وهي الرطوبة المائية فتجمع النور زيادة جمع لكشافها فتأمل كيف وضع القرنية والرطوبة المائية مناسبين لجمع النور إحداها بالتحذب والتعقر والآخرى بأنها أكثف من الهواء الجوى

فياليت شعري ان الأشكال كثيرة جداً يعرفها من درس الهندسة ، بل العامة أيضاً فلم أختار هذا المبدع شكل القرنية محدباً ولم وضع الرطوبة المائية ثقيلة ثم تعجب أيضاً فيما وراء ذلك ولتمثل العين وطبقاتها بقبة من الزجاج خلفها ماء وتحت سد فيه فتحة

ووراءها زجاجة محدبة الوجهين ومن خلفها مادة كياض البيض وتحتها أعصاب تسمى شبكية العين فالقبة هي القرنية والماء هي الرطوبة المائية والسد الذي فيه فتحة هو غشاء القرنية والفتحة تسمى البؤبؤ ملونة أطرافها بألوان كالسواد والخضرة والزرقة ليتشرب النور وهو مار الى البلورية وهي كزجاجة محدبة من وجهين تجمع النور زيادة تجمع ثم جعل ذلك البؤبؤ وثلث البلورية تحت ارادة الناظر فيوسع ويضيق كما أراد على حسب كثرة النور وقلته فلاختلاف الأضواء يختلف التضيق والتوسيع فيوسعه إذا كان النور قليلا لتدخل كميات كافية ويضيقه إذا كان كثيراً لتلا تشوه الصورة .

وياليت شعري كيف روعى ما خلق في الخارج من أنواع النيران التي لا تنتهى في خلقه هذه العين العجيبة حتى يتسنى لها الرؤية بكل بعد (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) وإن قلنا ان العين واتقانها أعجب ما نشاهد من الغرائب لكننا مصيبين إذ العبرة بالاتقان لا بكبر الأجسام المخلوقة واختلاف النور كثير جداً إذ فرق بين ضوء الشمس وضوء مصباح ضعيف فبينهما مراتب لا تنتهى ومع ذلك أمكن الناظر أن يوسع للقليل ويضيق للكثير بمراتب كثيرة على حسب اختلاف الأضواء ربما كان آلافا مؤلفة فتأمل كيف جمع في هذه العين الصغيرة هذه العجائب التي لا تنتهى فإذا مرت بالبلورية نفذ النور في الرطوبة الزجاجية ، ثم وصل إلى الشبكية مع بيرة القلاء في تحليل رؤية الأجسام معتدلة لا معكوسة كما هو مقتضى النواميس وان الجسم إذا مر في شفاف ينحل إلى ألوانه السبعة وقد اختار بعضهم ان الرطوبة الزجاجية التي هي أمام الشبكية فرقت الصورة بعد تجمعها بالبلورية وما قبلها لكون الرطوبة الزجاجية ألطف مما قبلها ثم اجتمع مرة أخرى على الشبكية معتدلا وهكذا لما انحل إلى الألوان السبعة بدخوله في القرنية حلته بقية الأوساط بعكس ماحلته الأولى فرجع لونا أبيض وقد وضعت الشبكية وهذه الطبقات بحساب لا يختل شعرة واحدة لترسم الصورة في بعد مناسب حسب النواميس إذ من المشاهد في العلوم الطبيعية في الضوء إنه إذا مر بجسم شفاف لا يجمع إلا على بعد مخصوص كما يشاهد في العدسات أمام

الشمس فياليت شعري كيف وضعت الشبكية على بعد مخصوص من الطبقات فوقها فلم تتقدم ولم تتأخر . ثم ان الشبكية مقعرة تجمع الصورة ولكن لا بد بعد رسم الصورة عليها من نفوذ النور الى ما خلفها فيقع على الصلبة التي هي خلفها مما يلي المخ ومن الحكمة الالهية انها ملونة بالسواد لئلا يرجع النور بالانعكاس فيشوش الصورة حكمة وعدلا ودقة فهذا هو وضع العين قد أوضحته بقدر الامكان لنفهم معنى قوله تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) وقوله (وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) كل هذه حكم تسجل علينا الخزي والعار إذا خرجنا من الدنيا ونحن بها جاهلون بل ان هذا الجهل هو الذي سجل علينا الذلة في الدنيا .

ولما كان في العين هذه الحكم وغيرها وهي كثيرة جداً كثر ذكرها في القرآن ليلفت الأنظار اليها فالجاهل انما عرف ما يقوله الشعراء في الغزل والعالم ينظر هذه الأعاجيب . وتأمل في أن الشيء كلما كان أكثر اتقانا كان أكثر منفعة وكلما قل اتقانا قل منفعة . فهذه العين لما أبصرت ما بعد إلى ملايين من الفراسخ ورأت صور جميع الأشياء وأظهرت لنا كواكب السماء وقربت أن تكون عقلا كما قرب النخل أن يكون حيوانا والانسان أن يكون ملكا صنعت مطابقة لنواميس النور العجيبة لتقوم بهذه الأعمال مع غرابتها وفعلت فعلا مذهشاً فهذه هي الحكمة وهذا هو العلم . فياليت شعري كيف يحيا الانسان في الدنيا وهو لم يشاهد هذا الاتقان وكيف يموت ويخرج من هذا الكون وهو لم ينظر ما في هذه الصنائع اللطيفة من الدقائق وما أشبه نظام العين بنظام السموات والأرض بل العين مع صغرها أخذت صور السموات مع اتساعها والأرض وأكنافها والشمس واشراقها واستحضرت هذا كله وأوصلته الى الشبكية . ولئن قلت ان هذه الحدة في خلقها أعجب من هذه الأجسام الواسعة وأغرب منها لم أكن مبالغاً إذ كيف تسمعها كلها وتوصلها الى الدماغ وكيف يسمع اللطيف الكشيف والصغير الكبير . ولئن أدهشنا العين وصنعها فالحس المشترك

الذي وراء ذلك أعجب وأعرب وهكذا الحيلة والواهمة والذاكرة والحافظة . وقد ذكرناها مفصلة في كتابنا ميزان الجواهر .

فلما اطلع على ما تقدم صديقي العالم قال لقد أحسنت وأجديت ولكني لا أزال مشوقاً إلى تفصيل أتم في السمع والبصر معا بحيث يكون كلاماً جامعاً فقلت ذلك مذكور في تفسير سورة آل عمران في أولها فقال يجب ذكر بعضه هنا تذكيراً لأولى الأبواب فقلت بعد أن اطلعت هناك على إيضاح حاسة السمع ما نصه :

هذه هي حال السمع قد أوضحته لك بما في الامكان وهذا يكفيك إذا لم تجد متسعاً للدراسة العلمية - فتبارك الله أحسن الخالقين -

فانظر كيف جعل لأجل وصول الصوت بالكلام وبالنفثات وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجباً من صيوان وصمخ وطبلة وثلاث عظمات ودھليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورمالات حافظات للصوت وعصى كورني وشعرات في القوقعة وغيرها وأعصاب سمعية فهذه أربعة عشر كأنها لبالي الهلال ليصير فيها بدرأً كاملاً ينتقل الصوت فيها حتى يصل إلى المخ فتعجب من الجسم الذي نسكنه كيف كان الهواء يحتاج إلى آلات مظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والأشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر إلى نفوسنا إذا لا سمع إلا حيث يصل الصوت إلى المخ وانظر كيف نستعمل ما نجهل ولا أبالغ إذا قلت ان أكبر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلا من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلاً وعرفها - هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء - فالتصوير قد عرفته في الأذن وأما قوله : - لا إله إلا هو العزيز الحكيم - فالعزة والقهر قد ظهرا في التصوير فانه نوع أعضاء الأذن (١٤) نوعاً فقد قهرها وذلها لذلك وقوله حكيم راجع للمشيمة فالعزة للتصوير والحكمة للمشيمة فكانه يقول سبحانه ان تصويري لكم في الرحم لم يكن عن هوى واسكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع

والحق أن هذا الابداع غفل عنه أكثر المسلمين وهم نائمون وتري أبناءهم الذين

قرؤا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة أما قراءته لأجل الحكمة وارتقاء العقل فلا بل منهم من كفر إذ يظن المسكين أنه أعلم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد اطلع على ما جهلوه وأدرك ما لم يبلغوه والحق ما قاله الامام الغزالي إنا أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدعون أنهم طبيعيون بل أقول إن أهل زماننا كثير منهم أهل مكابرة وادعاء وقد آن أن يرجع المسلمون لأيام مجدهم - والله هو الولي الخيد - وهاك
ايضاح الأذن

أما الأذن الظاهرة فهي مشاهدة وأما الأذن المتوسطة أو الطبلية فقد وضحت فيما قدمناه بالتمثيل إلى أن قلت

(اللطيفة السادسة العين)

تصور ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة وهذه الأطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ثم تصور أن كلا من هذه الثلاثة قد وضعت عليها أغطية مستديرة أيضا مجوفة وهذه الأطباق الثلاثة موضوعة في داخل بعضها فإذا ترى ألت ترى أن عندك كرة في داخلها فراغ وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحت ذلك فإذا وضعت فوق هذه الأغطية الثلاثة منديلا أبيض مثلا صارت الطبقات سبعا فإذا وضعت في جوف هذه الأطباق مادة رقيقة شفافة لالون لها فكان أسفلها كالزجاج الذائب ووسطها جامد كالجليد وأعلاها كيباض البيض السائل إذا فعلت ذلك في هذه الأطباق فقد صورت طبقات العين وعرفتها

وليست عين الانسان شيئا غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فتى تصوّرت ما تلوته عليك من هذا المثل تصوّرت العين وإنما ضربت لك هذا المثل لتفهم ما سيرد عليك بسهولة . لقد تقدم أن الدماغ منشأ الأعصاب التي للحس والتي للحركة ومنها ما يكون من النخاع وهناك في الدماغ للقوة الباصرة عصبتان متقابلتا الشكل فاحداها تتجه جهة اليمين والأخرى تتجه جهة اليسار وتصل كل منهما إلى العين التي في جهتها وهذه العصب مجوفة وعليها غشاآن غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل

رقيق كما يكون للبيضة والجوزة ولسلك الكهرباء وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفاً يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة فالغشاء الغليظ متى وصلت العصبية إلى العين فارقها وكما عظم العين بلباس ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لا يكون تام التكوين كما قدمنا وهكذا يفارق العصبية الغشاء الرقيق ويصير لباساً وغشاء دون للطبقة الصلبة وتسمى الطبقة المشيمية لأنها تشبه المشيمة وأما العصبية نفسها فأنها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين ويسمى الغشاء الشبكي ، أفلا ترى أن هذه الثلاثة أى الصلبة والمشيحية والشبكية هي التي ضربت لها فيما تقدم مثل الاطباق الثلاثة التي هي مدورة

فاذا فكرت في الأغشية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلتسم غطاء الصلبة وهي الأولى (القرنية) وهي جسم كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض . ولتسم الجسم الذي تحت القرنية (بالعينية) لأنه مثل قشر العنب أسود أو أزرق ونحو ذلك وإنما كانت ملونة لتحصن الأجسام المشقة من ورائها فلا ينتشر ما حصل فيها من الضوء والصور المنطبعة لأن سواد اللون يمنع انتشار الضوء . ان الضوء يدخل من ثقب في العينية فيتضيق ويتسع بحسب كثرة الضوء وقلته فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب . فهذه العينية غطاء للمشيحية . ولتسم الغطاء الذي على الشبكية الذي هو تحت الغطاءين الآخرين بالنعكبوتى لأنه كخيوط نسج العنكبوت ولم يكن للادراك بل لضبط السوائل التي تحته فها هنا ست طبقات — القرنية . العينية . العنكبوتية . الشبكية . المشيمية . الصلبة — فرجعت الطبقات الست إلى الأطباق الثلاثة وأعطيتها والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى الملتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذي هو خارج القحف فهو امتد إلى العين من جميع الجهات التي من خارج إلى قرب الوسط ثم أنه لما لم يكن شفافاً لم يعتد على بقية العين ولو امتد لمنع الأبصار فاستعمل منه مقدار ما يكفي في أحكام رباط العين وترك موضع الأبصار مكشوفاً ليصل الضوء إلى آلات الأبصار من الطبقات والرطوبات * أما الرطوبات فهي ثلاثة :

(١) أولاً جسم كالزجاج الذائب الذي هو وسط الشبكية ويسمونها (الجسم الزجاجي)

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذي لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد (بالرطوبة الجليدية) وتسمى أيضاً (العدسية) وإنما سميت جليدية لأنها شبيهة بالجليد في صفاته ثم أن الزجاجية تحيط بالجليدية بمقدار النصف ويعلو النصف الآخر العنكبوتية المتقدمة

(٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الأبيض الذي يشبه بياض البيض وهو أرق من الأول الذي يشبه الزجاج الذائب (بالرطوبة البيضية) وهي التي يعلوها العنابية المتقدمة أي الغطاء الثاني في مثال الاطباق فكان جوف الطبق الداخلي فيه لبن يعوم فيه زبد قد غرق الى نصفه وفوقه بياض البيض

فانظر كيف كان العصب الممتد إلى العين قد صار كأسلاك البرق (التلغراف) لينقل الأخبار الواردة الى الجليدية فوقه فترسم فيها الصور وهو ينقلها مارة فيه الى الدماغ وكيف كان ما تحت الشبكية من الصلبة والمشيمية يأتیان بالغذاء للعين من الأوعية الشعرية الوريدية والشريانية فلذلك عبرنا بالاطباق التي يتعاطى منها الطعام فالعين إذن تستمد من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للبصار وضوء الشمس وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدرة في البعد والقرب بمقادير لاختلت لاختل الأبصار وكانت القرنية محدبة والرطوبة البيضية فيها تماسك ما والجليدية مفرطحة فيها صلابة والزجاجية وراءها مائلة للمكان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء فالتحذب يجمع الصور والجسم التخين يزيد الصور ثبوتاً وبقاءً وكما تستمد العين الغذاء من العروق تستمد الاحساس من الدماغ فلها من الغذاء المواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم ولها من الدماغ الاحساس الروحي الشريف فانظر ما أعجب العلم والحكمة ، وما أجملهما كيف عرفنا في العين من العلم ما لم يحلم به الغافلون وكيف نرى أن طعامنا الذي نتعاطاه قد كانت

فيه المادة التي تشبه الزجاج الذي هو مركب من الرمل مع المغنيسيا والقلبي فهذان الأخيران متى أضيفا إلى الرمل صار شفافاً فكيف (١) جعلت القوى التي في أجسامنا لها آلات لا نعرفها خلصت من الطعام المهضوم أي من الدم تلك المادة المشبهة للزجاج (٢) ثم اختير موضع العين في الخجاج (٣) ثم كيف كانت العين تلي دبرت هذا التدبير موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التي غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره (٤) وأيضا عمل الأعضاء الخارجة كاليدين والرجلين من الأمام فتكون العين مشاهدة لأعمالها ، ولعمري أن من لم تطر به هذه الكلمات ولم يشرح صدره تلك العبارات ليلتحقن بالجمادات ، ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج (٥) ثم كيف جمدت الجليدية لتزيد النور انحصاراً (٦) وليكون الجود أعون على حفظ الصور فتصل إلى الشبكية المتصلة بالدماع (٧) وكيف كان الجسم البيضي أمامها والزجاجي وراءها ليكونا لها غذاء لأنها لا يتهيأ لها قبول الغذاء من الدم (٨) وكيف يكون سبباً لاستضاءتها (٩) ولتكون هي بهما دائمة الرطوبة (١٠) وليكونا رداء لها فلا تتصل بحجر العين ولا غيره من كل صلب (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدمة شبكية لتضبط الزجاجية حتى لا تكون سائلة (١٢) ولتتمكن الشبكية من تغذيتها أمامها (١٣) وجعلت البيضية أرق قواماً لتكون أعون على تأدية المبصرات (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة البيضية (١٥) وألوان العنكبوتية لتحتفظ الصور الرسومة فلا تذهب وتضيع (١٦) والثقب يضيق ويتسع بالاختيار كما تقدم (١٧) وجعلت القرنية جسماً صلباً لتحتفظ العين كلها وهي تتلون بلون العنكبوتية (١٨) وجعلت مشقة لثلاث ثمر الثقب المؤدى للصور من الأضواء الخارجة (١٩) والملتحمة رباط يمسك العين أن تزول إذ لا يمسك لها سواها (٢٠) وهي غير شفافة فلذلك امتدت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب لأنها تمنع الصور عنه بخلاف القرنية (٢١) والجفن ممتد من الجلد وله عضلتان من جهة الموقين لينزلاه إلى أسفل (٢٢) وعضلة من جهة وسطه لرفعها (٢٣) وجعل الأسفل

أصغر لثلا يستر شيئاً من الحديقة وهو ساكن دائماً (٢٤) ولثلا يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله اذا كان كبيراً (٢٥) والجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الاقفال (٢٦) والأهداب تمنع الغبار وتدخل الضوء عند الحاجة اليه كما في أوقات هبوب الرياح فهذه ٢٦ حكمة من حكم العين وهي بعض عاظهر للناس من العلم فيها — والله يعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عجائب العيون

حضر صديقي العالم الذي يحادثني كثيراً في غرائب العلم فقال : ان ما كتبتة هنا في عين الانسان جميل وبديع فهل في عين الحيوان مثل هذا الجمال والبهاء فقلت : ان أعين الحيوان فيها عجائب لا تخطر ببال نوع الانسان ان فتح أبواب العلم فتح لأبواب الجنان أو ما سمعت الحكمة الاسلامية المشهورة وهي : من سلك طريقاً يطلب علماً سلك الله له طريقاً الى الجنة . فقال نعم ولكن أى طريق هذا ؟ أطريق العيون ! فقلت نعم ، فقال : حدثني فاني يحيل لى ان الحديث طريف وظريف فقلت :

قد كنت في بعض الكتب المؤلفة قبل هذا الكتاب اطلعت في كتاب انجليزي على ان للنملة الواحدة مالا يقل عن (٤٠٠) عين في كل عين من عينيها (٢٠٠) عين ومعنى هذا ان لها خمسة أعين في مقدم رأسها ثلاث منها بهيئة مثلث وثلثان آخرتان موضوعتان بهيئة عيون الانسان وهاتان الاثنتان مركبة كل منهما من مائتي عين ، ومضت سنون تلتها سنون واجتمع معي المدرسون في قصر درب الجمايز لامتحان طلاب الشهادة الثانوية فأرسل جمع من المدرسين مدرسا لى وأخذ يحاورني (وأنا لأعلم بما دبروه) فقال : (وقد أمسك في يده غصنا من أشجار الحديقة) أيهما أفضل أنظام هذه الأوراق الدقيقة أم نظام النمل وعيونه فأجهت على الفور الحيوان أرقى من النبات فهو طبعا أرقى نظاما على ان للنملة الواحدة (٤٠٠) عين فما كدت أنطق بها حتى جمع هذا المدرس اخوانه وقال فلان قال كذا فضحكوا جميعا وأخذوا يسخرون فقلت على

رسلكم أيها الاخوان أنا قرأتها في كتاب انجليزى تدرسونه أنتم في مدارسكم فأخذ هذا المدرس يقول يا فلان ألم تكن في ألمانيا يا فلان ألم تكن في انكلترا يا فلان ألم تكن في فرنسا يا فلان ألم تكن في ايطاليا فأجابوا جميعاً (بأسهزاء) ان هذا العلم فوق متناول عقولنا وعقول أوروبا ، فقامت من فوري أنبحث فيما لدى من الكتب الانجليزية ، ثم قابلت الأستاذ شوقى بكير الاختصاصى في علم الزراعة فبحثت في الكتب الفرنسية والانجليزية والألمانية والنسوية وخرج منها بهذه النتيجة وهى :

ان من الحشرات ماله (١٢) عينا ومنها ماله مئات العيون ومنها النمل الذى لكل عين من عينيه مالا يقل عن مائتى عين وقام وأتى بشيء لا أراه ووضعه تحت الآلة المكبرة فرأيت عين النملة الواحدة أشبه بأعين الغراب وأخذ يشرح تلك العيون من تلك الكتب المتقدمة التى ألفت حديثاً باللغة الألمانية والنسائية فى نحو سنة ١٩١١ وما بعدها فشرحوا كل عين من العيون الصغيرة واستبان ان كل واحدة منها مستقلة فى نظرها عن بقية العيون حتى ان العين الصغيرة لو عميت لم تؤثر فى أخواتها ولكل واحدة منهن أثر خاص فى المواد المنظورة بحيث ترى كل واحدة منهن جزءاً صغيراً من المواد المرئيات وبفقد تلك العين تحرم النملة من نظر ذلك الجزء الخاص بتلك العين وتتمتع بالنظر لجميع الجسم ماعدا ذلك الجزء الصغير الخاص بالعين المفقودة الصغيرة أى ان النملة اذ ذاك رأت جميع الجسم المراد إلا جزءاً واحداً من أربعمائة جزء من ذلك الجسم ، فلما عرضت ذلك عليهم وهم يعلمون انه اختصاصى فى علم الحيوان والنبات ، سكتوا وكان على رؤوسهم الطير

فلما سمع ذلك صاحبى قال : هذا عجيب جداً وهل دونت هذا فى كتاب غير هذا فقلت نعم : فى الجواهر فى تفسير القرآن فى سورة النمل والرسالة هناك بأكملها تسمى (رسالة عين النملة) وفيها كل ما ذكرته هنا مشروحا موضعا مما لا يحتمله هذا الكتاب فقال : وهل ذكرت فى الرسالة غير عيون النملة ؟ فقلت : هناك حشرة تعيش على العليق لها (٢٧) ألف عين وهذه أكثر الحشرات عيوناً ، وأذكر أنى ذكرت

في مكان آخر أن الذبابة الواحدة لها أربعة آلاف عين على هذا النمط
 فقال : يا سبحان الله اذن جمال الله وابداعه يظوف حولنا وليس خاصاً بما هو
 حسن بل بالقبيح القدر مملوء من الجمال والحكمة والابداع

فقلت نعم وهذه حجة قائمة على المسلمين النائمين اليوم ولعل هذه المسائل ستوقظهم
 من نومتهم فقال انا ان شاء الله سأقرأ رسالة عين النملة المذكورة ولكن حدثني رعاك الله
 كيف أجمع المدرسون اذ ذاك بقصر درب الجاميز على انهم لم يعرفوا وأحوجوك إلى
 البحث والسؤال من عالم اختصاصي فقلت : ان أم الشرق الى الآن لا يزال بعضها
 غافلاً عما هو ضروري من العلم وان كان بين يديه لظنه انه من ستط المتاع فاحتقار بعض
 الحشرات وشؤونها وعدم العناية بالجمال والبهجة في العوالم وسيادة الفكرة العامة المانعة
 من العلم تغشى على عقول الطالب وان كان في أعظم جامعة فهو انما يقدم فيها لأخذ
 الشهادة للوظائف أما الجمال والحسن وبهجة النفس فالعلم فهذا عند بعض الشرقيين
 قليل القيمة فهو لاء من هذا القبيل

ولقد مضى على المعارف المصرية حين من الدهر أيام الاحتلال الإنجليزي وهي
 تغض الطرف عن علوم الحيوان والنبات التي بها ارتقاء العقول وهؤلاء من المتخرجين
 في تلك المدة ، والانسان اذا لم يعشق العلم صغيراً فما أبعد عن حبه كبيراً
 فلنفتح لمناس طريق المحبة العلمية للعوالم المحيطة بنا يفتح لهم طريقان طريق إلى
 سعادة الدنيا وطريق إلى الجنة والحمد لله رب العالمين

الباب السابع

في الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية

الذين درسوا علم النفس

الى هنا وصل علماء الطبيعة وقالوا لاطاقة لنا بما فوق ذلك فان هذا آخر ما وصلت اليه
ابحاثنا ، ولو عرفنا علم من هم أرقى منا من علماء العلم الأعلى ما اقتصرنا على هذه المباحث
فجاء قوم أرقى منهم عقلاً وأسمى نظراً وقالوا نحن عرفنا ما عرفه عوام الناس وشعراؤهم
وما استنتجوه رياضيوهم من القيلس في الجسم وما أدركه مشرحوهم وطبيعيوهم فلنبحث
اذن نحن عما هو أرقى من هؤلاء ، ولا يصح لنا الوقوف عند هذا الحد وقد قال تعالى
وفوق كل ذي علم عليم تنبيهاً لذوى العقول على الجِد والبحث والتشمير في نظر الأشياء
ولقد رأينا الأطباء لا يعرفون من الانسان الا أعضاءه المفصلة وروحه الحيواني وهو
عبارة عن خلاصة الدم الحاملة للحرارة الحيوانية السارية في سائر الحواس وما هذه
الحرارة الا كسراج يدار في جانب المنزل فتضيء جوانبه وتخرج منه أضواء الى الخارج
من منافذه فهكذا هذا الروح الحيواني المنبث في أعصاب الحس وأعصاب الحركة
الخارجة من الدماغ والنخاع الشوكي ، وهذا الروح هو الذي يعرفه الطبيب فاذا سد
شريان أو وريد أو أقطع عرق أو وقف العضو عن العمل عالج للطبيب هذا العضو حتى
يخلص الروح الحيواني اليه .

أما ما فوق ذلك من عالم النفس الذي هو أرقى من الضياء فهو من عالم فوق
عالمنا وفوق قدرة الطبيب ، ولا يمكن معرفة بعض ظواهره إلا بمزاولة الطبيعيات
والرياضيات ، وقد قدمنا في كتابنا هذا وسائر كتبنا ما يكفي الذكي ان يدخل معنا
في عاب البحث في هذا العلم

في الصائفة الرابعة وهم علماء الفيلسفة العالية الذين درسوا علم النفس ٩١

وقد قدمنا في آخر التشريح قريبا أن البصر أدرك الأضواء وبها ميز الألوان بعضها عن بعض والأشكال والصور والجمال والتناسب وقد كبرت العين وتعاظمت أن تتنازل الى الهواء فتبصر بواسطته وتشاخصت عن المادة وارتفعت الى ما هو متوسط بين المادة والمجردات

أما العقل الذي يستخدم تلك الحواس ويدرك بواسطة الجزئيات الآتية اليه كليات كأن الكل مثلا أعظم من الجزء من مبادئ الهندسة ومبادئ معرفة ما لا دخل للانسان في خلقه والتمييز بين الحسن والقبيح من أفعال الانسان وهي الحكمة العملية فذلك لا يجوز أن يكون مدركا بلا شيء مشرق عليه مما يناسبه

وكما ان العين مع صحتها لا تدرك الا باشراف أنوار عليها من الكواكب البعيدة عنا المرتفعة جدا فهكذا عقولنا التي هي أرق من أبصارنا لا تدرك إلا باشراف نور عليها من عالم لا يجوز أن يكون جسما والا لكان هو أخس من العين ولا متوسطا بين الجسماني وغيره والا لكان مساويا للعين وقد علمناه أرق منها مكانا ومكانة واحاطة ومعلومات فاذن ادراكه انما يكون باشراف نور من مجردات عن المادة لانها يحواسنا وانما عرفناها بعقولنا، وكما أن البصر لا يدرك الا اذا كان صحيحا فهكذا العقل لا يدرك الا اذا سلم من الآفات وكما أن البصر لا يدرك بنفسه وانما يدرك بواسطة نور يأتي له من عالم أعلى وهي الكواكب فكذلك العقل لا يدرك وان كان صحيحا الا باشراف عليه مما يناسبه

وكما أن البصر يدرك النور بنفسه ويدرك بواسطته الأشياء ويدرك مشرق النور وهي الكواكب ولا يدرك ذلك كله حاسة أخرى مما هي تحت العين فهكذا العقل يدرك الأشياء بواسطة اشراق يناسبه من موجود ليس بحس فيدرك ذلك النور ومبدأه ولا يقدر على ذلك غيره مما هو أسفل منه طبعا وهو البصر وغيره وكما أن الأضواء الآتية من الكواكب بعيدة عنا جدا مرتفعة مكانا فكذلك الموجود الذي لا نراه

الذى يشرق النور على العقل الذى ليس له مكان أعلى فى الرتبة والشرف من العقل بما لا نهاية له

وكما ان العين مع صحتها واحاطة النور بها قد لا تبصر لما نفع صرفها عن ذلك كاطباق الجفن فهكذا العقل قد يحجب عن التعقل والتبحر فى العلم بانصرافه الى جهة الاغذية والمآكل والملابس والعداوة مع الناس وموالاة الأصدقاء ومعاداة الأعداء الى ذلك تشير الحكمة الاسلامية

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات والأرض) وكما ان مشرق النور وهى الكواكب لا يعرف منها لشدة بعدها الاظواهر قليلة لا تعرف حقائقها ، بل نرى أكثرها قد ربيضة مع انها قد تكون أكبر من الشمس فكذلك من أشرق نوره وهو مبدع هذا الكون على نفوسنا لا نعرف عنه الا ما يصل من نعمه لنا فنظير ضوء الكواكب ولا نعرف من صفاته الامتدادماعرفنا من جرم الكواكب وكما ان فينا قوما نظروا بالمنظار المعظم فعرفوا كثيرا من ظواهر الكواكب وآخرين بالبرهان علموا ابعادها وأقذارها واقطارها فكذلك العلماء من جملة الناس قد يبحثون بالعقل تارة وبصفاء الفكر أخرى فيتجلى لهم كثير من العلم بصفات من أشرق نوره على النفوس وهو مبدع هذه الكائنات ، ومن هذا نعلم كيف أقسم بمواقع النجوم على مدح القرآن وما المناسبة بينهما فقال (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فتأمل كيف أقسم بمواقع النجوم ثم أعظم هذا القسم وأكبره جداً وأشار الى جهل أغلب الناس به فقال لو تعلمون وذكر القسم به وهو مدح القرآن وأشار الى انه فى كتاب مكنون اشارة الى بعد مناله كما بعدت الكواكب وكل هذا لما بين العلم ومصدره والكواكب وأنوارها من المشاكلة ، وأما النور فنظير قرآن كريم ، وأما

مصدره فنظير تنزيل من رب العالمين لأنه هو معلم العلم ومنزل الكتاب كما ان الكواكب مشرق النور

ومن هذا التقرير تعلم كيف يتصور أن يكون موجود ليس بجسم وانه أرفع وأجل من النور وأبهى وأبهر وانه محيط بكل شيء واذا رأيت أن النور أكثر احاطة بالأشياء فلا بد أن يكون ما فوقه أكثر احاطة بما يعجز النور عنه وتعلم كيف مثل ذلك بقوله — الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح — الآية ولستأثني بهذه الآيات مقلدين وانما هي البراهين والحجج العقلية التي تراها بعقولنا كما نسمعها من الشرع ليتحدد النقل والعقل واعلم أن العقل هو الغذاء والنقل هو الدواء كما ذكره الغزالي في احياء علوم الدين

هذا واعلمك شائك ما سمعته الآن الى معرفة ما هي النفس وما صفاتها وما الذي تحسه وكيف تحس فهالك البيان فنقول :

اعلم أن النفوس ذلت لها هذه الكائنات وكأننا اذا دققنا النظر لم نجد حولها الا شيئين خادما ومخدوما فالخادم هي النفس والخادم هي المادة ولا ريب ان كليهما لم تظهر اقط وانما الظاهر صفاتها فقد أجمع حكماء العصر والأقدمون ان المادة لم يمكن ظهورها الا لصورها المختلفة كما أثبتته القدماء . وهكذا مذهب لابلاس الذي اعتبرها كرة غازية تنوعت الى آخرة : وما أشبه المادة الا بغادة حازت جميع المحاسن التي يتصور وجودها في العقل ثم وقمت أمام النفوس بحلها وحلاها (والنفوس لم تظهر الا بصفاتها كالمادة فظواهر كل منها تجلت لظواهر الأخرى) وجالها وبهاها ونرى النفوس كالغسق والمادة كالمعشوق فتتمتع بجميع ما فيها من المحاسن واللطائف بحواسها الخمس وتخزن منها ما رق وراق بصور في قواها الباطنة كما يستحضر العاشق صورة المعشوق واليه الاشارة بقوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا) وقال أيضا (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا) ولذلك ترى أغصان الأشجار كأنما تمت يدها بالأزهار وتسلم على الناظرين اليها وتحبي القادمين عليها وكأن كل شيء يدعوك بلسان حاله (خذ

ما تشاء)، (كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً) وقد آن لنا أن نشرع في المحسوسات فانه أسهل ثم كيفية وصولها الى الحواس ثم الحواس الظاهرة ثم الباطنة فنقول :

المحسوسات

اعلم ان الجسم جوهر طويل عريض عميق وهكذا النفس كالجسم ولكنه ليس لها أبعاد ثلاثة وهذا هو الفرق بينهما وانما هي جوهر ليس بمادة وهذا التعريف هو بعينه قولهم انه مركب من هيولى وصورة فالهيولى هي المادة أو الجوهر ومعنى الجوهر هو الموجود الذى ليس صفة في غيره كالبياض والحرة والصفرة وهكذا والصورة هي الأبعاد الثلاثة والمادة يستحيل ظهورها إلا بالصورة فهي لم تعرف إلا بالدليل إذ لم نر إلا الجسم واما المادة التي هي أحد جزئيه فلم تر قط . وإذا علمت ان الجسم ماذ كر لجميع مازاد عن الامتدادات الثلاث فهي صور متممة وهي صفات كثيرة وكل جملة منها تختص بحاسة من حواس النفس الانسانية فالحواس خمس اللمس والذوق والشم والسمع والبصر وصفات المادة ست وثلاثون صفة فعشرة منها لحاسة اللمس وهي الثقل والخفة واللين والصلابة والملاسة والخشونة والرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة فهي انما تدركها القوة اللامسة بتلاصقتها لها وهذه الصفات للجسم لامن حيث هو جسم وانما هي عوارض حدثت له من أحوال عارضة والثقل والخفة لاندماج المادة وانجذابها نحو الأرض مع قربها في الأول وعدم اندماجها وتداخلها أو بعدها عن مركز الجاذبية في الثانى وهكذا بقيتها فالرطوبة لقلّة الموائ السائلة عليها واليبوسة بالضد والخشونة لوجود نتوات كثيرة في سطحها والعكس بالعكس وبقيتها ظاهرة وقوة اللمس تدرك هذه العشرة من صفات المادة بلامستها

المذوقات

وللأجسام تسع صفات أخرى وهي الحلاوة والمرارة والملوحة والذسومة والحموضة والحرافة والعدوبة والقبض والعفوصة كالعسل والحنظل والملح والزيت والابن الحامض والفلفل والماء والليمون والعفص فهذه التسعة لواحق للمادة ومحاسن قدمتها هدية إلى حاسة الذوق .

ومن العجيب ان هذه الطعوم التسعة انما تكون في خلاصة المواد لا كالمموسات التي كانت صفات لجميع المواد فتأمل كيف كانت خلاصة المادة هدية للذوق الذي جعل في الفم وهي أرقى من الملموسات فكانت الخلاصة للأعلى

المشمومات

وكثير من النباتات والمواد الأخرى تخرج منها أجزاء لطيفة تخرج بالهواء فيتكيف بها فيصل الى قوة الشم في الأنف وتصل إلى الدماغ فيحس بريحها وينقسم إلى محبوب ومكروه ، فتأمل كيف كانت حاسة الشم في الوضع أعلى من سابقتها ولها الشرف من حيث لطف ماتستعمله . ألا ترى أنه لا يأتي لها إلا مواد لطيفة في الهواء سائرة إليها فقد استخدمت الهواء لتنال مشتهاها أما سابقتها فانهما تباشران نفس المادة بدون توسط الهواء ولعمري انه لوضع عجيب

المسموعات

وإلى هنا عرفنا صفات المادة الأحد والعشرين الموزعة على تلك الحواس الثلاثة ولا جرم أنها كلها غليظة لم تصل إلى اللطف التام وبقى للمادة بهجة أرقى مما ذكر وهي الأصوات الناشئة من اصطكاك بعضها ببعض ولعمري ان هذه الصفة وحدها تكاد تعبر عن محاسن المادة وتعرب عما استكن فيها من الجمال ولما ضعفت أن تؤدي ما فيها من المحاسن وتظهر ما استكن فيها من الجمال لضيق نطاق الصور اذ لاتسع صورتين في

أن واحد مع انها مستعدة لصور لانهاية لها ولذلك تراها تلبس صورة وتخلع أخرى فعبّر عن تلك المحاسن والاستعدادات بالنغمات الموزونات المتتابعات لتقوم مقام الصور الكثيرة في الأزمان المتباعدة وسرت تلك الأصوات في أرق جزء من الأجسام وهو الهواء اللطيف فألّى إلى الأسماع فطربت النفس وصفت ، ولعمرك ان النفس وقد سممت الألحان لأشبه شئ . بمن عشق فسمع كلام معشوق .

وترى ان النغمات كلما كانت أكثر وزناً وأحسن وقعاً زادت قبولا وبهجة وحسناً عند النفس لمشا كلتها وزن الصور وتناسقها .

والأصوات اما حيوانية أو غير حيوانية وغير الحيوانية إما آلات كالطبول والأوتار وإما طبيعية كخريف النهر وصليل الحديد .

والحيوانية إما منطقية وإما غير منطقية الثانية أصوات الحيوانات والأولى أصوات الانسان وهي إما مفهومة أو غير مفهومة فالأولى كالاشعار ونحوها والثانية كالضحك والبكاء فهذه خمسة

فانظر كيف كان الهواء اللطيف يحمل هذه الأصوات مع اختلافها وكثرتها ولا يختلط بعضها ببعض فيحمل صوت الأشجار وما حولها من الحشرات الصغيرة والحيوانات الكبيرة والانسان والنهر الجارى ويسمع الانسان هذا كله ويميزه إذ الهواء لطيف وبلطفه يسمع هذا كله

وتأمل كيف تحفظ الأذن هذه الأصوات كلها وتميز بينها مع انها ليس لها لطف الهواء ، ولكن قد اكتشف الطب الجديد ان القوقعة التى هى وراء أعصاب الأذن فيها سائل داخله حبوب صغيرة تبلغ نحو ثلاثة آلاف كل منها متصل بعصب دقيق جداً اختص بسمع نوع من الاصوات فقد قامت كثرة الأعصاب فى الجسم الكثيف مقام لطف اللطيف (إِنْ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فعلم كثافة الجسم ففرق الصوت على الأعصاب لا كالهواء الذى هو لطيف محيط بالأرض صالح لحمل المختلفات فتراه محيطاً بالقائلين والسامعين على الدوام . وههنا يجب

تذكر النعم الواصلة من الرب لعباده فالهواء لا نستغنى لحظة عنه لغذاء أجسامنا بتلطيف
الدم اذ لسنا في تلطيف دمنا أحوج منا اليه في كلامنا وتوصيل أخبارنا والتواصل فيما
بيننا مع ما فيه من ثقل الروائح اليها لتعرف الضار والنافع ، فما أقصر عقول كثير من
نوع الانسان لا يحمدون الله على مثل هذا وإنما يحمدونه على المال والغنى أما المبدول
لنا في كل آن مع شدة حاجتنا اليه فلا نذكر بثبه ولا نعدده نعمة وهذه معنى قوله
(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) ، (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) نعم هذا هو كفر النعم

المبصرات

أما المبصرات فهي عشرة : الأنوار والظلمات والألوان والسطوح والأجسام
والأشكال والابعاد والأوضاع والحركات والسكنات فالظلمة ترى ولا يرى فيها غيرها
بل هي كالحجاب أما النور فيرى وترى به الألوان وبها تظهر السطوح وهي لا تقوم
الا بالأجسام فتظهر تبعاً لمصفااتها والجسم لا بد له من شكل فتظهر الاشكال فالابعاد
فالأوضاع فالحركات والسكنات والحامل لهذه العشرة هو الضوء المشرق من
الكواكب السارى في العوالم كلها الداخل في العيون الزجاجية المناسبة له كل المناسبة
الموضوعة بترتيب يناسب نوايس الضوء فتجتمع الصور على الشبكية ثم تذهب الى
المنخ مع أخواتها السابقة فيحكم بين جميعها وهو من لطاف الحاكمين

واعلم أن تقسيم الأجسام الى مضيئة ومظلمة خطأ وإنما هي مظلم وهو ماله ظل
كالأرض ومضى كالشمس وهو مالا ظل له يعطى الضوء لغيره وشفاف وهو مالا
يحجب الضوء وإنما يسرى فيه ويفيض على ما بعده ومنه عين الانسان والزجاج وبعض
الأحجار الكريمة والماء والهواء وجسم الأثير الذي تسبح فيه اجرام الافلاك

واعلم ان الألوان بعضها حقيقى وبعضها غير حقيقى فالأول ألوان الزرع مثلاً ،
والثانى كخضرة الهواء وزرقة الماء العميق وهذا رحمة من الله ولطف بالحيوان اذ يحتاج

في تصرفه الى نظر نحو السماء حين يبحث عن الأغذية والى النبات وهو يرعاه فاقتضت الحكمة الإلهية تلك الخضرة وأختها الزرقة في الأرض وفي السماء لشدة مناسبتهما للاميون (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) فهذه حكمة تحار فيها نفوس العقلاء ويخر العقل ساجدا ويقوم كيف جعل في الأجسام الشفافة ناهوس عام فيها وهو الزرقة في عمقها المتباعد ، وكيف كانت بهجته بهجة الخيوان وحسن منظره ، وأن هذه الظواهر حكم ورامها جمال وبهاء وحسن أعلى وأشرف وأبهج (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بهذا يفرح لأذ كياء المجدون ويفر فرار جعل من ريع الورد الجاهلون . فاللموسات عشرة والمذوقات تسعة والمشمومات اثنا عشر والمسموعات خمسة والبصرات عشرة فاجمع ستة وثلاثون وأغلب هذه تسمى الكيفيات المحسوسة وقد دخل معها الوضع وهو ما يرى من الترتيب ونظام العسكر وطرق البساتين ونظام المنازل والأشجار وكل حسن وبهاء وهو الجزء النهم من علم تمييز الجمال

ثم ان الكيفيات المحسوسات قد تكون راسخة كحلاوة العسل وملوحة ماء البحر وتسمى انفعاليات وان كانت غير راسخة كحمرة الخجل وصفرة الوجع تسعى انفعالات هذا في غير الأنفس فان كانت الصفات الراسخة في الأنفس سميت ملكة لجمع المندرجين على العلوم واللغات وان لم ترسخ سميت حالا

وبعض الأجسام فيه صلاحة بها يدفع الوارد عليه كالحديد ويسمى هذا الاستعداد قوة وبعضها فيه ضعف عند ورود خارج عليه ويسمى ضعفا كالماء والسوائل كلها فعلم لك من هذا الكيفيات كلها ومعها الوضع والكم المتصل الذي هو الأبعاد الثلاثة . وهناك كم منفصل قار وهو الأعداد وفروع علوم الرياضة الحسابية كلها تبحث عنه كما يبحث عن الكم المتصل وهو أبعاد الجسم الثلاثة فن الهندسة وفروعها وكما يبحث الفلك عن الكم المنفصل الذي ليس بقار وهو الزمان وكما يبحث في الطبيعيات كلها عن جميع الجواهر ويلاحظ في علم التاريخ المتى وفي الجغرافيا الاين وفي علم تمييز الجمال الوضع وفي الصنائع كلها والحروب والتعاليم الفعل ، وفي المواد السائلة

والمسبوكات والمصنوعات والمتعلمين والمحكومين الانفعال وفي الاحاطات كلها كاحاطة
التياب بالأجسام والماء بالأرض والهواء بهما مقولة الملاك وفي علوم الانسان ومعرفة
منازل الناس ونسب العلويات الى السفليات واللطائف الى الكثائف والاسراع الى
البطء وهكذا تلاحظ النسبة

فهذه عشر مقولات وهي الجوهر والكيف والكم والاضافة والفعل والانفعال
والتى والايين والملك والوضع وانما قصد الفلاسفة بها معرفة هذه المادة وصفاتها بطريق
الحصر الوجودى وانما تتعلق الحواس بالكيفيات المحسوسات وقد يتبعها غيرها
واذ فرغنا من الكلام على صفات المادة فلنشرع الآن فى كيفية وصولها الى حواسنا
ولنشرح أعمال الباصرة فنقول :

علمت ان الصفات التى تحس عشرة فيظهر الجسم المرئى بشكله وابعاده الثلاثة ،
ومن العجيب أن الضوء يحمل هذه الصور والأشكال مجردة عن مادتها فيتكيف بها
بدل موادها فتراه يحمل جميع مواد صور ما تراه . ويأليت شعرى كيف يتكيف
الضوء بما لا يعد من الصور المزدحمة فيه ويوصلها الى الابصار ولكن لا عجب فى ذلك
فان الهواء الذى هو أقل منه لطفاً يحمل ما لا يحصى من الأصوات المختلفة ويميزها
فكيف به هو وهو أرق والطف وأعجب ولذلك تراه اختص بالصور نفسها

أما الهواء فلم يأت الا بالحروف المعبرة عن تلك الصور ففرق بينهما فالضوء
كالآلات القوتوغرافية والهواء كالقوتونجراف فالأول مظهر لصور الأشياء والثانى معبر
عنها بألفاظ والضوء يقرب فعله من فعل الخيلة التى تزدهم الصور فيها ولا يختلط بعضها
ببعض فتأمل كيف كان الشئ ككأرق واطف كان أوضح فى فعله وأشرف وكلما
قرب من الغلظ ضعف إيضاحه ووضوحه فالهواء حمل الأصوات وهى بلا ريب أضعف
تعبيراً عن الأجسام من صورها المنقولة بنفسها فى الضوء داخله فى الأعين مرسومة
فى الدماغ فتدركها النفس

ولعمري كم من الفرق بين من يعبر عن الشئ وهو الهواء وبين من يحضره بنفسه

وهو الضياء ، ولعلك من هذا تعلم كيف تكون حال ما هو أرق من هذا وهي عقولنا ونفوسنا ومن هو أظف منها وهو مبدع الكون وملائكته (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

ولقد علمت من هذا ان العائق عن الوضوح هي كثافة الأجسام فالقوة اللامسة والذائقة لا تدركان الا المجاور لهما فتكفيان بكيفيته ولا تشعران بها وتثقل في الاعصاب حتى يحس بها المخ وأدق منهما الشامة

وقد علمت فعل السمع والبصر وهو انما يدرك بواسطة الضوء الذي ليس يحس فكيف عقولنا وكيف من يعلو عليها فان هذه ليست بأجسام إذ لم تبق مرتبة بعد الضوء إلا وجود مجرد عن المادة واسع الاحاطة ومنه تفهم معنى القدوس والمنزه وكيف أحاطت بالكانات علماً إذ الذي علمناه بالشاهدة أن المادة هي العائقة فاذا لم تكن مادة خسر كل معلوم لم يعقه عائق ثم تصور هذا صعب علينا جداً مادامت في جلايب المواد فاذا تخيلنا منها كنا أقرب الى العلم بذلك

ثم انما اخترنا في الأبصار مذهب علماء الطبيعة وهو أنه بالانطباع كما أوضحناه لامذهب الرياضيين إذ قاتوا أنه بالشعاع الخارج على هيئة مخروط فاعدته على الجسم المرئي وقته في العين الباصرة ولم في ذلك أراء كثيرة فلا ثمرة في الاطالة بذكرها والانطباع الذي اخترناه مذهب ارسطو والشيخ الرئيس ابن سينا وفلاسفة الاسلام وقالوا إن مقابلة المبصرات للباصرة تفيد استعداداً لتفيض به صورته على الجليدية ولا يكتفي فيه الانطباع في الجليدية وإلا لرأى شيئاً واحداً شيئين لانطباع صورته في جليدتى العينين وإذن لابد من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه إلى الحس المشترك ولم يريدوا من تأدى الصورة من الجليدية الى الملتقى ومنه الى الحس المشترك انتقال العرض الذي هو الصورة إذ لا ينتقل العرض وانما أرادوا أن انطباعها في الجليدية معد لفيضاتها على الملتقى وهو معد لفيضاتها على الحس المشترك كما كان

الضوء بين الجسم والعين معدداً أيضاً وقس على سير الضوء سائر المحسوسات بالحواس الحس في الأعصاب حتى تحس بها النفس فهى أشبه بالكهرباء أو الذر تسرى من جزء الى جزء وليس المعنى أن ما كان في الجزء الأول انتقل الى الثانى بل هى استعدادات حاصلة بالمجاورة وهكذا شأن عالم اللطائف الذى منه التعليم فعلم المعلم لم ينتقل عنه إلى التلميذ وإنما تعليمه جعل في المتعلم استعدادا لقبول فيضان الصورة التى عند المعلم نظيرها

الحس المشترك

فإذا شعرت النفس بهذه المحسوسات الخمس كلها اجتمعت في قوة واحدة لا يهمنها مكانها وإنما يهمنها فعلها تسمى الحس المشترك يزعم الأقدمون انها في مقدم الدماغ وماهى إلا كرئيس أرسل رسلا ووكل كلا بجهة من أطراف بلاده ليأتى بأخبارهم حتى إذا اجتمعت عنده الأخبار رصدها في دفاتر الوارد ثم أودعها مخازنه حتى إذا حضر الحاكم الأكبر فيها فصل في قضاياها وتوضيحه ان كل حاسة لها عالم يخصها . فالعين الألوان وللأذن الأصوات وللشم المسمومات وللنم المذوقات وللحس الملموسات

فإذا أبصرنا سرايا وسط النهار رأيناها أبيض كالماء فهذه الحاسة أدت وظيفتها وهى رؤية اللون والحس المشترك يودعها في الخيلة — وهى ترفعها إلى العقل فان حكم بأنه ماء فقد ضل لأنه لا يجوز له الحكم إلا إذا شهدت حاسة أخرى وهى الذوق هنا حينذاك يحكم بأنه ماء ، وهكذا إذا نظرنا هيئة رمانة صناعية فلا نحكم بأنها رمانة حقيقية إلا باستعمال حاسة أخرى كالذوق حتى نحكم بذلك . ثم ان تكرار المشاهدة بمحاستين شيئا واحداً مراراً يوجب الاستغناء باحدهما عن الأخرى ، فإذا رأى أى حيوان نباتاً وأكل منه فوجد طعمه لذيذاً ثم نظره كرة أخرى فلولا الحس المشترك الذى اجتمع فيه الذوق والمنظر لما عرف الحيوان ان هذا الأخضر هو اللذيذ بعينه .

فمن رحمته تعالى أن خلق هذه القوة الرئيسية تجتمع الأخبار عندها بهيئة غريبة ويتصرف الانسان والحيوان في شؤونه باعانتها .

فالحواس الخمس كأنها خمسة أنهر في حوض واحد فهذا الحوض مخدوم وهي خادمة فهو أجل منها قدراً إذ المخدوم أشرف من الخادم والعالم بخمس فنون أفضل من العالم بفن واحد على ان الحواس لا علم لها وإنما هي موصلات لصاحب الحس كما علمت من قبل فهو العالم وحده ثم هذه الصور تخزن في الخيال

المخيلة او المصورة

أفعالها عجيبة فإنها تخزن فيها الصور إلى وقت الحاجة من كل ما أحس به الانسان ومن العجيب انك كلما أحسست به تراه بشكله بعينه مجسماً واضحاً فيها ، فإذا أبصرت قصرأ منيفاً أو نهراً جارياً أو بستاناً زاهراً وأغمضت عينيك رأيته واضحاً فيها ، وإنما الفرق بينه وبين الحواس الظاهرة انها لا تشاهد إلا بعلاقة بينها وبين المحسوسات فاذ انقطعت العلائق كالهواء والضوء بأن ضمت الأجفان أو سدت الأذان فلا إبصار ولا سمع ، أما هذه القوة فإنها تشاهد ما فيها بوضوح بشرط قطع العلائق ولكن الصفات بدلت بأمثالها قطعاً إذ خضرة البستان في الخيال ليست هي التي في النبات وإنما هي مثلها وعلى صورتها ومن نوعها فقط فهذا فيه نوع الصفات لاهي

فياليت شعري كيف تسع هذه القوة عالم السموات والأرض وصوره المختلفة المجتمع فيها وكيف يوضع الكبير في الصغير

قد أجمع الحكماء على عدم تدخل الأجسام فلو كانت هذه القوة جسماً فكيف تسع هذه الأجسام كلها . ينسى الانسان الشيء مدة طويلة حتى إذا أراد أن يتذكره كرة أخرى أحضره من هذه الخيلة ولولا حضوره عنده ما تذكره فهذه القوة :

(١) تقبل الصور عن الحس المشترك

(٢) تحتفظها عندها لوقت ميسر الحاجة اليها

(٣) تحلل وتركب مادامت الحواس مستغلة بالعالم الخارجى فهي ترمم ما يرد عليها

فلذا ركبت الحواس أخذت الخيلة في النظر فيه عنده من الصور فتحلل تارة وتركب

أخرى اما صدقا واما كذبا فان كان تخيلها لقصد صحيح كتخيل النجارين وعلماء
البلاغة باختراع صور جميلة في هذين الفنين وكاختراع المصورين والنقاشين وهكذا
جميع علماء الفنون الجميلة فهذا تخيل صحيح وهو منشأ الاختراعات والروايات والتأليف
والصناعات وذلك يكون تحت اشارة القوة المفكرة فان أطلقت المفكرة لها العنان
أخذت تحلل وتركب كالهازلين والمخرفين فتأتى بصورة انسان عليه رأس جمل
أو بالعكس

(٤) ثم هي كما تحلل وتركب تضرب الأمثال وبيانه انها تصور الشيء بصورته
قارة وتمثله بصورة غيره تارة أخرى ولذلك نرى النائم يتخيل أخاه في صورة صديقه
والعدو في صورة الصديق وبالعكس .

هذه أعمال القوة الخيالة في الصور المخزونة عندها

- (١) ولا تقتصر على ذلك بل تمثل مزاج الانسان وأخلاقه ومعقولاته
- (٢) فاذا كان المزاج حاراً فربما يتخيل النائم انه في الشمس قرب نار . وتأتى
بالمعقول في صورة المحسوس الذى اعتادت عليه فلا تترك شيئاً من المحسوسات أو المعقولات
إلا وترجعها إليه
- (٣) وتمثل الأخلاق فيرى الغضوب انه ينازع الأقران والشهوانى انه يتصرف
في شهواته والكريم انه يفرق الأموال .

فانظر كيف ضربت مثل هذه الصفات المعقولة بالجزئيات المحسوسة

- (٤) وتمثل المعقول ألا ترى ان العلم يؤتى به في صورة اللبن . والكليات في صورة
الجزئيات كما إذا تصورنا الرحم وهى الأمر المعقول (القرابة) بصورة انسان يطالب بصلته
بين يدي ملك . فهذه تمثل الأمر المعقول بين الناس المستلزم للتعاطف والمودة . هذه
هى أعمالها في التمثيل وهى أربعة كما رأيت

- (٥) ومن صفات الخيالة انها سريعة الحركة فتخرج من الكل إلى الجزئى وبالعكس
ومن الكل إلى الجزء ومن الصديق إلى العدو وبالعكس رحمة من الله بعباده ليذكروا

مانسوه فيخرج الانسان من صديقه إلى صديق آخر ثم يذكر منزل ذلك الصديق وينتقل إلى جاره ويذكر قضية له ومنها إلى القاضى ومنه إلى الحكومة ومنها إلى السياسة وهكذا فتكون الأفكار سلسلة واحدة أيا كانت متضادة أو متماثلة أو متجاوزة أو متناسبة ولولا هذه الحكمة العجيبة ما أمكن الانسان أن يكون مدنيا ولم يتذكر مانسيه ولم يعرف معاشه (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) فهذه خمسة أعمال اجمالا ثمانية تفضيلا المخيلة فأتت ترى من هذا البيان ان أعظم نعمة علينا هي هذه المخيلة ولو نظرت حق النظر لعلمت انها جمعت فيها كل شيء مع ان حقيقتها مجهولة بالكلية فياليت شعري ما هذا الذي ليس معروفاً ثم يسع هذا العالم كله فترى المخيلة تسع السموات والأرض وما بينهما وتفصلها واحدة واحدة وان كنت في شك مما تلونا عليك فاغمض عينيك وفتش على الصور تجد ماراته عيناك وما سمعته أذناك حاضراً فيها بصورة وأشكاله . فان كنت لا تتعجب من هذا فابك على نفسك وعالجها بالآداب والعلوم حتى ترتاض فتصل لادراكه فانه خفى مع ظهوره .

هانحن أولاً نصور الكرة الأرضية والسموية بطريقتين احدهما بالكرات الصناعية المشاهدة في المدارس والأخرى بالخرائط الجغرافية وكلاهما صور ناقصة فالكرة تكون صغيرة جداً عن الحقيقة والخرطة ليس فيها إلا ظل لاحقيقة له وهو مع ذلك صغير جداً ربما بلغ المقياس فيه واحداً من مليون .

أما هذه المخيلة التي ضل عنا محلها فكيف تسع السموات كلها بشكلها مع صغر حجمه الرأس وهي شيء صغير جداً على أن حجمه الرأس لاتسع شيئاً من ذلك كله إذ هي مملوءة مادة دهنية هي المخ وأعصاب موزعة في الجسم وماء سائلا فلم يبق متسع لرسم نجم صغير فضلاً عن السموات والأرض .

ولعلك أيها القارىء بان لك ان نفوسنا شيء غير مادة بالمرة وعرفت انها عالم أوسع من عالم النور الذي ذكرناه لك سابقاً لأن المادة أمامنا قد عجزت كل العجز عن تحمل هذه الرسوم العظيمة بهذا البرهان الحسى الذي أقنناه في هذا الزمن والعلوم راقية والأمثال مضروبة منها

ثم انظر كيف تدخل هذه الصور العظيمة من حدقة العين مع صغرها فلئن سلمنا هذا البرهان في الخيلة التي هي ظاهرة من ظواهر النفس فكيف بالحدقة التي هي من أعضاء البدن وما بالناس نراها تسع هذا كله وتدخله إلى الخيلة .

حارت الأفكار في قدرة هذا المبدع الحكيم . واني لأذكر لك المحاوره المشهوره بين ابليس وادريس التي ملأت كتب التوحيد وقولهم ان ابليس قال لادريس أيقدر ربنا أن يدخل الدنيا في قشرة بيضة فقال يقدر أن يدخلها في سم هذا الخياط وفقاً عينه بالابرة . وأجابوا عن هذا بقولهم ان هذا من المستحيل الذي لا تتعلق به القدرة وانما هو من عجز الممكن عن قبول الایجاد والا فالقدرة لا حصر فيها .

هذا ملخص ما أجابوا به . وأنت أيها الأخ القاريء لكتابي هذا تأمل في السؤال وما يشير اليه الجواب فان هذه المسئلة من الأشياء المضروبة للناس أمثالا لعلمهم يتذكرون فلقد شاهدت أن الحدقة والخيلة قد وسعتا العلم كله بشكله وهيئته مجرداً عن المادة (ان الله على كل شيء قدير) إذ ليس المراد من العالم إلا خلاصته وشكله ولقد قالوا ان الله يقدر أن يدخله كله في قشرة البيضة بأن يكبر البيضة أو يصغر العالم وها أنت ذا شاهدت أن العين والخيلة بقيتا على حالهما ودخل فيهما العالم بحاله جملة واحدة فلا العالم صغر ولا محل الرسم كبر وانظر كيف قالوا في هذا المثال انه وفقاً عينه فتأمل كيف أشار الى ان العين هي نفس جواب السؤال كأنه يقول ان عينك ومخيلتك فيهما الجواب

هذا ما خطر بنفسى عند كتابة هذا الموضوع والذي انقذ في نفسى أنها ضرب أمثال للناس ثم تنوعلت في السكتب على انها حقيقية مع أن أصل الواضع لم يرد به إلا تنبيه العقول والتأمل ويظهر أنه حصل فيها تحريف وتغيير وتبديل وفي نسبتها الى سيدنا إدريس دلالة على أنها قديمة الوضع من وضع بنى اسرائيل الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج وكثر النقل عن موضوعاتهم ورواياتهم في كتب المفسرين على أنها مواعظ يراد غاياتها لا حقائقها وهذا أمر يعلمه

رسولنا صلى الله عليه وسلم ولكن شأن الأمثال إذا تداولت عليها الأيام ان يظن أنها حقائق .

ولعلك تقول لم لم توضح في كتب التوحيد قلنا أن العقول لا تحتل أن التخيل يقال له موجود وإنما يعرفه من ارتاض بالعلوم

هذه الصور المتخيلة يصدق عليها أنها موجودة وأنها معدومة وأنها متوسطة بين الموجودة والمعدومة إذ فيها إمارات الأحوال الثلاث فلعدم الجرم ربما يتوهم العدم ولوجود الصورة يظن الوجود ولتعارضهما يقال لا موجود ولا معدوم . وما أقدر هذه القوة على الأعمال فانظر كيف لطفت الأجسام الكثيفة ووضعها في أعلى بعد وان كانت في أسفل واضاءتها بعد الاظلام في قوله تعالى (انى رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتَهُمُ لى ساجدين) ثم أبرزت العقول في صورة المحسوس والعقول هو التعظيم والمحسوس هو السجود وكل ما ذكرناه في هذا المقام من عجائب الخيلة والى هنا قد ذكرنا قوى الحس المشترك والخيلة التى ذكرنا لها هذه الأعمال كلها ولها غير ذلك من الأعمال فهى تدرك المعانى الجزئية كالعداوة بين الذئب والشاء مثلاً هذا ما يظهر من كلام أبى نصر الفارابى فى آراء أهل المدينة الفاضلة وكتاب اخوان الصفاء أما كلام غيرهما من العلماء فانهم يجعلون القوى خمساً وهى الحس المشترك والخيال وليس له وظيفة إلا حفظ الصور والواهمة ولها حفظ المعانى المدركات بين الصور والحافظة تحفظ المعانى الصادرة عما قبلها والمتصرفة تتصرف فى تلك الصور والمعانى فان اتبعت العقل فهى مفكرة أو الوهم فهى متخيلة هذا ونحن لا يهمننا كثرة الأسماء والألقاب وإنما المهم هو معرفة ما فيها من الغرائب وهذا أنت ذا قد عرفت المذهبيين من باب الاحاطة فلندع الاصطلاحات جانباً ولنذكر القوة العاقلة

القوة العاقلة

اعلم أن جميع ما ذكرنا من القوى الباطنة والحواس الخمس الظاهرة خدم للقوة العاقلة فهي التي تستنتج من تلك الصور المحزونة والمعاني المدركة ومركباتها كليات معقولة تارة لتدبير البدن وهو العقل العملي وتارة لتكميل قوتها بالمعارف والعلوم وهو العقل النظري

قال الطوسي في شرح الاشارات ، فالعقل العملي هو إدراك كل مستنبط من مقدمات كلية أولية أو تجريبية أو ذائنة شائعة أو ظنية يحكم بها العقل النظري ويستعملها العقل العملي في تحصيل ذلك الرأي الكلي من غير أن يختص بجزئ دون غيره والعقل العملي يستعين بالنظري في ذلك ثم أنه ينتقل من ذلك باستعمال مقدمات جزئية أو محسوسة إلى الرأي الجزئي الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعماله مقاصده في معاشه ومعهده ، أما العقل النظري فاعلم أنه ست درجات بعضها فوق بعض ولكل درجة منها درجات كثيرة لا يحصى عددها إلا مبدءها

ولتتبع درجات الانسان من صباه إلى بلوغه النهاية من العلم ونسعى كل حال من أحواله باسم فاذا نظرنا إليه في أول ولادته لم نجد عنده الاستعداد لفهم الكليات المستنتجة من الجزئيات لمعرفة الحيوان والانسان والنار والماء وهكذا من الأشياء المحيطة فعند عدم هذا يسمى عقله عقلا هيولانيا أي ماديا لم يرسم فيه شيء من أنواع الصور العقلية فكأنه مادة خالية من الصور وإن كان جميع الحكماء أجمعوا على عدم وجود مادة تخلو من الصورة أما العقل فيها هو ذا خلا من الصور العقلية ولعلك تقول أنه يحس ويتخيل كما تقدم نقول ذلك ادراك قواه لا ادراكه هو فان الادراك المتقدم للجزئيات لا للكليات . فان ميز بين الأشياء كما ذكرنا فهو العقل بالملك وهذا يكون عند الفطام ونحوه إلى سن التمييز

ثم ترتقى عن ذلك وتحصل لها الاستنتاجات وتحصل النتائج بالبراهين العقلية وهي القوة الفكرية التي تحصل المعلومات بالمشقة والتعب في استخراج المجهولات كما

يحصل للتلاميذ في علوم الحساب والهندسة والجبر . فإذا استكملت هذه القوة وتمت جدا حصل عنها قوة أرقى منها وهي الحدس وهي سرعة حصول النتائج بحضور الحدود الوسطى بلا مشقة كما كان في الفكر كما يحصل للمدرسين على العلوم والسياسات مع استعداد فيهم من الفطرة معين على ذلك . وهؤلاء قليل وأقل منهم من يترقى عنهم فيصير ذا قوة قدسية إذ هي صافية تكاد تضيء . والعلم المشرق عليها عقل مستفاد من المبدأ الفياض بالنور على الناس واجتماعهما معا عقل بالفعل . فهذه سبع مراتب . العقل الهولاني

العقل بالملكة . الفكر . الحدس . القوة القدسية . العقل المستفاد . العقل بالفعل ولنضرب مثلاً لهذه الدرجات السبع بالمشاهد أمامنا فنرى أن العقل الهولاني عند الطفل كالشكاة وهي الكوة في البيت المسدودة من الخارج فانها تقبل النور بدرجات مختلفة حسب ما فيها من الهواء وصقالة حيطانها وعدمها والعقل بالملكة كالزجاج فانه أشف من الهواء في الكوة ومن حيطانها وأكثر قبولاً للأنارة منهما : والقوة الفكرية التي هي أرقى منهما كشجرة الزيتون إذ فيها زيت مستعد لظهور النور فيه ولكنه محتاج للنصب والتعب في اعتصاره واستخراجه ، والحدس كالزيت إذ هو أقرب لقبول ظهور النور من شجرة الزيتون وهما جميعاً يولدان النور بخلاف المشكاة والزجاجة فليس فيهما قوة لإخراج النور منهما وإنما هما قابلان لاشراقه عليهما فتفطن للفرق بين الجميع والقوة القدسية كالزيت الشفاف الذي يكاد يضيء ولو لم تمسه نار . والعقل المستفاد كنور على نور فانه علم أشرق على هذه النفس القدسية واجتماع هذين النورين يسمى عقلاً بالفعل وهو كالصباح صار مضيئاً بنفسه . وفي التحقيق إن الثلاثة الأخيرة مرتبة واحدة وبهذا تكون المراتب خمساً فقط .

إذا فهمت ما قلونا عليك عرفت ما نشير إليه الآن وهو قوله عز وجل (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ) الفاض على الناس من العقول والعلوم (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُبارَكَةٌ زَيْتُونَةٌ لَأَشْرَقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ) إشارة إلى الاعتدال الغريب (يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَفَوَلَمَ تَمْسُهُ نَارُ نَوْرٍ عَلَى نَوْرٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ شَيْءٍ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فتأمل هذه الآية كيف جمعت في نظمها من المشاهد أماننا ما ينطبق على درجات العقول في النوع الانساني وما استخرجه الفلاسفة من المباحث وكيف تناسب المعقول والمحسوس وبقي هنا شيء هو : أنه ذكر النار وهي توقد بها المصابيح ولعلك تتذكر ما قلناه قريبا ان العقول البشرية لاتأتي لها العلوم إلا من مبدأ يشرق العلوم عليها يناسبها كما أن الكواكب مبدأ يشرق النور المشاهد على الأبصار المناسب لها وقد أوضحناه في أول الكلام في هذا الباب وهو علم النفس بما لا مزيد عليه .

فهذه النار إشارة إلى موجود لانراه ولا نلمسه ولا نحس به ولا نشمه ولا تذوقه ترفع عن ادراك الأبصار (لا تدركه الأبصار) وهو يدرك الأبصار) عجزت الأبصار عن ادراكه لأنه يناسب قوة أرقى من قوتها كما قدمنا

فلا قوة للأبصار الا على الأضواء الظاهرة وكيف لها أن تتخطى مراتبها وتعلو فتدرك ما يدرك العقل كلاً ثم كلاً وهو يدرك الأبصار إذ هو مسيطر على العقل قطعاً يعد له والعقل مسيطر على آلاته فقد علا على الجميع بالعلم (وهو اللطيف الخبير) فلاطفه جداً ودقته عن الأضواء المشاهدة لم تدركه الأبصار فهو برهان عقلي للقضية الأولى (الخبير) لأنه استعلى على هذه القوى كما قدمنا فهو برهان للقضية الثانية فتأمل هذه التمثيلات الظاهرة ثم الحجج الباهرة

فالمد للعقول المخرج لها عن البساطة إلى المعقولات في الدرجات المختلفة موجود لانراه يعبر عنه بالملائكة والعالم الأعلى وكلها نفوس قدسية شرفت على المادة أقرب إلى اشراق النور عليها من المبدع الحكيم منا . فكل علم حصل في قلوبنا فانه بواسطة عالم ينزله إلينا على حسب استعدادنا قلة وكثرة . وكل حادث على نفوسنا من المشاغل الدنيوية مؤخر لهذه النفس عن الكمال الذي اختص به (الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالوحي والرؤيا ونحو ذلك)

واعلم أن النوع الانساني على وجه العموم له اتصال بعالم الجمال المشرق على هذه النفوس البشرية تراهم يقتبسون المغييات في المنام وهم كثير جداً . ومنهم من تحتاج رؤياه إلى تأويل ومنهم من لا تحتاج وهذا قد يقوى فيرى في اليقظة ما يراه في المنام ثم بالحواس وهي مرتبة فوق مرتبة المنام وهؤلاء هم الكهنة ومن نحاحوهم من كل من يستعين بشيء من الخارج كالمدل وضرب الحصى والنظر في الزجاج في الشمس وتحضير الأرواح والتنويم المغناطيسى وبالجملة كل ما يفعله الانسان ويشغل الحواس عن النفس حتى تتصل بعالمها وتخبر بالغييب الذى هو شغلها الحقيقى ومنبعها الأسمى فالكهان قسمان قسم يحتاج الى استعانة وقسم لا يحتاج وهذا الثانى هو ما كان لكهان العرب مثل سطيح وغيره ولكنهم لا ينظرون بكهاناتهم الا فى الأمور الجزئيات أما الكليات فمعرفةهم بها قليلة جداً كالرؤيا ويحصل عندهم كثير من الغلط وقلب الحقائق فيختلط الصادق بالكاذب كما فى الرؤيا فقد اختلط الصادق بالكاذب فيهما . وذلك لأن الخيلة تحلل وتركب فى المنام واليقظة صدقا وكذباً كما علمت فى تعبيرها عن المزاج والأخلاق . وغيرها فيما لديها من الصور .

يشير لذلك ابن صياد وقول النبي صلى الله عليه وسلم له كيف يأتيتك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . فقال : خلط عليك

وهؤلاء قوتهم الخيلة قوية حتى تتحمل ما يرد عليها من الحواس وما يرد عليها من العالم الأعلى وهى عند الكهان أقوى منها عند عامة الناس إذ لا يقوون إلا على اختلاس المغييات وقت المنام فيتصور المعقول بصورة المحسوس بهيئة عجيبة جداً القوة التى هى أرقى من هذين قوة الأنبياء فانهم يرون فى اليقظة وفى المنام وأول الوحي الرؤيا الصادقة ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يتمثل له الملك بشراً سوياً فى اليقظة وأخبار الله للأنبياء على ثلاثة أقسام

(١) وحى فى القلب بحيث يعلم أن هذا من عند الله ولا يمكن دفعه (٢) وبروز هذا المصدق به من العقل فيسمع صوته ولا يرى شخصه وهذا هو المعبر عنه بسماع الملك

(٣) وظهوره الى البصر وهو رؤية الملك يكلمه وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) هي المرتبة الأولى (أو من وراء حجاب) هي المرتبة الثانية (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) وهي المرتبة الثالثة (إنه عليم حكيم) والى هنا تمت مراتب التعلم من العالم الأعلى وقد علمت أنه كله سبعة أقسام للمنام مرتبتان وللكهانة مرتبتان وللنبوة ثلاث مراتب فهذه سبعة كاملة . وتأمل كيف كانت النبوة نهاية للقوتين ثم كيف كان البشر كلهم عندهم هاتان القوتان ولعمرك لولا قوة مودعة في نوع البشر وهي الرؤيا الصادقة ما صدقوا الأنبياء فما من إنسان إلا ورأى رؤيا صادقة أو سمع بمن رآها

اقسام العلماء

ولما اختلف الناس في أخذ العلوم من بابي الحواس والعالم القدسي رأيت العلماء قسمين قسم أخذوا علومهم عن الفكر والنظر فان تبعوا الأنبياء فهم المتكلمون وإن لم يتبعوهم فهم الفلاسفة وقسم أخذوا العلوم من جهة إشراق النفس فان تبعوا الأنبياء فهم الصوفية . أولم يتبعوهم فهم الفلاسفة الاشراقيون فهذه أربع فرق لا يخرج أحدهم العلماء عنها .

اقسام العلوم

والعلوم ستة أقسام ثلاثة نظرية وثلاثة عملية فالنظرية إما أن تحتاج الى المادة في الخارج والذهن وهي الطبيعيات ويدخل تحتها علوم كثيرة من الطب والتاريخ الطبيعي والبيطرة والبيذرة وعلم التشريح وغيرها وإما أن تحتاج الى المادة في الخارج فقط لافي الذهن وهي العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك فانه لا توجد المقادير ولا الأعداد إلا في مقدرات ومعدودات معينة ولكنها في الذهن لا تحتاج إلا الى تصور مطلق مادة لامادة مخصوصة. وإما أن لا تحتاج الى المادة لافي الخارج ولا في الذهن

وهي علم ما وراء الطبيعة من الخالق وصفاته والملائكة إذ هذه موجودة بلا مادة لما علمت في البراهين التي قدمناها ويتصورها العقل بلا مادة

وإذا كانت العلوم الرياضية لم تحتج إلى المادة في الذهن فكيف بالمجردات فهي لا تحتاج إليها من باب أولى

وهذه الأقسام الثلاث كالتقسيم الذي قدمناه في الأجسام والأضواء وعالم العقل فالأجسام كعلم الطبيعة والأضواء كعلم الرياضة وعالم العقل كعلم الإلهي فاجتمع التقسيمان في لفظ واحد لأن البراهين الصادقة ترجع إلى أمر واحد كلها فهذه أقسام العلوم النظرية .

وهناك علوم عملية وهي سياسة الإنسان لنفسه وسياسته لأهل بيته وسياسته لأهل مدينته وهذه تكلفت بها الشريعة الإسلامية وعلوم الأخلاق والسياسات المستنتجات من التجارب فهذه ستة أقسام وتحتها فروع كثيرة تعرف بالاطلاع والمزاولة وإلى هنا تم الكلام على أقسام المعرفة الثلاثة وهي الحواس والقوى الباطنة والعقل

التقسيم الحديث

هذا هو التقسيم الذي اعتبره المتقدمون ، ولقد عرف الغربيون هذه العلوم لماقلوها وأخذ (كانت) يفكر فيها فاعتبر القوى العقلية محلا للتقسيم وجعل المدار فيها على القوة الخيلة والقوة الذاكرة والقوة العاقلة فلقوة الخيلة جميع العلوم الأدبية وما ينحصر نحوها كالشعر والنقش والتصوير وما أشبه ذلك لأن هذه منبعها الخيال ويدخل في هذا علم البيان البديع

والشعر ثلاثة أقسام قصصى وتمثيلي وغنائى ، وللقوة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان أثرى وبشرى والأثرى ماجاء في الديانات والبشرى تاريخ الأمم وهو المشهور في الكتب والعلوم الرياضية والطبيعية وهو المعمول به الآن حتى إن كل علم له تاريخ خاص به وللقوة العاقلة (١) علم الفلسفة وهو الباحث عن نظام

الطبيعة (٢) ومعرفة ما فوق الطبيعة من العالم الأعلى والبحث عن الله عز وجل وعن النفوس المجردة (٣) ومعرفة نفس الانسان ويدخل في ذلك علم النفس ثم المنطق ثم علم الجمال والقانون ونظام المنزل ونظام علم الأخلاق وهكذا

وهذا التقسيم يدخل فيه فروع جميع العلوم كما ان التقسيم الأول كذلك ولا ذكر لك أيها الذكي نبذة صالحة من مجمل علم المنطق فأقول جاء في المجلد الخامس عشر من تفسير الجواهر في سورة الروم عن آية (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) تحت عنوان (اللطيفة الثالثة في العلوم المنطقية)

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شيء خلقه فهدي ، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشؤونه العامة والخاصة . فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملاها بالعسل وربى ذريته . وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذي يكون فيه مأواه وبه يصداد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر في هذا التفسير في مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدي لندى أمه ويمسكه ويمتصه ويبكى عند الجوع ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشؤونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه . كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده . وقد وجد الناس في عصرنا انهم عثروا في الآثار المتوغلة في القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود . واختلافهم إنما هو في أوصافه وعدده ولكنهم جميعاً متفقون على وجوده . إذن الاتجاه إلى موجود له سموّ وعلوّ مسلم به في الفطرة وهذا معنى قوله تعالى (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) فان هذا النوع الانساني قد اتفق تاريخ أمم على انهم جميعاً كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الاسمي . وفطرة الناس منحصرة في (أمرين اثنين) لثالث لهما (الأمر الأول) إنماء الجسم والمحافظة على النسل فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما

وتربية ذريتهما . هذه فطرة فيهما ولولاها نخلت الأرض من نوع الانسان وهكذا كل حيوان (الأمر الثاني) المحافظة على اسعاد الروح وآية ذلك ما تراه من حفظ العرض والخوف من السمات والعار والخزي والذل وما أشبه ذلك وهكذا ما ذكرناه من توجيهها لمبدع الكون واعترافها به وعموم ذلك في كل زمان ومكان قديماً وحديثاً حتى ان الحيوانات عند حدوث الملهمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدراً لوجودها تستغيث به ليس في هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم اجمالاً .

هذه الفطرة كما ألهمت الصبي التقام ثدي أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون في الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهراً يجري كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدرّبون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرقون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها في غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم في حال بداوتها وفي حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم سمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن في فطرتهم من فنون العلوم كالمهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزاً كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة في فطرتهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) ان الانسان يسمع ويبصر المسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة ، فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع . فاذا كان المحسوس لا يعرف إلا بحاسة واحدة وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة في حكمها عليه ، ألا ترى

أن الصوت إنما يعرف بالسمع ، أما اللون والشكل مثلاً فالسمع لا يدركهما هكذا الصوت لا يدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها في إدراكه . إذن يصدق السمع في المسموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فانهما لا يختصان بحاسة واحدة . فاذن لا تصدق العين في حكمها على التفاحة ولا في حكمها على اللبن ، وبيانه أن الانسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة وقد يكون مخطئاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولوناتها بلون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكمتنا في أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع ان هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فان حكمتنا فيها وإفلاها . هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالدهن المخلوط بالماء فانهن تراه ويخيل للعقل انه لبن فلا بد من حكم القوة الذائقة مع العين ، فهنا (ثلاث مراتب في الحكم) حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فاذا خالفنا هذه القواعد فان العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى انه يرى السراب في وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة في أنها رأت لون الماء وهيئته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده فلا بد من انضمام حاسة اللمس اليه ليعرف انه سائل وحاسة الذوق ليعرف انه ماء وما دام ذلك متعذراً على من بالصحراء فحكمه معرض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهي في أحكام الحواس في محسوساتها

﴿ مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الانسانية المنبئة من الفطرة (مقاييس خمسة) مقياس يحكم حكماً قاطعاً . ومقياس يحكم حكماً ظنياً . ومقياس يقيس ويكون أضعف حكماً مما قبله . ومقياس يكون أقرب إلى الوهم . ومقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان . وأما الثاني فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس

فهو السفطة . أما البرهان فذلك هو المبنى على ما شهدت به الفطرة في مبادئ أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشبه الناس من جهال وعلماء وأنبياء وأذكىاء مثل .

(١) أن الواحد نصف الاثنين والكل أعظم من الجزء

(٢) والشيآن المساويان لشيء واحد متساويان

(٣) والنقي والاثبات لا يجتمعان

(٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين

(٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويان

(٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير

متساويين

(٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير

متساويين

(٨) وإذا ساوى شيآن نصف الشيء كانا متساويين

(٩) وإذا ملأ شيآن حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين

وهكذا مما ذكر (اقليدس) في أوائل الهندسة ، وهذه أمثالها هي المسميات أوليات لأنها تعرف في أوائل العقول ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشروط التي أشرنا إليها . وهكذا ما تصدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهكذا المتواتر الذي شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم كما تقول في مصر ان في الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو استراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه تقطع بوجودها وان لم نرها . وهكذا ما لاحظناه مراراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلاً للشمس امتلاً ضوءاً وكلما اقترب منها قل ضوءه ، ومتى كان مقارناً لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمدت نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كانت وجهه المشرق

في جهة الشمس لافي جهتنا ثم تكرر هذا فحكنا حكما يقينيا كما حكنا في الجربات سابقاً . وهكذا نلاحظ في باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شبقاً وأخرى نسميها مرضاً وهي كثيرة لاحد لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقداً ورهبة وجباً وكراهة فهذه يقينيات

فهذه كلها اذا جعلت مقدمات في أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة هذا هو المسمى بالبرهان ويليه في القوة الجدل

﴿ الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو ما يستعمله المتناظران بحيث يورد كل منهما ما ينسلم الخصم به كالمسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة في كل أمة فهو لا يكفيهم في أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لا غير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلاً ويحببهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالأسلوب الشعري ، وهناك ما يقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر في النفس وأدناها كلها المغالطة وهي السفسطة التي يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلاً وقد شهوها بالدينار فإن كان ذهباً خالصاً فهو مثال للبرهان الذي لا يخطر ضده بالبال وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للخطابة وإن كان نحاساً كله كان مثالا للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسعى بالتصديق واعلم أن المطلوب علمه

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ولكن سبيل

العلم اليه انما يكون بالتخليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التي حواها كلاهما فيحكمون حكماً قاطعاً

(٢) وان كان نوعاً كالانسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين في المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب في الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد في الثاني

(٣) وان كان المطلوب جنساً فلاحكم عليه بمحد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنعق العقاقير وضررها وهكذا فهذه لابد فيها من القياس

(٤) وان كان المطلوب هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كمعرفة الفرق بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمدونة والمسمومة ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعالها في غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لا يتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن المقولات) من علم المنطق وهو أيضاً من الفلسفة العامة . واعلم ان المتعلمين في مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقيناً فيما يزاولونه وبه استنتجوا منافع للنوع الانساني وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها فاذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدي أمه وعلى إغماض عينه سريعاً إذا أحس ، باقتراب جسم غريب اليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفسنا ، وهم أيضاً يقسمون الكلمة إلى (ثلاثة أقسام) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضاً يقرؤون الهندسة وكالها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذي به استخراج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فاذا فطر الله الناس على

استعمال الفاكهة لتي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد وأنبحث ما يوزي ما استعملوه بلا جد ولا نصب ، وإذا رأيتهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا تراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له عموما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد النبات بمجرد سماعه ولكن لا ننظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وأعمال فكر بمساعدة فطرتنا ﴿ مراتب الناس في الاستدلال ﴾

(١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم ما بين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فإذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لا بد له من علة

(٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لهما أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لا تنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لا يلزم من وجودهما وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة

(٣) وهكذا كلما رأى ولداً ظن أن له أخوة كاخوته وداراً وجوعاً وشبعاً على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الانصاف بذلك ، فان جاع ظن جميع الأولاد جوعاً وهكذا إن عطش وعلى ذلك فقس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه (٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر في كل بلد حين يكون ببلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم (٥) إن كل نتيجة لا بد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي

أو غيرها وقد تكون المقدمات كثيرة جداً مثل قولهم زوايا المثلث تساوى قائمتين فإنها لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلاً وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلاً وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس (٦) وقد يكتفى في البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك في الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم فهو ذو جهات) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضاً صادقة في أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة فلعله ما يتحرك) وهذا أثبات للنفس ، ويراد بعد ذلك اثبات أنها جوهر لا عرض فيقال (وكل علة محركة للجسم لا يخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة في جهة واحدة مثل حركة الثقل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، وأما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بارادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حساً (وكل علة محركة للجسم بارادة واختيار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له

هذا ملخص ما ذكره (اخوان الصفا) هنا وأنا أقول أيها الذي هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فعنى هذا كله أن الانسان قد يستدل بتقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة الهندسة فهي متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المئات ولكنها في آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف في أوائل العقول مثل ما تقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال في الاستدلال على النفس ان الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلا بد من سبب ، فان رأيناه يتحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناه علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذي حرك هذا الجسم ليس جسماً بل هو أمر معنوى وان رأيناه يتحرك إلى جهات مختلفات بارادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفساً وذلك كالحیوان والانسان ، ولكن هذه القوة التي سميناها نفساً ربما كانت عرضاً أغنى شيئاً كاللون والخفة والثقل واذن

يكون تابعا للجسم لأنه من أوصافه فنقول « وكل شيء يحرك الجسم بالارادة والاختيار لا بد أن يكون جوهرًا » أى انه ليس عرضا لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقل والخفة وهذا تأباه الفطر الانسانية

هذا كله من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق فى النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فاذا رأينا قوما يعيشون فى الأكوخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرث ولا القنطار ولا الجصور قلنا هكذا رأينا فى الحيوان أمثال الناس تربي ذريتها بغير وجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الانسانية هنا ناقصة لم تستحكم . واذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربي ولدها وهذا كله سميناه فطرة . فالطير تربي وتحضن بيضها بالفطرة كما ان الجراد ترك بيضه وقصص وحده بالفطرة مع نقصهم وآخرون عاشوا بالعلم حرقوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراخها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة فى الطير والانسان المدنى أ كمل من الفطرة فى الانسان الممجى كما ان الفطرة فى الطير أ كمل منها فى الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير الى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الانسان المتوحش وذى المدنية فى عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامى — فطرة الله التى فطر الناس عليها — فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التى لا ترى ذريتها أصلا ، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للنخاسة إيماء الى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقائمين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا

مسامرة في علم الحكماء والفلاسفة

يحكى أن ملكاً عظيماً من ملوك الهند كان له وزير عالم حكيم وهو مطلع على جهل الملك وعبادة الأصنام وقد مكث ذلك الوزير دهرًا طويلاً يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغاً من النظر في أمر الرعية وكتب النوبة وتدير السياسة هل لك أن تخرج الليلة متسكراً لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية وننظر إلى آثار المطر وكيفية هذه البلاد ومصالح العباد وكان من سنة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك إلا في كل سنة مرة ولا يظهر للرعية إلا يوماً واحداً كل ذلك تعظيماً لأمر الملك وسياسة لأمر الرعية فخرجاً يطوفان حول المدينة متسكرين فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتد نحوه حتى دنوا منه فاذا هما بمنزلة شبه راية عظيمة عليها حيف مرمية وسهاد طرية منتنة الرائحة وإذا في أسفله ثقبه شبه المغارة وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سهاد ورماد تلك المزرلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزرلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفي رجليه ثبَّان^(١) وعلى رأسه شملة مثل ذلك وإذا بحذائه امرأة تشبه في الخلقة والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزرلة وإذا بين يديهما سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة ومجنبه جرة مكسورة فيها دردى كالخلل وقد مزجه بيسير من ماء إلى جنبه سلة خوص فيها تاقات كرفس وكراث ويد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها وإذا على فخذه قسبة قد مد عليها خيطاً شبه قوس النداف وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويفنى بأبيات غير موزونة خارجة عن الإيقاع وإذا به يذكر في تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وافراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جايقة منتنة الرائحة شبه الدف وهي تنقر إذا غنى هو وترقص وتثنى عليه وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياء بتاعة من ذلك الكرفس

(١) الثبان كزمان سروال صغير يستر العورة

والكراث وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه شاهنشاه ملك الملوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويثني عليها ويصفها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في جنب ذلك وإذا شربا سأل الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبدا ما بقي الدهر فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن اني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس لهوى مع تمكني من شهوتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصفان هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن انه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة ان أرادا لأنه لا يعرض لهما شيء من العوائق التي تعترض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في اطراف المملكة واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق ومثل النظر في تظلم الرعية وهمج العامة والنظر في محاسبة الكتاب وتولية العمال ومثل النظر في التعازي والتهاني والنظر في أمر الخاصة واصلاح أمر العامة ومثل النظر في القصص والتوقيعات وحفظ الخزائن وتفقد الرسل الواردين من الأطراف واكرامهم والتجمل لهم ومثل النظر في الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها وما شا كل هذه من الأشغال المنقصة للعيش المنقصة للذات الموردة للغموم والهموم والأحزان ثم قال الملك ولكني أظن انه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعانينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا الى حالهما لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة هما التي فيها لذة أبدا وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك تذكر ما قال له صاحبه لما شكاه اليه اطلب الفرصة وضع الدواء على حيث الداء فان لكل مقام مقالا قال الوزير للملك فأخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا

وسرورنا بأحوالنا وفرحتنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هم فيه ونحن
 محقودون وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين عند أحوالنا فلما
 سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه فقال له وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع
 من مملكتنا أو سلطانا أعز من سلطاننا أو بلدا أكثر نفعا من بلدنا أو مروة أحسن
 من مروتنا قال له الوزير لا قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت انه يصغر حالنا
 في أعينهم ويستحقرون أمرنا قل قوم يقال لهم الناسك فقال الملك أين بلدهم ومن أي
 ناس هم قال هم من قبائل شتى متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد بجميع دين واحد
 ومذهب واحد ورأى واحد قال صف لي مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله في خلقه
 وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس في الناس منهم إلا فريسيير لأنهم في الأنام كالملح
 في الطعام بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات في الأرض ويدعائهم يرفع الله
 من العباد التقط والغل والوبا ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن
 أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقرهم وناجهم وكشف
 لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينهم وبين خلقه أرسلهم
 من عالم الأرواح الذي في ملكوت السماء الى عالم الكون والفساد في الأرض وأنزل
 معهم الكتاب ليدعوا عباده الى جواره في الجنة التي كان أبوه آدم فيها فقال الملك
 وماذا يصفون من أحوال عالم الأرواح وملكوت السموات قال يقولون ان هنالك
 فضاء فيضا وافلاكا دوارا وكواكب سيارا وأنوار ساطعة وبهجة ونسima وزواجر يحانا
 ونعيم الجنان والرضوان وجوار حور حسان وولدان وغلمان ومردان وطيب ونسيم
 لا يخالطها هجير الصيف وزمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ولا فيء الأجرام ولا مزاحمة
 في المكان وملاك دائم وعز سرمد وأهها أحياء لا يموتون وشبان لا يهرمون وأنحاء
 لا يترضون وأغنياء لا يفتقرون وجيران لا يتحاسدون وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم
 لا يكدره بؤس ولذاتهم لا يخالطها آلام وسرورهم لا يشوبه أحزان وفرحهم لا يداخله
 غموم ولا هموم ولا نوائب ولا حدثان ولا تغيير الزمان فقال الملك وماذا يقولون هل

الى هناك وصول قال الوزير لا يشكون ان من طلبها كما يجب وصل اليها قال الملك فكيف وجه الطلب وكيف المسلك وكيف الوصول فوصف له الوزير ما ذكرنا طرفا منه في رسائلنا الناموسيات وما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام في كتبها وما أشارت اليه الفلاسفة الحكماء في مرموزاتها

﴿ فصل ﴾ فقال الملك للوزير مذ متي عرفت هذه القصة واعتقدت هذا الرأي وعلمت هذا المذهب فقال مذ زمان قال فما الذي منعك ان تذاكرني بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير في طول صحبتك معي قال الوزير اني لم أنرك ماذا كره الملك بهذا الأمر الجليل لأنني نخلت عليك به أو لم أرك أهلا لذلك ولكني تركته انتظارا وطلبا لفرصة توجب الخطاب وموضعه للكلام لأن النظر في هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصور له بكنهه المعرفة يحتاج الى قلب فارغ من أشغال الدنيا ونفس صافية من العوارض المكدره والآراء الفاسدة والعادات الرديئة وهمة عالية في طلب الأمور الشريفة والزهد في الشهوات الجسمانية المذمومة وترك اللذات المحسوسة الجرمانية الفانية حتى يتصورها بحقها وصدقها كي لا يكون المقر بهذا الأمر مقلدا كالعوام الذين لا يعلمون من القول الا زورا ولا من العمل الا ظاهرا ولا من العلوم الا قشورا ولا من الدين الا تعصبا وان الملوك كثر الناس شغلا في أمور اندنيا وأطولهم أملا وأرغبهم في الخلود في الدنيا وأكثرهم تمنيا للبقاء فيها الشدة تمكهم من التمتع بنعيمها واستغراقهم في شهوات لذاتها ولا يصلح لهذا كره هذا العلم الا فتیان أذكاء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون من الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الرديئة أو مشايخ مهذبون في العلوم الرياضية مجربون في الأمور السياسية محبون للعلوم الالهية غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة أو نفوس ملكية لها هم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمدي

فقال الملك ما يسعنا بعد هذا اليوم الا أن نجعل أكثر عنايتنا في الكشف عن حقيقة هذا الأمر على صحة وبيان من غير تقليد ولا تكذيب فان بان انه حق طلبناه

حق الطلب وتركنا ما نحن فيه من عبادة الأصنام وأمور هذه الدنيا التي كلها الى زوال وفناء كما فنيت أعمار الذين كانوا من قبلنا فزال ملكهم ونعيمهم ثم قال له اخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بنى آدم من أجناس الأمم من الترك والحبس والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزلط والاكراد وياجوج وماموج والسيسان وأم آخر غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبرارى نحو من سبعة عشر ألف مدينة يملكها نحو من ألف ملك هذا في الربع المسكون من الأرض على ان الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبرارى والأنهار والعمران والحراب ما هي في فسحة سعة الهواء الا كحلقة ملقاة في بركة صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة أفترى أيها الملك ان الخالق تعالى ترك تلك الاماكن الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغة خالية لم يجعل فيها أهلاً وسكاناً وخلائق يليق بها وهكذا انه لم يترك البحار الإجماع الأمواه حتى خلق في قوارها الزاخرة أجناساً من الحيوانات وأنواعاً من السموك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغاً حتى خلق فيه أجناساً من الطيور تسبح كما يسبح السمك في الماء وكذلك هذه البرارى اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك في الآجام والآكام ورؤس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر في جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال انتهى

الارادة والاختيار

والإنسان ميل طبيعي الى ما يعلمه بهذه القوى الثلاث ويسمى إرادة وهي عامة في الحيوان والإنسان فيشتاق الحيوان الى ما يراه بحواسه وينفر عما يضره وهكذا الى ما يتخيله وما يعقله ولكل من هذه الثلاث مرغوب عنه ومرغوب فيه فهي ستة أقسام ثلاثة مرادة وثلاثة غير مرادة . فما اشتاقت اليه النفس من المحسوسات حركت تحت إرادتها الاعضاء للطلب وما نفرت عنه حركتها للهرب منه فتأمل كيف خلقت الاعضاء صالحة للطلب والهرب على مقتضى ما تحسه في الخارج ليكون النظام تاماً وتكون الأفعال هنا جسمية بالأعضاء وعقلية بشعور الحواس وأما القوة الخيلة فيكون وصولها الى ما أرادته بمجرد التخيل أو بالاستعانة بالحواس على استحصار الصورة بالمشاهدة أو بأخذها من العقل كما في حال الرؤيا الصادقة .

وأما العقل فمتى اشتاق لشيء فانما يكون بأعمال عقلية لا غير مسخراً تلك القوى تحت أمره لتحضر له الجزئيات لاستنتاج الكلّيات ذلك عمل عقلي فلكل درجة من درجات الحس عمل يناسبها

السعادة والاختيار

لا ريب ان الإرادة عامة عند جميع الحيوان وهو مشترك كله في الحواس وقوى النفس يتصرف على حسب الخيال والحواس اما الإنسان فارادته التابعة لعقله أرقى من تلك الإرادة إذ هذه معرفة للعواقب لا كالأرادة في الحيوان إذ لا يعرف الا المشاهد أمامه الحاضر ولنسم إرادة الإنسان اختياراً ولا ريب انه بهذا الاختيار يرقى الى السعادة تارة وينزل الى حضيض الهوان تارة أخرى ومتى تمكن الشوق في فؤاده حركه طبعاً الى المشتهى ولا تطن ان العقل مهما وصل من الكمال وكذا الخيال والحس يكتفي للحياة في هذه الدنيا بدون شوق فالحيوان بحسه وخياله والإنسان بعقله مهما أدرك كل منهم النافع والضار لا يعبأ به الا اذا حصل عنده شوق الى الطلب أو الهرب فلا بد اذن

في كل أمة من ائمة قوة الشوق عند التلاميذ الى المعالى وعلو الحياة ونظام الأمة والعلوم والمعارف ومكارم الأخلاق وبهذا الشوق يشتغل الناس بالسعادة ويصلون الى الكمال

حكمة تامة ونظام عجيب

ها أنت ذا علمت نظام العين وتركيبها العجيب أولاً ثم قوى النفس الداخلة وما معها من العقل ودرجاته ثم العالم كله وغرائبه فما هو ذا تركيب العين في غاية من الاتقان والبهجة والنواميس الغريبة التي علمتها وعالم النفس قد شاهدت حكمه العجيبة ورأيت أن العين والنفس كلاهما من حسن اتقانه قد اتسع لما لا يحصى من العالم فالعين وسعت السموات والأرض وإن كانت لا شعور لها بشيء وإنما هي آلة والنفس وقواها قد أدركت ما لا نهاية له من الصور والمعقولات فكان كلاهما عالم مركب متقن غاية الاتقان ولعمري إن بينهما وبين العالم كله مشاكلة تامة ولذلك يقول تعالى (الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إشارة الى النظام العمومي في السموات والأرض .

ثم قال مثل نوره كمشكاة الآية إشارة الى ان عالم النفس عالم وضعه كوضع العالم كله والسراج وأما العين فانما هي آلة من آلات النفس وهاك البيان قد علمت ان المصباح ما تم أمره إلا بأشياء مختلفة من زجاج ومشكاة ومادة بها يتقد كالكهرباء أو المواد الدهنية وهي لا جرم تختلف درجات بعضها فوق بعض في الاضاءة ولولا هذه الشروط ما تمت الاضاءة ولو نظرنا الى جسم الانسان لوجدناه مركبا من عناصر مختلفة اتحدت وكونت هيئة اشتعلت فيها نار الروح الحيوانية ولكن فرق بين النارين فهذه نار معنوية وتلك نار حسية لأن تركيب الجسم أتم من تركيب المصباح ثم انك اذا تأملت العالم كله الفيته كالمصباح في تركيبه بل كالجسم في نظامه فكما كان الشيء أتم تركيبا وأجمل وضعاً كان أكثر نفعاً ولذلك كان نظام العين لشدة دقته أجمل من نظام السراج في صنعته ولذلك كان نفعه أعم وأهم وما نسبة العين لنفس الانسان الا كنسبة السراج لهذا العالم بل كل سراج في العالم محسوس من الكواكب والمصابيح

فهو نظير الحواس عند الانسان ولكل نور يناسبه فالكون المحسوس نوره محسوس وجسم الانسان لما كان مداره على الروح كان نوره أقرب لها وهو نور العين فقوله الله نور السموات والأرض إشارة لنظام العالم وقوله مثل نوره إشارة الى روح الانسان في جسمه موازنا بينها وبين المصباح وتركيبه

فالموازنة بين العالم والانسان والمصباح والعين أو الروح صحيحة فأيهما وزن بالآخر صح اعتباره فاذا وازنا بين روح الانسان والمصباح وجدنا ان جسمه كالزجاجة وروحه كالمصباح وكما ان للمصباح زيتا يتقد منه فكذلك الروح لها مادة وهو الدم المنبث من القلب المبخر لخلاصته وهي الحرارة الغريزية

وكما أن السراج يضيء البيت فكذلك الروح تضيء الحواس كلها وكما أنه اذا أحيى بين السراج وبين ركن من أركان البيت أظلم فكذلك الروح متى أحيى بينها وبين حاسة من الحواس بمحصول عائق في أعصاب الحس أو مواد الاحساس لم تحس تلك الحاسة وأظلمت وكما أن المصباح ينطفئ بأحد أمرين إما بوارد عليه من خارج وإما باقطاع مادة إيقاده كالمواد الدهنية أو روح الكهرباء فهكذا الانسان يكون موته إما بقتل وإما بنفاد مادة الحياة وكما أن للسراج مادة يتقد فيها أيا كانت تلك المادة فهكذا الروح لها مادة وهي خلاصة الدم السارية في جميع العروق واعلم أن هذه المواد المشاهدة بينها تفاوت عظيم جداً فللمادة الطينية لا تقبل ناراً البتة فاذا أشرفت إلى أن صارت نباتاً قبلت النار المحسوسة فاذا ارتقت الى الحيوانية كانت نارها أضوء كالشموع التي نارها حسية وظهرت فيها الروح الحيوانية في جسم الحيوان فاذا ارتقت الى الانسانية صارت الروح أجمل وجاء لها العقل وارتقت الى عالم الجمال وهذا هو نهاية الإبداع فهذه هي سنة الكون وهي الترقى (ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) (فسنة الله في الكون الترقى دائماً)

فوازن بين هذه السلسلة الآخذة من الجماد الميث الى الروح العاقلة في الانسان

وبين نحو الطفل ولادة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة فموت وهكذا المولدات من جماد فنبات فحيوان فانسان فعقل راق وهكذا الأمة تبدو كالطفل فتشب فتصير في الكهولة فالشيخوخة فالموت وهكذا الليل والنهار في زيادتهما ونقصهما في السنة كلها وهكذا في نفسها فتري الشمس تأخذ في الارتقاء حتى تصل الى كبد السماء ثم ترجع كأحوال الانسان بل العالم كله على هذه السنة (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)

ابداع العقل والمنطق والخط

علمت حواس الانسان وقواه الباطنة ورأيت أنها جمعت تفاصيل ما لدينا من كل ما نشاهد من العالم بصوره ومعقولاته فتأمل كيف عمل العقل في السكثيف عملا جعله لطيفاً ثم ترقى فصار معقولا فللمحسوس مراتب ثلاث صورته الخارجية ثم تطفه وخروجه عن المادة بصورة في النفس ثم صورته العقلية المتزعة من صور الخيال فما أعجب هذه الحكم وما أبهجها فياليت شعري كيف صار الجماد معقولا وبأى وسيلة أصبحت هذه الاجرام العظيمة كلها في عالم النفس بصورها وأشكالها ثم كيف ترقى فصارت أمورا كلية في العقل وبأى وسيلة ترجع الأمور المعقولة فتصير خيالا إما في النوم ورؤية الكلبيات في صورة جزئيات وإما باستعمال العقل لاستخراج جزئيات يتصورها الخيال ثم تبرز في الخارج بالجوارح بواسطة الآلات المسوقة بالشوق ثم تأمل كيف برزت صور الخيال والعقل الى الخارج بواسطتين إحداهما الأفعال بواسطة المواد والآلات وثانيتها بواسطة اللسان وآلات النطق بالهواء فيحدث صوت يتشكل بأشكال مختلفة تسمى حروفا تجتمع مع بعضها فتكون كلمات لا حصر لها مساوية لما يحدث في الخارج من المركبات العنصرية في أنواع الكائنات الداخلة من الحواس المصورة في الخيال

ولكون الانسان مدنياً بالطبع احتاج الى النطق يبرز ما في ضميره الى ذهن غيره

فكان نسخة العالم كله احضرت أمامه ويختار منه ما يشاء ويعبر عنه ليعرف الآخر ما عنده ثم ان الانسان مع هذا كله تبقى حاجاته غير تامة محتاج الى زيادة تكملة فانه لا يمكنه أن يكلم من هو بعيد مكانا ولا من في مستقبل الزمان ولا يعرف أخبار الماضين فلهذا كله اقتضت الحكمة الالهية أن يكون الانسان كاتباً لتبقى أفكاره بعده ويحيط بها علماً من أبعد مكان ويدون جميع الأعمال بصور الحروف المكتوبة لأنها أثبتت ولا يمكن انكارها فيها هنا مراتب العقل والخيال واللسان والكتابة فاللسان يحضر صور الحروف وهي دالة على مافى العقل والخيال وهما دالان على ما فى الخارج إلا أن الصورة فى الكلام أضعف من صورة العقل والخيال لأن الكلام دال وذاتك مدلولان ثم الكتابة دالة على الحروف، ولعمري كم من الفرق بين حروف تكتب وصور الأشياء بنفسها فى الخيلة .

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (وأشار الى النطق بقوله) الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (والى الكتابة بقوله) ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) وقوله (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) . وهنا دور عجيب تنظر الحواس الأمور الخارجية فترصد فى دفتر الخيال ويسمى الصورة أيضاً ثم تذهب الى العقل ثم ترجع الى الخيال ثم النطق فالكتابة ثم ترجع الى الحواس من طريقها ولكن صغيرة عن حالها الأول فانها دخلت أول مرة بصورة والآن بدال الصورة فيكون العلم أضعف من المشاهدة ولذلك كان أقل الناس علماً من حرموا النظر فى الكون واقتصروا على الكتب يدورون فيها كما يدور الحمار فى رحاه (أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) فوجود العلوم فى الكتب فى مرتبة سابعة فافهم

ضرب مثل لحال النفس مع الجسم

مثل النفس مع الجسم كمثل وزير يدبر أمور رعاياه ويقوم بشؤونهم وهو مع ذلك يتلقى أوامر الملك أو كمثل حاكم مقاطعة من المقاطعات ينظر في أمور الناس ويسمع أمر الوزير وهو أعلى منه فهو بين أعلى يأمره وأسفل ياتمر بأمره فإذا أظهر استعداده لرتبة من هو أعلى رقاء الوزير وبأشر الأمور العليا فهكذا الروح يدبر الجسم ويسعى في تكيله بالأخلاق ويتكامل هو بالعلوم ليستعد للترقى إلى ما هو أعلى في عالم أجل من هذا

وإذا تأملنا أحوال النفس مع الجسم نرى أنها مع قواها كرب المنزل سكن هو وأسرته فيه فالنفس رب المنزل والقوى أهله وخدمه وحشمه والجسم هو المنزل . ومن جهة أخرى نجد أن هناك أعمالاً داخلية في الجسم ناتجة من قوى النفس فهناك القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة والمصورة والحواس الخمس والخيال وقوى الدماغ والاحساس والحركة ولا ريب أن هذه القوى لها أعمال عجيبة داخل الجسم وخارجه وما أشبهه إلا بصانع وتلامذته أو مهندس وعماله يعملون جميعاً في دار صناعة واحدة

ثم إن هذه الأعمال لا يمكن حصرها وكأن كل قوة من هذه القوى وحدها لكثرة أعمالها وانتشار عمالها معمل مخصوص كثرت عماله كما أوضحناه في ميزان الجواهر فالقوة الجاذبة تراها منبثة في جميع الأعضاء المحتاجة للجذب كالمعدة والحلقوم فتري المعدة تجتذب الغذاء إلى أسفل لا سيما الحلو وهكذا المرء يحصل فيه جذب للطعام كجذب الرحم لماء الرجل وقس عليها الماسكة فإنها تمسك لكل عضو من أعضاء التغذية ما أودع فيه حتى يفرغ من عمله وهكذا أعضاء الجسد كلها تمسك عليها ما يغذيها من الدم فالأول كالمعدة والاثنى عشرى والكبد فكل من هذه الثلاثة تبقى فيه المادة حتى يتم نضجها إلى أن تدفعها الدافعة والثاني كاليد والرجل والعين وغيرها فكل من

هذه الأعضاء اذا جاء اليها بتقدير الحكيم العليم ما يليق لها من الدم للتغذية أمسكه الله عليها حتى يتم بناؤها فله الحكمة البالغة ان في ذلك لآيات القوم يعقون فلكثرة الاعمال وانتشار العمال وتفرق أعضاء الحس والحركة وغيرها في سائر البدن يمكن اعتباره مدينة ذات معامل كثيرة الصانع منتشرة العمال لا يهدؤن ليلاً ولا نهاراً في أعمالهم

ثم اننا اذا لاحظنا ان النفس وقواها الحاسة والحركة تأمر الجسم فيأتمر وتنهاه فينتهى فهو مطيع مسخر مقهور تحت هذا المسلط القاهر القادر وهو (النفس) أمكننا تشبيهاً بملك وأعوانه مسلط على مملكة الجسم وأى ملك في العالم أقدر على رعيته من النفس للجسم وأى رعية أطوع للملكها وأخضع لسيدها من الجسم الى النفس وقواها ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم

ثم اذا راقبنا أعمالها نجدها كأنها حارث يحرق أرضاً يخرج له ثمر يناسب الحارث والمحروث فالنفس كالحارث والجسم كالأرض والأعمال كالثمر .

ولما كان نوع الإنسان غير منحصر في عدد بل أفراد منتشرون وهم في أعمالهم يتنافسون وفي أغراضهم يتنازعون أمكن تشبيه النفس بالفارس والجسم بالفرس والحياة بالميدان والناس يتسابقون وقصب السبق هي المعالي فاذا لاحظنا الحياة والموت وغصص الدهر وأعمال الناس واختلافهم والفصل بينهم بالحق وهم لا يظلمون أمكن تشبيه الجسم بمركب والنفس ملاحه والبحر فتن الدنيا والبضاعة المحمولة في السفينة عمل النفس والساحل الموت ومدينة التجار وراءها وفيها الرب الجبار يعطى كلاً من هذه الأنفس ما يليق لها على حسب بضاعتها ان خيراً فخير وان شراً فشر .

وإذا لاحظنا أن نفس الجسد منظم في غاية الحسن والابداع والجمال والبهاء والنفس تقرأ في نقوش ابداعه ومحكم تركيبه شهبانها بصبي يتعلم في مكتبته . ثم ترتقى عن ذلك كله إلى أن النفس تنظر إلى نفسها وقواها فتجد فيها صوراً ونقوشاً وعلوماً فكأنها دفاتر رصد فيها الصادر والوارد والعالم بأجمعه فكأنها عالمة معلومة وعلومها مختصرات علوم الكون أجمعه (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانظر كيف

شبهت مع الجسم بمنزل ومعمل ومدينة ومزرعة وميدان ومكتب ودفاتر ان في ذلك
لذكرى لأولى الألباب

قوى الإنسان كلها ترجع الى نفس واحدة

اعلم أن القوة الغذائية وممداتها وفروعها من الهاضمة والماسكة ونحوها وما يتفرع
عنها من النمو بقسطاس مستقيم وتدير محكم من طول وعرض وعمق لكل عضو
ما يليق به من مقاديره وأنواع غذائه—مقدمة على قوة الاحساس بالحواس الخمس ورئيسها
الحس المشترك فالحس المشترك تخدمه الحواس الخمسة كما كانت ممدات القوة الغذائية
خادمة لها وهذا الحس المشترك مقدمة للخيالة (المصورة) وهذه مقدمة للنفس الانسانية
فاذن هي نفس واحدة لها خدم يشتركون في خدمتها بعضهم فوق بعض فأولها
الخيالة فالحس المشترك فالغاذية ويقترن بكل قوة من قوى الادراك الثلاثة نزوع الى
مشتهى أو نفور عنه فيكون للأرادة ستة أنواع ثلاثة منفور عنها وثلاثة مشتاق اليها
فالحواس الخمس كل منها موكل بعالم من العالم المشاهد فتأتى كل حاسة بنجر عالم من
العالم كما أوضحناه سابقاً فتشتاق النفس اليه وتنفر عنه كطعام محبوب أو مكروه
كالتمر والحنظل فتأمل كيف تتسلط القوة النزوعية على أعضاء الحركة فتحركها إما
إلى طلب وإما إلى هرب وتستعين بالأعضاء الظاهرة فى السعى إلى ما أحببت وفى الهرب
عما كرهت وان كان هناك مانع أثناء السعى أزلناه بأيدينا حتى نصل اليه فهذه كلها
أعمال الأعضاء الظاهرة فاذا ذقنا هذا الطعام المشتهى حصل شعور النفس وهذا بعينه
فعل النفس بعد فعل الأعضاء فما أحسته الحواس ينال بفعل الجوارح وفعل النفس
وهكذا الخيالة تتبعها ارادة إما إلى طلب المتخيل أو الهرب منه وذلك يكون بأحد
ثلاثة أمور

إما باستخدام الحس المشترك وإما بإحضار الخيال تلك الصورة فلامعمل للجوارح
من جهة الخيالة قط فاذا اشتاقت إلى إحضار صورة جميل تعرفه بعينه فتارة تستخدم

الحس المشترك وهو يستخدم البصر لينظرها وتارة تحضرها هي بنفسها ، وأما الإرادة التابعة للعقل فبالفكر تستنتج الحس والقييح وتستخدم جميع القوى في درء ما كرهت وجلب ما أحببت

وبالجملة فالعقل هو الحاكم على جميع القوى الرئيسية والقوى الإرادية فهي نفس واحدة وكل هذه فروعها وتبع لها

ولا تظن أنها تتمثل بجزء ونحس بالحواس الحس بجزء وتتغذى بجزء بل هي شيء واحد وله أحوال مختلفة كما أن الكاتب يمسك القلم ويكتب ويعدل السطور ويضع النشافة على الورق ويطوى الكتاب فليس لكل عمل من هذه واحد مخصوص وإنما العمل لواحد ولكثرة قواه كثرت أفعاله فهكذا العقل ينظر ويسمع ويشم ويدوق ويلبس ويتخيل ويتغذى ويريد ويعمل ويكره ويفر وهو واحد في ذاته

برهان أن النفس وقواها واحدة

ولعلك تقول هذا تمثيل لا برهان عليه فإني لا أقنع إلا بالبراهين وأما ضرب الأمثال فكيف يكفي من درس العلوم أقول ان الحكماء برهنوا على هذا براهين ور بما أخال ان كثيرا لا يفقهون جلها ولكن لابد من ذكر اجلي البراهين وأوضحها فمسالك يطمنن به قلبك ها أنت ذا تعلم أن طبيعة الأجسام لا تقبل التداخل فالجسم الواحد لا يقبل دخول غيره فيه قط كما هو معلوم من الطبيعة فما لنا نرى كل قوة من قوى الدماغ تسع صوراً لانهاية لها فاذا كانت أجساماً فكيف تسع مالا يتناهى من صور السموات والأرض وما بينهما ومن القضايا الكلية والجزئية فهذه طبيعة خالفت طبائع الأجسام فليست منها واذن فهي لا تنقسم اذ المنقسم هو الجسم فالنفس أمر بسيط وايضاً نرى أن القطعة من الشمع مثلاً لا تقبل صورة إلا بعد ذهاب أخرى وهل يمكن أن تكون قطعة الشمع مثلثة ومربعة في آن واحد كلا فما لنا نرى القوى التي في الدماغ تقبل علماً وتقبل آخر فآخر إلى ما لانهاية له ومع ذلك لا تمحو الصورة

التأخرة الصورة المتقدمة فلو كانت جسماً لحي السابق بالعلم اللاحق بل العلوم كلها كثرت عند النفس تقوى بها على غيرها من العلوم ، أما الأجسام فلا تقبل إلا شكلاً واحداً (أن في ذلك لِعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) ليس ذلك لكون النفس أمراً غير جسم فلا ينقسم إذ لو انقسم لكان جسماً وقد برهننا أنه ليس بجسم فكفالك هذا برهاناً على أن النفس أمر واحد غير جسم وهذه القوى ليست غيرها وإنما هي صفات لها كما قدمنا أيضاً أن المادة أمر مجهول ظهرت صفاته التي عشقتها النفس وسعت لها بقواها

المادة والنفس

فالمادة كما قدمنا لم يمكن معرفة كنهها والنفس مثلها لكل منهما صفات مختصة به تتلاقى تعاشفاً فجعل المادة بظواهرها مكمل للصورة الانسانية (إن في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

المادة والنفس والعقل والملائكة

اختلفت الأفكار وتباينت الآراء في الموجودات تبعاً لاختلاف الفطر وفوق كل ذي علم عليم ، فقال قوم ليس في الوجود إلا الله والمادة ، فالمادة هي المصنوع والله عز وجل هو الصانع وأنكروا النفوس والأرواح وقالوا ليس هناك شيء سوى المادة وقالوا أن ما نراه من قدرة الانسان وعلمه وحكمته وما يظهر من غرائب الحيوان فهي قوة جسمية وجميع ما نراه من أفعال الجناد في الطب والكهرباء فمنهم من قال فعل الله ومنهم من قال بالبخت ومنهم من نسه إلى الطبيعة فإذا سئل عنها عجز عن تفسيرها ثم جاء من بعدهم قوم آخرون وقالوا إننا نشاهد المادة أمامنا ممتدة مظلمة وجميع أعراضها لا تعطى قوة بل هي قبلها لاهلاك لها فالمادة وصفاتها ميتة منفصلة فكيف تكون فاعلة في نفسها هذا مما لا يكون

ثم أننا نشاهد بعض الأجسام حلها أمر غريب عنها فحركها وأعطاها الحس .

فسميناه نفساً وهذا لكافة الحيوان بل والنبات فكل ما ينمو سميناً ما فيه نفساً نباتية وكل ما يتحرك ويحس سميناً الأمر الذي حل فيه نفساً حيوانية إذ هذه الأفعال والقدرة والادراك ليست من صفات المادة وإنما هي فاعلة والفاعل غير المنفعل فهذا طبعاً أمر ثالث غير المادة والخالق

ثم إننا نرى بعض الحيوان وهو الانسان تختلف أفكارهم وتتفاضل قرائحهم بأمور أخرى فقلنا أن هذا التفاضل جاء لها بأمر غريب قاهر للنفوس ومسيطر عليها . ألا ترى أن النفوس مدارها على الشهوة والغضب في الحيوان والانسان ولكن هذا الأمر الغريب يزجرها عنها ويأمرها بالاعتدال فسمينا الأمر الوارد على النفس عقلاً فهبنا مادة تسلطت عليها نفس وتسلط عليها عقل حل فيها حلول الصفة في الموصوف فبهذا ثبتت المادة والنفس والعقل

ثم قالوا اننا نرى المادة في السموات والأرض مسخرة كلها جارية بنواميس كلها سائرة على محور النظام والعدل والكمال وقد علمنا أنها من نفسها لاحتراك لها فوجب أن يكون لها محرك يقرب منها وبيته وبينها مناسبة لأننا علمنا أن هذا الحكيم الذي دبر الكون ربط الأسباب والمسببات فجعل كل شيء ينابط بما هو أقرب إليه في الشبه ثم الكائنات متشابهة فاذن لابد للعالم كله من نفس مدبرة له خاضعة تحت إشارة العقل الذي هو فوقها كما أن للانسان عقلاً مسلطاً على نفسه القاهرة لجسمه إذ النفس لا تستقل بنفسها في تدبير الأجسام بل هي تستمد من العقل في كل آن فقاس هؤلاء نظام الكون كله على الانسان وقالوا أن هناك نفساً مدبرة تتحرك بها العوالم تنصرد الجزئيات وتلقاها عن العقل القاهر فوقها .

وهذا العقل يسميه الشرع اللوح المحفوظ فتتلقى منه النفوس عند الحكماء (وهم الملائكة عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) الأوامر ويتحرك هذا العالم على نظام عجيب هذا معنى ما ذكره هؤلاء وقالوا أن أول ما خلق الله العقل وهو فيض من نوره تنزل من تلك السبحات العليا وفاض فيضاً بلا زمان ولا مكان إذ كان الله ولم يكن

زمان ولا مكان لما تعلم أنه قبل خلق العقل لم يكن إلا الله فأين الزمان وأين المكان فان المكان يستلزم المادة وهي لم تخلق والزمان لا بد فيه من حركة الافلاك كما هو مقرر لا مطلق حركة ثم خلق بعد العقل الهيولا (المادة) بسيطة لا تدرك بالحواس كالأجسام الروحانية ثم أعطاها الصورة بأن مدها طولاً وعرضاً وعمقاً وصارت كرة عظيمة غازية ألطف من كل ما يرى ثم أفاض الله عليها النفس من العقل فدارت المدة دورات سريعة على مقتضى النواميس التي وضعها مدبرها وألقاها في اللوح المحفوظ ومنه فاضت على النفس السكلية (الملك) المسلط على المادة فصارت كرات كثيرة دائرات وكل كرة خلقت فيها نفوس لا يعلمها إلا الله وأودعت فيها نفوس كلية تارة وجزئية أخرى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) ومن هذه النفوس الجزئية الأنفس الحيوانية والنباتية والانسانية التي فاض عليها من اللوح المحفوظ نور ألهما تقواها ومن نفوسها فيض ألهما فجورها . هذا زبدة ما قاله هؤلاء الناظرون مع رعاية العلوم الحاضرة

وأنت تعلم أيها الأخ المطلع على كتابي هذا أنني لا أقول هذا من باب أنه هو الطريقة التي خلق عليها العالم قطعاً لا وإنما هي التي أخذها الناس بفراستهم من ظواهر السكون مع تأملهم في الشرائع السماوية فيجعل كأنه فرض تحمل به المسألة حلاً وقتياً وإلا فبدأ خلق العالم أمر مجهول بالسكلية وإنما هذا القول أقرب الأقوال إلى الحقيقة بحسب ما بلغه علمنا إذ من الناس من يقول العالم مركب من أجزاء لا تتجزأ والآخريز يد في الطين بلة ويقول مركب من أجزاء تتجزأ ولا تخص عنصراً مخصوصاً من العناصر المعلومة وآخرون أفرطوا فقالوا هذه العناصر كلها أصلية فأصل العالم مركب منها وزاد قوم ضلالاً فقالوا يقدم الافلاك وزاد آخرون جهلاً فقالوا يقدم المادة وهذا كله خبط عشواء لا دليل عليه بل أدحضه كله الاكتشافات الحديثة والعلوم الجديدة التي تقوضت تلك الترهات ومن هذا فقههم الحكمة المشهورة

أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قاله أدير فأدير ثم قال وعزني

وجلاى ما خلقت خلقاً هو أعز على منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب
وبك أعاقب

وما نتيجة المادة إلا النفوس الحالة فيها الفائضة من العقل الذى جعله الله محيطاً
بها . فتأمل كيف ترقى المادة بظهور أثر النفس فيها من نبات إلى حيوان إلى انسان
وإن إلى ربك المنتهى فإذا تكمل الانسان بالعقل يرجع إلى الملائكة الأعلى فالمبدأ هناك
وهو العقل فأصل المبدأ صار هنا منتهى ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم هو نهاية
إبداع النوع الانسانى استعد لفيضان النور عليه من الملائكة وصار يترقى إلى ما لا يتناهى
ومن هذا نفهم كيف احتاج الكون إلى ملائكة فانك علمت أن المادة لا تحرك لها
فلا بد من ملائكة فيها كلها وإلا فما الذى حرك هذه انكوا كب ولا بد من ملائكة
أيضاً فوقهم ليعطوهم الأوامر بالنظام وإلا فما هذا الحساب البديع لا يتغير على مدى
الزمان وأعمالك تقول أن الله هو الذى أدارها فتقول لا ينكر جاهل فضلاً عن عالم ذلك ،
أليست الملائكة من أفعال الله وإذا كانت نفوسنا ونفوس البهائم هى المحركة لهذه
الأجسام أفلا يعد الله محرراً لنا فهكذا تحريك الكون كله يحتاج إلى ما احتاج إليه
الجزء الصغير من نفس وعقل ويكون الله المحرك بالضرورة وهذا القول مطابق لما ورد
فى الشرائع الإلهية من ذكر الملائكة وإنهم منوط بهم أمر العالم كله لا يعصون الله
ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولذلك ترى نظامهم على غاية الاتقان .

واعلم أن الملائكة خلق من خلق الله تعالى يحار العقل فيه فإن سألت عنهم
فاعرف عقلك ونفسك أولاً وتأمل أنك إبداع غريب يعص عينيه فيرى ملكاً
عظيماً وكل ما شاهدته فى الخارج موجود فيه فإن فهمت هذا فارجع إلى الملائكة
وباليت شعري إذا عجزنا عن معرفة نفوسنا فكيف نعرف ذلك العالم العظيم وهم
الملائكة وكيف نعرف مدير الكون كله أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ

(لطيفه)

كل مصنوع للانسان محتاج الى مادة وصورة وحركة وآلة وزمان ومكان فيحتاج الكاتب الى قلم وحركة يد والى حبر وورق ثم جعلهما صورة واحدة وكل هذا فى زمان ومكان فالمادة الحبر والورق او الصورة هى الحاصلة من اجتماعهما والحركة معروفة وقت الكتابة والقلم والآلة والزمان والمكان معروفات فهذه ستة أشياء ثم المصنوعات الالهية كالنبات والحيوان والانسان تحتاج لأربعة المادة والصورة والزمان والمكان ولا حركة ولا آلة كالجنين فى الرحم فانك لا ترى فيه آلة رسم ولا حركة من الراسم وانما يرسم جل جلاله نقشاً بديعاً تحار فيه العقلاء ولا ترى آلة رسم ولا حركة تظهر (إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون)

ثم الكون المحسوس كله وهو الجسم العمومى المكون من افلاك دائرة سائرة تكون بمادة وصورة ولكن لا زمان ولا مكان ولا حركة ولا آلة إذ الزمان لا بد فيه من حركة فلك وهناك لا افلاك والمكان معلوم وليس هناك سوى هذا الجسم وغيره عدم فكيف يكون له مكان ولعمري لقد جهل قوم بمثل هذا الكلام وفهموا منه انه لا أول له وهو خطأ محض بل كان الله ولا زمان معه إذ الزمان بحركة الافلاك فاذا لم يكن فلك فلا زمان فكيف اذا لم تكن مادة أصلاً

ثم الملائكة المدبرة لهذا النظام كله لا مادة لها ولا صورة ولا حركة ولا آلة ولا زمان ولا مكان فتأمل هذا الترتيب العجيب فالموجود اما الأ يتحتاج لموجد أصلاً وهو الله تعالى واما ان يحتاج لموجد بلا آلة وهم الملائكة أوسع مادة وصورة وهو الجسم أو معهما ومع الزمان والمكان فهى أنواع المولدات أو مع هذه الأربعة والحركة والآلة وهى الصناعات الانسانية

آراء الناس في النفس

آراء العقلاء ونتائج أبحاثهم تابعة طبعاً لما يغلب على عقولهم وما تصل اليه معارفهم وهذا هو السر في عدم الاتفاق وكثرة الاختلاف في كل مسألة وأعظمها اختلاف وأكثرها تشعباً نفس هذا الانسان ولكل وجهة هو موليها وقد بلغت الأقوال فيها قريباً من المائة فمن قائل انها الهواء إذ باقطاعه تنقطع الحياة ومن قائل انها الدم إذ بوقوف حركته تقف الحياة وهكذا من الأقوال الدالة على نظر لجهة دون جهة وأهم الأقوال ثلاثة فقال قوم انما النفس هو هذا الجسد إذ كل ما عندنا من القوى النفسية ناتجة من هذا الجسم وعنه تفرعت ألا ترى انه اذا تغير المزاج أو مرض الجسم أو انقطعت عنه مادة الغذاء أو جرح أو انكسر عضو من اعضائه يذهل العقل وتضعف القوى فلا علوم ولا معارف على ات الشيخوخة تذهب بالفكر وترجع العاقل الكبير طفلاً صغيراً

وقال قوم ضد الأولين ان النفس هي قوة مسلطة على الجسم ذات قوى تتصرف فيه تصرف الملك في الرعية ألا ترى ان الجسم ان هو الاجاد تحركه تلك القوة المدبرة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله واعتبر حال الغضبان فانظر كيف تحمر عيناه ويقلبل لسانه وتضطرب حركاته وهكذا السرور والعلم والجهل ولعمرك كم من الفرق بين عالم عظيم وجاهل فانظر كيف أثرت المعارف والأخلاق على الجسم وما هذه كلها الا من تلك القوة المدبرة وتأمل انها اذا خرجت من الجسم بالموت أصبح ولا حراك له بل يكون جيفة لا قيمة لها ويخرجها أعز أصحابه وخلاته ولو كانت هي النفس لأبقوها في أما كنهم فقد علموا ان النفس هي التي خرجت من عندهم وتركت فضلاتها فأخرجوها ونظر آخرون في قول سابقينهم فقالوا اننا نرى ان كلا من الروح والجسم يؤثر على الآخر فالروح بما لها من السلطان على الجسم تؤثر فيه

صلاًحاً وطلاحاً وصحة ومرضاً وهكذا الجسم والذي نستنتجه من ذلك ان الروح وجدت فيه لتتربى كما يتربى الحب في النبات والثمر في الشجر والفرخ في البيضة والجنين في الرحم فلا تزال تنمو فيه الى أجل مسمى

وكما أن المقصود من النبات الحب ومن الشجر الثمر ومن البيضة الفرخ فكذلك المقصود من هذا الجسم هي تلك الروح وكما أن البيضة تضعف إذا كبر الفرخ وقوى . والنبات يصغر وينحني إذا اشتد الحب فكذلك الجسم يأخذ في الضعف إذا قويت الروح وأرادت الخروج وكما أن كلا من الفرخ والحب يبقى بعد خلاصه من البيضة والزرع فكذلك الروح باقية بعد هلاك هذا الجسم وكما أن الفرخ والنبات والجنين في بطن الأم تكون على حسب نوع البيضة والنبات ومزاج الأم فكذلك الروح بعد الموت تكسب الصفات التي تناسب ما كانت تكابده مدة الحياة وكما أن الحب بعد خلاصه من الثبن قد يكون غذاء للنوع الأرقى وهو الانسان وبعضه يكون غذاء للنوع الأدنى وهو الحيوان وبعضه مشترك بينهما وبالجملة يكون أنواعا كثيرة فهكذا الأرواح تكون درجات متفاوتة على حسب أنواع التربية التي ترباها الانسان في هذه النشأة فكل يترقى فيما غلب عليه فتمهم جلساء الملائكة ومنهم من هو أدنى من ذلك إلى أن يبلغ درجة سجين وكما أن الحب إذا خلص من الثبن وثمر من الشجر وهو لم يبلغ أشده يكون ضعيف الفائدة أوعديهما فكذلك النفس إذا خرجت من الدنيا وهي لم يكمل تهذيبها تكون في عالم الآخرة أبعد عن اللذات ناقصة عرصة للألام والذم والسخط ألا ترى أن لكل موجود فاعلا ومادة وصورة وغاية كما هو مشاهد وفاعل الانسان معلوم ومادته وصورته مفهومتان ولكن ما غايته مع أنه أجمع الحكماء على أنه ليس في الكون شيء بلا ثمرة فلم يبق الانسان بلا ثمرة وحده وهذا القول الأخير هو الموافق لسنة الكون وقوانين الحكمة وسير هذا النظام والموافق للقرآن قال تعالى إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجبَ الكفار نباته ثم يهيجُ فتراه مُصْفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة

عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

فتأمل كيف أشار القرآن الى تنوع الانسان كتتنوع النبات فالحق والحق أقول إن القرآن رمز في غضون أمثاله الى علوم الحكمة ووكلمها الى العقول فيها أنت ذا عمت أن القول الأخير من كلام الحكماء هو الأوفق لنواميس الكون وألصق بالبراهين العقلية وإن أحسن مثال له هو النبات فانظر كيف ذكره في القرآن مثالا أبرزته تلك التشبيهات التي رأيتها وغيرها وقال في آية أخرى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال في آية أخرى (إنما مثل الحياض الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك تفصل الآيات لقوم يتفكرون)

فهذا ضرب مثل للحياة على سطح الكرة الأرضية وما قبله تصريح بحال الشخص الواحد وما قبله ضرب مثل لحال ففصل المثل في حال الشخص الواحد والأهم الانسانية بالنبات لما علمت من الحكم التدرجية ضمنه ولم يقتصر جل جلانه على ضرب هذا المثل وعطا بل جعله في موضع آخر برهانا مستدلا بعالم النبات وغيره على البعث رمزا للبرهان الأخير الذي هو نتيجة إبحاث الحكماء فقال . (نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرايتم ما تُمنون أنتم تخلقونه الآيات وقوله أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فاستدل أولا بالنطفة في الرحم وبالنبات وخروج الثمر منه وبالماء أن لها غاية وهكذا النار وما يستفاد منها فكأنه يقول هل خلق الجنين في البطن إلا لترقى الى عالم أرق وهي الحياة ويكون ترقيه على حسب المزاج الذي كان عليه في بطن أمه أليس النبات جعل لغاية وهو الثمر ألم يكن نزول الماء لغاية أليست النار جعلت لمنافع الناس والاعتبار مع

أنها في الأحجار والأشجار وكل شيء، تكون هذه كلها وهي الأجنة في البطون والماء في السحاب والنبات والشجر والنار لمنافع تنتج عنها ويكون وجودكم أنتم بلا ثمرة إلا الشقاء والآلام ثم تعدمون من الوجود بلا ثمرة مع أنكم أنتم أفضل الجميع بل هذه ما خلقت إلا لكم وإذا كان الأتقص المحقوق له غاية أفلا تكونون أنتم أولى بأن تكون لكم (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) على أن الحكمة العامة والناموس الذي وصفناه في السكون يقتضي الترقى أيفصل العالم إلى النقطة العليا وهو الإنسان ويقف الترقى (فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَدْعُونَهُ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أقدم هنا بعد تلك العبارات بالنجوم ومواقعها في مدارتها على عظم أمر القرآن فذكر النجوم هنا لينبه الفكر إلى أنها أيضا لها فوائد وهي تلك المذكورات من لمولدات إذ كل ما ذكر قبلها ناتج عن دوراتها في مواقعها وهذا كله في ضمن عجائب القرآن التي لا تعرف إلا بدقة النظر والبحث في علوم الحكمة مع كثرة الاطلاع ثم ذكر بعدها أن الروح خفية لا تظهر عند خروجها وأفاد أنه أقرب إلى الميت من الحاضرين والناس لا يبصرون، ثم ذكر أنها ذات درجات عليا وسفلى ووسطى على حسب ما يكون الجنين في الرحم ويخرج إلى الدنيا والحب والتمر فتأمل كيف كانت أدلة القرآن هي نهاية الحكمة فتارة تذكر تلك التمثيلات على أنها مواعظ وتارة أخرى على أنها براهين قاطعة (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) ومما قاله في الوعظ (واضرب لهم مثل الحياض الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به ثبات الأرض فأصبح هشيما تذروها الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) ومما قاله في الاستدلال في سورة يس (قل يحياها الذي أنشأها أول مرة إلى قوله فإذا أنتم منه توقدون) فتأمل كيف مثل بالتمر والنار إشارة إلى أن الروح تبقى بعد الموت كبقاء النار بعد الشجر وأنها خلاصته والقصد الإشارة إلى البقاء بعد الموت ثم يلبسها جلايب الأبدان عند القيامة وبيعها

عموم الوحدة في الموجودات

إذا تأملت جميع نظمات هذا الكون رأيت الوحدة سارية فيها على غاية من الأحكام ولولاها لم يصح لها وجود ولم يكن لهذا النظام فائدة فلا تكاد ترى كوكباً في نظام الكواكب إلا وهو جار على وحدة مخصوصة من حيث السير على نهج الصراط السوى (إن ربي على صراطٍ مستقيم) وجميع الكواكب لها وحدة مخصوصة في الاتجاه والضوء وأن مداراتها اقطاع ناقصة فلها نظام يجمعها

وهكذا النبات اشترك كله في وحدة تجمعه وهي النمو والتوالد التابعان للنفس النباتية فنفس أنواع النبات والشجر وإن اختلفت فوجهتها واحدة وهي النمو والتوالد والسعي في المصالح على حسب مبلغ ما أعطيت من القوى حتى إنك ترى الغنم يلف خيوطه على عرشه الذي ينصبه الناس له كأنه يعلم أن ذلك هو الذي يقيه من التشتت وترى أوراق كل نبات تحذونهاجاً واحداً وهذا كله سير الوحدة وهكذا النفوس الحيوانية فكل نفس من هذه النفوس إنما وضعت في هذه الأجسام ليتم اتحاد العناصر والقوى وتعيش زماناً ما ثم تهدم فظهر من هذا أن كل شيء اعتنى به أشد اعتناء فإن له نفساً تجمعه وتدبره لتضم شعثه ويبقى إلى أجل مسمى وإذا كانت هذه الحيوانات الصغيرة بل والنباتات لها نفوس فيالأولى يكون هذا النظام وكواكبه لها مدبرات تدبرها كما تدبر أجسام الحيوانات وهي السماء ملائكة فإن قال الطبيعي هي الجاذبية فنقول له صدقت ولكن الجاذبية عبارة عن ظواهر ذلك السر العجيب فياليت شعري هل دبرت الجاذبية الميتة ذلك الحساب وعرفت ما يترتب عليه من الملوك والدول وأنواع المولدات وكيف يحوط الجاهل حياة العالم وكيف تمسك الجاذبية الجاهلة ما لا يتناهى من النجوم عدا فلا تتلافى يوماً ما

وامرئى أن مثل علماء الفلك في هذه الظواهر كمثل علماء الطب فكما أن الطبيب

لا بحث له إلا عن الروح الحيوانية التي منشؤها الدم ولا خبرة له في الروح العليا التي تعقل وتعرف الهندسة والحساب والسياسة ونظام الأمم فهكذا عالم الفلك لا يعرف إلا ظواهر سير الأجرام الفلكية فيقول إن هنا جذباً بينها فدارت دورات لانهاية لها بالحركة الطبيعية ولم يدر أن الحركة كيف يخرج من جهلها علم وكيف كانت بشقائها تصلح العالم وبالعجب لهذه الحركة الغريبة التي دبرت أمر الحيوان والنبات وجعلت الكل يرتبط ببعضه ارتباطاً تاماً وبناء عليه قال الحكماء إن هذه الحركات في الأفلاك لها عالم يحفظها كنفوسنا عبروا عنه بالعقول وعبر عنه علماء الشريعة باللائكة وإذا كانت كل جملة من هذا العالم لها قوة تدبرها فالعالم كله جملة واحدة كذلك لما نشاهد أنه كله يتعاون كتعاون الجسد وكل كوكب ينفع بقية الكواكب نفعاً خاصاً فقد تحقق أن الكواكب بالنسبة لمجموع العالم كأنها أعضاء جسد واحد فيها هو ذا القمر يستمد من الشمس ويضيء الهواء ويتمزج نوره بأنواع المولدات وكل كوكب فله في الأرض تأثير خاص وجذب يؤثر على حركتها إذن فلا بد أن يكون لهذا العالم كله مدير واحد ترتبط به جميع هذه المدبرات وتستمد منه وهو مدير هذا الكون وحده

واعلم أننا ذكرنا فوائد في ميزان الجوهر تناسب هذا المقام وتقلنا هناك كلام العلامة فيليكس لامرون الفرنساوي في الجاذبية وقوله أنه يعلم منها الفعل لا السبب فراجعه هناك فيالله الوحدة وفعلها فأشرف شيء في هذا العالم الوحدة بها تم النظام وكما كان الشيء أتم وحدة وأجل صنعاً كان أتم تركيباً وأعلى شأنًا وإلى هنا نشرع في ذكر نظام الأمم ولا سيما أمة الاسلام مطابقيين بينها وبين نظام الكون على حسب ما قدمناه وكيف يجب أن تكون وحدتها مطابقة لوحدة النظام الطبيعي فنقول .

الباب الثامن

وفيه أربعة عشر موضوعا

- (١) الوحدة في الأمم ترجع الى قوتي العلم والعمل
- (٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان
- (٣) تأثير الاعتقاد في الأمم
- (٤) ما به نظام الدنيا والدين
- (٥) ما آل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
- (٦) الأمة تضارع العالم كله في نظامه
- (٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
- (٨) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل داروين بأثنى عشر قرنا زيادة شرح وايضاح
- (٩) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم
- (١٠) آراء أهل المدن الجاهلة
- (١١) في انماء الثروة
- (١٢) في الخشوع
- (١٣) اعتقادهم في العدل
- (١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاسقة

(١) الوحدة في الأمم ترجع الى قوتى العلم والعمل

لا يشك من طالع أساليب حكم الخليفة وما أوتيت من لدن المبدع الحكيم ان كل قوة منحها فانما ترجع الى قوتى العلم والعمل وهاتان القوتان كأنهما سلسلتان متناسبتان ملتصقتان سائرتان على نسق واحد أو عرقان يمتصان الغذاء لنبات واحد وعلى حسب قوتها وضعفها يكون ولنبدأ بقوة العلم وسنة رسول الله عز وجل في ترتيبها في مراتبها ثم نلحقها بقوة العمل وندعها يتلاقيان في طرفهما عند تتيجهما وهى الحياة ونطبقهما على أمة الاسلام وكما ان كل نتيجة لها مقدمتان فهكذا الحياة نتيجة الوجود ولها مقدمتان العلم والقدرة

وان أردت البيان فهناك نواميس الوجود ترى ان أصغر الديدان أعطى قوة الحس لا غير فيمتص مما حوله ولم يعط غيرها ووهب من الحركة الضعيفة على مقدار تلك الحاسة الحفيرة فيسمى بالانتباض والانبساط كذلك الديدان المولدة في بطون الحيوانات الكبيرة والخل والابن والطين ونحو ذلك ثم يترقى عن ذلك ديدان الزرع فقد أعطى مع الحس الذوق ليفرق بين ما يناسب وما لا يناسب فيأخذ ويذر ثم ما هو أرقى من ذلك وهى حيوانات الظلمة في قاع البحار أعطيت مع اللمس والذوق حاسة الشم لمناسبة ذلك لمراعيتها التى تترتب فيها ويترقى عن ذلك حيوان أعطى قوة السمع مما يترتب في الظلمات لما ابتلى به من حيوانات تؤذيه وفوق الجميع ما أعطى قوة البصر فاستكمل الحواس الخمس ثم ترقى الحيوان في البر والبحر في أنواع الذكاء وإبداء الغريب الى أن يربى أولاده كالحوانات التى تبيض وفوقها التى تلد وأعلى منها ما تفهم عن الانسان بالتعليم وأرقى منها ما تقلده والانسان أرقى من ذلك كله فيأخذ في العلوم والتجارب ، ويصل بعضه بموهبة من مدير الكون الى درجة النبوة بلا كسب من عنده ولا تجربة فهذه مراتب العلم من أدنى حيوان الى أشرف انسان ومع كل مرتبة من مراتب العلم ما يوازيها من العمل أو الاستعداد المناسب فترى كل حيوان له قدرة ما على السعى

أما إلى هرب وأما إلى طلب على مقتضى ما يأمر به العلم إذ المعلوم أما مهروب عنه أو مرغوب فيه فلهذا كانت تلك الأعضاء والقوى صالحة للطلب تارة والهرب أخرى مختلفة باختلاف الحاجة وعلى حسب العلم المودع فيها فمنها ما ينتبض وينبسط ومنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجليه ومنهم من يمشى على أربع ومنهم من يمشى على أكثر من ذلك إلى عشرة وعشرين وهكذا ومنها ما يعلو عن ذلك فيطير في الجو بجناح يختلف مقداره باختلاف الطائر وقوته وخلقه (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) وقد اجتمع في الإنسان قوتا العلم والعمل وكل منهما يقوى الآخر فهما في هذه الدول أمانا اتخذت العلم رائداً للقوة معيناً لها والعمل كذلك قوة للعلم معيناً له فهما قوتان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر وتقيجتهما الحياة وعلى حسبها تكون الدولة فهما في هذه قوة العلم أصبحت تدل على المكتشفات والمحترعات وتعرف مواقع الدول ونظامها وصنائعها وأحوالها فتأخذ قوة العمل في أعداد ما يلزم للمصارعة تارة والمقارعة والمصارعة أخرى واعتماد لوازم الحياة للحالة الحاضرة فهما تنوعت قوى الحيوان من الرجل والجناح والسعي على البطن فأنها ترجع إلى القدرة لا غير ومهما اختلفت أنواع الحسن من لس وذوق وشم وسمع وبصر وادراكات وغرائز ورحمة على الولد وامتنان أمر وميل للتقليد وارتقاء في العقليات فإنه يرجع إلى العلم

ولعمرك ما موقع الأمم المنحطة من الأمم الراقية إلا كموقع تلك الديدان في أجواف الحيوانات الكبيرة من تلك الحيوانات تسمى وتصبح ولا حراك لها إلا الاقباض والانبساط ولقد ضرب الله مثلاً للإنسان بهذه الحيوانات وسلسلتها في الترقى علماً وقوة وكأنه يقول أنا رقيت هذه الحيوانات في قوتها فما لهذه الأمم أصبحت منشقة العصا ولو أنهم سمعوا وأبصروا لوقفوا على أحوال الأمم الراقية التي ابتلعهم في بطونها فهم يقولون في الحياة قبل المات لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير وكل صنف أعلى مما تحته ولقد كرمتك أنت فأعطيتك عقلاً يمكنك أن تصل إلى ذروة المجد بل تطير في عالم المدنية طيراناً أكثر من الباشق في جو السماء . فهذه

الحيوانات لم تعط قوة الترقى وأنت أعطيت تلك القوة فما لك تقلد الديدان وتنق في حضيض الجهل والهوان فسحقاً لأصحاب السعير وما الآخرة الا ثمرة من ثمرات الدنيا وقال تعالى (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا) والأعمى في الدنيا من لا يرى رشده وأى رشد بعد معرفة حياة الأمة بين الأمم والأمن على الأرواح والأنفس والترقى على حسب سنن الكون فقد علمت من هذا ان كل الصنائع الداعية لقوة الدفاع والهجوم بجميع آلاتها الحديثه وهكذا كل ما به التجارة والزراعة والصناعة هي قوة العمل وما به إحياء العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة الأولى هي ما به قوة العلم وبينهما تلازم كتلازم الطعام والشراب والسمع والبصر والعقل

(٢) كيف تصير الأمة كلها جسماً واحداً

وكيف تقارن بجسم الإنسان

ظهر لك من نواميس الكون انه كجسم واحد وهكذا كل نبات وحيوان وانسان وكل جماعة منها له وحدة مخصوصة كالأجناس العليا والسفلى والوسطى وهكذا الأنواع ولم تقتصر الوحدة على سرياتها في المحسوسات بل سرت في المعقولات فما من علم الا وله وحدة تجمع مسائله كالحد والموضوع فيقال علم الحساب موضوعه الأعداد من حيث الجمع والتفريق وهكذا بل كل طائفة من العلوم لها جامعة من وجه فأغلب العلوم الطبيعية يطلبها الطب والعلوم الرياضية يطلبها الفلك إذ لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والخبر وهكذا علم العمران يحتاج للجميع والفلسفة تبحث عن مبادئ جميع العلوم فتتنبه العقول الى مدبر الكون فالزمت الأمم القدماء والمحدثين بالنظر في جميع العلوم إذ هو فوق النظر في هذه الأجسام واذا كانت الوحدة سنة الكون فلنتخذ جسم الانسان ناموساً نقيس عليه وحدة الأمة فنقول قدمنا في فن التشريح ان جسم الانسان درجات بعضها فوق بعض من أدنى لأعلى لكل من الأعضاء مرتبة لا يتعدها ولا ريب عند الحكماء ان الأمة كجسم الانسان أو العالم كله فكما ان نظام الكون كله مرتب مراتب درجات بعضها فوق بعض وجسم الانسان كذلك ولكل حكمة في الجسم

والكون فكذلك الأمة لكل فرد من أفرادها درجة في بناء هيكلها قال تعالى (ما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ولنبين معنى هذه الآية فنقول أنها تشمل على معنيين أحدهما ان خلقنا كنفس واحدة والثانية ان بعثنا كذلك .

أما الأولى فاعلم اننا لا نفهمها إلا اذا تأملنا تشريح الجسم فيما ذكرنا وبنينا عليه نظام الأمة فكما ان أعضاء البدن يخدم بعضها بعضاً فكذلك أفراد الأمة يعين بعضهم بعضاً (وتعاونوا على البر والتقوى) وكما ان الأعضاء لكل منها وظيفة لا يتعداها ولا يصلح إلا لها فكذلك أفراد الأمة لكل واحد منهم استعداد لا يصلح لأعلى ولا أدنى منه إلا بقدرة وعلم جديدين فالدماغ مسكن الإدراك والفكر والعقل والقوى النفسية والحواس ولا يصلح لما هو دون ذلك من تحريك الدم في العروق وجريانه وطبخ الطعام كالعدة وغير ذلك والقلب لا يليق ان يكون بدل الامعاء ولا يستعد ان يقوم مقام الملك وهو الدماغ ثم الكبد وهو خادم القلب وكذا الرئة لا يقومان مقام القلب فيما اختص به ولا ينزلان عن طبخ الدم وادخال الهواء الى أقل من ذلك من مضغ الطعام وهضمه وهكذا خدام الكبد من الأوردة والأمعاء والمعدة والحلقوم والأسنان والصفراء والكليتين والطحال كل هذه لا تصلح للقيام لطبخ الدم بدل الكبد ولا يمكنها النزول الى درجة الأيدي والأنثيين وآلة التناسل فتعمل عملها وهكذا اليدين والرجلان وآلة التناسل هي أسفل أعضاء الجسم منزلة وأدناها عملاً فهي خادمة لا مخدومة وبالجملة فهذه الأعضاء ثلاثة أقسام منها رئيس ليس غير وهي الرأس ومنها مرؤوس ليس له راسة وهو الاطراف من اليدين والرجلين ومنها ما هو رئيس ومرؤوس باعتبارين وهو ما يلي ذلك كالقلب والكبد والكلى والمثانة فكل واحدة رئيسة لما بعدها مرؤوسة لما قبلها

فهكذا يكون افراد الأمة فالحاكم الأكبر منها بمنزلة الرأس من بقية البدن ولا يصلح إلا للأمور العامة ولا يتنزل للجزيئات كاللدماع

والقلب بمنزلة الوزير يجب أن يكون في العلوم والمعارف والاستعداد والجاه أقل من الملك وأكثر ممن هو تحته فان كان أعلى مما هو فيه أو أدنى فهناك الطامة والفساد ثم من تحت الوزارة من نظار المصالح يكونون بمنزلة المكبد والرثة والأوردة والشرابين التي تعطى الدم وتأخذه

فلا يجوز أن يكونوا كالوزراء استعداداً ولا مثل الذين هم أسفل منهم طبعاً مثل حكام المقاطعات وهكذا حكام المقاطعات هم بمنزل الكليتين والطحال والمرارة والعروق والحجاب الحاجز والصدر والحلقوم فهو لا يليق أن يكونوا كنظار المصالح استعداداً ولا كمن هم تحته من أمراء الجهات إدراكاً وفكراً وجاهاً وهكذا حكام الجهات الصغرى ومشايع البلدان الكبيرة والصغيرة فهم كالعدة والأعضاء والقواطع والأسنان درجات بعضها فوق بعض لا يجوز أن يكون أحدهم مساوياً لمن فوقه استعداداً ولا نازلاً لدرجة من تحته فكراً وإدراكاً ويسرى ذلك من الحاكم إلى الكاتب إلى الخادم والصانع والفلاح وهم الذين يخدمون ولا يخدمون في مقابلة الرئيس الأكبر للأمة وهو الذي يخدم ولا يخدم ومتى كانت الأمم على هذا النظام أصبحت تضارع النظام العام في السموات والأرض وفي جسم الانسان الذي خلق في أحسن تقويم وإذن تكون الأمة كلها مطابقة لخلق نفس واحدة وتقوم على أحسن منوال وهذه هي المدينة الفاضلة

(٣) تأثير الاعتقاد في الأمم

من تأمل في الأمم وجدها تشترك في أمور تعمها ولولاها ماتعاملوا ولا تجاوزوا وأهمها الأحساس بأن لهم قوة يخضعون لها مسيطرة عليهم وما في قلوبهم من رحمة على أبناء جنسهم والعقل الغريزي المنبث في جميعهم وإن تنوعت البيانات وتباينت العقول واختلفت القوى ولكن الأحساس والفكر الشامل الغريزي ليس يخلو منه قط الانسان وعليه تبادلو المنافع والتجارات والصنائع والعلوم وكل يميل إلى صناعة أو حرفة أو بلد أو أمة أو دين فاختلفت الفطر ولأجلها تنوعت الصنائع والأعمال

واحْتَاج كل فريق للآخر (ولا يزالون مختلفين إلا من رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك)

وكما اشتركت الأمم في الاحساس الفكري والصورة الجسمية والحاجة العامة يجب أن تشترك كل أمة في أمور تخصها لا يشاركها فيها غيرها حتى تتم وحدتها وأرفع أمة هي التي يسرى في جميع أفرادها اعتقاد بصانع الكون وصفاته وأنه متقدس واحد لا شريك له ليس له أول ولا آخر قديم باق ليس كمثل شيء تنزهت ذاته عن الأجسام والتجزئة والتقسيم شملت قدرته جميع الممكنات وعم علمه وكلامه الواجبات والجائزات والمستحيلات لا يصدر شيء إلا عن إرادته يعلم ما فوق السموات وما في طبائها وما في الجوى والثرى وما تحته . وبالجملة إن كالاته لا نهاية لها وهو منزّه عن جميع النقائص وأن له ملائكة عظاماً وأنبياء ورسل قد اتبعوهم ودانوا إلى آخرهم الذي أرسل إليهم كمن اتبعوا إبراهيم وموسى قبل المسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام وأن يكون فيهم علماء وحكماء خلفوا هؤلاء الأنبياء يقومون بالارشاد والاستنباط فيهم وإلا هلكوا وضلوا وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيهم استعداد تام للدين والدنيا وسياسة الدارين فيقدرون الخلق لمعاشهم ومعادهم ودنياهم وآخرتهم ونمو أجسادهم وقوة أرواحهم فانهم يتلقون الوحي عن مبدع الكون لما أفاض عليهم من الاستعداد وقد قويت فيهم القوة الخيلة والعاقلة وهم أذكى وأعفأ شجعان ذاكرون لما علموه نهاء أمناء فطناء رحماء بالخلق قويا البنية ليس في أجسامهم ما ينفر طبعاً صادقون يبلغون ما أمروا به للخلق قائمون بسياستهم في الدين والدنيا

(٤) ما به نظام الدنيا والدين

اعلم ان الدنيا والدين لا يصلحان الوجود أربعة أشياء الزراعة والتجارة والصناعة والسياسة والأخيرة مما قبلها بمنزلة الرأس من الجسد وكما لا يصلح الجسد إلا بالرأس فهكذا لا تنفع صنائع الأمة وزراعتها وتجاراتها إلا إذا قامت سياستها على الوجه الأنتم

بل السياسة في الأمة كالروح في الجسم فكما تكون الأمة جسداً واحداً له أعضاء متعاونة
فهكذا يجب أن يكون لهم روح مدبرة سارية فيهم وهي القوة السياسية وهي إما أن تخص
بواطن العامة والقائمون بها هم الوعاظ أو الخاصة فقط وهم الحكماء والعارفون وأما أن
تتحكم على ظواهر الاجسام لا غير وهي سياسة الملوك والحكام وأما أن تعم الجميع ظاهراً
وباطناً خاصة وعامة وهي سياسة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فإذا نقلوا إلى جوار ربهم
جعل الله تلك السياسات موزعة في طوائف من أئمتهم إذا أراد بقاءها فإذا ضعفوا عن
حمل تلك الامانة ولم يقوموا مقام نبيهم باعتبار مجموعهم دل ذلك على اضمحلال تلك
الأمة الضالة وأخذها في الدمار والشقاء أما القائمة مقام نبيها فتختص كل طائفة من
عقلائها وعلمائها بعمل فهو لاء للوعظ وهؤلاء للحكم بالعدل وهؤلاء للتبحر في العلوم
ويتقاسم العامة أعمال الصناعات والزراعات ويتتبع مجتهدوها ومستنبطوها آراء نبيهم
مع ملاحظة ما هم عليه والوسط الذي هم فيه إذ علوم الانبياء تأتي للناس عامة لاسيما
خاتمهم عليه الصلاة والسلام ويمكن انزالها على كل وقت وبالجملة فكل أمة تحتاج إلى
نبي تتبعه وحكماء يستنبطون فان الله عز وجل خلق العقل وأنزل الديانات وكما أن
لكل نفس قوى مختلفة والعقل رئيس عليها كما نشاهد من نفوسنا فهكذا لكل أمة
عقلاء ولها نبي يجمع آراءهم

واعلم أن الناس مدينون بالطبع وذلك ان كل فرد لا يمكنه أن يقوم بجميع لوازمه
فلا بد اذن من توزيع الاعمال عليهم بحسب الطبع والقدرة فيحتاج كل للآخر ولا بد
بعد ذلك من التبادل فيأخذ النجار ما عند الخباز والخباز ما عند النجار فيتبادلان
ثم لا بد من قسطاس يحكم بينهما بالعدل فوجب أن يكون بعض المعادن قاصياً حكماً
حاً كما على القيم لاحظ لأحد المتتابعين فيه يكون معياراً للتبادل ودليلاً على النقص
والزيادة وقد اصطلمحت أغلب الأمم على الذهب والفضة ثم لا بد مع ذلك من طمع أحد
المتبادلين في الآخر فلا بد اذن من حاكم ناطق إذا عجز الحاكم الصامت من النقد
ثم بعد ذلك لا بد له من ناموس يحكم به وإلا لأصبحت آراؤه وأوهامه وأغراضه لها

انسلطان على الأمة وذلك القانون يقوم به العقلاء ولكن هؤلاء مختلفون بل الانسان الواحد يناقض نفسه في وقتين مختلفين وإذن لا بد من شرع آتى به النبي ليقرم لعقول الأمة مقام عقل الشخص لقوى نفسه وما العقول إلا كالغذاء وما الشرائع إلا كالدواء فأى أمة اتبعت عقولها وتركّت أنبياءها مرضت مدينتها وإن غلظت وعظمت كما نرى من قوم يكثر من الاغذية ولا يتعاطون الأدوية فأولئك تغاظ أجسامهم ويدب فيهم الداء وتكون أمراضهم دفعية فتأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون وهذا حال أم أوروبا قد ترقوا في كثير من شؤونهم العمومية ونبذوا الديانات فلم يراعوها إلا بين الأفراد بعضهم مع بعض فأصبحت معاملات الأفراد يغلب عليها الصدق والأمانة أما معاملات الأمم فاتها تابعة للحظوظ ثم انهم أباحوا للأحاد بأشياء لم يراعوا فيها نص الشرائع السماوية كالربا والخمر فترى مدينتهم زاهية زاهرة كالجسم العظيم السمين ولكن فيها أقوام كثيرون يعيشون في الأرض فساداً ويريدون أن يقوضوها على عروشها جزاء بما كسبت من ترك الدواء واستعماله كالاشتراكين والنهبست وهناك كثير من الأقوام أصبحوا في أشد الفقر المدقع وعظيم الحاجة لسبب عدم التوازن بين الأفراد إذ العقل الانساني لا يمكنه الإحاطة بجميع المصالح والمضار أما الناموس الالهي فينهى عن الربا مثلاً لعلهم أنه يجعل الناس في الأمة قسمين عبيداً وسادة لا غير وهذا هو الخلل العظيم وها هو حاصل في أوروبا الآن و ترى ان الشرقيين على عكس أولئك تماماً فتركوا استعمال العقل في شؤونهم العمومية . وقلدوا في أمورهم الخصوصية وزاعوا بعض الدين فانسحخوا من المدنية وأنحطت قواهم إذ لم يراعوا موهبتى الله المفاضتين عليهم وهما قوة العقل والدين ومهام في شؤونهم إلا كمثل من استعمل الدواء وترك الغذاء فتراه يشرب صباح مساء الأدوية ويترك الأغذية وهذا بلا ريب أخط من الأول مدنية وأقل منه شرفاً فلا دنيا ولا دين على انه لا يتحقق دين بلا دنيا فتأخذ ان أهل المدنية الفاضلة هم المتبعون لنبي المستنبطون المؤمنون بالله وبشريعته بقولهم وإن اختلفوا فيما بينهم في الفروع كما تختلف أعضاء الجسد في اشكالها من طول

وعرض وتدوير وصلابة ولين وعروق ولحم وأنهم ان وقفوا على العقل وحده ضلوا أو الدين وتركوا العقل بالكليّة خسروا الدين والدنيا جميعاً ويكون اتباعهم للدين بمجرد الاسم إذ لا دين إلا مع تعقله ومتى عقل الدين كان أدل على حفظ نظام الدنيا والآخرة معا وقد علمت حال أُمم الشرق والغرب هذا حال الأُمم في هذه الحياة الدنيا

(هـ) ما لاهل المدينة الفاضلة بعد الموت

إعلم أن هذه الدنيا عنوان الآخرة ولا يجوز أن يعبر إلى الآخرة إلا على قنطرة الدنيا وأية أمة ظنت أن الآخرة تأتي بلا دنيا فهي جاهلة لم تدرك شيئاً . ألم تركب فرضت فرائض الموارث وأحكمت شرائط البيع والشراء والهبة والقرض وحرم الربا والزنا والسرقة ودونت أحكام النفقة والمهر والدخول والطلاق والعقوبات من القطع والقتل والقصاص والجلد والرجم والتغريب والتعازير مما يجتهد فيه القضاة ، أليس ذلك كله لحفظ نظام الدنيا . ولعمري إذا لم يكن عند الناس مال فأين المعاملات والبيع والشراء وأين الموارث والحقوق وأين تفرض النفقات ومن أين تكون السرقة والربا فهذه كلها جعلت قيوداً وشرائط لتحفظ بها هذه الحياة الدنيا ويمر عليها بالعقول والأفكار إلى الآخرة بالأعمال الصالحة ومن ظن غير ذلك لم يفقه في الدين شيئاً ولم يعرف لم خلق ثم إن أهل الكمال من الأُمم كلها تراهم يميلون إلى فكر واحد ووجهة واحدة وهو الصراط المستقيم فيتعاونون على البر والتقوى عاملين بقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)

وقد استنتج العلماء رحمهم الله كالشافعي في الرسالة وأصحاب الأصول عامة ان الصناعات واجبة وجوباً كفاً ونحن نقول لما كان كل فرد له استعداد لعمل خاص . فليكن يجب عليه أن يقوم بذلك العمل مع من له استعداد فيه كالموسم الكونه

ان لكل شيء من الموجودات منفعة ليست في غيره وهذا هو الذي ادين الله به مهما اختلف الفقهاء فيجب على المستعد لعمل ما أن يقوم به حتى يبرع فيه ويحب على غيره من الأمة أن يشجعه عليه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسنعتقد لهذا باباً خاصاً عند التكلم على مدينة الاسلام ونذكر انه يجب على ملوك الاسلام وأمرائه تنشيط كل مستعد لعمل ما الى عمله لتقوم المدينة بالقسط في هذه الدنيا ويأخذ الناس بعضهم بيد بعض للدار الآخرة

وما الآخرة إلا ثمرة من ثمرات الدنيا ونتيجة من نتائجها (ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقمنا عذاب النار) ولا يكون ذلك إلا بأن يكسب كل امرئ اعتقاده الصحيح الذي ذكرناه آنفاً بالله وملائكته وكتبه ورسله ونبيه الخاص ونظام أمته ثم يكسب أخلاقاً حسنة ويلتذ بها في حياته الدنيا . وكلما طال أمدته في الدنيا حسنت في عينه صناعة من علم وعمل وإرشاد وعدل بين الناس فيقوى علمه وعمله وكل من أفراد الأمة يفرح بنظيره من سابقه ومعاصريه فترى العالم يفرح بمن على شاكلته من أي بلد كانوا وعلى أي مذهب من مذاهب الفروع كانوا مع توجيه النفوس الى مبدع الكون في أوقات معينة والمحافظة على الاجتماعات في الصلوات والجمع والأعياد والحج ومواساة الفقراء بالأموال وهكذا مما أوصت عليه الشرائع وهذا حقيقة لانهم الدنيا إلا به فاذا ذهب الناس الى ربهم كانوا فرحين بنفوسهم ونفوس أشكالهم في جنة عدن فوق فرحهم في الدنيا بمراتب وإلى ذلك تشير شريعتنا المطهرة ولذلك ترى المصلي يقرأ الفاتحة ويذكر الله بالرحمة العامة في خلقه لعموم الناس ويحمده على تربية جميع العالمين تربية مصحوبة بالرحمة تارة والشدة التابعة للملك تارة أخرى ثم يقول ها نحن أولاء جميعاً نستعين بك إذ الأمة عبارة عن أشخاص كلهم كفرد واحد وكل فرد فيها كعضو من الأعضاء فنحن نعبدك جميعاً اذ لا يقوم الواحد منا بالعبادة وحده لكثرة لوازم الوصول اليك والفرد الواحد لا يقوم بها كلها كما أن العضو الواحد من الجسد لا يعيش وحده ونحن مع هذه الكثرة البالغة لا يمكننا أيضاً (ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم

فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ (وَأَمَّا الَّذِي يَعِينُنَا عَلَى ذَلِكَ أَنْتَ وَحَدِّكَ فَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ فَاهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

هذا ملخص سورة الفاتحة من حيث المعنى اجمالاً فهي ترجع الى اجتماع القوم المؤمنين في زمن واحد ثم اذا نظرنا للتشهد وجدنا أنه يزيد على ذلك فيحيي الله تعالى ويثني عليه كالنصف الأول من الفاتحة فيقول التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله وهذا نظير أول الفاتحة الى الرحمن الرحيم ثم يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فبعد أن يذكر الله تعالى يشرع في ذكر نبيه ثم نفسه وجميع عباد الله الصالحين ممن مضى ومن هم في زمانه ويأتي بعده في أعلى السموات أو أسفل الأرضين ليربط قلبه بجميع المصلحين في الأرض ويتذكرهم فيقتدى بأعمالهم فالقصد من العبادات هذا التذكر والتفكير والرابطة بالجميع من كافة الطبقات ولهذا رمز الحكماء في كتاب كلىة ودمنة بالحمام الذي تعاهد على التخلص من الشبكة التي وقعت فيها ثم بعد ذلك يوحد الله بالشهادتين ويصلى على النبي وإبراهيم وآله لأنه هو الذي جاء بالتوحيد بعد دروسه فنظر في ملكوت السموات والأرض وكشف له عن جميع ذلك ونزه الاله وملخص هذا ان الصلاة جعلت تذكرة لسيتين ذكر الله تعالى واستحضاره ثم ذكر من أصلح في الأرض من الأنبياء ومن على شاكلتهم للاقتداء بهم ومن ظن انها مجرد عبارات تقال أو أن القرآن مجرد التعبد فأولئك قوم ليس لهم حظ من الدين والشرعة والعقل . ورد في رسالة الامام الشافعي رضى الله عنه ما معناه ان سائلاً قال لم اخترت في التشهد التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين الى آخره

فقال رحمه الله هذه رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال السائل أين أنت من رواية عمر وهو يخطب على المنبر يقول قولوا التحيات لله الزاكيات الخ فقال رضى الله تعالى عنه ان قول عمر صار اجماعاً إذ لم يشكر عليه أحد فاقرارهم عليه

بعد اجماعا ولكني فضلت رواية ابن عباس لاستنادها للنبي مباشرة فجعلتها أولى وإن كنت اعتمد رواية عمر فقال له السائل إن هناك روايات أخرى في التشهد غير ما روى عن ابن عباس وعن عمر فماذا ترى فقال له رضى الله عنه متى صحت الرواية فاعمل بها لا فرق بين رواية ورواية ولا حديث وحديث مهما تعددت الطرق وتباينت الروايات فقال له السائل كيف يجوز ذلك ودين الله واحد وكيف تعدد الروايات ويصلي الناس بصلوات مختلفة أليس ما نزل الله على النبي شيئا واحدا فقال الشافعي رضى الله عنه أعلم أن القصد في التشهد إنما هو ثناء وهو يؤدي بأي صيغة وليس القصد التعبد بتلاوته فلا غرو إذا أدى بأي صيغة أو كيفية وإذا كان القرآن نزل على سبعة أحرف وأريد منه معناه فما بالك بثناء يراد منه التعبد وهل تذكر ما روي أن هشام بن حكيم قرأ سورة الفرقان فسمعه عمر فأخذ بتلايبيه وأحضره عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه قرأ القرآن بغير ما أنزل فأمره النبي بإطلاقه وقال اقرأ فقرأت أنا وهشام فقال صلى الله عليه وسلم بهذا وبهذا أنزلت نزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر

فتأمل كيف كان علماءنا رضى الله عنهم لا يراعون إلا المعاني فهذه الصلاة لم يقصد منها إلا نزوع القلوب للخالق والاتحاد مع الخلق في مصالح الدنيا ونظام الدين بتهديب الأخلاق والأعمال الصالحة وكال النفوس الانسانية والعقول البشرية وأى أمة لم تفقه من الصلاة إلا ألفاظها ومن العبادات الاقشورها فقد ضلت ضلالا بعيدا عن المدينة اذ تبقى معرفتها بربها نباتا ضئيلا لم يسق واثنتاسها باخوانها ومساعدتها بقدر الضرورة وفيما عدا ذلك يكثر تحاسدهم وتضاربهم وتعددهم واختلافهم فتتمزق دولهم كل ممزق ويضمحلون كما اضمحل الأولون .

(٦) الأمة تضارع العالم كله في نظامه

ولما كانت الأمة تضارع العالم كله في نظامه نرى المصلى يقف تارة على استقامة وأخرى يركع كما هي خالقة نوع الحيوان ثم يسجد كالنبات وهذا مقتضى القسمة العقلية اعتدال وتنكيس وتوسط وهكذا الست الجهات فان المصايين حول الكعبة وفي أطراف المعمورة يصلون اليها فيستقبلون الجهات الأربع ويرفعون رؤوسهم الى السماء ويسجدون واضعين رؤوسهم الى الأرض فكأنهم في صلاتهم يشيرون الى نظام العالم كله وأن الأمة الواحدة يجب أن تكون كهذا النظام كله الذي هو كنفس واحدة فالأمة كالجسم الواحد وكالعالم كله من حيث النظام ووضع كل شيء في رتبته ولم يكتف في الإشارة بالاتحاد بتلك الأقوال والأفعال الاشارية بل جعلت الصلاة جماعة اشارة الى وجوب تضام القلوب في المدينة وذلك خمس مرات في اليوم واليلة لأهل المحلة الواحدة ثم في خطبة يوم الجمعة لأهل البلدة

وتأمل كيف لاحظ الشافعي رضي الله عنه ألا تعدد الجمعة في المصر الواحد لأنها في الحقيقة سرها الاجتماع وقيام رئيس المدينة خطيباً يذكّرهم بأحوالهم ونظامهم في دنياهم وآخرتهم بمقتضى الأحوال الحاضرة لا مجرد أحوال محفوظة من الدواوين ثم اجتماع المصر ومن حوله في العيدين والاستسقاء والخسوف والكسوف ثم اجتماع أهل الاسلام قاطبة في مكة المكرمة من استطاع منهم سبيلاً مرة في العمر لتبادل الأمور العامة (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) فجعل الله الكعبة محلاً يقوم به الناس ويتذاكرون دينهم وسياساتهم العامة وأعمال ملوكهم هذا هو من أجل مقصود الشرع السماوي الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام

فاذا تم ذلك لهم دخلوا بعد الموت في الدرجات العلى ونالوا حظاً بقدر ما تعاونوا

وتعلموا وتحبوا (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا) فانظر كيف رتب الايمان على الحب وذلك ان العقول لا يمكنها المعارف الحقيقية والقيام بالمدينة الحقة إلا إذا تحب أرادها وتعاونوا فإذا لم يتعاونوا لم يطعنوا في حياتهم ينقص إيمانهم طبعاً ومتى نقص الايمان لم يدخلوا الجنة إلا بعد جهد جهيد فالحب تبع لنظام الناس في مادياتهم وصنائعهم والايمان مرتب عليه ويتبعه راحة الآخرة وهذا ما قررناه سابقاً فانظر كيف تطابقت الشرائع السماوية والأحوال الطبيعية والأمور العقلية (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولذلك قال تعالى (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله) وقال (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا) الى قوله (فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ) وقال (والذين آمنوا واتبععتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) فأنت ترى أن مدار أمر الآخرة على المرافقة والاتحاد فبهما تنال الدرجات ولا يكون ذلك إلا بالعمل في الدنيا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عند وفاته (اللهم الرفيق الأعلى) وكان كثيراً ما يقول ألحق بإخواني الصالحين . وقال تعالى حكاية عن يوسف (تَوَقَّى مُسِيماً وَالْحَقْفَى بِالصَّالِحِينَ) وقال سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وهكذا مما هو شائع مستفيض مما يدن على ما قلنا فيما تقدم أن المدار على وجود الحب والرابطة بين الناس فيها تنال الدرجات ولعلك تقول لكل نبي أمة ومالنا ونصالحى الأمم المتقدمة بل مالنا والذين مضوا من قبلنا في أمتنا إذا لا تعاون بيننا وبينهم قلنا اعلم ان الاجتماع هناك مع الأولين والآخرين ويحصل القرح بالأشباه والنظائر من أى قوم كانوا وعلى مقدار كثرتهم تكون الالفة بهم فالعادل في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزيد لذته بالعادل في أمة عيسى وموسى وإبراهيم ونوح وان حجب عنه في الدار الدنيا .

ولما كانت لذة الانسان تكثر بكثرة أشباهه وأمثاله من أهل الكمال وكلما تزايدى

الزمان زادت اللذة وعظمت جداً ورد طلب النبي صلى الله عليه وسلم التناكح والتناسل فقال (تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة) وكما كانت أمة النبي أعظم كانت درجته عند الله أكبر ولذته تبع لدرجته

واذا قارنا بين أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمة ادريس التي انقضت وهم المصريون الذين اخترعوا العجائب وأظهروا الغرائب لم يمكننا أن نحكم الآن وانما يمكن الحكم بعد انقراض الدنيا وبذلك يقارن بين أعمال الاسلام في عمارة الارض وأعمال المصريين الأقدمين ولكن ورد في القرآن في ادريس ورفعه مكانا عليا وورد فيه أنه رفع الى السماء الرابعة وورد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم ارتقى الى السماء السابعة فلا بد أن تكون أمته أرقى من أمة المصريين السابقين لهذه الاشارة وبالجملة فأحوال الناس بعد الموت ويوم القيامة تبع لأحوالهم في الدنيا (ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)

وأما ما ورد من ذم الدنيا وانها لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد فالمراد منه صرف وجهتها الى المنفعة العمومية لا تركها بالكلية وإلحاقها الدين قطعاً ومعلوم أن في الطبيعة البشرية الحرص على الشهوات فتحصيل الدنيا أمر جبلي في النفوس البشرية فنزلت هذه الآيات تزهيداً للناس فيها وتذكيراً بالآخرة ليصرفوا الوجهة القلبية الى المنافع العمومية والدار الآخرة ولم يؤمروا بتركها وإلا كن تعطيلاً للمنافع وهل ترك صلى الله عليه وسلم الحروب أيام الرسالة فقد غزا غزوات وبعث سرايات تعد بالعشرات وكان محتاط في أمر الدين والدنيا جميعاً (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)

(٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا

من اللطائف أن شريعتنا الاسلامية مزجت أمور الدين بالدنيا مزجاً عجيباً ألا ترى أن صفوف الصلاة هي بعينها صفوف الحروب فترى في كل أمة من الأمم نظاماً ودستوراً يقوم به كبار ضباط ويتبعهم فيه رجال العسكرية كالإمام في الصلاة فالصلون هم المحاربون وكما وجب عليهم الصلاة صفوفاً وجبت عليهم المدافعة والمخاربة صفوفاً منتظمين فتكون صفوف الصلاة كالتمهيد للاصطفاف في الجهاد ولم يكن القصد من الأمم أن تقلد الإمام في حركاته وسكناته وقت الصلاة فقط وإنما يقلد في حركاته الخارجية في الحروب وهذا كان فعل صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام وخلفائه ومن على شاكلتهم ولولا هذا ما أمكن الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل سيدنا علي ومعاوية وعمر أن يصلوا لهم في يوم واحد فقتل علي في المسجد ونجا عمرو لاتفاق مرضه في ذلك اليوم وأبابة خارجه عنه وصادفت الضربة ظهر معاوية بالشام في الصلاة فعطل نسله فكان الخوارج عالين بأن هؤلاء يصلون بالناس

وهكذا كانوا هم الذين يخطبون وهذه سيرة صاحب الوحي وخلفائه ومن على شاكلتهم فهم الخطباء علما منهم أن القصد من الصلاة والخطبة والجهاد وغيرها سياسة الدين والدنيا جميعا وإن بينهما تلازما في هذا الشرع وبالعجب اننا ما سمعنا أن شرعا كهذا جاء باتحاد الدين والدنيا وسيرهما في خطة واحدة أعجزت كل ذي عن إيجاد حد فاصل بينهما وهذا هو الحق . وكيف يميز بين الماء والبطين في جسم النبات أم كيف تستغنى الروح عن الجسد والمعنى عن الكلم فما هنا امتزاج عجيب فانظر كيف خلف من بعدهم خلف فلم يعرفوا ما المقصود من ذلك فتركوا الخطب في أيدي الجاهلين والصلوات عند الضعاف فأصبحت لا ترى إلا أشباحا خالية من روح الفضيلة وما القصد من هذه العبادات

ومما تنشق له المرائر أنك ترى المسلمين أثناء تأليف كتابي هذا بينهم الشقاق

والنفار فيها هي واداي التي هي مملكة وراء الصحراء الكبرى فيها نحو ستة ملايين من الأتقس فيهم مائتا ألف محارب وكلهم عند الحرب يقومون على قدم وساق وكذا جميع البلاد ولكن علمنا ان دولة فرنسا تريد الاغارة عليها بطريق القاء الشقاق والنفور بين كبار البائل وهكذا دولة مراكش نسمع ان فيها قلائل كثيرة ومثلها في ذلك دولة افغانستان فانها مع ما حصل لها من التقدم في زمن الملك عبد الرحمن وابنه حبيب الله خان فان أهلها لا يزالون ذوى شقاق وهكذا مصر وأهلها وجميع أقطار الاسلام على شاكاة واحدة في اخلاف والشقاق والنفور وما ذلك كله إلا لضعف التربية وترك ما أريدت به تلك العبادات والأعمال

(نتيجة) قد ظهر لك ارتباط الدنيا بالدين والأمة بعضها ببعض كأنها العالم كله أو النفس الواحدة واننا مرتبطون ببعضنا دنيا وآخرة كالنفس الواحدة وهذا اتضح معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير) أما كون الخلق كنفس واحدة في الدنيا فقد اتضح مما ذكرناه في أهل المدينة الفاضلة وانهم كالجسد الواحد وأما كون بعثنا كنفس واحدة فقد علم من الكلام في هذا الموضوع

(٨) الترقى سنة العالم شرحها القراءان قبل داروين باثني عشر قرنا

زيادة شرح وإيضاح

ولتزد الكلام على هذه الآية إيضاحا معقولا وبيانا صادرا عن استطلاع هذه الكائنات فنقول

الأمة تشبه النفس الواحدة من جهات كثيرة زيادة على ما تقدم . فكما أن الانسان الواحد يأخذ في صغره لنفسه ما ينفعه في كبره فكذلك الدولة تبني أوائلها ما ينتفع به أواخرها

بنى كما كانت أوائلنا تبني وتعمل فوق ما فعلوا

الترقى سنة العالم شرحها القرءان قبل داروين باثني عشر قرنا ١٦٥

وكما أن الشخص الواحد يترقى شيئاً فشيئاً ثم يستوى شاباً ثم شيخاً فهكذا الدولة تنمو فتشعب وتهرم وتموت وكان الدول كلها نفس واحدة تراهم يتركون الآثار ويؤلفون الكتب ويأتى الآخرون بعد اندراس من قبلهم يترجمون كتبهم ويبحثون على آثارهم فياليت شعري ما لهذه الأمم فالأولون حريصون جداً على تعاليم الآخرين والآخرون أشد حرصاً على التنقيب على آثار الأولين تلك سنة الكون ونواميس الخليفة وها هنا سؤال يهش له المفردون بالملح واللطائف وذلك أننا نرى أن الدولة تدرس آثارها وتمجى علومها من لوح الوجود فهلا أبقى مدير هذا الكون العلوم على وتيرة واحدة فتأخذ الأمة ما اختارته التي قبلها وتبنى عليه فيكون الترقى دائماً بلا رجوع وما لنا نرى الناس الآن يجوبون الأقطار شرقاً وغرباً للبحث عن آثار الأولين ولا ينالون مما عرفه المصريون مثلاً إلا قليلاً من كثير ولا يفهمون الرموز المكتوبة إلا بعد جهد جهيد كالكتابة الهيروغليفية وهي كتابة قدماء المصريين ففي النظر الظاهر ان هذا يخالف الحكمة قول .

اعلم أنه عز وجل ما أرسل الأنبياء ولا علم العلماء ولا خلق الخلق إلا للترقى والكمال ولو أبقى علم دولة وأخذته من بعدها سهلاً لطيفاً لو قفت حركة الكون وانحطت مرة واحدة وذلك ان الانسان لا يترقى في عمل إلا بباءث وشوق وتنبيه وإرادة واختيار ينال به السعادة فلا سعادة في الدنيا إلا بواسطة الشوق ومعنى الشوق ان يعرف الانسان شيئاً غاب عنه بعضه وحضر بعضه فيدل ما شوهده على ما غاب فيدفع النفس الى الغائب ما كان حاضراً مشاهداً فمن رأى عين الجميل أو يده أو وجهه أحب ان ينظر ما وراء ذلك وهكذا اذا رآه ثم غاب عنه فانه يبقى في الخيلة ولكن مشاهدته تكون ناقصة فيشتاق الى اتمام الرؤية بحضوره ومشاهدته . فهكذا الأمة لا يحركها الى طلب المعالى والشرف إلا أن تكون في ضعة وشاقيا ما رأت من المعالى والكمال عند غيرها فتبحث لتعرف شيئاً من معارفهم ثم تبنى على انقاضه ما يوافق مشربها وما يناسب حالتها التي هي عليها وما هذه الأعاجيب في الدول وتوارثها إلا كمثل الاستعارة في علم البيان

والكناية فانه لا يجمل الكلام بالتصريح بالمعاني دفعة واحدة والأتيان به على وجه الحقيقة فانه لا يجد في النفوس ارتياحا ولا هشاشة فاما الكناية والتورية فان اللفظ يؤتى به لمعنى ومنه يتوصل الى معنى آخر فكأنه أفهم المقصود برمز خفي وطريق يدعو الى البحث والتنقيب والتشويق

وهذا هو السر في المجازات والكنائيات والاستعارات المصروفة والمكنية والتشبيهات والاستعارات التمثيلية والمجازات المركبة والتعاريض والتلويحات وغيرها فكل لغة أمة مضت اتبعها علومها وبقيت لها آثار تدل على بعض ما تعلم وتسلك الأمم المتأخرة سبيلا غير الذي سلكته تلك فتوافقها بعض الموافقة وتباينها في أمور جديدة وربما زادت عليها في أمر ونقصت عنها في آخر وكم من علوم في قديم الزمان لم يبق منها الآن على سطح الكرة الأرضية خبر ورب علوم حدثت بعد ان لم تكن وكل هذا ليظهر قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) فأما إذا بقيت العلوم بنفسها تماما كان النظام كله واحداً والفكر واحداً واتكل الآخرون على الأولين في نظامهم وأعمالهم وهذا هو الهاوية والسقوط والوقوف وجلّ مدبر هذا الكون عن الوقوف على نظام واحد انما هي شؤون تابعة لشوق في النفوس شاقها باعث خارجي إلى مضاهاة من قبلها أو من ساكنها (ان ربكم لرؤوف رحيم) ولقد علمت ان بين الأمم والكلام مناسبة عجيبة وان أحوال الأمم أشبه شيء بعلم البلاغة فيها هنا بلاغة عملية وفي القول بلاغة كلامية وهذا هو المشابهة بين العناصر والحروف والقصد تشويق النفوس إلى الارتقاء

فمن هذا علمت أن الأمم كلها كنفس واحدة اتصل أولها بآخرها وبحث متأخروها عن أحوال متقدميها وانها كلها تشبه الانسان الواحد يأخذ من صغره لكبره ومن دنياه لآخرفته ومن حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن غناه لفقره كما ورد في الحديث

ولعمري أن النظر لهذه التدبيرات يشوق نفوسنا إلى التطلع إلى محاسن الكائنات

التي أمامنا فما أجمل العلم وما ألد الحكمة فأينما تولوا فثم حكم بدية ان نظرنا لارتباط الأمم وفنائها أدهشنا حكمها وان عطفنا على النظر للشخص الواحد هالنا حكمه وعجائبه ثم ننظر فنرى الأمة تأخذ في الترقى من أطراف المعمورة الى من هم في المناطق المعتدلة والغربية منها كاهل أوروبا وكثير من الشرقيين فكانها أخذت في الترقى من أطراف المعمورة الى الواسط

والأمم درجات بعضها فوق بعض فمنها ذات المدنية الفاضلة وقد تقدم شرحها بأجلى بيان اعتقاداً وعملاً ولندكر لك الآن الأمم النازلة عن الطبقة العليا مدنية واعتقاداً فنقول .

(٩) أقسام أهل المدنية الجاهلية وأعمالهم

اعلم أن ترتيب درجات الأمم كترتيب درجات الحيوان سواء بسواء ولقد ذكرنا ترتيب الحيوان في كتابنا هذا وأنه درجات بعضها فوق بعض ولنأت بها الآن إجمالاً لتبتهج بمعرفة اتساقهما في سلسلة واحدة حتى كان العالم كله نظام واحد وتفهم ما يرى في خلق الرحمن من تفاوت ونشرح الأمم واحدة بعد الأخرى الى أن نصل إلى المدينة الفاضلة فنقول .

أنت تعلم أن أدنى الكائنات رتبة العناصر البسيطة فالنبات الذي آخر سلسلة منه وهو النخل متصل بأول سلسلة الحيوان وأدناه ماله حاسة واحدة وهو اللمس كالديدان والعلق مما يخلق في الخل وأنواع السوائل والنباتات والثلج وبطون الحيوانات الكبيرة فكل هذه حيوانات لو اخبرت بوجود حواس أخرى لأنكرت وجودها فلو قيل للصدف في البخار أنت عندك حاسة اللمس ولكن هناك حيوانات عندها حاسة وهي الذوق كالديدان التي تسبح على الأعشاب والأشجار لأنكرت وجودها وقالت كيف يمكن أن أعلم بحاسة غير هذه وهكذا الحيوانات التي عندها حاسة الذوق إذا قيل لها ان هناك ماهو أرق منك كحيوانات في المحال المظلمة تشم ما بعد منها وبعضها

قد وجد لها عدو في محالها فأعطيت حاسة السمع ولم يخلق لها حاسة البصر لعدم لزومها لأنكرت ذلك وقالت علم ما بعد عنى محال ولو قيل لجميع ما تقدم ان هناك حيوانا له حاسة تسمى البصر يرى البعيد عنه على ملايين من الفراسخ لأنكرت لك الحيوان ووجوده إذ لا تعلم طبقة من الطبقات إلا ما علمها الله وتنكر ما وراء ذلك وهكذا يترقى الحيوان من الحواس الخمس إلى أن بعضه قد يحمي أولاده كالغرابان ويزيد عليه غيره فينفع الإنسان بعمله ويقبل منه التأديب بدرجات بعضها فوق بعض كالبهاائم وأذكاها الخيل ثم يترقى عن ذلك إلى أن يقلد الإنسان بدرجات بعضها فوق بعض حتى يصل إلى درجة القرد والبيغاء والفيل فكل هذه تقلد الإنسان في أعماله أو تقبل عنه قبولاً سريعاً ويلى هذه الإنسان . وكما أن كل درجة من درجات الحيوان السابقة اندرجت درجاتها السابقة فيها ولم تدرك ما بعدها فالحيوان الذى له السمع قد أعطى الحواس التى قبله وهكذا ماله البصر قد أعطى السمع وما قبله وهكذا المقلد كالقرد قد أعطى كل مواهب الحيوان قبله فهكذا الإنسان أعطى مواهب الحيوان وكل درجة من درجاته فى المدينة أعطيت حظ ما قبلها وزادت عليه ، وكما أن الخمسة فيها جميع ما قبلها من الواحد والاثنين وهكذا والسبعة فيها الستة والخمسة والثمانية فيها السبعة وما اندرج فيها

فهكذا كل حيوان فى درجة أخذ موهبة ماتحتة وزاد علمها والإنسان أخذ درجات ما قبله من الحيوان وكل درجة من درجات المدن فى كل شكل أرقى فانها أعطيت حظ ما قبلها وجهلت ما بعدها كدرجات الطفل والشاب الكهل والشيخ

فلو أعطى الطفل البساتين الغناء والتصدر فى المجالس لم يحفل بذلك وهكذا الشاب إذا أعطى بدل الشهوات الذهب والعلوم والمعارف لم يحفل بها فهكذا درجات الأمة كل درجة أخذت حظ ما قبلها وجهلت حظوظ ما بعدها وكأنها تنطق بلسان حالها (لا علم لنا إلا ما علمتنا)

وإذا فهمت هذا فاعلم أن أول درجات المدن الجاهلة قوم رأوا أن المدار فى الحياة الدنيا على ما به بقاء الأشخاص وهؤلاء تسمى مدينتهم (الضرورية) لأنهم اقتصروا

على الضرورى من الحياة الدنيا فتراهم من الغداة إلى العشى يجردون لياً كانوا فاذا سئلوا لم تتعبون فيقولون لنا كل فيقال ولم تأكلون فيقولون لنعيش فيقال ولم تعيشون فيعجزون وينقطع جوابهم وهؤلاء المشار إليهم بقوله تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَى وَمَا يُهْدِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) وترى فى كل أمة أقواماً يشبهون هؤلاء فى الفكر

وقوم آخرون رأوا أن المدار على ما يلد الأنفس من اللذات الحسية والشهوانية ومدينتهم تسمى (الحسية أو الخسة) وإليه الإشارة (ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأُمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

وآخرون قالوا أن المدار على اليسار والغنى فأما اللذات فانها تكلفنا ما لا طاقة لنا به وتسمى (اليسار) وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَتَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ).

وآخرون ارتقوا عن تقدموا فقالوا ليس المدار على المال ولا اللذات والشهوات ولكن المدار على الكرامة فيعظم أحدنا عند اخوانه وعند غيرهم وتسمى (مدينة الكرامة) وإليه الإشارة بقوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعِلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)

وجاء آخرون فقالوا إن المدار فى الحياة على جمع هذه الخصال كلها ومدينتهم تسمى (الجماعية) يقولون نال اللذات والغنى والكرامة ونعيش متمتعين إلى أن نموت وهؤلاء ومن تقدمهم لم يعرفوا عن الاله ولا الرسل شيئاً

وما أشبه هذه المدن الخمس بسلسلة الحيوانات فى ترتيب الخواص فمنها ذات الحاسة وذات الحاستين وذات الثلاثة وهكذا إلى الخمس التى جمعت فوائد الجميع وعلمت علمهم

(١٠) آراء اهل المدن الجاهلة

قد علمت أقسام أهل المدن الجاهلة وكل قسم يكون طوائف وأقساماً مختلفة متشعبة منتشرة متكاثرة وأنهن في درجاتهن أشبه بدرجات الحيوان فالضرورة كالديدان التي خلقت في المائعات وأجواف الحيوانات الكبيرة فهي فرق شتى ومدينة الخسة ذات الشهوات كالحيوانات التي أعطيت قوة الذوق والاذة وهي تتشعب شعباً كثيرة وهكذا مدينة اليسار كذوات الشم ومدينة الكرامة كذات السمع إذ به تعرف أخبار العدو فتحترس منه والمدينة الجماعية كذات الحواس الخمس من النمل والحشرات فهي لم تفرق بعد إلى درجة الحيوانات العليا التي يعلمها الانسان أو تقلده . فتأمل كيف تشابهت الدرجات وتناسقت المراتب بعضها فوق بعض بنسب محفوظة ودرجات متناسقة ملتزمة ثم أن هذه اللذائذ والكرامات والمعاش طلبوها في الحياة بحسب ما غلب على عقولهم فقال قوم

أنا نرى أن هذا الوجود لا نظام فيه ولا ترتيب فالحيوانات يقاتل بعضها بعضاً ويغالب بعضها بعضاً . يأكل الكبير الصغير والقوى الضعيف فكل طائفة تأكل غيرها وتغالبها بل ترى بعض الحيوان يقتل الآخر لمجرد المشاركة في الجوهر وإن لم يكن له حظ في قتله فهذا دليل لنا على أن طبيعة كل موجود حب الافراد بالوجود والبقاء وأن يحور ما عداه وإذن قالوا وجب أن تتبع هذه الخطة فتقاتل أعداءنا من نوع الانسان وتغالبهم ونسبهم لحظ نفوسنا لأصلاحيهم ولا لترقيتهم فهؤلاء جعلوا المدار في الحياة ونيلهم اللذائذ الشهوانية على العلبة والحروب والقهر مقلدين في ذلك طبيعة الحيوان بحسب ما ظهر لهم وقالوا إنا كلما قهرنا أمة وأخذنا قبيلة استعنا بها على قهر غيرها لنحصل لذاتنا في الحياة الدنيا إذ لا نرى سوى هذا . فهذه طريقة المغالبة . ثم أنهم يستعملون مع القلبة رابطة الجنسية فيستعينون بأبناء جنسهم وأولاد أبيهم الأكبر على مغالبة من سواهم وتارة يعتبرون الوطن الذي يسكنونه واشتراكهم في

الهواء والغذاء والجو والطقس (وتسمى الوطنية) وتارة يرجعون في الجامعة إلى رابطة اللغة المعبرة عن ضمائرهم الموجبة للالتئاس والمستلزمة قرب الاتحاد في الأخلاق والشيم والعوائد وهي وحدة اللغة وتارة بالمصاهرة كما تصنع الملوك الذين يتحابون في هذه الأزمنة فيتزوجون بنات بعضهم وهذه تسمى (وحدة المصاهرة) وتارة بالمعاهدة والمخالفة مع غيرهم وهي (وحدة التناصر) وتارة يتناصرون بكونهم كانوا تبع ملك جمعهم على عدوهم فتلك الجامعة يستعملونها بعد ذلك فيما يحبون فالوحدات التي تستعملها المدن الجاهلة سبعة وهي الاستعباد والنسب والمصاهرة والوطن واللغة والمخالفة والتناصر واتباع جامع لهم على الوحدة

ثم هناك أمور خاصة بطوائف وأناس ليست عامة الأمم وذلك كالاشتراك في الذلة والقهر والصناعة كالنجارين والحدادين وعملة الفحم فكل هؤلاء لهم جمعيات لها عمل عظيم وهكذا الاشتراك في لذة أو جناية كالزناة والسارقين وكالاجتماع في محلات التلاقي في سفر وكالوجود في أمكنة لا أمان فيها . فأسباب الائتلاف بين أهل المدن الجاهلة اثنا عشر منها سبعة عامة وخمسة خاصة . فها أنت ذا علمت أقسامهم الخمسة وآراءهم واجتماعهم

(١١) في أتماء الثروة

فاذا حصلوا الغنى والثروة والمال أخذوا ينمون به بطرق شتى فمنهم من ينميه بطريق المغالبة لاغير ومنهم من ينميه بطريق المباينة وأنواع المبادلات وبعضهم يجعل المغالبة على الذكور والتجارة على النساء وآخرون يجعلون ضعفاءهم من الفريقين للمبادلات وأقوياءهم للمغالبة وقوم قالوا المبادلة مع بعضنا والمغالبة لبعضنا وآخرون قالوا نغالب الضعفاء ونبادل الأقوياء وهكذا لجميع الصور الممكنة وجدت فيهم في غير الأزمان

(١٢) في الخشوع

وقالوا إن الخشوع شيء لا معنى له فانا نرى أن أناساً جاءوا مدعين أن عندهم قوة إلهية مع أنه لا فرق بيننا وبينهم وهؤلاء لما عجزوا عن المغالبة وأخذ اللذات بالقوة رجعوا إلى الحيلة وكما أن اصطياد الحيوان إما أن يكون بالغلبة والقهر أو الحيلة بالآلات فهكذا هؤلاء الخاشعون يظهرون أن عندهم قوة قدسية وأمرأ عجيباً فيظن الناس فيهم الخير ويعطونهم الأموال لجهلهم وتغذية أولئك على عقولهم وهم مغرورون في ذلك مخدوعون جاهلون

ثم أن هؤلاء الخاشعين إن زهدوا في هذه اللذات التي في أيديهم فهم مغرورون جاهلون وإلى متى يتركون اللذات وهم لا حظ لهم في هذه الحياة (ما هي إلا حياتنا الدنيا موت ونحيي وما يهلكنا إلا الدهر) ثم تراهم يقولون أنهم مغرورون بمدح المادحين لهم واطرائهم عليهم وما علموا أن قوماً يمدحونهم للطمع فيما في أيديهم فيزهدون في الأموال ويعطونها لمن حولهم فكلما ازدادوا مدحاً لهم ازدادوا زهداً وإعطاءً وتباعدوا عن اللذات والشهوات وأن آخرين يمدحونهم خوفاً منهم وآخرين يغفرونهم استهزاء وسخرية وآخرين يمدحونهم مغرورين كغفروهم ظانين أن هناك لذائذ أحسن من هذه فتركوا الأدنى للأعلى

وبناء عليه فلا معنى للخشوع إلا الاحتيال والدهاء والمكر والخداع والنفاق وكل العالم يسعى للذائذ المتقدمة ويحتالون اما بالغلبة بالقوة أو الغلبة بالحيلة فغلبة القوة بجميع الطرق والوحدات السابقة والحيلة هي بالخشوع واعتقاد قوة قاهرة ودار بعدهم يكون فيها النعيم

(١٣) اعتقادهم في العدل

وأما العدل فانه أمر فرضى لأمعنى له إذ الحيوان كله والانسان لايسمى أحد إلا لحياته وحفظ نفسه وأما ما عداه فانه يسعى لاستخدامه لمصالح نفسه وبقائه في الحياة الدنيا . ألا ترى النبات كيف تسعى عروقه لاجتذاب المواد الغذائية من الأرض وكل حيوان من الجوارح والوحوش والسباع تقتنص الحيوان الضعيف لحظه أنفسيها وشهواتها فأين العدل

وهكذا الانسان كل من قدر على غيره من بني جنسه أهلكه وأذله وأخذ مافي يده وربما قتله وأعدمه لمجرد مشاركته له في الحياة حسداً واستئثاراً بالحياة والبقاء .
وأما العدل فاما هو أمر اضطرارى جاء لضرورة التوازن في الحياة بين العشائر والقبائل والبطون فمكل قبيلتين تساوت قوتهم اضطررتا الى المجاملة في المعاملة والتبادل بالقسطاس المستقيم وتعهدتا على المعاملة بالحسنى فاذا ضعفت إحداها نقضت العهود والمواثيق ووجب قهرهم وإذلالهم وأخذ مافي يدهم جبراً وهذا بعينه ما تفعله دول أوروبا الآن مع الشرقيين كدولتي تركيا والصين بخلاف معاملة بعضهم لبعض فهي خلاف ذلك فاذا دامت أمتان على تلك الحال مدة^(١) جاء من بعدهم فظنوا هذا أمراً طبيعياً فتعاملوا كما كان الذين من قبلهم وهذا لا جرم جهل بالسبب الأصلي في ذلك وطبيعة العمران فربما قويت أمة فالواجب عليها أن تأخذهم بالغلبة إذ الانسان لا يلزمه ان يعامل أهله ولا أهل بلده بالحسنى إلا لاضطراره لهم ولولا الاضطرار لوجب الأتفراد بالبقاء فما بالك بمن هم أبعد عنه جنساً ووطناً ولغة وجامعة وتنصراً وتعاهداً فهم الأولى بالغلبة والأخذ بالقهر والقوة والخداع والختل ثم القتل والأهلاك أو الأباداة من الوجود فلما خص آرائهم في العدل انه قهر أو لا غرور آخرأ

(١) كان ذلك منذ ٢٥ سنة حين طبع هذا الكتاب أول مرة أما الآن سنة ١٩٣١ عند الطبعة الثانية فان الصين والترك قد أصبحتا دولتين قويتين جدا

(١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح

ثم الضالة والفاقة

هذه هي أخس آراء فلاسفة المدن الجاهلة الذين هم أشبه بالهوام في الأرض والحشرات الصغيرة التي لم ترتق الى فهم الانسان ومعرفة طباعه ولم تعلم كيف تتعلم منه ولم تدر ما مقداره فلم تصل لدرجة الحيوانات التي تبيض فانها تفهم وتعلم الانسان وأوامره لها فضلا عن الحيوانات التي تقلده كالقرد

وبالجملة فالحيوان ثلاثة أقسام قسم له الحواس الخمس أو بعضها ولم يفقه عن الانسان شيئاً قط وهذه هي الهوام والحشرات ونظيرها في الانسان المدن التي ذكرنا أقسامها وآراءها وأعمالها

القسم الثاني الحيوانات التي تفهم عن الانسان وتقبل بعض تعليمه وتخضع لآشاراته وهي ذوات البيض وكثير من الحيوانات التي تلد كالجواميس والحير وغيرها

القسم الثالث حيوانات تقلد الانسان في أعماله ونظيرها في الانسان المدينة الفاضلة فانها قلدت الخالق في ملكه وفي صنعه في جسم الانسان وهي المترشحة للترقى الى عالم أرق من عالمنا هذا .

واذ تم الكلام على القسمين الأول والأخير فلنذكر القسم الثاني فنقول : قد ترقى عن الطبقة السابقة وهم أصحاب اللذائذ المذكورة قوم فنظروا في الكون وقالوا . ان العدل بين الناس والمسألة هما الأمر الطبيعي فاما المغالبة والمضاربة فهما خارجان عن سنن الطبيعة ألا ترى أن الأمة اذا اعتدت على الأخرى التزمت الأخرى بالمدافعة قهراً ولو تركوا وشأنهم لما حاربوا ولا قاوموا فالقتال والضرب في نوع الانسان أمر غير طبيعي والمسألة هي الطبيعية قالوا ان الواجب بين نوع الانسان هي المسألة أما الحيوانات الأخرى فتؤخذ قسراً عنها لا تنقاع الانسان وهكذا كل نوع من أنواع الحيوان لا يأكل أبناء جنسه ويقاقل ما عداه والحيوان يأكل النبات الذي هو نوع

آخر وهذه هي طبيعة الكون هذا سيرهم في الحياة الدنيا فمسألهم طبيعية ومقاتلهم إنما هي لأمر خارجي ، أما اعتقادهم واليوم الآخر فهم في فرق شتى وأمم مختلفة وآراء متفاوطة

وترجع أحوالهم إلى ستة وتحت كل واحد شعوب وقبائل ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين الفرقة الأولى قالوا ان الإنسان خلق في الدنيا وهي دار باطلة ووهي زائل وما الحياة الحقيقية إلا الحياة التي بعد هذه فإنه يستحيل عقلا أن تكون نهاية هذا العالم ما نراه من هذه الدار التي كثرت شرورها وامتلات بالمفاسد كل لذاتها آلام ومصائب وجل مدبر هذا الكون أن تكون هذه الدار هي الحقيقية بل هي دار يجب الخروج منها بالموت وهؤلاء هم المنتحرون بأنفسهم ومنهم كثير يارو با ، والفرقة الثانية قالوا ان هذه الحياة حقيقية ودار حق ولكنها تشوشت بما علق النفوس عن الكمال وما بنوا آدم فيها إلا كسفن تمخر البحار فأتتها الرياح من كل فج عميق وأحاطت بها الأمواج من كل جانب وأمت لها كواسر البحر من الأسماك الكبار والصغار فأصبحت تهددها عاديات الأسماك وأمواج البحر وقواصف الرياح فلم يتم ما قصد بها ولم ينل منها الوطر فهكذا الإنسان إنقابه حوادث الدهر وقراطم الشهوات وأهوال الحياة ومفزعات الخطر المحقق والغموم والهموم حتى جاء أمر الله وغرّم بالله الغرور فهذه الحياة لا ثمرة فيها ويجب التخلص منها

الفرقة الثالثة قالوا ان الإنسان هو الروح وبها حياته وما الجسم إلا عارض عاقها عن الأعمال لما شاهدوا أن المتجربين بالرياضيات يصلون إلى نعيم لا يحس به سواهم كما هو منذ كور عن مدينتين ببلاد الهند غزاها الاسكندر كما ذكر الشهرستاني في كتاب الملل والنحل وهو أمر مستفيض شائع فوجب التخلص من هذا الجسم فترجع الروح إلى عالمها وتخلص من آلامها

الفرقة الرابعة قالوا ان الإنسان في هذه الدنيا حق وهو مركب من الجسم والروح

معا ولا يصح اهلاكه إذ لا تكمل إلا بالجسم وإنما العائق له عن الكمال الشهوات
 المحرقات وآلامها الموبقة وغوائلها العائقة عن العلوم والمعارف والحكمة فوجب إذًا
 قطع الشهوة والغضب أما الموت الحقيقي فمخالف لحكمة وجود الجسم اذ به كمال
 النفس وترقيتها إلى العالم الأعلى وليس يعوقها عن الكمال الا شهوات الفرج والبطن
 فاذن يجب قطع دابرهما بالعبور عنهما والاستعاضة عنهما بالذات الروحانية كما هو
 شائع مستفيض عن قدماء اليونان وعلماء الهند من البوذيين والبراهمة وخلفاء فيثاغورث
 وعلى هذه السنة كثير من المتصوفين الذين ساروا على طريقة هؤلاء ويظنون أنها
 طرق الاسلام

الفرقة الخامسة يرون أن الحياة حق وان الإنسان مركب من أمرين متضادين
 وهما الروح والجسم كما قال الذين من قبلهم ولا بد من ازالة هذا التضاد باذهاب
 الرعونات من الجسم والنفس مع بقاء الشهوتين في البدن وهؤلاء ومن قبلهم يقولون
 ان في العالم الهين الله الخير واله الشر فلا أول الروح والثاني الجسم فوجب مغالبة الثاني
 لثلا يغلب الأول وذلك يكون بأضعاف شهواته أما بالأمانة كما في القول الأول أو
 باذهاب النواتج عنها كما في القول الثاني وأصحاب القولين اتفقوا على هذه الجملة «مت
 بالأرادة تحيى بالطبيعة» يعنون امت الشهوة والغضب بحى عقلك ومعارفك وأسندوا
 هذا التضاد لفاعلين كما ذكرناه آنفا وبعضهم أرجعه إلى تضاد المصنوع نفسه وطبيعته
 لا الفاعلين وهذا هو الشائع على السنة المتصوفة اليوم مع قطع النظر عما ترتب عليه
 وهو وجود فاعلين

الفرقة السادسة أنه لاحقيقة في الكون البتة وكل ما شاهدناه يجوز غيره فأنسان
 اليوم قد يمكن أن يظهر بشكل آخر فلا يمكن تحديد الأنواع والأجناس وهناك
 ينتفى كل ما يسمونه محالا فلا يمكن انكار شيء إذ يجوز أن هذا المنكر سيكون في
 وقت ما فهذه ستة أقوال أصول كلها مقدمات لنظام الأمة الذى قدمناه فى آراء أهل
 المدينة الفاضلة وأنه يجب أن يكونوا كنفس واحدة ذات أعضاء متفاوتة وبهذا يدخلون
 دار السلام كما قدمنا

ويلحق بالمدن المنحرفة بأقسامها الستة امتان المدينة الفاسقة والمدينة الضالة فاما الفاسقة فهم الذين قال الله فيهم (ولا تكونوا كالَّذِينَ أُوتُوا السَّكِّتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) وهؤلاء هم الذين طال عليهم أمد النبوة ولم يظهر فيهم عقلاء وحكماء ففسق القوم فيها فحق عليها العقاب فدمرناها تدميرا فأول علماؤهم وحرف وعاظهم واحلوا وحرموا بالتفريع والجدال وكما عرفوا شيئا ظنوا أنه أصل يبنون عليه وتركوا أصل الدين فعتوا عن أمر ربهم وأما الضالة فهي التي أرسل لها رجل أوهم أنه يوحى اليه كالمهدي السوداني فقد غير وبدل وأحل وحرم بادعاء أن الخضر يعلمه فهذه هي الضالة وهي وما قبلها ملحقتان بالمنحرفة فتلخص من هذا كله ان الامم ثلاث طبقات كطبقات الحيوانات بعضها فوق بعض

طبقة جاهلة وهي خمسة أقسام ولهم آراء وأفهام تناسب معلوماتهم وهم في مقابلة الحيوانات ذوات الحاسة الواحدة والحاستين وهكذا الى الخمس الحواس من طبقة الهوام وبعض الحشرات اللاتي ليس لهن معرفة الا بالعائش فاما تدبير البيض واطعام الأفرار والحمل وإرضاع الاولاد فليس لهن فيها من سبيل وهؤلاء هم المغضوب عليهم وطبقة منحرفة وهي وملحقاتها ٨ أقسام نظير الحيوانات التي تبيض وتحضن أفرارها وتلد وترضع وتفهم عن الانسان بعض ما يلقى اليها من الأوامر بالأصوات الساذجة وهؤلاء هم الضالون لانهم عرفوا شيئا من أمر الخالق والآخره والانسان ولكنهم تحيروا واضطربوا اضطرابا شديدا

الطبقة الثالثة هم المنعم عليهم وهم أهل المدينة الفاضلة وهم كالطبقة العليا من الحيوانات التي تقلد الانسان في أعماله فمنها ما حسن صوته ومنها ما حسن لونه كالطاووس ومنها ما ينطق مقلدا له كالبيغاء ومنها ما يفهم عنه بذكائه كالقيل ومنها ما له أدب حسن وذوق لطيف كالخيل اذ كثيرا ما تهجى صاحبها من عدوه بالعدو والفرار وتقيه

من الأخطار ولا تهز ذنبها إذا أصابها رشاش بولها لئلا يصيبه فينجسه وربما تحزن عليه إذا مات فتموت كما وقع كثيرا أو تمرض لمرضه كل هذا مجرب مشاهد ومنها ما يقلده في حركاته وسكناته وهو القرد فكل هذه الحيوانات طبقة عليا وقد أعطيت حظ جميع ما تحتها وارتقت عليها بتقليد ما هو أعلى وهو الإنسان فهكذا أهل المدينة الفاضلة نالوا الحظوظ التي نالتها الأمم التي انحطت عنهم ولكنهم لاحظوا التوسط والاعتدال وارتقوا بها إلى تقليد نظام مدير الكون في أعمالهم وأقوالهم فقلدوه في نظام مدنيّتهم وجعلوها على هيئة الجسم الإنساني أو هيئة العالم الإلهي كما قلّدت تلك الحيوانات الراقية الإنسان في حركاته وسكناته وصوته وجماله وإن كانت نسبة تلك الحيوانات إلى الإنسان أقرب من نسبة الإنسان المرتقى إلى مدير الكون

إذا فوّمت هذه المراتب الثلاث فهمت أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

الباب التاسع

في أمة الاسلام ونظامها وما يجب على أهلها ان يتخذوه
في هذه الايام وفيه ٢٩ فصلا

ولقد ذكرنا نظام الأمم الضالة والفاسقة والجاهلة والمدن الفاضلة بوجه عام مع آرائهم وأخلاقهم ونظامهم وقارنا بينها وبين هذا الكون العظيم فلنشرع الآن في الكلام على الأمة الإسلامية بوجه خاص في هذه الأزمان الأخيرة إذ هي التي تهمننا فقد وجب على من أوتي علما أن ينشره بين هذه الأمة التي أصبحت ولا نصير لها من العالم أجمع فان لم يقم عقلاؤها وينشروا أفكارهم بين الملأ فهم المسئولون وحدهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الكتمان وكل ما يشين بالإنسانية ولنطبق أحوالها على نوااميس الشريعة الإسلامية ونظام الكون ، ونلخص الكلام تلخيصا فنقول

الفصل الأول — في ذكر أحوال المسلمين من القوة في عصر النبوة والضعف الطارئ بعد ذلك ثم استيقاظها الآن .

الفصل الثاني — في السعادة والاختيار والعمل والتوكل

الفصل الثالث — في توزيع الأعمال على الأفراد وما حكم الشريعة فيها وذكر

فروض الكفاية

الفصل الرابع — في ذكر أنواع العلوم والصنائع التي يجب على الأمة تعلمها في

هذه الأزمان

الفصل الخامس — في ذكر طرق التعليم وما يجب على العلماء أن يسلكوه فيه

في هذه الأزمان

الفصل السادس — في حكمة النسخ في الآيات والأحاديث وما مناسبتها لهذه الأحوال التي نحن عليها وما حكمتها بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم

الفصل السابع — في وجوب استعمال العقول وترك الفضول مع انتهاج خطة الشرع

الفصل الثامن — فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

الفصل التاسع — في سياسة أوروبا واستطلاع علومها

الفصل العاشر — في قصص القرآن والروايات وقاريئها وما ثمراتها في الأمة

وما الواجب علينا وكيف كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيها وما الغرض منها وما الذي طرأ عليها في الاسلام حتى شوه وجهها

الفصل الحادى عشر — في علو همة أفراد الأمة وتشويقهم وما خطة القرآن في

ذلك وما تنتهج الأمم لعلو شأنها مما أغفله المسلمون

الفصل الثانى عشر — في كيفية النوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفهمه وما يجب

على طوائف الامة من كل صنف من معرفة آيات مخصوصة

الفصل الثالث عشر — في اقتصر المسلمين اليوم على الفقه وهكذا وان هذا

من أهم أسباب الانحطاط

الفصل الرابع عشر — في ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس

بمحرم وتوحيد العلوم وان الوحدة بها نظام كل شيء ووجوب مطابقة وحدة المسلمين لهذا النظام

الفصل الخامس عشر — في خاتمة ما تقدم بذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

واستطلاع ما في البلدان الشرقية والغربية وتقديم هذا الكتاب لعقلاء الاسلام قاطبة وهكذا من فوائد أخرى

الفصل السادس عشر — في المقالة الأولى من المقالات الأصمعية

الفصل السابع عشر — في المقالة الثانية منها وهو الكلام على كليات الاسلام الخ

- الفصل الثامن عشر — في المقالة الثالثة في نظام الأزهر
- الفصل التاسع عشر — في المقالة الرابعة الاصمعية
- الفصل العشرون — في المقالة الخامسة الاصمعية
- الفصل الواحد والعشرون — في المقالة السادسة الاصمعية
- الفصل الثاني والعشرون — في المقالة السابعة الاصمعية
- الفصل الثالث والعشرون — في المقالة الثامنة
- الفصل الرابع والعشرون — في المقالة التاسعة الاصمعية
- الفصل الخامس والعشرون — في المقالة العاشرة الاصمعية
- الفصل السادس والعشرون — في المقالة الأولى الرازية
- الفصل السابع والعشرون — في المقالة الثانية الرازية
- الفصل الثامن والعشرون — في المقالة الثالثة الملقبة بالرازية حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
- الفصل التاسع والعشرون — محاورات لطيفة في الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه

الفصل الأول

في ذكر احوال المسلمين من القوة في عصر النبوة ومن الضعف
الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن

وذلك في ثلاث مباحث : المبحث الأول : في أحوال أيام عصر النبوة

المبحث الثاني : فيما طرأ عليها بعد ذلك

المبحث الثالث : فيما يظهر عليها من الاستيقاظ الآن

المبحث الأول

في قوة أمة الاسلام في عصر النبوة وصدر الاسلام

فهاك بعض ما جاء في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن : فيها أناذا أذكرك أيها
الصديق أولاً بما جاء في (سورة الشورى) وما كان من أمر عمر رضى الله عنه ومبلغ
زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ،
فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سننى
وسمعت نصيحتى لأنك تشير إليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت :
إنما أشرت إليه لأننى فى هذا المقام كما تقدم أبحث فى أمرين : أمر المصلحين الذين
تقتدى بهم . وها هو الذى ذكرته الآن . وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم
ونخالفهم وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلاً كما وعدتكم . وقبل ذلك التفصيل
أقول فى السلف الصالح قولاً مجملًا غير ما تقدم لتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبى . عصر
العدل والتقوى . كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة . والغيرة

الحقيقية على الدين ونبد الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذهُ المسلمون منوالاً ينسجون عليه وكما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لأن الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد ، وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت

(بيت المال) توفى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مالٍ للأسباب التى قدمناها . ولم يكونوا يتطلبون المال إلا اقتضاء الحاجيات . وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة . وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهباً وفضة . فأدهشهم كثرتها . وتنبهوا لها . يقال أن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم . فاستكبره عمر . وقال : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر . وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير . فإن شئتم كلنا لكم كيلاً . وإن شئتم عددنا لكم عدلاً وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين . باعتبار السابقة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال . فقال له قائل : يا أمير المؤمنين . لو تركت فى بيوت الأموال شيئاً يكون غدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر . وقال له : تلك كبة ألقاها الشيطان على فيك . وقانى الله شرها . وهى فتنة لمن بعدى . إلى لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله . وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، روضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع ادخار المال . وحرم على المسلمين اقتناء الضياع . والزراعة . أو المزارعة . لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . حتى إلى عبيدهم ومواليهم . أراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل . لا يمنهم انتظار الزرع . ولا يقدمهم الترف

والقصص . فإذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان في يده من الأرض وداره إلى أصحابه من أهل قريته . تفرق فيهم . وهم يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه . ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين .

والغرض الذى كان يرمى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للأمال الذى يحتاج إليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووقفنا لمصالحهم مدى الدهور أما إذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم . ولا ينفى بضعة أجيال حتى تصير أملاكاً خاصة بهم . وعمر يريد أن يبقيا محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما أزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد . وأيد هذه القاعدة عمر بن عبيد العزيز الأموى . وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيما ذمى أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه وماله . وما كان من أرض فانها من فى الله على المسلمين وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وعمالهم

علمت مما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلتصقون بثروة . فلما توفى أبو بكر . لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من غرارة . لأنه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر إلى مصلحة نفسه . بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل إسلامه . وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة . ثم فرضوا له مالا معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله . لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم . فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما أخذه من مال المسلمين . وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب الزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد والاستهلاك في نصرته الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد ، وقد يوم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي توتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكفي منها تلك الفتوح التي جمعت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأوابين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفنيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسّ بدنوا الأجل قال لابنه : إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فان لم يف ما لهم فما ل آل الخطاب) . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : (تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعاف عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها) . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يبن على آجرة على آجرة ، ولبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جواب ، وقيل انه أخرج سيفاله الى السوق فباعه ، وقال : (لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه) ومناقبه لا تحصى . وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له فاسمه عليه ، وهو لا يرى في ذلك غبنا ، كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لأن العامل إذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء . ويستملك في مصلحة الأمة فإنه يقتدى به . ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه ، وخافه ، وخصوصاً عمر ، فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب إليه : (أقدم إلينا) فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشياً حافياً ، عكازه في يده ، وإداوته ومزوده وقصعته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أجبتنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهيك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامي . فقال : ما صنعت بملكك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به ، فقال له : عد إلى عملك ولا تقتصر في هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقفي بذكر المبذرين . فأقول مستعينا بالله :

المبحث الثاني

فيما طرأ عليها بعد ذلك في أيام بني أمية وأيام بني العباس وكيف أزالها التتار وفي الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا فاما ما طرأ عليهم في أيام بني أمية وأيام بني العباس فهناك بعض ما جاء في كتاب الجواهر في تفسير القرآن في سورة الاحقاف عند آية أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ

شيوخ التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس إلى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديداً مثل عمر ، وكان مع ذلك أموياً ، فاعتز الأمويون

به ، وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا ياسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم افریقیة سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٥٠٠٠٠٠٠) دينار أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملوك البطارقة فواد جند الروم ، فلما غلبت الروم وفرو البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقر معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الخاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وأنه لا مالك لها ، وليست هي من قرى أهل الذمة ، ولا للخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتبا مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطعه تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجراه ذلك التماذي في اقتناء الأرضين وبيعها في أيام خلافته ، والأذن للمسلمين في ذلك .

واقتردى معاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فافتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها (١٠٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلًا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفا شائعا .

ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأراضين مما لم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الإيجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يسأو بينهم فيه ، فتنقموا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبى ذر الغفارى ما ينفى عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : (أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينقده في سبيل الله ، أو يعبده لكريم) . وكان يقوم في الشام ويقول : (يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكتزون الذهب والنضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر من شكايتهم ، لأن أبا ذر وبجته غير مرة لاختراند المال ، ومما قاله له على أثر بئانه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبو ذر : إن كنت بنيت من مال الله فانك من الخائنين ، وإن كنت بنيت من مالك فانك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية فأراد أن

يوقعه فيما يوجب محاکمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يفره بها ، ثم يقيمهم باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير الى أبي ذرّ فرّقها حالا مع أنّها وصلتته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ؛ وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفق في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلا لإلّاتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذرّ » ، فكتب إليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهّب ساططانه ، وجاهر بما يراه من جشع نبي أمية وخروجهم من الحق ، فأخرجه عثمان من المدينة إلى الربذة بالعنف ، وظل هناك حتى مات ، فنقم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما تقوموا عليه إلى مقتله اهـ

هذا ماجاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وربما كان ما جاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلنفصل الكلام في أيام بنى أمية :

الأسراف أيام بنى أمية

وعصرهم سنة ٤١ - ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب

يسمونهم الموالى

اعلم أن بنى أمية وإن فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته لارشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغنى أنه قد يكون في

حاشية العامل أو الوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقتضى بذلك النعمات ، فليسوا يحفظون ما يوكأون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شئ من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ، ويقيدون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع فى الاسلام . وكان شأن نبي أمية وعملهم وجباتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه فى أيام سميّه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسانها مفصلة ، وإبطال لعن على على المناير ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابها للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأتاه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالى وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو اخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم وكيف تصنع بولدك ؟ فبكى حنوا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسباها مظالم ، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال ، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأتته ، فقال لها : إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة

ولما رأى الموالى عدله وتقواه ، اغتنموا الفرصة ، وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضغط ، وكان الجراح بن عبد الله الحكيم عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فى الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من الموالى ، فتكلم العربيان ، والمولى ساكت ، فقال له عمر : أما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يفزون بلا عطاء ولا رزق وصلهم قد

أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحر بمثلك أن يوفد ، وكتب إلى الجراح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فرغب الناس في الإسلام ، وتسارعوا إليه ، فقبل للجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية ، فامتحنهم بالختان . فكتب الجراح إلى عمر بذلك ، فأجابه : إن الله بعث محمداً داعياً ، ولم يبعثه خاتماً

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائهم ففعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك : وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً ؟ فضع الجزية عمن أسلم قبج الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جانياً ، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه .

وقس على ذلك عماله الآخرين ، فإنه عزل من لم يوافقهم منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال ، وما فى بنى أمية وعملهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات . فقتلوه بالسم ، ويعدده المؤرخون من الحلفاء الراشدين . وإذا قالوا العمرين أرادوه وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التى قام عليها الإسلام تدعو إلى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الدين يتولون شئونها ، ولو أتيج لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه فى عهد ابن الخطاب لأحت مظالم بنى أمية ولكنه جاء فى غير إوانه . فذهب سعيه هدرأ . ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها ورافقتها رد الفعل . فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله . وبالغ العمال فى الاستبداد والعسف وشددوا فى استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى

الاجلاء أى أن يلجئوا أراضيهم الى بعض أقارب الخليفة . أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتى .

أما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماسا فى الترف . وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته : سلامة وحباة . وحديثهم مشهور وخلفه أخوه هشام وكان نجىلا وفى أيامه زيدت الضرائب فى مصر على يد ابن الحبابة كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان مثل أبيه فى اللهو والخمر فقتله أهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر . لأن الأحوال غير ملائمة وفى أيام خلفه مروان بن محمد تناب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو أمية قد انغمسوا فى الترف واللهو والخمر وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون فى انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا بأشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيدي بن عبد الرحمن ، وكان الجنيدي قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية فى أيام بنى أمية (١٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وهى الذلفاء ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالى ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذى يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق فقال يزيد فى نفسه : إن العراق قد أخر بها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبهم عليه صرت كالْحجاج ، أدخل على الناس الحرب ^(١) وأعيد عليهم تلك السجون التى قد عاقهاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل منى ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ،

(١) كسب : هو سلب المال

فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠.٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملا عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسري ، اذ وصى به كاتبه حيان النبطي أنه فرق ٣٦٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار أو ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦.٠٠٠.٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره . انتهى هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وذهبت كأمس الدابر ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية . والعصر الثاني وهو عصر التقهقر والانحطاط ، ويبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي بإتضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكي إلى إسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء في كتاب « تاريخ المدين الاسلامي » انهم انهمكوا في البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا القرش ، من الخبز والديباج والحريير والمسامير الفضة ، وابتنوا المتزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتألق بالمطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ، وأطلقوا أيدي نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، في الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ، ومع ذلك فان الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه . وكان وزيره تحت أمرها . فأفصى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠٠٠٠٠٠٠) درهم . وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة أعظم متمولى العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا أن إيراد (روكفلر) الفنى الأمريكى الشهير نحو (١٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه في السنة . وغلة الخيزران أكثر من (١٠٠٠٠٠٠٠٠) دينار وقيمة النقود كانت تساوى ثلاثة أضعافها اليوم . والدينار نصف جنيه . فتكون غلة (روكفلر) نحو ثلثي غلة الخيزران . وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغبة في الاستئثار ، فلما آنت في ابنها الهادي معارضة لارادتها . دست اليه من قتله ولما ماتت توسع الرشيد بأموالها . وأقطع الناس ضياعها

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأى . فلا غرابة في اقتنائها الأموال في إبان الثروة العباسية . انما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيلة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز

ونحوها نحو (٢٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار تقدراً . وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتى بذكره على سبيل المثال . من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٢٠٠٠٠٠٠ ر) دينار . وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٠٠٠ ر) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق . فقد كانت غلتها (١٠٠٠٠٠٠٠ ر) دينار في العام . تنفقها في جواربها وهو نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والده المقتدر (٦٠٠٠٠٠ ر) دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٥٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا . فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠ ر) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر) أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني دراً فباعه بعشرين ألف دينار أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه فكان هؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ولم يكن لأولئك القهرمانات

سبيل للانفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم^(١)

الجوارى والغلمان

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحا للغناء واللهو ، قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عن كبن في قصره من الندماء والمصاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلع الدمشقي^(٢) وابن أبي مريم المدني^(٣) وغيرها ، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار^(٤) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتنؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلى وهي شئ كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار^(٥) وقس على ذلك لعله مبالغة بالنسبة لنحو الرشيد .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والغلمان مما يعدون بالملئات والألوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصى من الروم والسودان^(٦) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم^(٧) وبنى الأمين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠ درهم^(٨) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة

(١) إن هذا القول منقول من كتاب (تاريخ التمدن الاسلامي) وقد عزاه الى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : «١» المقریزی «٢» الجزء الاول من كتاب التمدن الاسلامي «٣» ابن الأثير «٤» الفخری «٥» ابن عساكر نسخة كرايمر «٦» كتاب الخراج لأبي يوسف «٧» يعقوبي «٨» المستطرف «٩» المسعودی «١٠» الماوردي «١١» ابن النقيہ «١٢» الطبري «١٣» القرمانی (٢) إعلام الناس ٩٧ (٣) الطبري ٧٤٣ ج ٣ (٤) ترتيب الدول ١٢٦ (٥) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ (٦) الفخری ٢٣٤ (٧) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ (٨) ابن الأثير ١١٢ ج ٦

الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمير مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركبه سرت برا سار في الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ويمسر وجناحيه ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما تعجلوها بجيئة وذهاب

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهو كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند^(١) ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأسا إلى الخليفة كما فعل ابن مقله إذ بذل ٥٠٠.٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جهير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠.٠٠٠ دينار^(٢) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا لا كوفة ، وأخذ من

(١) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩ (٢) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

كل واحد رشوة ، فأنحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي ان أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير ، فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقيون إلى الوزير ، ففرقهم في عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يعمل من الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
ويدفى من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعه
إذا أهل الرشأ صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعه^(١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهونادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فإنه كان عفيفاً ، ذكر الفخرى أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سبطاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لو كيلي صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أقبل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل إلى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر^(٢) .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حينما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ،

وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠٠٠٠ دينار^(١). ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة، وخلف أملاكاً وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالاً ونوقا، وغير ذلك ما قيمته ٨٠٠٠٠٠٠ دينار غير ما أنفق في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار وخاف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية^(٢) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بثله وذلك ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار عينا^(٣) و ٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر، و ٧٥٠٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقى، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد ما لا يحصى^(٤) وقس على ذلك أحوال الوزراء في الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة، فقد أوردتها ابن خلدون والمقرئ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا في ثلاث صفحات كبيرة^(٥) وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في إبان ثروتها، فكان الوزراء يقتنون النضياع الواسعة، ويحتالون في استغلالها بأن ينفقوها على بعض المساجد، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها، ليخلصوا أنفسهم من خراجها أو عشورها!

وكانت المندية محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة المدن في تلك الأيام

(١) المقرئ ١٥٥ ج ٢ - (٢) المقرئ ٦ ج ٢

(٣) وهو في الأصل ستائة ألف ألف دينار، ولا بد من خطأ تطرق إلى نصه. إذ لا يعقل أن يجتمع هذا المال عند واحد، وهو يفوق مجموع خراج مصر لثمة سنة، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير، لأن أموال مصر قلما قدرت بالدراهم

(٤) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٥) نفح الطيب ١٦٨ ج ١

وهي أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاية الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعلمه ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياح مغارس لا عمارة فيها . ولا تسكاد تجد أثرا من آثار ذلك المدن في غير المدن

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بحوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويديمونهم السمع والمجوهرات والأقمشة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتميشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالفنود ، وبيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يبذلون المئات والألوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ فقد رأيت في بعض ما تقدم أن جوهريا بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفظ من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبعه ^(١) وهو جزء ما في حافوته فما قولك بسائر ما فيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٣)

فلما سمع صاحبي ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أممنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلوى الزمان ومره ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويدكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخلل ، وهناك يرجع

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٢ (٢) — ابن الاثير ٢٢ ج ٧ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩

للأمم الإسلامية مجدهم ، ويعلمو شأنهم ، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا .
 هذا وإنى أرجو أن أنشر بقول جامع في هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان
 يحرم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فإذا أفضت في ذلك
 وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك خير معوان على تذكر أمننا الإسلامية
 بعدنا . قلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض »
 مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الإسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق
 عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيدهم بالعلائق بين منازلهم ، فخرضهم على فتح العراق
 والشام ؛ لعله بما هنالك من قبائل العرب ، فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا
 الإسلام قوة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا في دار الفتح أن لا يبنوه
 في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعد أطرافها
 فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم على
 أن يستبقى البلاد المفتوحة لاستدرا ما فيها من غلة وأموال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب
 أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة
 (المحرات) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل » ^(١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم
 عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم
 تكن المدن التي بنوها في صدر الإسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا
 أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال ^(٢) ولهذا
 السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم
 أن لا يترك في جزيرة العرب دينان ^(٣) وأن لا يأتى الحج أحد من المشركين ^(٤) فأخرجهم
 وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الإسلام لأقلقوا الراحة ، وربما كانوا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الإسلامى

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ١ (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣

عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما سترى

كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالألوف ، ويباعون بالعشرات اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول ، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في إفريقية ٠٠٠ ٣٠٠ رأس من السبي ، فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٠٠٠ ٦٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا ^(١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٠٠٠ ٣٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم ^(٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ٠٠٠ ١٠٠ نفس ^(٣) ، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ ه بقيادة ابراهيم بن ينال سبي المسلمون ٠٠٠ ١٠٠ رأس غير الدواب ^(٤) وفي جملة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والعلماء مما يتقل ثقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ ه إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ ه بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم ^(٥) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان ^(٦) و بلاد البربر وغيرها

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ - (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ - (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ -

(٥) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٦) المقریزی ٣١٣ ج ١

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالأفرنج ، ويقال أن أول من استنبطها (سميراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن لخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم تارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهر الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذ كره فيه من القصائد ، ومن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غير عليهن ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فأتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والسلات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك المصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة

من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فإسبانيا إلى إفريقية ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الأفرنج وغيرهم يتتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود، ولا يزال أهل جورجيا والجر كس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيص البشرة على جانب عظيم من الجمال، وفيهم الذكور والاناث، حتى يخطوا رحلهم في فرنسا، ومنها ينقلونهم إلى أسبانيا (الأندلس)، فكان المسلمون يتتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للتسرى وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى قبيلة السلاف، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعربها العرب صقلبي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان، وفعل الأفرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى، ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Slave) في الألمانية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية.

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهداً طاقتهم، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر^(١) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتاح الناس بغنائهم^(٢) وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه، ومن أقوالهم: «المغنون رسل الغرام».

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك، وكان يكره الغناء سمع مغنيا في عسكره،

(١) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ (٢) الاغانى ١٣٠ ج ٢

فطلبه ، فجاءه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنتها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أني تسمع هذا إلا صبت إنييه ، ثم أمر به فخصى ^(١)

وسليمان هو الذي أمر بخصي الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب ، قيل إنه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضيبت الناقة ونبت التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل في المدينة بجماعة الخنثين وهم أئمة والخلق فيه ، فكتب إلى عامله هناك . اخص من قبلك من الخنثين المغنين ، فخصاهم ^(٢)

على أن المتهمين من الخلفاء والأمرأ لم ينكروا ما يجر إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويشور على الحر ، ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء ، فان الغناء رقية الزنا ، وإنى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لثة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال ^(٣) » اهـ

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين موقفة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل

(١) الكامل للبرد ٣٣٧ (٢) الاغانى ٦١ ج ٤ (٣) الاغانى ١٣٤ ج ٦

غصن منها فروع كثيرة مكحلة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصغير والهدير ، وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه^(١) . وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق في بنائه ١٠٠٠٠٠ دينار ، وموه سقفه بالذهب ، ذكروا لهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار^(٢) ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم ، وأكثرها في قرطبة وغرناطة ، فمنها في قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع بينائه عبدالرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنوا القصور في داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً ، بينها قصور فخمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد ، والحائر والروضة ، والمعشوق والبارك ، والرسوق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والبحاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الأبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس الموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والبحاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات المكسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة^(٣) اهـ

(١) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ (٢) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ (٣) نفح الطيب

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناء ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال أنها سميت (الحمراء) نسبة إلى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل

وبني المنصور بن الأعلى قصرا فخما في بحاية أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها في الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبلية العباسيين ، وقد نظم ابن حمديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة	تركت خير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي النضار جسومها	وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما	اقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو نونها	نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعا فقدّر سردها تقديرا ^(١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي ، فإنه أتفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبني في وسطها

قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكبها لا يفتر والمأمون قاعد فيها^(١)

البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الحشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفي رجله نعلان من ليف ، وحمايل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفى الخد بها^(٢) وكان عمالهم في مثل حالهم ، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعمم بمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه^(٣) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أ كسروية يا معاوية ؟^(٤) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدينة إلى التبسط في العيش ، والتنعم باللباس ، وأحب الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثروا رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشى و ١٠٠٠٠٠ تكة حرير ، وكانت كسوته إذا حج تحمل على ٧٠٠ جل^(٥) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في حمل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موسى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر

(١) سراج الملوك ٥٠ (٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦ (٣) العقد الفريد ٦ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١ (٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢

والحرز وهو ذكر الأرناب^(١) والأبريسم حرير خالص والديباج نسيج حريري موشى ،
بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطي ثمين وغير ذلك من أصناف
الحرير والكتان والاولدارى والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو
الصوف وما يحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية
والدراريع والطبالسة والجيب والعائم والأبراد والغلائل واللاحف والآزر والسرراويلات
والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ، ويغالون في ترفيعها لما يلاقونه من
البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ، ولا سيما الخليفة وأهل دولته ،
فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة
العامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثر من اقتنائها وربما لبس الواحد
٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم
إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما
الخلفاء ، مثاله ما خلفه المكتنى بالله من الألبسة وهو :

عدد

٤٠٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٠٠٠	من الملاءات
١٣٠٠٠	من العائم المروية .
١٨٠٠	من الخلل الموشاة الجمانية وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٠٠٠	من البطائن التي تحمل من كومان في أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	من الأبسة الأرمنية .

(١) ألف باء ١٨٧ ح ٢

وتوفى ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة
بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا
في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير . اهـ

الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعبد بالأنوف من ذلك ١٠٠٠٠٠٠
قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقله وني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار
واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب ، و ٣٠٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر
مطرز بأبيض من هذبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ،
وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعها وستوره وكل
ما يحتاج إليه

ومن أدلة التعرف والاسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت
الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جماتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً منها
مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وبستان
من الفضة مزروع من أنواع الشجر اهـ

أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة
السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناعونهم ؛ ويقالون في رفع أثمانهم ، وكانت أسعارهم
تتضاعف إذا جمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية
من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل
إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون

درهم^(١) (نحو ٧٠٠٠٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار^(٢) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلی بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها « بنل » ، فأبى ، فأمر فأوقروا قار به ذهباً ، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم^(٣) أى أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صحَّ كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجوارى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة الغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم اهـ

سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ، ويبكى وينتحب طويلاً ، ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه ، فلما حضر انتهى الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندي أياد خضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر ابن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع دارى ، وأملقت إلى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، ومعى نيف وعشرون امرأة وصبياً ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهم جياعاً لا نفقة لهم ، فررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد في صدرى ما أخطبهم به ، فتجيد نفسى عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقمتم معهم ، ودخلوا داراً كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، فجلسوا

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ الاغانى ١٤٥ ج ١٥

وجلس ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضى ، وقال زوج ابن عمى هذا بابنتى عائشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فتات المسك ، وبنادق العنبر ، وتمائيل الندى ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير فى كفه ، والصينية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدى ، لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزنى بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت ، وجعلت أمشى وألتفت خوفا من أن تؤخذ منى ، ويحىي يلاحظنى من حيث لا أظن ، فلما قاربت الستر رددت فيئست من الصينية ، فحشته فأمرنى بالجلوس ، فجلست ، فسألنى عن حالى ، فحدثته عن قصتى ، فبكى ، ثم قال على بموسى ، فجاءه ، فقال : يا بنى هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذ إليك فأخلطه بنفسك . فأخذنى وخلع على ، وأمرنى بحفظ الصينية لى ، فكنت فى ألد عيش يومى وليلى ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولونى وأنا قلق بأمر عيالى ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان فى اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومى وليلى ، فلما أصبحت جاءنى خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت والخدام يمشى بين يدي ، فأخرجنى من الدار ، فازداد ما بى ، ثم أدخلنى إلى دار كان الشمس تطلع فى جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالى يرتعون فى الديباج والستور ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخدام صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة فى أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدنى عمرو بن مسعدة فى الضيعتين وألزمى من خراجهما مالا يبنى به دخلهما ، فكلمنا لحقنى

نائبة قصدت دورهم فبكيت ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يردّ على الرجل ما استخرج منه ويقرّر خراجة على ما كان في أيام البرامكة ، فيكى الشبخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستأنف بك جيلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الأيمان^(١) اهـ

التهتك

وطبيعيّ فيما قدّ مناه من الحضارة وانترف أن يعتورها شيء من التهتك والفحشاء ، وإن كان ذلك لا يغلو منه قوم مهمما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبا في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء ينتفون عرض الدنيا^(٢) ، ولكن ذلك شأن الحضرة منهم ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهتك أوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوافر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك التمدن ، فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغّاؤون عند الحاجة^(٣) ، وتقننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات^(٤) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم^(٥) ، ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوّة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات^(٦) .

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ح ٢ وسير الملوك ١١١ واللائدى ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢ ج ٣ (٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابى خلكان ١٢٧

ج ٢ ونفع الطيب ٨٦٠ ج ٢ (٥) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقرئى

٢١٦ ج ١ (٦) المقرئى ٨٩ ج ١

وأقبح ما ظهر من التهتك في أثناء هذا التمدن مغازلة العلماء وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيينهم ، وكانوا يخصوصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريتهم ، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء ^(١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدوا إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال ^(٢)

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرهن إلى التفتن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوجة كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر ^(٣) حتى النساء الشريفات فإن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، أو لأسباب أخر كان يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقلّة التزويج ^(٤) ذكروا أن ابنة الأخشيدي صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك ، وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الأخشيدي استبشر . وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ما جرى للملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت :

أولا - إن الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقرئ ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨

ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

الأمة ، وذهب ملك العرب بته ، وهذا تقدم في «سورة الكهف» في آية : (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) فقد جاء التنازع من الشرق وعلى رأسهم جنكيز خان وخلفه ملوك منهم (هولاء) وأذل الأمة ودمرها تدميراً لا رجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لا يحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصاح معرفة هذا الموضوع فاقرأه هناك^(١) تحت عنوان « يأجوج ومأجوج »

يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) وقال في سورة الأنبياء (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ واقتراب الوعد الحق الآية) فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحاً عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ولتحصره في خمسة مباحث .

المبحث الأول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم .

المبحث الثاني في افسادهم في الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم

المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج وذكر خروجهم وتعيين زمنه

وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

المبحث الرابع في ذكر معنى الحذب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق .

المبحث الأول — أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من

أجيج النار وهو ضوءها وشررها تشيران لكثرةهم وشدةهم وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المفعول والتتر من رجل واحد يقال له ترك وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المفعول والتتر هم المقصودون بيأجوج

(١) هذا الموضوع في سورة الكهف منقول من هذا الكتاب في طبعته الأولى

ومأجوج وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المنجمد الشمالى وتنتهى غرباً بما يلى بلاد التركستان كما فى فاكهة الخلفاء وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق وفى رسائل اخوان الصفا فقد ذكروا ان هؤلاء هم يأجوج ومأجوج

المبحث الثانى — الكلام على افسادهم فى الأرض . وقد ذكر المؤرخون ومنهم الافرنج ان هذه الأمم كانت تغير قديماً فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا ان منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا فى قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم فى القرآن كما تقدم وفى بعض الأحاديث أيضاً ثم انهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهيئة والغارة السمواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة إذ ظهر منهم رجل يسمى تموجين لقب نفسه جنكيز خان وقال مؤرخو الافرنج ان معناه بلغة المغول ملك العالم ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحاً لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى فى أوائل القرن السابع من الهجرة فانه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولاً ثم ذهب إلى بلاد الاسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين ابن ارسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة

ولا صبي ولا صبية قتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أوأعا ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلقق كل واحد من جموع جنكيز خان التي لا تحصى عدداً أربعة وعشرون قتيلاً وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلاً عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرها وفتكوا بأهل نيسابور وأفنؤهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات كالقطط والكلاب وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة مرو فكانوا مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات جنكيز خان بعد قفوله من غزوها ولما ملك بعده ابنه اقطاي أغار ابن أخيه المدعو باتو على الروس سنة ٦٢٢ ودمروا بلونيا وبلاد المجر وأحرقوا وخرّبوا ومات اقطاي فقام مقامه جالوك فخارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات جالوك وقام مقام ابن أخيه منجوك فكلف أخويه كيلاي وهولاكو أن يستمروا في طريق الفتح فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية وقد فعل كل منهما ما أمر به فأخضع كيلاي بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات فلم يفلح وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهاراً وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم في دجلة وجعلوها جسراً يمشون عليه بنحيولهم وهذا الخليفة بعد ما أحضر لتسليم ماله من الكنوز التي لا تحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة كبلاي بالصين والمغول وملك جافاتاي أخو اقطاي لتركستان وملك ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا وصارت روسيا تدفع الجزية إليها زمناً

طويلا وانضمت بلاد الفرس إلى هولاء الذين دمو بغداد وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام

المبحث الثالث — قوله تعالى « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » أى فتحت جهنم على أحد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التاريخ وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم (اتركوا الترك ما تركوكم فإن أول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطوراء) أى الترك مع ملاحظة ما ذكرناه في التاريخ أنه لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها الا هولاء وقد ورد أيضا في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقطهم بخراسان فهذه إشارة إلى سيرهم واتجاههم وطريق ومنتهم ملكهم إذ لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا إفريقيا وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة فما أجلبها معجزة ظاهرة ثم أن جنكيزخان هو المراد بمحدث (يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ، وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل جنكيزخان والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاظ جنكيزخان وكتب إليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما معناه .

كيف تجرائتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتى ومالي وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم و يقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الاتقياء أو تعادوا من لاعاداكم وتكذبوا صفو عيش من صادقكم وصافاكم تحركون الفتنة النائمة وتنبهون

الشروع السكامة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم أو ما أخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم (اتركوا الترك ما تركوكم) وكيف تؤذون الجار . وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهادته أوصابه ولا بلوتم شدايد أوصافه وأوصابه (الا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فموها واحفظوها وتلافوها هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلا ويهوج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج . وسيدضر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سره بويته وآثار عدله في برته فان به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب انتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان - وانظر كيف كان صريحاً بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان وهذا مصداق ما رواه البخاري بسنده عن ام حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون فقال نعم إذا كثرا لحبث . ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ الى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الاقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم . (انظر هذا المقام في تفسير سورة الكهف فان هذا السد أصبح مما كشف حديثاً)

وصار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجل المعجزات ثم إنه كان بين بلاد جنكيزخان ومملكة خوارزم مملكة تسمى انذار كأنها حد فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين ففزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر . وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان إذ ذاك

في نيسابور عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما فمثلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالوا وأنتم تعدون هذا الثم فتجاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً وإنما هو مبدأ الخروج وتسلط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين (ولتعلمن نبأه بعد حين) فهذا تصريح من هذين العالمين بأوردناه ونص في فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه وظهر التتر وأفتوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوربا

المبحث الرابع — قوله تعالى (من كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) الحذب ما ارتفع من الأرض وينسلون أى يسرعون في النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماماً على قوم جنكيزخان المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والأفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدها كما ذكرنا

المبحث الخامس — قوله تعالى واقرب الوعد الحق أى القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى . (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ مِّنْهُمْ جَمْعًا) في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة ألا ترى قوله تعالى (اقترَبَتِ السَّاعَةُ) وانشقَّ القمر) وقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت انا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثمانيئة وألف سنة فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج واقرب الوعد الحق فكلاهما اقتراب . ورب قائل يقول أين الاقتراب في الموضعين قلنا معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناولاه الاحصاء وما بقى من عمر الأرض الطبيعي قدره يسير جداً بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا عند ذلك بعداً وبعده الله الباقي الدائم قريباً قال تعالى: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا) فالآلاف السنين لا تنافى القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري

رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج
يأجوج ومأجوج وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون
الله عز وجل وأما صفاتهم المشهورة في القصص وبعض الآثار فكثير منها لأصل له أو
ضعيف الرواية وليؤنن الصحيح منها أن خالف حقيقة هذه الأمم على قاعدة وجوب
تأويل الدليل النقلى ليوافق العقل الذى قطع برهانه فإذا صح أن الأرض اكتشفت
بتمامها وأن الربع الشمالى لم يبق فيه احتمال لوجود أمة مجهولة وجب المصير الى ما قلناه فى
فى هذا المبحث أو نحوه هذا ما عن لى الآن وهذا ما كنت أحييت به عن سؤال
الأديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد فى مجلة الهلال فى آخر القرن التاسع عشر
ثم قارنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام « ويل للعرب
من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ » فيما ذكرناه مع اضطرابه
وخوفه الشديد وبين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما
كتبت ورأيت أن هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى
جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج وجاء
مصادقا للقرآن والحديث فالحق أقول أن هذا النبى والكتاب المنزل عليه لما يدعش
العقول وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب تهذيب الأخلاق
لابن مسكويه ولكنه اجمال لا يشفى غليلا ولا يؤخذ حجة لاجماله ولقد فصل فى رسائل
قديمة الفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان
تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة
من العرض الشمالى الى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين
وفىها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا وكانوا كفاتحين للعالم كله
فسكانوا أشبه بأهل أوروبا الآن فكانهم أخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم
على العالم ومن المقرر أن بينهم نسباً ورحماً فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة
الصين بل هم الجزء العظيم منهم وهما من منشوريا تتجاذبها روسيا والصين وبلادهم

تبلغ في العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد تسكن الاقليم الرابع والخامس والسادس والدايع من الاقاليم التي اعتبرها الاقدمون هي الحدود المعروفة لاقسام الأرض وهي مبينة على مقادير العرض الذي لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الاقدمون والحكام الغابرون والانبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض وغابت عنهم أمريكا والاقيانوسية لبعدها المواصلات وشقة السفر وحيلولة الجبل والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومي اليوناني وتبع الحميري وأفريدون النبطي وأزدشير بن بايكان الفارسي وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الاسرائيلي وغيرهم ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الاسلامية أما في حال الهرم وهي وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما أطفال ولدهم شيخ كبير فهم يهتئون على آثاره .

فيا عجباً كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضاً وطولاً ونحن لانعلم منها شيئاً، وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل في الوجود ونجهله نحن ولعمري أنها لمعجزة ظاهرة واضحة ولقد كان الاقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر اليه في الكون مثل قوله تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين . قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) بل لو لم يكن للنبي معجزة سوى هذه التي ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد وانى لأعجب من ان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ويل للعرب من شر قد اقترب الخ ثم ان هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل المعتصم آخر ملوكها وبقي خليفة رسمي في مصر وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذراً مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وأما أولئك التتار فهم كانوا أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيافكم ورثوا أرضهم وديارهم ورثوا دينهم وهذه المسئلة وان كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً والحق ان علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط

الساعة وسماها العلماء الأشراف الصغرى إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى
بأبادة أمة أو أمم فإذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود
ولقد أوضح الرسول الصادق أموراً كثيرة لا يسع المقام ذكرها الآن ولقد صر
عنان القلم ففياً ذكرناه عبرة وتذكرة انتهى الكلام على المقام الأول
ثانياً — ان الذى جرى لأمره الأندلس هو الذى جرى للملك الباسيين فى
الشرق ، فانظر ماجاء فى كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثاً فى عصرنا ، وهذا
ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قابل الأذفونش فى رومه فى الفاتيكان ، وجاء أيضاً معهما
دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات
أوروبا وشاورهم فى استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدنا لنا » . فقال
براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالكر والحديعة ، وقد يستعين الصيادون بالحر ، ولا يفل
الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقاً فى أقل
من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد
تفى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ،
فهم يخذعون بسهولة بالظواهر الموهمة ، فاجعلوا بينهم وبينهم معاهدة على حرية الدين
والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقاً بها يثون التعاليم بين أطفالهم ، فإن لم
يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون الحمية الدينية التى تحبهم فى الحرب ،
فأما حرية التعليم فإنها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلمهم ،
ويبتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهى التى تضع شيناً فشيناً تمسكهم
بأزيائهم فضلاً عن تجارة الحر ، فهى الآن محرمة ، فتى شاعت بينهم أقدموا على
المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ،
وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأنعام ، ولاتنس
يا حضرة الدوق أن التأنق فى النعمة والبذخ ، والاسراف فى الشهوات ، وإهمال سير

الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية
 فلمعت أسرة وجه ابن أذقونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس . وشكر برآقا
 على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوربا ببراق وتحادثوا
 ملياً وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالاندلس
 فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك ابن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه
 فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء
 وغرناطة ، فحضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى
 ابن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب إريز ، فنزلوا جميعا
 برصافة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصراً فخماً تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل
 فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال
 ابن زيدون من قصيدة :

قصر يقر العين منه ناظر بهج الجوانب لو مشى لاختلا
 قبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب وبقى الأمراء في ضيافة مالك
 ابن عباد شهراً :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد
 فلما انقضت أيام الولاة رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن بنى عامر صاحب
 بلنسية فانه بقى مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد والخمر وهكذا بقية الأمراء
 وشعوبهم يتبعونهم ، فأنحطت الدولة بذلك ، وزاد في افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر
 الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يبشون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة
 للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البسانين ، وكانت متنزها جميلا يؤمّه
 العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد

وقال صاحب التاريخ المسمى بالعجب : لقد جددوا في عام هذه المعاهدة أربع
 مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاما لمن

شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشريعة) فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان وتعلموا لغاتهم وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فإن المبشرين والمعلمين تدخلوا في كل شئ . لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافرى) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة .

ولقد لعب برّاق بن عمار دوراً مهماً هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل ابن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرخفى في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا وعده فيه بأنه يؤمله أن يجعله ملكاً مستقلاً بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته في أى وقت شاء . ثم أن برّاقا وفى بعده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى « شيل » يرافقه في أيام الصيد ، وأخذ برّاق يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يا برّاق ؟ فقال اختبره إن شئت فقال مالك لتتبارزا فإن غلبته فكفاه خزيا وإن غلبك جعلته من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهر برّاق بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائداً وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة في البلاد ، ولا سيما الخمر

قسيس يخص شباب المسلمين المتعلمين بخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذى لم يكتف بالخمر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرأ ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ،

وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

- (١) فشرّبوا الخمر نهاراً جهاراً .
 - (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
 - (٣) وحرقوا عوائد آبائهم .
 - (٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
 - (٥) وأهملت تعاليم البلاد .
 - (٦) وأخذوا يختلفون إلى نساء في حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك مهتكين .
- متصايين في عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن حمود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سبباً في الحرب بينهما فطلب ابن حمود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدة على خصمه ، فقرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفناً تحمل جنداً تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن حمود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حراكاً حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المرية ، وهذه أول نتيجة للمعاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفريق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم وتفريق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفاً ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الخمر خمسمائة ألف (فلورين)

وفي اليوم الرابع من جمادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن

عبد العزيز يرسل الفرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكله في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الإنكار لا يفيد أخبره بالحقيقة محتجاً بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون لا يبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لا يبقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلماً ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم تقاتلهم نحن ؟

فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء في الخيانة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (أذفونش) يعطيك نوالاً فأنت مخدوع ، فجزأوك كجزاء سابور ذى الأكتاف للنصرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون في ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها والسيدة الجميلة بحضرة زوجها ، فيثرك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه وقد قال ابن زياد : إن الذين قتلوا في (بلنسية) ظلماً بسبب الدفاع عن العرض ١٣ ألفاً ، والذين قبلوا لآبائهم الدخول في دين الغير ٣٠ ألفاً ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .

وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عدياً خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشاً لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقة) و (مينورقة) فاضطر أن يبقى الجند في قرطبة للدفاع عنها . ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم أن ابن أذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بأحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون أنه إنما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يحون عدوه .

مصير براق بن عمار

ذلك الماكر الخبيث الذى مكث زماناً معظماً في قرطبة عند مالك ابن عباد حتى

سقطت بلنسية ، وحضر قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا للمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ؛ فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن الأذفونش إلى جندل ابن حمود ووعدته بالنصر على بقية ملوك الطوائف ؛ وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولاً تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ؛ ففرح جندل بهذا الخطاب ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ؛ فسلم كتاباً معه من ابن الأذفونش إلى القنيطور أي القائد ؛ وفيه : « إنا سترسل لك ٢٠ مركباً فيها جند ويحضر ابن مرديش معاهدنا أمير اقليمه قاضى كادية معاهدنا فيكون تحت رأيك ٢٥٠٠٠ مقاتل ؛ ففتح أشبيلية في شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيراً على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت الذي تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت امره القائد (كولى) تبيع أشبيلية ، حلاً لجنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل بن حمود الذي ظن أنه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم فقتلهم تفتيلاً فنادوا الأمان

أما مالك بن عباد فانه بقى في سرقسطه ذليلاً لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن الأذفونش فانه جلس في قصر الامارة ، واستحضر حسين بكرّاً من الأشراف وقسمها وقسم الدور على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما برّاق الخائن فقد قتل أيضاً بأمر الدوق وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه

وجاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس للاستاذ حسن مراد ما يلي :

مما شيد عظمة الدولة لأموية الفتوحات الاسلامية لذلك العهد التي جعلت للاسلام علما مترامى الأطراف نشر فيه مدنية وعلما ودينا جديدا وتقرر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس وإذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس ويرجع فضل ذلك إلى جرأة طارق وإقدام موسى بن نصير ثم لا نلبث أن نرى عودة هذين القائدين ومصير الأندلس إلى الولاة وكان خروج موسى عام ٩٦ هـ واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة وما يلفت الأنظار :

تعدد الولاة وظهور العصبيات وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتما إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بتلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الاسلامية

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والثورات الداخلية وليس أدل على ذلك مما كان من أمر صميل وأبي الخطار وثورة جند الشام ومصير الإمارة إلى يوسف بن عبدالرحمن الفهري ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين واتقسام الناس على بعضهم مما جعل المؤرخين يقولون أن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس أو عديم الوجود وما كان للأمويين في آخر سنيهم بالشرق أن يعيروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالشرق من ظروف

وبينا كان الأندلس تسير في حالتها هذه دبر الأمويون بها قل الإمارة إلى

أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام واستعان بجند اليمن وبعض البربر ودخل عبد الرحمن الأندلس وانتصر على يوسف وصارت له الإمارة

فشيّد ملكاً للأُمويين دام ثلاثمائة من السنين ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام وظهر كل منهم بمظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف فنرى الداخل يخضع الثروات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون وتطلبت إليه الظروف أن ينفى ملكاً على حكم استبدادي المكانة الأولى فيه للسيف وتبعه على سياسته من خلفه ولما كان هذا النوع الحكومي لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهوراً وإذا ما أغمد ثاروا وعملوا على استرجاع حرياتهم

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه وتآمر عليه بعض رجاله وأهله ولكنه انتصر عليهم وأهم ما نجده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى إلى تطلع الفقهاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك فاتخذوا من حلم هشام وطيبة خلقه فرصة ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى ابن يحيى وعيسى بن دينار وغيرهما طلبة العلم وحرصاً الفوغاء على الثورة فقامت فتنة كادت تسقط أمانة الحكم ولكنه انتصر بقوته وعاقب الخارجين أشد العقاب

وبموت الحكم بن هشام وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى :

(١) اشتغال عبد الرحمن من ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ونصر الخصى فتسربت الفوضى إلى البلاد فأدرك ما كان من خطئه وأسرع إلى إصلاح ما فسد

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميراً على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة كره الناس الامارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنوياً وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة وهذه الحال بشك البلاد شجعت ابن حفصون باقليم ريبا على مقاتلة الامارة الإسلامية ولقد سببت حرو بهضعفاً شديداً لها ونتج عن ذلك كله أن سقطت هيبة الامارة

(٣) كانت امارة المنذر أقصر من أن تدفع شراً أو تعيد الى الامارة عظمتها الأولى ولما آل الملك الى عبدالله ابن محمد ساءت الحال جداً : قامت العصبية وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الامارة فعمت القوضى وأصبح ملك الأمويين على قاب قوسين أو أدنى من السقوط وفي هذه الحال مات عبد الله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمر العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المؤمن وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقاً جديداً : تبدل ضعفها إلى قوة فأخضعت الثورات وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة وسارت الجيوش الى بلاد المسيحيين شمالي الأندلس وأذلتها ولم يزل منها الفاطميون مأرباً وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة . وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد فانه أساء الى الأسرة الأموية بطعنها طعنة نجلاء في صميم فؤادها وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر

فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل وانتقلت البلاد الى عصر يعرف بعصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ومميزات هذا العصر

(١) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابيه على الخلافة واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة الى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لادراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة

(ج) ظهور دولة بني حمود بمالقه وانتقال الخلافة اليها وصارت لعلى بن حمود أولاً ثم لأخيه القاسم بن حمود ثم ليحيى بن على بن حمود ثم للقاسم ثانية ثم ليحيى لثاني مرة ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الامارات الى الاتصال عن قرطبة واعداد الطريق اقيام حكم ملوك الطوائف ففي عهد المستعين المرواني اقتضرت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاثة مدن حولها ثم كانت خلافة المرتضى ثم المستظهر ثم المستكنى ثم هشام الثالث ثم أمية وضعف أمرهم أدى بالناس الى التفكير في اسقاط الأسرة الأموية نهائياً وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور

(٥) ولا بد أن نضيف الى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائي نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم وانتهاز كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ويقول لينبول أن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ اهل أمر المسيحيين من بدء الأمر

(٦) ونحتم جملة الأسباب بما كان من تغير كلى للخلق العربى مما أدى بهم إلى

نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والافتقار في الترف والنعيم وكيد بعضهم لبعض وقعودهم عن نصره بعضهم لبعض

لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً : كثرة عددهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم وتنافسهم أدى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت برمجهم وكانت حالتهم خير أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين لزمان محدود ثم كانت دولة الموحدين ولم تعمر طويلاً وفي آخر عهد الاسلام بالاندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بغرناطة فشيدت أثراً باقياً ومجداً دونه لها التاريخ فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الفتن الداخلية وكانت المسيحية وصلت إلى عظمة قوتها على يد فرديناند وايزابلا فاسقط المعقل الأخير من المعاقل الاسلامية وبادت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدينة والحضارة انتهى الكلام على الأمر الثاني

ثالثاً — الكلام على خراب الاندلس كما خربت بغداد والمملكة العباسية جاء في تاريخ العرب لسديو مانصه : المبحث الرابع : في إعدام النصارى سلطنة غرناطة من بحيث جزيرة أسبانيا

تنازع السلطنة يوسف الرابع الحمار ومحمد السابع فاستمد أحدهما دولة قسطنطينية الاسلامية فأمدته بجنود نصرروا على خصمه في صحارى غرناطة سنة ١٤٣٢ فكان ذلك الانتقاد الثاني للحروب بين مسلمي أسبانيا ومراكش وأما ما كان من سادات أهل قسطنطينية ومشايخ العرب الذين يودون إظهار النبأس والشهامة الحربية من الفارات على بلاد الأعداء فكانت منازلهم لم تستدع حرباً عامة بين هاتين الأمتين

وتولى سلطنة غرناطة سنة ١٤٦٥ السلطان حسن المعروف بالشجاعة وحب الوطن لكن رماه أهل غرناطة بالتكبر والقسوة وتغلب حب جارية نصرانية على عقله مع اختياره ولدها أن يكون خليفته دون ولده أبي عبد الله بن السلطنة زورياً فكان بينهما عداوة ازداد بها ضعف هذه المملكة سنة ١٤٧٦ بخلاف مملكة قسطنطينية فان عظماءها

وان أوصولوا هنرى الرابع إلى أقصى درجات الحطة والمنلة لكنهم اتقادوا بعد وفاته سنة ١٤٧٤ لابنته ايزابله المتزوجة فردينند ملك مملكة نواراة والوارث لملك مملكة أراغون ثم كان لهذين الزوجين سنة ١٤٧٩ التصرف فى الممالك الثلاث كيف شاءا طلبا من السلطان حسن الجزية التى كان والده يؤديها فأبى قائلا للسفراء اذهبوا فقولوا لأسيادكم ان غرناطة ليس لديها ذهب ولكن حديد لأعدائها ثم دهم مدينة زهرة وأخذها سنة ١٤٨٠ فأخذ أهل قسطيلة مدينة الحما المعصدة لغرناطة التى سار عقب ذلك لأخذها فالتهمت نيران الحرب الداخلية

وعزل أصحاب الامير أبى عبد الله أباه حسنا عن السلطنة وولوا ابنه فاطهر للناس نصرته على نصارى قسطيلة فى واقعة لقصة المقتضية أنه أولى بالسلطنة من ولده ولم يجد ذلك تقعا فأقام بريف غرناطة ثم عاد إلى السلطنة يسيرا ووقع ابنه عبد الله الجبان فى أيدي نصارى قسطيلة وهم يحاربون مع فتور همتهم وأطلقوه سنة ١٤٨٤ لعلمهم ان عزله أباه يساعدهم على بلوغ ما ربههم أكثر من النصر على أبيه الذى ألزم بخلع السلطنة على عمه المعروف بالزجال واحتقر أبناء الوطن أباه عبد الله فترجى فردينند أن ينصره فأجابته وأغار حالا على مملكة غرناطة فأخذ مدائن الويجا وهزم الرجال أمام مدينة لورقة فتنازل عبد الله عن غرناطة سنة ١٤٨٦ لفردينند الذى رخص لأبى عبد الله أن يدهم جميع مملكة الزجال فحاصر أبو عبد الله ملاغة وأخذها ثم وجه عساكره إلى مدائن المرية وبازة وورا فبذل الزجال وسعه فى القتال حتى يئس فأمر الناس أن يسلموا نصارى اسبانيا وسلم هو مملكته إلى فردينند الذى أعطاه بدل ذلك اقطاعات واسعة بسائر مملكته سنة ١٤٩٠ وألحق أهل غرناطة برعاياه فى الاعتبار وحفظ الحرية والاموال والاعلان بشعار الدين والخراج الذى كان يؤخذ منهم سابقا ورأوا من سلوكه دلائل الهدوء الدائم فائقاد لحكمه من حلفوا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى تنفذ وسائلهم الحربية لكن بعض المسلمين حرض على الغدر بالنصارى وشهروا السلاح وحصنوا غرناطة مصرين أن يموتوا تحت أطلالها فهرب الملك الزجال إلى افريقيا فتمثل فردينند

في تاسع مايو سنة ١٤٩١ بثمانين ألفاً أمام أسوارها ووكل عبد الله رؤساء رجاله في المدافعة عن تلك المدينة التي قاسى الأهوال في حصارها نساؤها وأطفالها وشيوخها وتنافس جميع أهلها في صد العدو وبنت الملكة إيزابلا هناك مدينة سنافية لإعلانها بأنها لا ترحل قبل فتح غرناطة وقطع فردينند اختلاط أهل غرناطة بغيرهم حتى ضاق بهم الأمر فخرجوا على النصارى مخاطرين بأنفسهم فهزموهم النصارى بجوار أسوار المدينة وطلب فردينند من أبي عبد الله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليهما مدد في بر أو بحر ووضع أمضاه على شروط بذلك فاستنجد أهلها سلاطين إفريقية والقسطنطينية فبعث ملوك القسطنطينية دون غيرهم سنة ١٤٨٦ سفناً اقتضرت على تخريب سواحل بحيث جزيرة إسبانيا فخاف أبو عبد الله من قيام أهلها عليه وسلمها قبل الميعاد إلى فردينند الذي رتب له أقطاعات كافية في أرض البوقساره ثم أقام أبو عبد الله في صحارى إفريقية لما ركب من العار والنلة ونصب النصارى على ذروة قلعتي الحمراء والبايسين أعلام سلطنة قسطنطة وأعلام سنجاق (مارى يعقوب) وزينوا مسجدها الأعظم بحلية العبادة النصرانية القاتوليكية وأمر القائد (كزيمينيس Ximénis) بإحراق الكتب العربية المحفوظة منذ قرون ووضع فردينند يده بلامانع على المحطات المهمة في الجبال وعلى مملكة غرناطة فاقضى من إسبانيا حكم العرب الممتد من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية

وكان زوال سلطنة غرناطة أعلام بموتهم فانهم لم يسألوا بعد أخذها عن شروط التسليم المشتملة على تمتعهم بالحرية والمال والسلاح والدين والمساجد والعوائد وبقاء ترتيب القائدين للجنود والقضاة المكلفين بالحكم في الدعاوى على مقتضى الشريعة الإسلامية وعدم الجبر على تأدية شيء سوى الخراج والتكاليف التي كانوا يؤدونها للوكلهم المسلمين المبحث الخامس في السياسة التي سلكها ملوك إسبانيا مع المسلمين المطرودين عنها

سنة ١٦٠٩ ميلادية

لم يقصد فردينند بشروط تسلمه غرناطة إلا الحصول عليها لا إجراء تلك الشروط

التي منها التمتع بالدين فانه رأى أن المسلمين بكثرتهم وغناهم وحبهم للاستقلال ربما كانوا مانعين نفوذ حكمه فصمم رأيه على أن يسلبهم العبادة الاسلامية والأخلاق العربية شيئاً فشيئاً ولم يبدل ذلك أول وهلة خشية ألا ينجح مقصده فاغذمتجسين على التدين بدؤا بمدح أهل قسطنطة ومأم عليه من الصلاح والاستقامة ليأمنهم المسلمون وينسوا ما كانوا عليه من سوء المعاملة وأوهوهم أنه يجب عليهم العمل بشروط التسليم بغاية الدقة وأنهم لا يؤذون إلا اليهود المالكين لحصة عظيمة من أموال البلاد أو الذين رحلوا من وطنهم (غرناطة) أو تركوا دين آبائهم ودخلوا في دين النصرانية وأوقعوا سنة ١٤٩٢ بهؤلاء من العذاب أنواعاً فزعّت المسلمين والمتجسسون إذ ذاك يدعون إلى النصرانية المسلمين الخائفين أن يحل بهم ما حل باليهود من سوء العذاب ثم أعلنت النصارى بمنع التدين بالاسلام وأغدقوا بالذهب على من استنصر ثم حكم فردينند سنة ١٤٩٩ بطرد من لم يستنصر من جميع أسبانيا فاقاد ظاهراً للذهاب إلى الكنائس لعبادة المسيح المسلمون بسائر المدن إلا سكان جبال البوقسارة فلم يمثلوا وشهروا السلاح فهزمهم هذا الملك وأتلف مزارعهم وأخذ أموالهم وطردهم من البلاد نعم تحمل النصارى أن يتدين بدين الاسلام أهل والنسة التي صناعتها أحد الينايع الأصلية لفاهية أسبانيا حتى ولى السلطنة شرلكان كرولوس الخامس سنة ١٥٢٤ فألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر فاشتكوا ذلك إلى شرلكان فلم يصغ لهم وأحالمهم على محكمة تحقيق الدين وعقوبة المعترلة عن طريقة القاثوليكية فحكم أرباب المحكمة بإكراه المسلمين على التنصر وسعى رئيس أساقفة اشبلية لدى هذا الملك حتى حكم سنة ١٥٥٢ بمنع مسلمى غرناطة في يوم واحد من عوائدهم القديمة ولباسهم والتكلم بلغتهم ورتب لتحقيق دعاوى المخالفين لذلك الأمر محكمة مخصوصة ودفع المسلمون سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيلبس الثاني ثمانمائة ألف دوقية (دينار) ليخفف عنهم ذلك فكفت عنهم أرباب الحكومة إلا أن الرعية مازالوا يتأدون في عدم التحمل للتدين بالاسلام شاهرين السيف باليمين والصليب باليسار مقتفين أثر المسلمين في كل جهة حتى الجبال

غدر ملوك الأسبانيين بالعرب ومنعهم من مزاوله دينهم عواندهم ٢٣٧

وبالجملة أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمراً من الملك فيلبس الثاني بمنع اغتسال المسلمين من الحداث والزقص المغربي واستعمال اللسان العربي وخروج النساء متبرقات فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودة مع مغاربة افريقية فتبعهم المريكز (منديار Mondejar) القائد النصراني فالتجثوا إلى جبال تابعين قائدهم محمد بن أمية المدعى أنه من نسل بني أمية خلفاء قرطبة الأول واستمرت الحرب بينهما سنين حتى بدأ الشقاق بين المسلمين وذبح محمد بن أمية لخلفه عبد الله فأخذ منه (دون خنا وتر يش Don Juan'd Autriche) سنة ١٥٧٠ معظم عساكره الذين انقاد بعضهم للنصارى وبعض ذهب إلى افريقية ووزع النصارى الساكنين بجبال البوقسارة على استورية وغاليسة وقسطيلة تحت الملاحظة الشديدة وأمر الملك فيلبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمي والنسة ومرسية فنقلتهم سفن إلى سواحل افريقية واجتاز منهم كثيرون جبال برينيه فقبل نزولهم في فرنسا ملكها هنرى الرابع وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة وعلى بعض آخر بوسائل السفر في البحر إلى مينا غينة ومينا لنجدوق ووجد بعض المؤرخين المسلمين المطرودين من أسبانيا منذ فتح النصارى غرناطة إلى سنة ١٦٠٩ ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة فدرست معالم عز أسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة ننتس سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب القاثوليقية ذوى الصنائع العظيمة

للسيد يحيى القرطبي

وقد أصبح في حال تعد المنايا أمانيا ويرى الموت لضعف الدين طيبا شافيا
وقد أسر بالآندلس وذلك في عهد السلطان سليمان :

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساءته أزمان
وعالم الكون لا تبقى محاسنه ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر منا كل سافه إذا نبت مشرفيات وخرسان

وينتضى كل سيف للفناء ولو
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ؟
وأين مشاده شداد من إرم ؟
وأين ما حازه قارون من ذهب ؟
أتى على الكل أمرٌ لامرء له !
وصار ما كان من ملك ومن ملك
دار الزمان على دارا وقائله
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
فجائع الدهر أنواعٌ متنوعة
وللمصائب سلواتٌ يهونها

كان ابن ذى يزن والعمد غمدان
وأين منهم أ كاليلٌ وتيجان ؟
وأين ماسسه فى القرس سامان ؟
وأين عاد وشداد وقحطان ؟
حتى قضاوا فكان الكل ما كانوا !
كما حكى عن خيال الطيف وسنان !
وأم كسرى فما آواه إيوان !
يوما ولم يملك الدنيا سليمان !
وللزمان مسراتٌ وأحزان !
وما لاحل بالإسلام سلوان ! !

دهى الجزيرة خطبٌ لأعزاء له
أصابها العين فى الإسلام فارتزأت
فسل بكنسية ماشانٌ مرسية
وأين حصن وما تحويه من نزه
وأين غرناطة دار الجهاد فكم
وأين حمراءها العليا وزخرفها
قواعدٌ كن أركان البلاد فما

هوى له أجدٌ وانهد هيلان
حتى خلت منه أقطارٌ وبلدان
وأين قرطبة أم أين جيان
ونهرها العذب فياضٌ وملان
أسدٌ بها وهم فى الحرب عقبان
كانها من جنان الخلد عدنان
عسى البكاء إذا لم تبقى أركان

تبكى الحنيفة السحاء من أسف
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة
على ديار من الإسلام خالية
حيث المساجد أمست كنائس ما

كما بكى لفراق الألف هيلان
حتى المنابر تبكى وهى عيدان
قد أفقرت ولها بالكفر عمران
بهن إلا نواقيس وصلبان

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ إن كنتَ في سنةٍ فالدهر يقظان
وما شياً مرحاً يُلْهِيه موطنُهُ أبعدَ حِصصٍ تُعْزِئُ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان

يارا كبين عِثاقَ الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوفَ الهند مرهفةً كأنها في ظلام الليل نيران
وراعتين وراء النهر من دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أمر أندلس لقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث صناديد الرجال وهم أسرى وقتلى فلا يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام يبنكو وأنتمو يا عباد الله إخوان
ألا نفوسٌ أيتأت لها هم أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يا من لنصرة قوم قسموا فرقا سطا عليهم بها كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في قيود الكفر عُبدان
فلو تراهم حيارى لادليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
فلو رأيت بكاهم عند يميمو لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يارب طفل وأمر حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وغادة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العليج عند السبي صاغرة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

الأمم الإسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدول الإسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والفناء ولحرق الغزن ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، فقد كان في اصلاحاته كما يقول البارون دي مورسي « كالباني الذي أراد أن يبني بيتاً يكلفه مالا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الأوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يعجز المدين عن سداد دينه »^(١)

ولا ريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأفحش أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكليزي (سيموركي) في سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقي (أي المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ في المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون أنهم يحاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (روتشلد وأوبنهايم) وغيرهما من أصحاب رؤوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في انجلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخل فعلياً منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انجلترا تحول دون حل المسألة حلا مالياً ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضماناً للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد

(١) هذا منقول من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن منقول من كتاب كشف الستار عن سر الاسرار تأليف عرابي باشا

كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كما سنحت الفرصة إرسال أخصائين سياسيين في زى ماليين لاصلاح الأمور من جديد وإيقاف الحاكم المستبد عند حده . وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم قلق المصريون على مستقبلهم اه . وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتى :

سر مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أقلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (ثغر من ثغور إيطاليا) وكانت معه أوراق مالية « يون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الاييارى إمام المعية في أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية في شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : (ياليتك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها) . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورتان بالدموع ، فضمه والده ثم قال له : (لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تسكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك بإخوتك وسائر آل برآ . واعلم أنى مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك ، وكن أسعد حالاً من أبيك ، وكان من أشد المناظر تأثيراً في النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار

القطار الخصوصي حتى وصل إلى الاسكندرية . إنتهى ما أردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عالمًا ألمانيًا ألف كتابًا وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه هذه نسخة من حياة أمم الاسلام قديمة وحديثا . فقال صاحبي : وماذا تريد من أمم الاسلام المستقبلية ؟ فقلت : أمم الاسلام المستقبلية ستكون غير الامم الاسلامية الماضية ، هذه الامم التي بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه في كتبنا وفي هذا التفسير ، وما كتبه الكتاتيون في زماننا هذا وهوزمن النهضة الحقيقية الاسلامية وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الاسباب لاستكناه علم التاريخ تحتص به جماعة في كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ وتكون هناك جماعات جماعات في سائر العلوم والصناعات ، هذا كله سيتم وان يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الامراء من بينهم لمدة معينة كخمس سنين أو عشر سنين أو نحو ذلك ولا يراعى في ذلك إلا قوله تعالى « وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشا وهو وأمتة أغزر علما من الامراء الآخرين فهو حتما الذي يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكتاتيون في الاسلام

المبحث الثالث

في حال المسلمين في عصرنا الحاضر

لقد مر بك أيها الذكي في المبحثين السابقين ما كان من شأن المسلمين ارتفاعه وانحطاطاً سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً إذ يقول (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

ساق الله هذه الآية من قلب الصحراء لتكون نبراساً للناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور فتم ذلك ولكن بعد قليل من الزمن أخذوا يقلدون القياصرة والأكاسرة وتناسوا عهدهم الأول من عزمهم ومجدهم وبأسهم وأخذوا يقتتلون على الخلافة وجهلوا

أن الله عز وجل لن يسلم قيادة الأمم إلا لأقوام يحلون من عباده محل الشمس والنجوم من عباده بحيث يسوسونهم ويحفظون على كياناتهم ولا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً وإنما يكونوا خلفاء الله عليهم كما كان نبيها صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون بعده فكانت الدنيا في قبضتهم وهم فيها زاهدون فأما الأمويون والعباسيون وأهل الأندلس وغيرهم فأنهم أخذوا يتدلون انحطاطاً كما تقدم إيضاحه وإياك أن تعجب أيها الذي بما أقول الآن وهو أن الله لا يملك عباده إلا للمخلصين في خدمتهم الخ ما تقدم فإن لي عليه دليلين دليلاً دينياً ودليلاً علمياً

أما الدليل الديني فذلك أن الله يقول (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهؤلاء الصالحون هم الذين يسلم المسلم عليهم كل يوم في صلاته فيحیی ربه ويسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أما تحيته لله فانه هو المنعم وأما تسليمه على النبي صلى الله عليه وسلم فلا أنه هو الذي نتج باب الخلافة الصادقة ورق الإنسانية مع زهده في مالها

وأما السلام على عباد الله الصالحين المذكورين فذلك أنهم أمثال أبي بكر وعمر يريدون السلام في الأرض ولا مطمع لهم من القيام بخدمة عباده

لإسلام في الأرض إلا حيث تكون الشورى والنشورى قام بها صاحب الرسالة وخلفاؤه الراشدون فهؤلاء هم الصالحون الذين يورثهم الله الأرض وقد ورثوها فعلاً كما تقدم فأما ملوك الإسلام الذين سمو أنفسهم خلفاء فأنهم لم يريدوا غالباً إلا الملك ومن لم يرغب من الملك إلا المال فستحيل صفاء العيش له ولا بد من ذهاب دولته عاجلاً أو آجلاً فلذلك ذهب الملك من أيديهم بعد أن جهلوا ما جاء في قصة فرعون إذ استشار الملائكة حوته في أمر موسى فقال لهم إن هذا ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون

وقصة ملكة سبأ إذ قالت يا أيها الملائكة أفوتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى

تشهدون

جهلوا ان للقرآن عجائب فى قصصه يذكر القصة ويدخل فيها كل ما يفتن له العقلاء
كما فطن جميع المسلمين لمسألة وأد البنات فى غضون آيات كلها تذكر بيوم القيامة
من تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار الخ وهكذا حتى
ذكر المؤودة ففهموها وعمل بها جميع المسلمين

أما الشورى التى وردت فى بلاد مصر واليمن فأنهم يعرضون عنها لحلاوة الملك وغلبة

الشهوات

كان الله يقول أيها المسلمون ألا تحجلون إذا أخبركم أن مصر فى إفريقيا واليمن فى
آسيا (وهاتان القارتان أهم ممالككم!) كانت حكوماتهم قوية وهمهمهم عليه وكان
لسبأ ولمصر حكومات عظيمة أفلا تكونون أنتم أولى بالشورى منهم وإذا كنت أهلك
الأتنيين لانحراف فى أعمالهم فأنتم أحق بالهلاك منهم وزوال مجدكم وتسليط الأمم عليكم
وقد تم ذلك

جهل المسلمون المتأخرون هذا كله واستبدوا بالناس فأزال الله دولهم ثم أخذت
الفرنجة تجوس خلال الديار وأحاطت بنا من كل جانب حتى صار جيلنا هذا فى القرن
العشرين ولقد امتحن الله الفرنجة كما امتحن أمم الاسلام وقد مكن الله للفرنجة فى أرضه
فاحتلوا ديارنا أجل احتلوها ولكنى أقول وأنا واثق مما أقول أن الفرنجة قد ولى شبابهم
وأدبرت أيامهم وهذا أوان طردهم من بلاد الشرق

ذلك أنهم احتلوا بلاد الاسلام لمصلحتهم هم أنفسهم وقد قررنا أن الملك لا يدوم
على هذه الحال كما لم يدم لأسلافنا لما كان هذا رأيهم

الله أكبر إن الله يقول (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) وهما
نحن أولاء مستضعفون فى الأرض فلا بد من ارتفاع شأننا عاجلا هذا هو الدليل الدينى
أما الدليل العلمى فها هو ذا العلامة لوثرروب ستودارد (Lothrop Stoddard)

يقول فى الجزء الثانى صفحة ٧١ وما بعدها ما نصه بالحرف الواحد :

قال الحجة الثقة أرمنيوس فامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق

سائر أديان العالم شورى وديمقراطية — الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء . فإن كان العالم قد شهد حقاً ، منذ أن عهد انعمان البشرى إلى اليوم ، حكومة شوروية دستورية فهي لعمري حكومة الخلفاء الراشدين . وقال محقق انكليزي كبير^(١) خير في شؤون الشرق الأدنى :

« إن بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرحل هي البلاد الفذة في العالم المشتملة على صحيح الديمقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبداً سادة حريتهم^(٢) يذودون عن

(١) G. W. Bury كتابه « الجامعة الاسلامية » (لندن ١٩١٩) .

(٢) ليس من عادة العرب قديماً ولا حديثاً التخاضع للملوكهم وأمرائهم كما تتخاضع لأمرائها وملوكها سائر الأمم ، بل تراهم لا يخاطبونهم باللقاب الضخمة ، ولا بالنعوت التي يخاطب غير العرب بها ملوكهم ، بل لم يكونوا ينادونهم إلا بمجرد أسمائهم . وإنما كانوا في أيام الخلفاء بدوا يقولون لهؤلاء : أمير المؤمنين . لا غير . فكل ما دخل في العربية والعرب من القاب التعظيم والتفخيم إنما هو مأخوذ من الفرس وغيرهم . ولا يزال البادية — إلى يومنا هذا — ينادون شيوخهم وأمرائهم بمجرد أسمائهم ، فإذا أرادوا أن يكرموا واحداً منهم نادوه بالكنية قائلاً : يا أبا فلان . هكذا يخاطبون السلطان ابن سعود والأمير ابن الرشيد وكل أمير فهم . وكانوا يدخلون على الملك فيصل ابن الحسين مؤخراً وهو بدمشق فيخاطبونه دائماً : يا أبا غازي . كما يعرف ذلك كل أهل الشام . فهذه هي الديمقراطية الصحيحة . وكانوا في العصر القديم يقولون لعمري ابن الخطاب وهو يخطب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » . وكان الأحف يقول لمعاوية : « والله يا معاوية ان السيوف التي قاتلناك بها لفي اغمادها » . وخطب أبو جعفر المنصور ولم يكن من الخلفاء الراشدين بل من الخلفاء القاسطين : فقال أيها الناس اتقوا الله . فقام إليه رجل من عرض الناس فقال له : أذكرك الذي ذرتنا به . فأجابه الخليفة : سمعا لمن ذكر بالله

نعم ان كان في الدنيا شرقها مع غربها قوم ديموقراطيون فعلا فهم العرب . لذلك لما قال كسرى للنعمان بن المنذر ان الروم والفرس والهند الخ لها ملوك تجتمع على طاعتها ، وان العرب لا يزالون فرقاً وحرراً ليس لهم أمر جميع ولا ملك ضخم أجابه النعمان : ان الأماجم تطيع ملوكها من استخذاء نفوسها وأما العرب فانها أعز نفوساً وأحى أنوفاً من

سياجها بشفار سيوفهم ومنهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية فلا تعيش نبتة الاستبداد » وقال العلامة ليبيار^(١) في شأن ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة إنما ذلك وهم شديد . فقد كان لتركية مران سابق على الحياة الدستورية وكانت توافقة إلى إنشاء الحكومة النيابية وعلى جانب عظيم من الاستعداد لذلك . أجل ثم جل ، إن النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركية إنما هي أفضل أس يشيد عليه

أن تطيع ملكا ، بل تجد العرب كلهم ملوكا . وكما كان ذلك دليلا على شمم العرب وعزة نفوسها فلا ينكر انه كان العلة الأصلية في تحاسد هذه الأمة وتنافسها وحدة مناظرة بعضها لبعض مما آل الى فقدما الملك العظيم الذي كان لها ، وتقلص ظلها عن الآفاق بقيام ملوك الطوائف وبمناظرات القيسية مع اليمانية التي كانت آفة على سلطان العرب في كل مكان ، والسبب في وقوف فتوحاتهم يوم غزوا الأندلس وغربي أوروبا . إن العرب لم يجتمع كلماتها الا بدعوة دينية هي دعوة الاسلام وهذه الدعوة قد زادت فيها روح الديمقراطية بما في الاسلام من سنن المساواة والأخاء والحرية . قال عمر ابن الخطاب : لسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر . تأمل اخوان فارس وأبناء الأصفى قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودرية لرماحنا ، ، ومرمى لطعانا ، وتبعنا لسلطاننا ؛ بل نحن في نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمره حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمة الخ

وأما المشاورة فالي اليوم لا يعمل أمير من أمراء العرب ولا شيخ من مشايخ القبائل العربية عملاً الا برأى شيوخ القبيلة . وهو أمر مشروع لا بل فرض أوجه الله في كتابه قال تعالى : « وشاورهم في الأمر » . وقال : « وأمرهم شورى بينهم » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم . والخلفاء الراشدون يعملون كل شيء عام بالشورى . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه : « ولكن الأبرام بعد التشاور . والصفقة بعد التناظر لذلك جميع الحكومات الاسلامية هي شورى ديموقراطية فطرة وخلفة والاستبداد فيها عارض ومن جعلتها الدولة العثمانية أو التركية الحاضرة .

شكيب أرسلان

الحكم النبائى . كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين وذادة الشرع الشريف على هذا النهج وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترئى بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين . فالشريعة الاسلامية هى ديمقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدو شديد للاستبداد . وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذاً أن تتمكن الشعوب الاسلامية ، كافة ، حتى أبعداها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النبائى « ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر ان السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى ، يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة ، وإمداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلا حتى أنشئ فى العهد الأخير مجلسان الأول يعرف بمجلس الدولة والآخى بمجلس الوزراء (١) زد على هذا انه أنشئ مجلس نواب مرتين الأولى فى سنة ١٨٧٧ والأخرى فى سنة ١٨٧٨ . ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحيدى فقد كان على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النبائى . وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب ألا يعتبر إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ أمراً مستحدثا مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية . بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف . كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج

(١) كنا مرة نطوف فى قصر طوب قبو (مقر السلاطين فى الاستانة قبل بناء طولمه بفجه ويلدز) فاطلعونا على ايوان كان يجلس فيه قديماً السلطان ومعه وزراءه كل يوم للنظر فى أمور الرعية ، وكان أصحاب القضايا المهمة يدخلون عليهم فى هذا المجلس المعقود والسلطان جالس فيه كأحد . فدخل مرة زعيم قادم من الأناضول فلم يعرف من هو السلطان منهم فقال : « سزدن خنكارمز كيمدر ؟ » . من منكم سلطاننا ؟ فبعد هذه القصة عملوا للسلطان دكة مرتفعة عن الوزراء فصار يجلس فيها والدكة لا تزال الى الآن .

شكيب ارسلان

به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب .

استدعت الحكومة الفارسية الثورية مورغان شطرنج الأميركي ليقوم بتنظيم الشؤون المالية في بلادها فلم يطل مقامه في فارس إلى حد السنة لأن السيطرة الروسية البريطانية المرهقة لم يكن لها قبل باحتماله فأكرهته على براح البلاد . قال هذا الإداري الكبير مبينا استعداد الأمة الفارسية الاستعداد السياسي لإنشاء النظام الدستوري وهو متفائل في ذلك كل التفاؤل

« إنى أعتقد أن تاريخ العالم كله لم يحوي دفتيه ذكراً طيباً لأمة مثل ما يحوى من ذلك للأمة الفارسية التي انتقلت فجأة من دور الملكية المطلقة إلى دور الحكم الدستوري النيابي ، فما أسرع ما كانت تنتظم انتظاماً يهل على أن أمة ذات مقام عال في الحكمة السياسية وفي معرفة أصول الاشتراع إلى حد يكاد لا يصدق^(١) أما أعضاء المجلس النيابي الأول فقد شرعوا منذ يوم أنشئ المجلس يجاهدون جهاداً كبيراً في تثبيت دعائمه ورفع بنيانه وجعله في حرز حريز من طوارئ الاستبداد . . فلم يكن لهم متسع كبير فوق ذلك ليقوموا بالوظائف الاشتراعية الكبرى وربما ليس جميع ما يستونه من القوانين والأنظمة يوضع موضع الاجراء

» وأما المجلس الثانى وهو الأخير الذى أعرف أعضاءه معرفة شخصية صحيحة فما كان على كل حال ليعد في رتبة البرلمان البريطانى أو مجلس النواب الأميركى . ولكننا متى ما قبلنا نعتبر ما استطاعته حكومة فارس القليلة المرات من قبل ، في بلاد استطالت رقدتها أجيالا ، من القيام بتنظيم شؤونها وتدير أمورها على نمط تضاهى به الحكومات التى اقضى على حياتها الدستورية أعصر بل قرون ، أخذنا العجب من ذلك حقا . لا ينكر أن هذه الحكومة الحديثة تحتاج إلى كثير من المعارف الاكتمائية في كل دائرة من دوائر حياتها الجديدة . بيد أن الأمر الذى يقف عنده الحكم المنصف

(١) ومن في الدنيا ينكر مزايا الأمة الفارسية واستعدادها للرقى ، وهى الأمة المتمدة منذ آلاف السنين التى أوتيت في العلم والصناعة مواهب قلبا وهبها الله أمة

معتبراً هو أن هذا المجلس النيابي الفارسي يمثل حقاً رأى الأمة الفارسية ، وبه نواة جميع أمانيها ومبتغياتها التي تصبو اليها . أما أعضاؤه من حيث ما هم عليه من العلوم فعلى مستوى أرفع من المتوسط ، وجلهم من ذوى العقل الثاقب والخلق الكريم ، والرأى السديد والشجاعة الحقّة . يحنون أفعالهم على قلوب تنصرم اخلاصاً ووطنية يبحثون بجد وعزم في كل مقترح وطني وضع على بساط البحث ، ولكنهم على نقص في الخبرة الكافية لتدبير الشؤون المالية ، وإذ أدركوا خطورة هذا الأمر وعظم شأنه أرادوا الاستعانة بطائفة من المستشارين الأجانب الخالص بمحضونهم الود ويجعلونهم موضع ثقتهم ومحققى آمالهم ، ويفوضون إليهم أمور التنظيم ، هذا إذا كان هؤلاء المستشارون يستطيعون حقاً مقاومة المكاييد السياسية والرشوة ومبادلة الأمة الفارسية الود والاخلاص . والصدق في الأقوال والأعمال

وليس من العدل ولا الانصاف في شيء أن يقال أن المجلس النيابي الفارسي قاصر عن المجازاة الحقّة في ميدان الحياة الدستورية ، وهو المجلس المشدود الأزر وأتمته من ورائه بحولها وقوتها ، قوام على واجبه ، مجلس عارف لحد سلطته فلا يتغنى بجواز نطاقها بغير حق ، وأعضاؤه أبدأ على استعداد للقيام بكل تضحية كبيرة في سبيل صيانة كرامة الدولة واعزاز مقامها وإعلاء شأنها .

أما الأمة الفارسية فليست على مستوى تناوله صفة عامة . فالسواد الأعظم فيها من أهل الفلاحة والقبائل البدوية الجاهلة . وأما المتعلمون الذين طلبوا العلم خارج بلادهم وقاموا بسياحات كبيرة في الممالك الراقية فيعدون بالئات . وقد أظهر جميع هؤلاء استعداداً لاقتباس الآراء الغربية والأخذ عن الحضارة الأوروبية . وهم هم الذين قاموا بذلك صرح الاستبداد دكا ورفع علم الدستور والديمقراطية خفاقاً ، بعد أن ذلوا الضعب وركبوا الهول . وعلى أيدي الحكومة التي أنشأوها انتشر العدل بين الناس ، وقضى على المحاباة ، وغدت أبواب المناصب مفتوحة لكل مقتدر كفؤ من أهل البلاد . وبرهن الفرس من حيث اعتبارهم أمة لها خواص وغرائز على استعداد منقطع النظير

لارتشاف العلوم والترقى خلال السنوات الخمس الأخيرة . فشيدت مئات من المدارس ودور العلم وأنشئت الصحف الحرة فانبرى حذآق الكتاب شارعين أقلامهم يهدون الأمة خير هداية ، ويكالفون الاستبداد والظلم من خارج ومن داخل ، فظهر في الأمة الفارسية ميل شديد لرقابة النظام والتمشى على مستحدث الشرائع والقوانين السياسية والاجتماعية والأدبية وفوق جميع هذا فقد اشتعلت الأمة بأسرها بتلك الروح الاسيوية التي ألهمت الهند وأخرجت ثورة تركية الفتاة إلى عالم الوجود ، وظهرت حديثاً ظهوراً رائعاً في انشاء الجمهورية الصينية »

ثم أنهى المستر شصطر كلامه قائلاً : « قد صاح الكتاب الأشهر (رديارد كينغ) ناضحاً مراراً أن الشرق لن يطبق بعد المناخس معاملة في جنوبه ، فينقلب للحال بسبب ذلك مقاوما مقاومة رجعية عظيمة ، ولكن باستطاعة رجال الغرب ، إذا تذرعوا بالفضائل الغربية وغايات الحضارة الأوروبية الصحيحة أن يستسرعوا الشرق في سبيل التقدم والارتقاء على شريطة أن يوقن الشرقيون أن ذلك هو خيرهم ومصلحتهم . على أن الحق الذي لا يمارى فيه أن روح التضامن الأدبي والعزة القومية والعصبية الجنسية لجميع ذلك قد غدا شديداً في الشرق شدته في الغرب . فبات الشرقيون بسبب ذلك صعبا المقادة أقوياء الشكيمة وهم هكذا ما دامت أوربة سائقة لهم في سبيل واحد غايته ابتزازهم للماء بطنها وتسخيرهم لرى كبدها^(١) »

حقا يعتقد كثير من الأحرار الغربيين أن التسلط الأوربي ليس من شأنه أن يعد الشعوب الشرقية للحكم الذاتي والاستقلال الصحيح ، ولو كان ظاهر ذلك التسلط خيراً وكافياً مهما كان^(٢) بل تعتقد طائفة هؤلاء الأحرار أن الطريقة الوحيدة

(١) Shuster كتابه : The Strangling of Persia

(٢) جميع المسيطرين الأوربيين في الشرق قاوموا التعليم الصحيح وحاولوا قصر جهدهم على الاستعمار المادى والاستثمار الدنيوى وأن يجتزئوا من التعليم بتدريس لغاتهم فقط دون الفنون التي فيها . وإن ما جاهدته مصر في أمر توسيع الميزانية لوزارة المعارف

أعلى التي أهل الشرق أخرى بتعليمها والتدريب عليها ، هي أن تترك تلك الشعوب وشأنها تدرس الاستقلال بنفسها ، وتخرج ذاتها بذاتها عن يدها ، وقد أخذ «ليونل كرتس»^(١) الكاتب الأنجليزي الدافع الصيت أينا لإجادة في جلاء هذا القول وتصريحه في كلام له في شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهذيب ، والثمرات والخيرات ، التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها «لأعداد أهل الهند أعداداً صحيحاً لتقيام بأعباء الحكومة النيابية . بل الأمر على ضد من هذا ، فالتهذيب والتعلم ينقلبان خطراً كبيراً وبلية إيجابية . ما لم يقرنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً أن الشعب مهما كان مهذباً راقياً ، لن يستطيع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة ، والمباشرة الفعلية ، لافي حيز النظر والتصور والخيال .» قد يقول بعضهم أني لجوج في طلبى الذى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئاً فشيئاً ، نقلاً صحيحاً لا غش فيه ، من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة لشعب ، وأنه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق . نعم يجب عليهم أن يدعوا كل حصة إلى هذه الحكومة الفتية وأن يعطوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لا عطف الظنر المأجورة التى سواء عندها أغش الرضيع أم مات . وإذا ما أريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتى وجب أن تكون حرة من كل جانب لا مطلقاً من ناحية ومصدرة بالأغلال من ناحية أخرى . فإن لم يكن هذا ، فليس من سبيل إذاً لهذه وتكثير المدارس يعلمه الخاص والعام ، ومع هذا فكان المحتلون يقيمون في وجه التعليم جميع العقبات الممكنة ولا يزالون يقيمونها إلى هذه الساعة . أما في الجزائر فإبقاء الأهلىن فى الجهل وحرمان أطفالهم من الكتاتيب الابتدائية هو من جملة برنامج الإدارة هناك .

(١) كتابه : «رسائل إلى الهند فى شأن الحكومة النيابية» (لندن ١٩١٨)

Lionel Curtis, "Letters to the People of India on Responsible Government",

الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بأنها مسؤولة لدى الشعب الذى هو من ورثها حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن انه هو المالك لنفسه من ضر ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه . نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء ارادته حكما ذاتيا لا يتسنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائما أبداً واجتياز طريق الصعاب التى تشق عندها الأ نفس وتركب الأهوال وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه .

إنى لأفخر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع ، من أنشاء النظام وثبتيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد . غير أنى على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحا بعد ، دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد ، من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص .

يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة . من حيث يجب علينا أن تقوى ساعدهم ونزيد حولهم ونعلى من منزلتهم . وذلك لا يتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التى تنقل إلى نطاقهم تقلا مزدادا . لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد

لا وصول إلى الغاية التى بينها حديثا وزير الهند^(١) إلا بركوب المشقة ومعباناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حق العلم ، ذلك أننا قد استطعنا الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند ، بعد العناء الكبير ،

(١) إشارة الى الغاية المبينة فى تقرير موتاغو - شلمز فورد من منح الحكم الذاتى .

والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الانتقام مع ما هو معروف لنا من التقاليد .
وأما ما بقي أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولو كان في ذلك
بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في
سائر الأقطار الشرقية . إن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى
تركبتها لظى شديداً ، من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال ففدا
مقبض أوربا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال . وسواء
كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً ، فتقلص الظل أمر واقع لا مرد له ولا مدفع
مما يدل على أنه لن ينقضي منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول
الاسلامية في الشرق الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام
لا عيب فيه . أما التساؤل أتى . هذه الشعوب التي ستصبح حرة اغتنام الفرصة ،
فتعود تتعمر معائر الاستبداد والفسوضي ، أو تفلح حقاً عالية الجبين في إنشاء الحكومات
الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء ، ذلك أمر سيكشفه
المستقبل . وإذا قد بينا لحد الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق التطور السياسي ،
سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقفة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل ، مراقبين
تقلبها المستمر في هذا الدور دور التحول انتهى

ويقول في الجزء الأول صفحة ٢٨ وما بعدها مانصه :

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان . فبعد أن
ركبت أوروبة متن البحار ، صارت تستهزئ بجبايرة آسية وعتاتها ، وكانت من قبل
يردح ترى النصر عليهم أبعد مثالا من الجوزاء . ثم أخذت موارد الثروة تفيض على
أوروبة من وراء البحار ، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها . ولا يعجب من ذلك
بأوروبة قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لانفاذها .

غذاء طبيًا لحيانها وصناعاتها ، فباتت والشرق شتان ماها . فأى موارد كانت للشرق الاسلامي الحرب المهشم ، ازاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل في الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدتها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيا ، وقابضة على طلاس العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة

وعلى كل هذا ، فقد ظل الشرق الاسلامي جامداً ساكناً ، ملتفًا بخلق الحضارة العربية التي طال على خوائها الأمد ، ومتسكعاً في ديمجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضععت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا في انحطاطهم ، فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعاً وارتقاء ، ولا تحسين فن فنون القتال . وقد كررت حقبة كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً ، بيد انه لما أغار الترك على أسوار « فينة » سنة ١٦٨٣ م . فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل . ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكر على المملكة العثمانية السكرة بعد الأخرى ، منتاشاً منها ما استطاع ؛ ولو لم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً ، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة ، لمزقت الامبراطورية العثمانية شر ممزق ، منذ عهد عهد .

ثم توالى الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فتماثل في مهجعه مستثلاً وطأة الغرب ، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي ، وتخضع لها الأقطار ، في شرقي أوروبا وجزائر الهند ، واما جل العالم الاسلامي ومعظمه ، من مرا كش حتى أواسط آسية ، فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظل مستغرقاً في هججته ، مستهزئاً « بكفرة » أوروبا ، راضياً مسلماً ان شقائه انما بمشيئة من .

الله ، لا يقيم لرقى أوروبا وزناً ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً^(١) .

هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقظ استيقظ في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بشورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، وبين يديها العاشمتين الطيبة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل .

فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامى ، أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانية على الهند ومصر ، وعبرت روسية القوقاس وبسطت سلطتها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقية ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق للغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم إخضاع العالم الاسلامى — ولكن على القرطاس !!

أجل ، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب فى ذلك انه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل . كان الشرق الاسلامى طيلة هذه المئات من السنين التى كرت عليه وهو هان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

(١) نعم كانوا يعلمون انحطاطهم الذى هو نتيجة كسادهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الإدارة
شكيب ارسلان

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى فى إيلاام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامى حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثوراً عجيباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهب الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من اتباع النبى محمد (١) ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكنفو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها . قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقى واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات فى العالم الاسلامى منصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبت فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب فى كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعته لغيره من المؤلفين الأوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين ، مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة نانسي الألمانية كان يحزر مسلمي أفريقية وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحصون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٢٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ إلى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٢٥ مليوناً وكثيرا ما يحصونهم ٣٠ مليوناً وهم جرا .

شكيب ارسلان

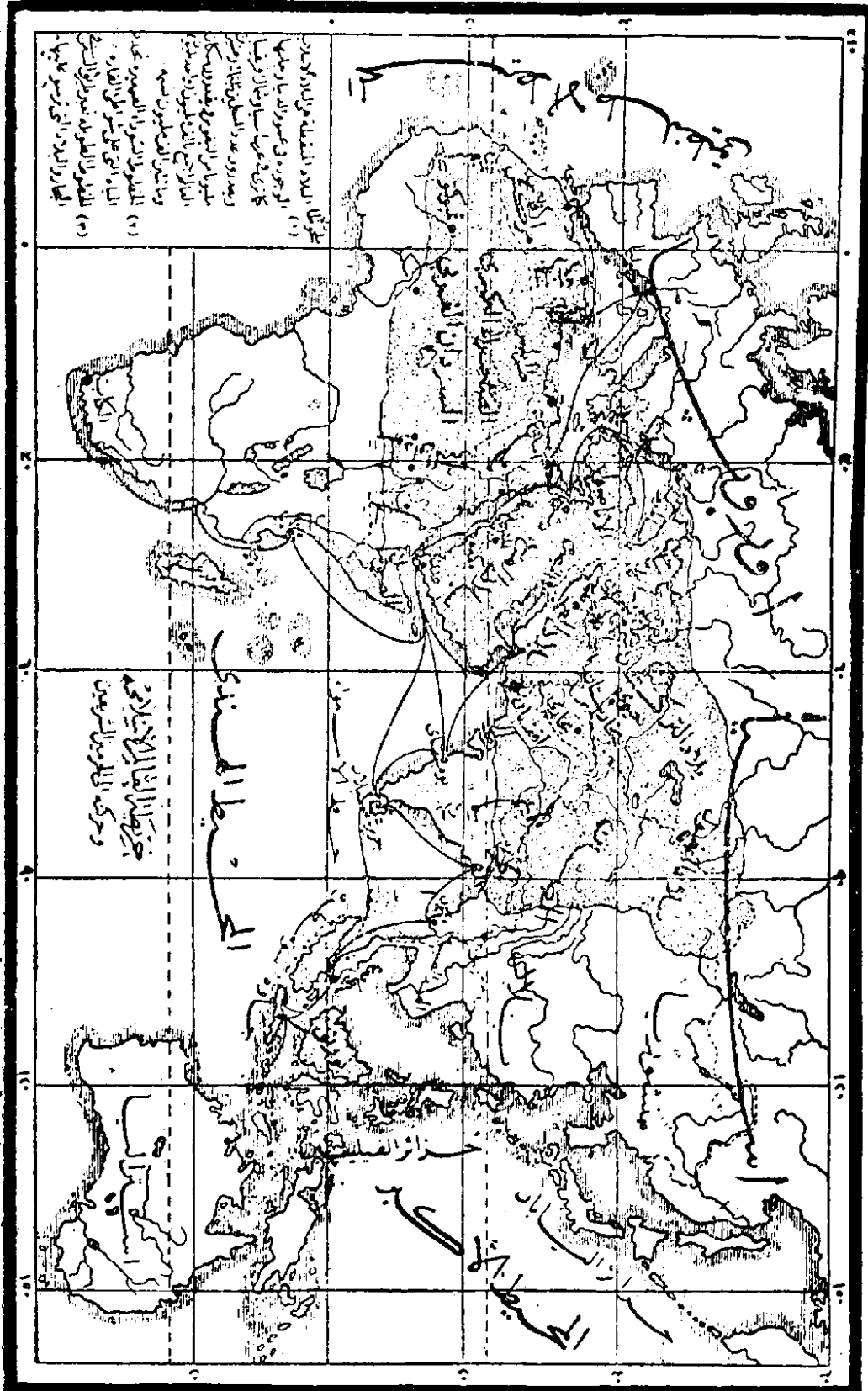
فثوران العالم الاسلامي هذا الثوران ، وشدة التضيق الأوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حداً يزيدان في هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يمينه ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلاً من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غاية تجدد عالم اسلامي حديث .

وليبيان كيفية هذا الانتقال والتجديد اللذين سترى ثمارهما في عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . . انتهى ما نقلناه من كتاب حاضر العالم الاسلامي

﴿ تذكره ﴾ ماذ كرهناه هنا قليل ملخص من كتابنا الجواهر في تفسير القرآن وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق ومن وجد في وقته سعة وفي صدره انشراحاً لازدياد المعرفة في هذا المقام فعليه بما كتبناه في سور مختلفة كما في سورة ابراهيم عند قوله تعالى (وذكروهم بآيات الله) وعند قصة ابراهيم في آخر السورة وفي سورة النحل عند آية (إن الله يأمر بالعدل الخ) وفي أوائل سورة الاسراء فهناك مقال في المسلمين بالأندلس قبيل آية (وقضى ربك الخ) وفي سورة الكهف عند آية (وما كنت متخذ المضلين عضداً) وفي سورة طه عند آية (وقل رب زدني علماً) وفي سورة الشعراء عند آية (السحر) وعند آية (والشعراء يتبعهم الغاؤون) وفي سورة النمل عند آية (إن الملوك إذا دخلوا قرية الخ) مع آية (فتلك بيوتهم خاوية الخ) وفي سورة سبأ عند آية (بحاجة الضعفاء والذين استكبروا) وفي سورة ص عند آية (يا داود إنا جعلناك خليفة الآية) وهناك مواضع أخرى هامة وفي سورة الشورى عند آية (وأمرهم شورى بينهم) وفي سورة الاحقاف عند آية (أذهبتم طياتكم الخ) وهناك في بعض سور الحواميم التي ذكر فيها أن القرآن عربي مقال مسهب يخص العرب في زماننا ويحتم الوحدة ويبحث في تاريخهم

وهكذا في سورة فاطر عند آية (ألم تر أن الله أنزل الخ) مقال عن الجراد وانه

يهجم كل سنة على البلاد ولا يصده عن الاتحاد صاد . وهذا درس للامم العربية
أن يكونوا متحدين انتهى الفصل الاول



(خريطة العالم الاسلامي)

الفصل الثاني

في السعادة والاختيار والعمل والتوكل

للإنسان ثلاث قوى شهوة وغضب وعقل ورسلها إلى العالم الخارجي أخواس
الحمس وخزائنها قوى الدماغ الحمس وله مع كل قوة من هذه الثلاث ميل إلى ما يلائم
ونفور عما لا يلائم فالميل إلى الملائم والنفور عنه في الغضب والشهوة نسميه اراده وفي العقل
نسميه اختيارا وهو الذي عليه مدار السعادة الانسانية اذ به يمكن التسليط على الشهوتين
الآخرين باضعاف ارادتهما ومحو خروجهما عن سنن الاعتدال بلا إفراط ولا تفريط ويكون
بهذا الاختيار السعادة ويكون به الشقاء فاية أمة كان اختيار عقلائها أميل إلى الكمال
وأحرص على السعادة كانت هي سعيدة وبضدها تتميز الاشياء

والسعادة يدور أمرها على كمال النفوس الانسانية أشخاصا وأما فساد السعادة الشخص
تكون بكمال العقل وصحة البدن والجاه وتوفر الأموال^(١) إذ الموجودات التي نشاهدها
لا تخرج عن هذه إكائنات أما أرواحنا أو أجسامنا أو خارجة عنا والخارج اما
إنسان وإما غيره ونعبر عنه بالأموال وترتيبها في الشرف على حسب قربها وبعدها
من العقل فالأموال أدناها وأرقى منها الجاه ويليها الصحة التي بها يترن العقل والعقل
وعلموه هو نهاية السعادة فكل ماعده مقدمة له ولا يكمل إلا بمعرفة جميع أنواع
العلوم العقلية والنقلية التي يجمعها ثلاثة أقسام وهي إما أن تحتاج إلى المادة في الخارج
والذهن وهي العلوم الطبيعية وإما أن تحتاج إليها في الخارج دون الذهن وهي الرياضية
وإما أن لا تحتاج لها فهما وهي الالهيات وثلاثة عملية وهي علم الأخلاق وعلم سياسة
المنزل وعلم سياسة المدينة وهذه الثلاثة تكفلت بها الشريعة المطهرة وأرشدت إلى الثلاثة قبلها
صريحاً بارة ورمزاً أخرى فهذه هي طرق السعادة ولا يمكن إلا بالاختيار الناشئ عن الشوق.

(١) هذا الرأي مأخوذ من كلام الامام الغزالي في الاحياء وهو مبني على كتاب
ارسطاطاليس في الاخلاق وقد نقلناه في سورة فصات عند آية ان الذين قالوا ربنا الله
الخ وعليه اعتراض وجيه فتدبر

المسند إلى العقل وأى أمة كان اختيار أفرادها يغلب عليه السعادة كانت سعيدة وإيئاماً تقاعس أفرادها عن اكتساب السعادة انحطت إلى دركات الهون واعلم أن روح السعادة إذا سرت في الأمة أثرت في أفرادها تأثيراً حسناً وإذا تقلصت تلك الروح خمدت نيران أشواق أفرادهم ومعاشرة الإنسان لقوم هي أس سعادته وأس شقائه ومبدأ جنته وناره فالوسط يؤثر تأثيراً بينا ولما كانت الروح ألطف من النار بل أكثر سرياناً من الكهرباء كان تأثير المعاشرة على الأخلاق أشد من تأثير النار فيما جاورها أو الكهرباء في المعادن وهذا هو السر في مشروعية الهجرة من بلد الكفر والجهل وهذا مبدأ ارتحال العلماء من بلد لبلد وأسفارهم إلى الديار القاصية لعلمهم أن الآخرة ليست شيئاً سوى ثمرة هذه الحياة ومتى كانت الحياة الدنيا مع من لا يعرفون طريق السعادة قلدنهم الإنسان بالمعاشرة وكانت سعادته الأخروية على حسب الدينوية إذ أكثر الناس يفهمون أن المقدمة للسعادة سعادة فالمال والأهل والأصحاب والزوجة والأولاد والوظائف والرتب وعلو الجاه هي نهاية السعادة عند الكثيرين ولكنها عند الخاصة من العلماء مقدمات للسعادة لأنفسها فكأنهم يجعلونها سلماً إلى رقى عقولهم الباقية بعد موتهم إذ هم يفهمون من قوله تعالى إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ومن غيرها من آيات ذم الدنيا والأحاديث وكلام العلماء والزهاد أن هذه يقصد بها أنها ليست مقصداً قط للعلماء ومن جعلها مقصده فهو من الانعام بل هو أضل وإنما تكون وسيلة وعلى ذلك يحمل كل مدح للدنيا وجميع أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الناموس من هذا القبيل فكانت أخروية بالقصد وإن كانت دينوية بالعمل مثل اتخاذ الأزواج والمآكل والمشرب وغير ذلك

وبالجملة تكون تلك الأموال منصرفة إلى المنفعة العامة دون الخاصة وهذا هو مقصود الشرائع السماوية بأكملها حتى تستعد الأمة بأغنيائها وعلماؤها ويتعاونوا على البر والتقوى

الكلام على العمل والتوكل

علمت من هذا أن الشرع لم يأت قط بترك الأعمال وإنما جاء بالحث عليها إذ هي رقى المدنية والتوكل عمادها فليس التوكل ما يفهم قوم من العامة من أنها ترك الأشياء للمصادفة تجري على غير نظام ولا سنن معهود وترك الأشياء ناقصة بلا ترو ولا كمال عمل كلا ولنشرح التوكل بأوجز ما يمكن مع استيفاء البيان ولنقدم مقدمة فنقول :

قضى الشرع وحكم العقل أن مدبر الكون لا يكلف نفسا إلا وسعها ولذلك ترى جميع هذه الكائنات تجري على هذه القاعدة فكل من أوتى فهما وتمييزا وعقلا وأعضاء فبقدر ما أعطى يكلف العمل وهاك البيان

ترى الطفل في بطن أمه لا إرادة له ولا اختيار ولا قوة يبطش بها فتأمل كيف لم يكلف في بقاء حياته أن يأكل بضمه ولا يتناول شيئا بيده ولا يدبر لنفسه تدبيرا ولا يستنشق الهواء حتى يحیی في بطن أمه وإنما أتاه عرق فيه دم يجري متصل بالسرة يتفرع الى جميع اجزاء جسمه من دم الحيض ولذلك ينقطع أيام الحمل فاذا خرج من بطن أمه فتأمل كيف كاف بالهام من مدبر الكون أن يفتح فمه ويمسك بيديه ثدى أمه ويستنشق الهواء بأنفه وفمه وسهل له ارتضاع اللبن في ثدى المرأة ولم يكلفه أكثر من ذلك بأن يسعى إذ لا طاقه له فاذا فطم أخذ يسعى على رجليه وكاف مضغ الطعام بالأسنان والقواطع التي تحدث له ويكلف بالأنهام العمل بمقدار ما أعطى ويتناول الطعام بيده ولا يزال تزايد قواه العقلية والبدنية ويزيد تكليفة بالأعمال كالصنائع وتعلمها والدروس وفهمها الى أن يصير رجلا يلزم بتدبير منزل أو أمة بأسرها هذه هي سنة الكون ونواميسه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فتأمل كيف طابق الكلام هذا النظام اذا فهمت هذا فلنبين معنى التوكل فنقول

المتوكل فيه إما أمر مقطوع به وإما أمر مظنون وإما موهوم فالأمر المقطوع

بها والقريبة منها كاستنشاق الهواء وإدخاله الرئتين لإصلاح الدم وتناول الطعام باليد وإدخاله الفم واستعمال الملابس لوقاية الحر والبرد والمساكن فكل هذه يقطع العقلاء بنتائجها عند الاستعمال وبضررها عند الترك والمظنون تفعلها جميع الأعمال التي لها نتائج عند غالب الناس وقليل لا تثمر وذلك جميع الأمور التي تقوم بها الممالك من الزراعة والتجارة والصناعة والأمانة وينتج عنها سياساتها بالسياسات وبناء القلاع وإصلاح الجيوش وعمل الأسلحة وكل ما به نظام الأمم والممالك وإصلاح الأشخاص وشؤونهم في داخل الممالك وخارجها بالطرق المألوفة المعهودة عند الناس فهذان القسمان وهما المقطوع به والمظنون يكون التوكل فيهما راجعا لصرف القلب الى مدير الكون في انتاج الثمرات وبقاء تلك الأدوات وأن تكون الأعضاء صحيحة إذ هو الذي يقدر على إبقاء تلك الأعضاء وإنتاج تلك الثمرات فلا يعلم ما ينتج من تلك الأعمال إلا هو ولا يحفظ الأعضاء إلا هو فيكون المقصود من التوكل إذن إنما هو القوة على العمل مع استيفاء شرائطه العقلية وأدواته العملية وإخلاصه ظاهرا وباطنا فتكون الأعمال جارية على النواميس المعهودة والعقول ملتجئة الى مدير الكون هذا هو المقصود من التوكل وكما ورد في القرآن من مدحه لأنه أقوى نصير على العمل قال تعالى في قوم موسى « وقال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » فتأمل كيف جعلوا التوكل معينا على العمل وتقوية العزيمة لا كما يزعمه كثير من الجهالة إنه ترك الأمور الى المصادفة

فكلف الإنسان بالعمل العقلي تدبيرا والجسماني مباشرة على مقدار ما أوتي كما هو مقتضى نواميس الكون كما علمت في مثال الجنين والطفل والشاب وهذا هو المقصود المطابق لما ورد مع الدخول للأموال من أبوابها — أما القسم الثالث فهو الطرق التي لا توصل الى المقصود في غالب الأوقات وإنما يكون توصيلها على حسب الاتفاق والمصادفة لأنها من غير الطرق المعهودة المألوفة وذلك كل ما ليس سببا للنفع مثل الرقى والتطير والتشاوم وأخذ الأمور من الفأل والاستشفاء بالعزائم وأمور الدجالين وكتابة التماسم

وجعل آخر الطب السكى والتقصّد ان كل أمر لم يكن سببا طبيعيا للأمر فانه خارج عن التوكل ومن سار فيه فقد النفع الدنيوى وخرج عن اسم التوكل فلم ينل دنيا ولا دنيا وليس لهذا المعنى أجمع ولا أخصر من قوله صلى الله عليه وسلم « سبعون الفا من من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فجعل الرقية والطيرة والسكى من الخروج عن التوكل ومعلوم انها أمور نفعها قليل ليست من الأمور الاعتيادية اما الطب فهو الفن الذى يثمر فى كثير من الأوقات النفع فهو من باب التوكل كجميع الصنائع والعلوم وأما السكى فقد كان العرب يكوون المريض اذا يئسوا من شفائه ولا جرم انه ينفع فى أمراض قليلة وهى التى يوافقها انضاج محل الألم وفى الأكثر يضر كما هو الشأن فى كل دواء يستعمل بدون علم فقد يوافق قليلا والأكثر عدم الموافقة إذ وضع دواء واحد لجميع الأمراض جمل محض وكل شىء عنده بتقدير

المتكل على شىء من هذه الأشياء ممقوت فى الدنيا منحوس الحظ لخروجه عن التوكل ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما معناه (من اتكل على شىء من هذه وكاه الله إليه)

نرى العلماء يحرّمون تولية القضاء على من طلبه بلسانه أو قلبه وادخلوا هذا مع هؤلاء الدجالين من علماء السحر والطلاسم ويلحق بهم محضروا الأرواح وكتبوا التمام إذ هؤلاء جعل الله أعمالهم موقوفة على ما اتكلوا عليه فكأنهم قيدوا أنفسهم فى ذل العبودية لتلك الأشياء

المتوكل من يأتى البيوت من أبوابها ومن هذا نفهم قول كثير (خذ من عبد الله وتوكل على الله) ثم تأمل كيف ظهر مما قررناه أن التوكل فى الاسلامية ضد ما يفهمه الناس فيه فعنى التوكل إذن هو اعتماد القلب على الله فى سلامة الحواس والآلات وتتمام الأعمال مع استيفاء ما يقتضيه العقل والطرق المعتادة المألوفة قال تعالى « وشاورهم فى الأمر فاذا عزممت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » فانظر كيف قدم

المشاورة مع أصحابه ثم العزم على الأمر ثم التوكل
 من هنا نفهم أن الاتكال على الاخبار بالغيب من القوم الجهولى الأخوان أو
 الأحلام ليس من التوكل فى شىء وإلا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس
 وأقربهم الى علم الغيب فكيف أمر بالمشاورة مع أصحابه ثم العزم بعد ذلك
 نعم إن الاخبار بالغيب يقع كرامة لبعض أصفياؤه وهذا لا ينكره العقلاء وهكذا
 الرؤيا الصادقة كما هو معهود معلوم مستفيض ولكن الرؤيا تحتل التأويل ومثلها كلام
 الصالحاء على أن الرؤيا الصادقة تتبعها الكاذبة فتختلط بها وهكذا الكشف الصادق
 يختلط به الكاذب وهكذا الصادق من الناس يختلط بالكاذب وأكثر الموسومين
 بذلك برءاء من الدين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقليل ما هم
 العول عليه فى جميع الأمور إنما هى الآراء الصادقة والعقول وترك الانخداع
 للزخارف والأوهام

كثير من أمراء الاسلام يخذعون بأقوال قوم جاءوا دسيسة من بلاد أخرى
 وافترروا إنما وكذبوا على الله فيكون هؤلاء سبب سقوط الأمة كما حصل فى الجزائر أيام
 الشيخ عبد القادر إذ أرسل الفرنسيون رجلاً سرا فقرأ علوم الاسلام وادعى الصلاح
 واتبعه أكابرهم وانتهى الأمر إلى أنه أخبرهم أخيراً بأن الفرنسيين سيدخلون فى هذا
 العام هذه البلد وكان أمر الله قدراً مقدوراً فانحلت عرى قواهم وهبطت همهم فدخل
 الفرنسيون وسلم لهم العسكر ولبس ذلك الشيخ الفرنسي حقيقة المسلم ظاهراً برنيطة
 ورجع الى بلاده وليست المسألة خاصة بهذا بل وقائعهم كثير جداً أدت الى زوال دول
 وقتل ملوك وما نشأ هذا كله إلا من فهم الشريعة على خلاف وجهها وعلى هذا
 فلتحمل جميع آيات التوكل

من أكبر أسباب إهمال الأعمال ما كثر وشاع من قراءة القرآن لمجرد مجبىء
 الرزق وتكرار السورة مرة أو مراراً على ما يفعل به أهل العزائم لقصد جلب الرزق ولعسر
 أن هذا من أشد الضربات على أمتنا، وذلك أن القرآن مبدأ العلوم ومنشأ الحكم

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون منه الأحكام بمجرد قراءته ثم دونت المذاهب الأربعة في القرن الثاني من الهجرة واشتغل أغلب الناس بالفروع المتفرعة من تلك المذاهب فقام طائفة من الصالحين أخذتهم الحمية على القرآن ووضعوا أحاديث في فضائل السور ليصرفوا الناس عن الخلاف في المذاهب إلى القرآن وحفظه فذكروا له فضائل ذكره الشيخ السيوطي في كتاب الاتقان في علوم القرآن وحكى أن رجلاً وجد أحاديث كثيرة رواها أحد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس فسأله قائلاً أن أصحاب عكرمة لم ينقل أحد منهم شيئاً عنه في فضائل السور مما تذكره أنت . فقال وضعته لينصرف الناس عن فقه أبي حنيفة إلى القرآن وهكذا حكى عن أحد الصوفية في ذلك الزمان مثل ذلك فهو لا قصدوا خيراً فجاء شراً فإن الناس انصرفوا إلى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهم إذا كثرت الأحاديث جاءت للترغيب في ثواب عاجل أو آجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى واتفق الحفاظ على أن أغلب تلك الأحاديث موضوعة أو ضعيفة ولذلك أصبح القرآن يقصد للفظه دون معناه مما جعل الإسلام لفظاً بدون معنى إلا عند الخاصة وقليل مأم وأصبح كثير من القراء يتكلمون على مجرد التلاوة وهذا مخالف للعقول ولما في شريعتنا من وجوب السير على موجب النوااميس الكونية في الأعمال والجرى على مقتضى الطريق المستقيم في كل شيء . وعلى هذا فهذه كلها أعمال تخالف شرعنا وهذا القرآن يجب أن يصرف الناس إليه بالتعقل والفهم ومعرفة ما فيه من الحكم والعلوم

هؤلاء الكاذبون الوضاعون قد أفسدوا في الدين ولم يصلحوا فهم وإن كانت وضعهم لقصد شريف ليسوا بادرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم في وضع الناموس والعلوم فيحق أن يقال لهم (نعم السير على بئس العير) وأولئك هم وقود النار كما قال صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار

الفصل الثالث

توزيع الأعمال على الأفراد

وما حكم الشرع في فروض الكفايات

قدمنا ان الامة كالجسم الواحد وكما ان في الجسم رأسا فيها المخ ومركز الاعصاب السارية في الجسم وفيها أيضا الكبد لطبخ الدم والقلب لتوزيعه والطحال والكليتان والامعاء والمعدة فكل هذه كخزائن فيها جواهر تخزنها أولا الى وقت معلوم ثم ترسلها في البدن تأخذ مجراها القانوني فهكذا للامة ملوك وأمراء وعقلاء وهؤلاء منهم الرأس ومنهم الكبد ومنهم القلب فوجب عليهم جميعا أن يوزعوا الاعمال على الامة لكل ما يليق له وذلك أن الله عز وجل ما خلق الخلق وتركهم سدى فلما جعلهم محتاجين لبعضهم جعل لكل طائفة استعداد الامور خاصة بهم وشاهدنا على ذلك ما نرى من ميل كل انسان لحرفة مخصوصة أو علم على حدته أو غير ذلك مما هو مشاهد معروف ثم اعلم أن فرض العلم قسمان عيني وكفائي فالعيني من الفقه ما اشتهر بين المسلمين معرفته من العامة والخاصة مما نص عليه القرآن والكفائي منه مالا ينص عليه فيه ولم يذكر الا في الفروع أو بعض الاحاديث وهذا هو الواجب على سبيل الكفاية لا على العامة ولا على جميع الخاصة بل بعضهم الذين تقوم بهم الكفاية وهناك علوم وأعمال لا يجب تعلمها الا على بعض الامة كعلم الطب والزراعة والطبيعة والفلك والسياسة والجهاد ورد السلام وصلاة الجنازة وبهذا تعلم ما يقوله كثير من علماء الفروع ان علم الفقه فرض عين على الناس الى حد اجتهاد الفتوى أو اجتهاد المذهب أو نحو ذلك مما تنزه عنه شريعتنا المطهرة فانصرفت اليه أفكار العلماء وتركوا ماعدها مع أن فروض الكفايات كثيرة وهي كل ما تحتاج اليه الامة ومنه جميع الصنائع لاسيما الاسلحة الجديدة والمدافع القتاله وعلوم الطب والزراعة وعلوم الحروب والتجارة والبيطرة والسياحة شرقا وغربا والبرد على مؤلفي الكتب من اعداء الدين وضروب الصناعات المتنوعة والآلات

البخارية وجميع ما يلزم لهذه الحياة مضارعة لمن جارونا من الامم فالإقتصار على فن واحد خروج عن سنن هذا الدين القويم فاذا تركت الامة هذه الفرائض كلها اثمت جميعها وعوقبوا في الدنيا بالخرى وفي الآخرة بعذاب النار كما ذكره الشافعي رحمه الله في الرسالة

باب العلم

(قال الشافعي) قال لي قائل ما العلم وما يجب على الناس في العلم ؟ فقلت له : العلم علمان علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله . قال : ومثل ماذا قلت مثل ان الصلوات خمس وأن الله فرض على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت ان استطاعوا إليه سبيلا وزكاة في أموالهم وانه حرم عليهم الربا والزنا والقتل والسرقة والخمر وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وان يكفوا عما حرم عليهم منه

(قال الشافعي) وهذا الصنف من العلم كله موجود نصا في كتاب الله جل ثناؤه وموجود عاما عند أهل الاسلام ينقله عوامهم عن مضى من عوامهم يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط في الخبر والتأويل ولا يجوز فيه التنازع (قال فما الوجه الثاني) قال : فقلت له ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة وإن كانت في شيء منه سنة فأنما هي من أخبار الخاصة لا من أخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا قال . أفتعدون هذا أن يكون واجبا وجوب العلم الذي قبله أو موضوعا عن الناس علمه حتى يكون من علمه متنفلا ومن ترك علمه غير آثم بتركه أو من وجه ثالث فوجدناه خبرا أو قياسا

(قال الشافعي) فقلت له بل هو من وجه ثالث قال صفه لي واذكر الحجة فيه وما يلزم منه ومن يلزم وعمن يسقط فقلت هذه درجة من العلم ليس يبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطوها

وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يخرج غيره ممن تركها ان شاء الله والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها

(قال الشافعى) وقال فأوجدلى فى هذا خبرا وسببا فى معناه ليكون هذا قياسا عليه فقلت له فرض الله عز وجل الجهاد فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أكد النفي منه فقال جل ثناؤه ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الآية وقال جل ثناؤه فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد وقال جل ثناؤه قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية

(قال الشافعى) أخبرنا عبد العزيز ابن محمد الداروردي عن محمد بن عمر بن علقمة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وقال الله جل ثناؤه (مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَى قَدِيرٍ) وقال جل ثناؤه (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَة)

قال الشافعى فاحتملت الآيات ان يكون الجهاد كله والنفي خاصة منه على كل مطبق له لايسع أحدا منهم التخلف عنه كما كانت الصلاة والحج والزكاة فلم يجز لأحد منهم وجب عليه فرض منها أن يؤدي غيره الفرض عن نفسه لان عمل أحد فى هذا لا يكتب لغيره واحتملت ان يكون معنى فرضها غير معنى فرض الصلوات وذلك أن يكون قصد بالفرض منها قصد الكفاية فيكون من قام بالكفاية فى جهاد من جوهده من المشركين مدركا تأدية الفرض فله الفضل ومخرجا من تخلف من الائم ولم يسو الله بينهما فقال تعالى لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَة

توزيع الاعمال على الأفراد وما حكم الشرع في فروض الكفايات ٢٦٩

(قال الشافعي) فقال أما الظاهر في الآيات فالفرض على العامة فأين الدلالة بأنه إذا قام بعض العامة بالكفاية أخرج المتخلفين من الأثم (قال الشافعي) فقلت له في هذه الآية قال وأين هو منها قلت قال الله جل ثناؤه (وكلا وعد الله الحسنى) فوعد المتخلفين عن الجهاد الحسنى على الإيمان وأبان فضيلة المجاهدين على القاعدين ولو كانوا آثمين بالتخلف إذا غزا غيرهم كانت العقوبة بالأثم إن لم يعف الله عنهم أولى بهم من الحسنى. قال فهل تجد في هذا غير هذا قلت نعم قال الله جل ثناؤه وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا معه من أصحابه جماعة وخلف أخرى حتى خلف على ابن أبي طالب رضى الله عنه في غزوة تبوك فآخبره الله جل ثناؤه أن المسلمين لم يكونوا لينفروا كافة قال فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة فآخبر أن النفير على بعضهم دون بعض وأن التفقه إنما يكون على بعضهم دون بعض وكذلك ما عدا الفرض في عظم الفرائض التي لا يسع جهلها والله أعلم (قال الشافعي) وهكذا كل ما كان الفرض فيه مقصودا به قصد الكفاية فيما ينوب فإذا قام به من المسلمين من فيه الكفاية خرج من تخلف عنه من المأثم ولو ضيعوه معاً خفت أن لا يخرج واحد منهم مطبق فيه من المأثم بل لا أشك إن شاء الله لقوله ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً قال فما معناه قلت الدلالة عليه أن تخلفهم عن النفير كافة لا يسعهم ونفير بعضهم إذا كانت في نفيه كفاية يخرج من تخلف من المأثم إن شاء الله لأنه إذا نفر بعضهم وقع عليهم اسم النفير قال ومثل ماذا سوى الجهاد قلت الصلاة على الجنائز ودفنها لا يحمل تركها ولا يجب على كل من يحضرها كلهم حضورها ويخرج من تخلف عنها من المأثم من قام بكفائتها وهكذا رد السلام قال الله جل ثناؤه وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم القائم على القاعد وإذا سلم من القوم واحداً جزأ عنهم وإنما أريد بهذا الرد رد القليل الجامع لاسم الرد والكفاية فيه لثلاث يكون الرد معطلا ولم يزل المسلمون على ما وصفت

منذ بعث الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا الى اليوم يتفق ويشهد الجنائز بعضهم ويجاهد ويرد السلام بعضهم ويتخلف عن ذلك غيرهم فيعرفون الفضل لمن قام بالفقه والجهاد وحضور الجنائز ورد السلام ولا يؤثمون من قعد عن ذلك اذا كان لهذا قوم قأمون بكفايته اه كلام الشافعي رحمه الله

وفرض الكفاية مهم يقصد حصوله من غير نظر بالذات الى فاعله أى يقصد حصوله فى الجملة فلا ينظر لفاعله إلا بالتبع للفعل ضرورة أنه لا يحصل بدون فاعل وهو يشمل الدينى والدنيوى كالحرف والصنائع وكل ما ذكرناه مما يلزم للمدنية الحاضرة وها أنت ذا علمت أن الشافعى رضى الله تعالى عنه قال : ان الاثم على القادرين جميعا عند الترك وأنت تعلم أن القدرة مختلفة إذ ليس أحد العقلاء الذين لاجاه لهم كعاقل عظم جاهه كالمملك والأمرأ فالأمة الآن كلها مطالبة بجميع الأعمال اللازمة للمدنية الحاضرة ومباراة الارو باويين والملوك أولى بالوجوب وأكثر المسئولية عليهم هم والعلماء الذين لا يعظون الناس بذلك ولا يفهمونهم واجباتهم ولا يظهرون لهم أن هذه فروض كفايات فالحق والحق أقول أن العلماء لو علموا هذه الحقيقة ونادوا بها فى الجماهير لهرع الناس الى تلك الصنائع وعدوها من جملة ما يثاب عليه فى الآخرة ولا أصبح الشرق يضارع الغرب ويفوقه

وها أنا ذا أدعوا بكتاب الله وسنة نبيه وكلامه ملوك الاسلام وأمرأه وعلماءه الى الى تنبيه أغنياء الأمة وعقلائها الى جميع الصنائع وأن يعطى كل ما هو له أهل من تلك الصنائع حتى لا نحتاج الى ثوب ولا إبرة ولا فأس ولا قدوم ولا مدفع ولا غيرها من الخارج وما دمنا نحتاج الى أصغر شيء كالكبريت الذى يوقد به فنحن فى اثم وخرج عظيم ومحاسبون يوم القيامة معذبون فى الدنيا بالجهل والتأخر وفى الآخرة بالعذاب المهيّن

والذى أراه فى ذلك أن يشغل ملوك الاسلام وعلماءه الطوائف كلا بحرفة تنفع الأمة فيوزعون على كل واحد من مشايخ الطرق ما يقدر على تحصيله فلقوم الطب

والجراحة ولآخرين الترغيب في الصلاة ولآخرين الترغيب في الزكاة ولآخرين الترغيب في الحج وغيرهم للحث على صلة الأرحام ولعيرهم وجوب الاتحاد في المسلمين وهكذا ويشنون العلماء لارشادهم فيحضونهم على الصنائع المختلفة والآلات البخارية فهذا كله صار الآن من فروض الكفايات الواجبة لمباراة الأمم المجاورة ومساقتها ولا ينفع أمة الاسلام أكثر من بث النصح والأرشاد من أهل العلم ولا يوقظ أهل العلم إلا الحكماء المرشدون والعلماء الكبار لذلك يجب على كل حكيم أن ينصح العلماء ويدلهم على تلك الطريقة المثلى ليشتهر القول بين طبقات المسلمين ولا يتسكفون الفقه وحده وضياح الزمن فيه فأنك قد رأيت من كلام الشافعي رحمه الله تعالى أن الواجب فيه قليل جدا وهي الأمور العامة ولا تحفى على أحد أما ما عدا ذلك ففرض كفاية وفروض الكفاية كثيرة جدا إذ هي دينية ودينية ومن الدينية الوعظ والإرشاد لفنون العبادات والذي أراه في نصيحة الأمة بالقرآن أن يحفظ كل ما ينط به الوعظ في باب مخصوص آيات يعظ بها فية كآيات الجهاد فيه مع فهم معناها وكآيات الصلاة والحج وبر الوالدين والأخلاق والحلم وهكذا من يرشد لتعليم العلوم النافعة كالطبيعيات يحفظ ما يشير لتلك العلوم منها وسنجعل لهذا بابا نذكر فيه ما يلزم في ذلك

ولما كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وجب على ملوك الاسلام والأمراء أن يتوصلوا لهذا الغرض بعمل المعارض الصناعية في بلادهم ودفع مكافأة والقاب شرف لمن يبرع في فن من تلك الفنون دينية أو دنيوية ليقوم الناس بتلك الواجبات ويم التعليم في أنحاء بلادهم وتنتشر انتشاراً تاماً والاسلامية الآن في حاجة شديدة الى التنشيط فكل من قام بعمل مثل هذا قام مقام نبيه صلى الله عليه وسلم في التأدية على قدر اجتهاده ألا فليغتنم هذه الفرصة العلماء والأغنياء والأمراء (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين)

الفصل الرابع

العلوم التي يجب تحصيلها والصنائع

ذكرنا آنفاً ما قاله الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه وعلماء الأصول من وجوب جميع الصنائع والعلوم على الناس من باب فرض الكفاية فأى أمة قصر رجالها وسكت علماءها على بعض الفروض دون بعض فلتبشر بأنها تعذب مرتين مرة في الدنيا بالتأخر ومرة في الآخرة بالعذاب المهيّن ولعذاب الآخرة أشد وأبقى فان عذاب الدنيا قاصر على الجسم الفانى وعذاب الآخرة على تلك النفس الانسانية التى لها الدوام واعلم أن الأمم فى الدنيا لها وجهتان وجهة الأفراد ووجهة الأمم فوجهة الأفراد الترقى الى عالم آخر ووجهة الأمم ترقى مجموعها ليحوز ابناؤهم والمنتسبون اليهم شرفاً وراحة بين الأمم وهاتان الوجهتان عليهما مدار الحياة واليهما يعمل العاملون وفيهما تنافس التنافسون وتغلب الوجهة الأولى على المتدينين والثانية على السياسيين وبينهما ارتباط شديد ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فجميع عقلاء الأمم انما يسمعون فى الحياة لأمر دائم إما بدوام الأشخاص وذلك بالرقى لعالم أرقى وأما بدوام الأمم ببقاء الأجيال المتعاقبة حائزة الكمال فى المدنية والحضارة والأول هو بقاء الشخص والثانى بقاء النوع ولعمري أن كلا منهما يخدم الآخر وقد جمع الأمرين الحكمة المشهورة اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً . وأقرب منه قوله تعالى فمن الناس من يقول رَّبَّنَا آتِنَا فى الدنيا ماله فى الآخرة من خلاق وهؤلاء هم الطبقة السفلى من نوع الانسان التى عبرنا عنها بالأمم الجاهلة ومنهم من يقول رَبَّنَا آتِنَا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وهؤلاء هم أهل المدينة الفاضلة التى قدمنا شرحها وأما الذين يقولون رَبَّنَا آتِنَا فى الآخرة حسنة لافى الدنيا فليس لهم ذكر فى الآية وهم الأمم المنحرفة الذين قدمنا ذكرهم وقارناهم ومن معهم بمراتب الحيوان وذكرنا أنهم هم الذين يقولون

مت بالارادة تحى بالطبيعة فهو لاء منحرفون لأهم أزدوا القصد بلا وسيلة ولذلك جاء شرعنا بالدين والدنيا معاً لأنهما ممتزجتان والمقصد لا يستغنى عن الوسيلة وإلا هلك الأصل والفرع

وانما لم يذكر هؤلاء المنحرفون فى الآية لأن القصد من التنزيل أن يكون ضد الطبع ليتعادلا فدم من اقتصر على الدنيا ليكون ضد الطبع ومدح من اعتدل فيهما لأنه الكمال (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وأما أولئك فلم يذكرنا لأن القصد سوق الأفكار إلى الآخرة وذلك ينافيه فما أعجب حكم هذا الترتيب ثم تأمل كيف ذكر حسنة الدنيا ثم أتبعها بحسنة الآخرة ليعرفنا أن الأولى سلم للآخرة ولنقتد بتلك الحكم الزاهرة ونقدم حسنة الدنيا فنقول حسنة الدنيا عبارة عن كل ما يلزم لها من مآكل ومشرب وتزواج مما به بقاء الحياة فيها والراحة الممكنة مع حسن النظام

ولهذه الحسنة علوم هى بمنزلة الغذاء وأخرى بمنزلة الدواء فالأولى تشمل الصنائع والزراعات والتجارات

فكل صنعة جلب القوت كالزراعة والخبز وما تحتاج إليه من صناعات البخار التى بها السقى والحصاد والدرس والتخليص والطحن والعجن والنخل واجبة ولكل من هذه آلات وعدد يجب الاعتناء بها وعملها وقيام المسلمين بها اذ لا يمكن الحياة الدنيا فى هذه الأزمان إلا بها وهكذا الآلات والعدد التى بها الملابس كالآلات الخليج والنسيج والخياطة وغيرها من آلات البناء ولا بد لهذه كلها من قلاع وحصون وسلاح فاذن لابد من علوم الصنائع التى بها عمل الأسلحة النارية المستحدثة

هذه هى العلوم التى تعد لحسنة الدنيا كالغذاء أما العلوم التى هى كالنواء فهى العلوم التى بها يكون عدم التنازع فى الأموال كالتبعية والشراء وقسمة الموارىث والهبات والصدقات والمناسكات وعدم التنازع فى النساء بذكر أحوالهن الشخصية مع الرجال من الطلاق

والرجعة والعدة والخلم وغير ذلك وبها يكون دفع المفسدات لها كالعقوبات الزاجرة كقتال الكفار وأهل البغى والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات فكل هذه تزجر عن انتهاك حرمة أصحاب الأموال فهذه كلها في علم الفقه الذي هو في الحقيقة كاللدواء وتلك الصنائع الدنيوية كالغذاء وأى أمة استعملت الدواء وتركزت الغذاء مات احساسها فكما يموت من يعيش على أكل الصبر أو يحى حياة لا يموت فيها ولا يحى فهكذا الأمة التى تقتصر على علم الحدود والأحكام ولا تعرف سواها ولمعمرى إذا ضعفت المكاسب وقلت حيل الدفع فأين المعاملات والأحكام والحدود وإنما جاء الشرع بهذه العلوم لأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى تعمير الأرض فجاءت الشرائع تهديهم إلى مابه تعاونهم وتعاضدهم فأما إذا وكلت إليهم وجاء دور جديد للأحوال المعاشية فإنه يأمرهم باقتحام الأخطار لاستندار الرزق من هائل الغيث ونابت الزرع

وكما إن علم الطب يراد لاصلاح الجسم الموجود فهكذا علم الفقه جاء لاصلاح أمة تعيش ولها ما يكفيها فى الحياة فعلم الطب لاصلاح أجسام الأشخاص وحدود الفقه وأحكامه لاصلاح جسم الأمة وتعلم العبادات خصوصية أخرى فى تشويق النفس إلى مدبر الكون فهل يعقل أن يحى جسم ميت فاذا ماتت الأمة بعدم مايفذها وضعفت معداتها فى الحياة من الأغذية التى بها حياتها والأسلحة التى بها تدافع فمن يصح بعلم الطب ومن تجرى عليه نواميس الشرع بل يموت كل منهما بموت الأمة التى هو فيها ومن هنا تفهم قول الشيخ الغزالى (ان العلوم العقلية بمنزلة الغذاء، والشرعية بمنزلة الدواء) هذا هو الذى به تعمّر المدن فى الدنيا وتبقى الأجسام محفوظة إلى وقت معلوم ومحصلها أمران مابه حفظ الأجسام من الداخل بالتحليل والتركيب وما يأتى لها من خارج من عوارض الجو ومنازعات نوع الانسان وقد قدمنا مافيه الكفاية فى ذلك كله

أما مابه صلاح العقول فهى علوم الأخلاق والعبادات وجميع مابه كمال النفس الانسانية من العفة والشجاعة والحكمة والعدالة وهذه الأربعة هى أمهات الفضائل التى

بها يكون الانسان كاملا فبالعفة والشجاعة يتخلى عن الرذائل وبالحكمة والعدل يتحلى بالفضائل وتحت الحكمة معرفة جميع العلوم وهي لا تكون إلا لحكماء الأمة وكبرائها الذين رضوا بالراحة الفكرية عن الشهوات المحرقة ولهم السلطان على علماء الأمة ينصحونهم ويرشدونهم ويعين على هذه معرفة مآل الانسان ودار الآخرة وصفات الإله وأفعاله فترتبط النفس بمبدع الكون ومن هذا عرفنا مابه عمارة الأرض وبقاء الأجسام وما به تنوير العقول وترقيتها .

وكل من علوم القسمين لا تأتي وحدها بل لابد من وعاظ يهدون الناس إلى تلك العلوم ويشوقونهم إلى حفظها والحرص عليها بالترغيب والترهيب وهؤلاء يحتاجون إلى فن القصص والروايات الأدبية التي أسها قصص القرآن الشريف بذكر أحوال الانبياء والجبارة والصالحين والكافرين والأمم البائدة الهالكة التي تركت عمارة الأرض للمصادفة فأهلكهم الله بذنوبهم وسنعد لهذا وأمثاله بابا خاصا في هذا الكتاب انشاء الله تعالى وهؤلاء الوعاظ يجب أن يتحروا مواضع النقص في الأمة فكلما رأوا ثلثة أسرعوا إليها فنصحوا ورغبوا فيها ففي مثل هذه الايام يذكرون أن المحبة واجبة بين جميع المسلمين ويعرفونهم أحوال الأمم المجاورة وكيف حصل تفرقنا ويوردون الأحاديث والآيات ويذكرونهم بالصنائع والحرف ويعرفونهم أن لهم على ذلك أجرين أجرا في الدنيا وأجرا في الآخرة وهكذا ولا بد أيضا من علماء الكلام وعليهم أن يكون علمهم على حسب ما اعترى الدين من التشويش فأما علم الكلام الذي عندنا الآن فالصواب تحويره وتهذيب الذي في الامة الآن فليس له لزوم بالمرّة بل الاشتغال به حرام على المسلمين فان الدين جاءه أعداء كالسيل العرم انحط عليهم من بين أيدينا ومن خلفنا وما بين ذلك فأخذ القسيسون يؤلفون المطاعن على الاسلام وهكذا القاصرون في العلوم الجديدة يظنونها مخالفة له فوجب أن يكون علماء الكلام هم الباحثون عن نفي الشبهة الحادثة وتطبيق العلم على الدين بقدر الشبهة بلا زيادة ولا نقص إذا علم الكلام ليس إلا سلاحا يقاتل به المشوش للأذهان كما إن الحصون والقلاع والأسلحة يدافع

بها المغيرون على الاجسام والبلاد وكما أن السلاح ليس لنا به حاجة إذا لم يكن عدو فكذلك علم الكلام ليس لنا به حاجة إذا لم يكن مبتدع وكما أن السلاح يجب أن يكون في كل زمن بحسبه ويتنوع على حسب تنوع أسلحة العدو فهكذا علم الكلام يتنوع على حسب التشويش الحادث على الدين فالوعظ والسلاح وعلم الكلام كلها أدوية لأمراض أجسام الأمة فكما أن لكل مرض علاجاً فهكذا تعالج الأمة بالوعظ وتصنع الأسلحة والحصون وتؤلف علم الكلام على حسب الحوادث الطارئة عليها وكما أن من يداوى جميع المرضى بدواء واحد يعد جاهلاً كالذي يكون مريضاً ويستعمل الرقيا مع جميع الناس فكذلك من يعظ الأمة الإسلامية كلها بوعظ واحد ويظن أنه ينطبق على جميع الأزمان والامكنة أو يقتل كل عدو بسلاح واحد فهو غر جاهل أو يدرس علم الكلام القديم الذي جعل دفاعاً لمبتدعة العصر الاول لهذا العصر فكذلك يعد قليل العقل ويكون كالذين يكتون وقد عدم رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلين في غير المتوكلين إذ ليس القصد مسألة الكي وحدها بل كل أمر يؤخذ بلا فكر ولا روية ولا نظام بل يقال كما وجدنا عليه أباءنا فهو خارج عن التوكل وبعبارة أوضح كل مالم يوصل الى المقصود عقلاً وعرفاً فهو خارج عن التوكل وما أشبه وعاظنا وعلماء كلامنا وصانعي أسلحتنا بشعرائنا فكما نرى أولئك يدرسون ويصنعون ويعظون كما كان الأولون فهكذا ترى الشعراء إلا قليلاً منهم يرجعون للتشبيه البدوي القديم ولا يذكرون ما يرون من جمال المدنية والحضارة ومحاسن الطبيعة وجمال ما يشاهدون في مناهج الكون فاذا سرى التقليد والانحطاط في أمة سرى في كافة شعرائها وخطبائها وعلمائها (اجمال وقد كره)

واجمال القول أن العلوم إما أن تكون أغذية أو أدوية وهما قسمان عقلية وجسمية وكل منهما تخلية وتحلية فهي ثمانية أقسام .

(١) فالأغذية الجسمية هي علوم الزراعة بما يتبعها من جميع العلوم الطبيعية وهي فروع كثيرة كالكيمياء وعلوم الحيوان والنبات والبيطرة والبيزرة وغيرها وكل

فرع ربما تفرع إلى فروع بتقديم العلوم وتمدين الأمم

(٢) وعلوم الأغذية الجسمية التي للتخلية هي علوم سبك المعادن والأسلحة الجديدة والعدد من المدافع والسفن الحربية فهذه كلها لقتال العدو وللمحافظة على الأجسام من الخارج وأما التي قبلها فهي للمحافظة عليها من الداخل ومرددة بالداخل ما لم يكن من اغتيال نوع الإنسان فيدخل فيه المساكن والملابس واتقاء الحر والبرد وغير ذلك

(٣) وأما علوم الأغذية العقلية التي للتخلية فهي علوم الحكمة النظرية وهو لمعرك يبنى على أساس علوم الأغذية الجسمية فتتري علماء الحكمة العالية والفلاسفة الإلهية يبنون براهينهم على ما رآه علماء الطبيعة والفلك ويخرجون من المحسوس إلى العقول ويدخلها علوم السنة والقرآن بل هما مبدأ لجميع الأقسام إما صريحاً وإما إشارة وإما علوم اللغات والبلاغة ونحوها فهي مقدمات ليست إلا للتوصل بها فإلتعمق فيها جهول ولقد صرفنا شطراً كبيراً من حياتنا فيهما تقليداً ثم اتضح لنا الحق بعد حين وعرفنا أن الأمم حولنا يعرف الواحد منهم لغة واثنين وأربع لغات في أزمان قليلة ونحن نمضي حياتنا كلها في اللغة العربية وهم أعلم منا بها فباحسرة على أمة لم تجرد من يرشدها ويقيمها من رقدتها ويوقظها من غفلتها وكتابتنا هذا إذا تأملته وجدت فيه زبداً من علوم الحكمة والفلسفة العالية التي هي المقصود من حياتنا

(٤) وعلوم الأغذية التي للتخلية العقلية هي علوم الأخلاق الدالة على الطهارة من الشجاعة والعفة والعبادات

(٥) وعلوم الأدوية الجسمية التي للتخلية هي علم الطب ومن العجيب أن هذه الفن يحتاج إلى فنون أخرى من الطبيعة بل يحتاج إلى علوم الطبيعة بأكلها كما أن الفلك يحتاج إلى علوم الرياضة أجمعها وكأن الأمراض وتقدير الأزمان يحثنا على قراءة جميع علوم الأرض والسماء لنعيش في رفاة وراحة وتري الطب يدعو إلى كل علم يحتاج إليه علماء الزراعة ولو إجمالاً فكانه يشير إلى أنكم تتداوون بهذه العقاقير وهي

تداوى أجسامكم ولا بقاء لها إلا بهذه العلوم كما كانت معرفة الطب تتبع علوم الطبيعيات المحتاج إليها الانسان فهكذا ترى علماء الالهيات يحتاجون لجميع العلوم ولو إجمالاً لأن مدبر الكون يحب ترقينا في جميع العلوم لنعيش في راحة ونموت مع علم وكمال وهذا هو السر في نزول الأنبياء بالتوحيد ثم يتركونهم وشأنهم لتوقظهم الموقظات إلى معرفة هذا العالم بعقولهم وأخذ ما ينفعهم وترك ما يضرهم في أجسامهم وعقولهم حتى تقوى مداركهم فالاله هو نهاية ما ترمى إليه المدنية والحضارة وإن جهلها أغلب الناس فالأنبياء يحثون والأمم يتراكمون في ميادين الحياة سعياً وراء الارتقاء وتراهم يتجادلون ويتحاربون باسم الدين وهذا هو مقصود الرب تبارك وتعالى فجعل نفسه موضوع الجدل والنزاع ليدوم الترقى بدوام الحروب ولقد كاد القلم يخرج بنا عن جادة ما نحن فيه فلنرجع ونقول

ومن العلوم التي للتخلية الجسمية علوم الحرب التي يدرسونها في المدارس الحربية (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص)

(٦) والعلوم التي هي أدوية جسمية للتخلية علوم المواقيت والفلك والهيئة فهي زينة للأمم وكمال وجمال ما عدا الضروري منها كالأوقات المعروفة فهي من الضروريات لا الكماليات

(٧) والعلوم العقلية التي هي أدوية للتخلية فهي علوم الكلام التي تكون في كل زمان بحسبه

(٨) والعلوم العقلية الدوائية للتخلية فهي المواعظ التي يدخلها جميع قصص القرآن ومواعظه وأمثاله

وهذه هي أقسام العلوم الواجب تعلمها على المسلمين فرض كفاية وأول وزر يكون على الملوك والأمراء والعلماء والذي أعلمه أن أغلب العلماء لم يتيقظوا لهذا ولم يعرفوه ولو عرفوه لعرفه الأمراء ومتى عرفه الأمراء تقدمت الأمة وما الأمراء إلا أفراد من من الأمة لا ذنب عليهم وحدهم وإثمهم منها ولهذا ورد (كما تكونوا يولى عليكم)

فأى أمة أراد الله تعالى إيقادها من الضلال تنبه حكمائها أولاً ثم نبهوا علماءها وهم يرقون أفكار أمرائها وعامتها، فليُنظر حكماء الاسلام وعليه إلى ما قلناه ولينبهوا من قدسهم وليقوموا من نومهم ليكون هم أجور النبين ونحيي أممهم التي يحيى ذكركم بحياتها ولا يظن العلماء أن علوم العربية والتفسير والحديث والفقه التي يموتون فيها ويحيون تنفعهم إلا بالعمل وتحريض الأمة على جميع تلك العلوم التي أشرنا إليها وإلا ماتت الأمة وعلمائها فان السنة والقرآن قد حرصا على جميع هذه العلوم كما أوضحناه في غصون كتابنا هذا ألا فليحي العلم فلتحيي الأمة فليحي الدين فليحي الوطن فيجب على العلماء والحكماء والأمراء أن يحثوا الناس على جميع العلوم وإلا ذهب ربحهم او خسروا الدنيا والآخرة

فليت شعري لم ترك الأمراء الخطب يوم الجمعة ولم تركوها للجهال الفقهاء الذين لا يعقلون ألم يأن لكم أيها الأمراء أن تقتدوا بالخلفاء الراشدين ألم يأن لكم أن تقتدوا بالخلفاء الأمويين والعباسيين ألم يأن لكم أن تقتدوا بخطباء أوربا الذين يقومون على منابر الخطابة وتهزلهم المنابر فتكسى ورقاً خضراً . ساء ما وصلنا إليه ألم تعلموا أيها الأمراء أن خطبة الجمعة والعيد لكم وحدكم لتقودوا أممكم إلى مصالحهم في الدنيا من الصناعات والتجارات والزراعات وكذا الآخرة أهكذا دين الاسلام تيقظ الناس ونحن نيام

ألا فلتحي الأمة فليحي الوطن العزيز فليحي الدين فليحي العلم فلتقم الأمة فلتتقدم الصناعة أنتم أيها الحكماء ويا أيها العلماء تقودون الناس في الدنيا وستقودونهم في الآخرة فان كنتم الآن منحطين فالأنحطاط ما لكم في الآخرة وإن كنتم راقين فمر ما لكم في الآخرة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة سنة وقنا عذاب النار

تتمة هذا الباب

قد علمت ان العلوم قسمان أغذية وأدوية ولا بد منهما في بقاء الأمة إذ الأغذية بغير أدوية يتبعها ضرر وإفراط وتفریط فلا تجد ما يوقفها عند الحد فيكون هناك الضرر

العظيم والأدوية بلا أغذية مهلكة وباجتماعهما الصلاح وبعدمهما الهلاك
ولكن الاقتصار على الأغذية أقرب الى الحياة وعلى الأدوية أقرب الى الموت
وعلى ذلك ترى فرنسا وما شاكلها ممن أعرضوا عن الدين أحياء حياة فيها مرض والشرقيين
التاركين لعلوم العقل أقرب الى الموت فهذا عرفت منشأ عمارة الأمم وخرابها وارتفاعها
وانخفاضها وهى أربعة أقسام لا غذاء ولا دواء وهؤلاء هلكى غذاء لا دواء وهؤلاء
مرضى كـبعض الأوروبـاء وبين دواء لا غذاء وهؤلاء أقرب الى الموت كـبعض الشرقيين.
غذاء ودواء وهؤلاء أحياء وهى المدينة الفاضلة التى اليها يصل النوع الإنسانى وقد
بلغنا إن بلاد سويسره بلغت هذا الحد

الفصل الخامس

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه

فى هذه الأيام

أمة الاسلام ما حط بها فى مهواة الدمار إلا طرق التعليم منذ قرون متطاولة وكم
أرشدهم المرشدون وأفادهم الحكماء ولا سميع ولا مجيب لقد كان أهل الغرب (شمال
افريقيا) فى الازمان الغابرة أيام ابن خلدون لا يدرسون إلا القرآن وعلم الرسم الخاص
به واختلاف الروايات لا يزيدون عليه شيئاً فلا علم ولا عمل ولا صناعة ولا دين
ولا دنيا فاذا أتم الطالب القرآن وقف وقوفا تاما عن العلم وإن انقطع عن اتمامه انقطع
عن كل خير فى الدنيا والآخرة وزاد أهل افريقيا (تونس) شيئاً من الحديث ومدارسة
بعض قوانين العلوم ولكنهم هم ومن حولهم لم يكونوا لينالوا حظاً من ملكة الانشاء
إذ القرآن بالغ حد الإعجاز فلا يقدر البشر على تقليده وقوانين العلوم التى تقرأ فى
لأفريقية وغيرها عباراتها نازلة عن البلاغة

ولما رأى علماء الأندلس ضعف العلم فى تلك الاصقاع المغربية زادوا على تعليم

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الأيام ٢٨١

القرآن الشعر والأدب والترسل وعلوم العربية والخط والكتابة فكان ذلك يفيدهم بعض الأفادة في الإنشاء

وكان تعليم أهل المشرق قريباً من تعليم أهل الأندلس وتردد ابن خلدون رحمه الله تعالى في أى العلوم عنايتهم به أكثر وقال ان علماء الأندلس عنايتهم بالشعر وقواعد العربية أكثر من عنايتهم بالحديث والتفسير وقد انقطع إذ ذاك سند تعليم العلوم بتلك البلاد وقد دخل النصارى شرقى الأندلس فهاجر أهلها الى أفريقيا وقال . وكان لأهل المشرق عناية تامة بالخط وهذه هى طرق التعليم فى الأزمان الغابرة . وأنت ترى إن طريقة التعليم فى كتاتيب بلادنا تشبه أحط درجات التعليم . وهى تعليم أهل المغرب فى عهد ابن خلدون قاصرة على تعليم القرآن ولقد تأفف منها بل ومن جميع طرق التعليم فى ذلك الحين القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته (كما قاله العلامة ابن خلدون) وأرشد الى طريقة غربية فى وجه التعليم وعاد فى ذلك وبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال لأن الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يأخذ الصبي بكتاب الله أول مرة يقرؤه ولا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم عليه منه ثم قال ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علماً إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بمجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله تعالى وقال العلامة ابن خلدون وهو لعمري مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهى أملاك بالأحوال هذا ما يخص ما قاله العلامة ابن خلدون رحمه الله وما نقله عن أبى بكر رحمه الله تعالى عند الكلام على تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه وأنا أقول إلا فاحضراً أيها العالمان اليوم وانظروا ما نظرت واسمعا ما سمعت تجدا الحال أسوأ مما رأيتمو تجدا الطريقة الدنيا وهى طريقة أهل المغرب عندنا واندرست طريقة الأندلس بذهاب دولتهم وهكذا الطريقة

الافريقية والمشرقية إلا فاحضر يا ابن العربي وسر معي في الكتاتيب واقرأ (كذلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم)

ولقد اتفق لي أثناء تأليف هذا الكتاب أنني رحلت كما رحلت في بعض أرجاء القطر المصري لمشاهدة الكتاتيب في القرى ولقد كان هذا من عجيب الاتفاق إذ لم أكن عند ابتداء تأليف هذا الكتاب مفكراً فيه ولكن أبى الله إلا أن يظهر العجائب ويتم ما أراد من الكلام على نظام هذه الأمة مع نظام الكون فلو رأيت ثم رأيت أكوأخا^(١) يعلوها التراب وتأتيها الشمس والرياح من كل جانب كأنها جحر ضب خرب ليس فيها درس الألفاظ القرآن والعقل في معزل عن الدنيا والآخرة وصار المسلمون قاطبه لا هم لهم إلا ألفاظ ظانين أن البركة في مجردها وأما السمع فالأغلب عنه معزولون ألا فلتحضروا أيها العالمان وتريا ما أحدث الدهر بعد كثرتنا تحقيق آية اليهود إذ قال فيهم ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون (أى يقرؤون ولا يفهمون وقوله فيهم) (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) ولقد بلغنا أن تعليم المسلمين في غالب الاقطار على هذه الشريطة من شرق وغرب الاندلس إذ لم يبق لها وجود بل صارت بلاداً بدل دينها كفرأ وأحلوا قومهم دار البوار .

وأما علومنا ومعارفنا فلا نشرع فيها إلا بعد حفظ القرآن إذ يمضى شطر من حياته ويمضى زمن غرس بذر الأخلاق فيشب الطفل على الجبن والخوف والهلع وسلب الارادة بهديد المعلم وضر به، فاذا قيض الله له من يعلمه لم يجد ذلك العلم إلا يسيراً مع التكلف في زمان الفتوة والكهولة وقلمنا تصلح الأخلاق بعد زمان الصبا

ويا ليت تعلمنا العلوم بعد ذلك على طريقة حسنة كافلة بالنجاح وإعنا زاد الأمر

(١) كان هذا قبل طبع هذا الكتاب ولقد ترقى كتاتيبنا رقياً حسناً فحمد الله حمداً كثيراً بهمة اخواننا في نظارة المعارف

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الأيام ٢٨٣

وكثرت الشراح والحواشي والتفاسير واختلطت المذاهب وتشعبت الفروع في النحو والصرف .

وصار علم البلاغة إسمًا لا مسمى له إلا السعد وشرحه وحواشيه التي هي عبارة عن كلام معصي كاه قلدت في الآلات بغير وصول لم تصود من فهم القوائد والرسائل وكلام العرب والقرآن والحديث بل إذا نظرنا لم نرى إلا قواعد مجردة كقواعد المنطق فلا تطبق له على المقولات ولا للمعاني والبلاغة على الكلام وإن حصل التطبيق فأنما يكون بمجرد الاشكال والجواب ويقرأ علم الفقه والكلام والأصول والتفسير والحديث والاعتناء بالثلاثة الأول أكثر وبالأخيرين أقل بل تارة يقرأ للتبرك وتارة تطبيقًا على العلوم العربية لاسيما النحو

ولقد صدق ظنكم وأن العادة حاكمة على الناس وطريقة التعليم رديئة جدًا صعبة لا توصل إلى المقصود فإذا حضر أحد من الريف أُنْزِمَ بحفظ إعراب البسملة ووجوهها التسعة مع أنه لا يدري ماهو الإعراب وما هي الصفة وما هو الموصوف، وبالجملة فالعناية على وجه العموم متصرفة للآلات وهي قواعد اللغة لا اللغة نفسها إذ هي ذهبت ريمها ولقد وقع الاسلام كله الآن في هاوية الجهل ولكن جاء الغربيون وهم أهل أوروبا يسيلهم الجارف على الشرق ويخيلهم ورجلهم وشاركوا الشرقيين في الأموال والأملأك ووعدوهم وما يعدوهم إلا غرورًا وشوا طرق تعليمهم في بلاد المسلمين فنبه بعض علماء الأزهر لهذه الطريقة الحديثة وأشار بعضهم بتسهيل التعليم وادخال علم الحساب والهندسة وتخطيط البلدان . وهام العلماء الآخرون تارة يثبتون وتارة ينفون وقد أخذت روح العلم تدب فيما بيننا

وهكذا فتحت في مصر مدارس يتعلم فيها العلوم التي بها نظام الحكومة وأسست الجمعيات ومدارس لتعليم الفقراء وأظنها أحسن طريقة نعلمها فيعلمون شيئًا من القرآن مع معناه والخط والحساب والاملاء والآداب الاسلامية والعبادات ومحاسن الأخلاق وصنعة يعيشون بها وقواعد العربية والانشاء والترسل .

وقد فاقنا في ذلك كله المدرسة التي أنشأها خديو مصر عباس باشا الثاني في هذه الأيام وجميع المدارس شرقية وغربية يعلمون علوماً متعددة في أوقات منتظمة ونجاحها ظاهر . فخلط العلوم لا يفسر بطريقة التعليم وهذه هي طريقة ظاهرة النجاح ولو أن المسلمين في جميع الاقطار قاموا بأعمال مثل هذه في التعليم لارتقى الاسلام في أقل من نصف قرن ولسكن ما دام الحال على هذا المنوال بقى الانحطاط إذ المتعلمون ما تخرجوا في صغرهم إلا على أيدي هؤلاء الجهال الذين يقرأون ما لا يعقلون فيشيب الانسان المتعلم ولم يتفكر يوماً في حالة الأمم الاسلامية ولا حرية له ولا ذنب عليه وإنما الذنب على طريقة التعليم في الصغر التي ضربت عليه بالنلة والمسكنة

فها نحن الآن ندعو إلى نسخ هذه الطريقة وأن تؤلف كتب غير هذه التي بأيدينا في جميع الفنون وتعلم جميع العلوم كما ذكره الغزالي في الاحياء ويرشد الناس إلى الصناعات حتى نصل إلى المدنية الصحيحة

ولقد يجمع كلامنا الآن أكثر من زمان ابن خلدون فاننا أحيط بنا من كل جانب وذقنا جزاء ما فرطنا في الكتاب وقيل ذوقوا ما كنتم تكسبون ، ولنترك ما وجدنا عليه آباءنا ولا نكون كالذين قيل لهم (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل ننبئ ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ولقد صار قراء القرآن في هذا الزمان تضرب بهم الأمثال في سوء الأخلاق والفقر إذ هم مجردون عن كل دين ودنيا في الغالب إلا من قيض الله له من يدخله الجامع الأزهر فقد يرقى إلى طبقة العلماء ولكن يبقى محكوماً بعادة التدريس المضرة ولقد دار الحديث بيني وبين أحد مشايخي بالجامع الأزهر أثناء تأليف هذا الكتاب فقال بلغني انكم تلومون العلماء على ترك العلوم الطبيعية والتاريخية والفلكية وغيرها ، فقلت له نعم فقال أليست الطبيعة كفرأ ألا تتذكر انهم نصوا على ذلك وأنت حضرت في الأزهر عندنا هذا الكلام فقلت نعم ولكن علمت ان هذا ليس له وجود إلا في الورق وتحققت بعد ذلك من كلام أكا بر علمائنا رحمهم الله تعالى كالغزالي وغيره انها

أعظم طريق للتوحيد بل صرح القرآن بأن معرفة الكون من طبيعة وفلك وغيرها هي الطريقة المثلى للوصول للخالق بل العالم هو الذي يعرف تلك العلوم مع الخدوبها حذو الدين وسردت له أدلة من هذا القليل وقلت له لقد ألفت في هذا الموضوع نفسه كتباً وأوردت له منها أشياء مما في الذاكرة فرأيت بوارق السرور تلمع في جبينه واستبشر فسرني ذلك وعلمت ان الأمة تحتاج إلى من يرشدون العلماء إلى مابها صلاح الخلق ولقد وجدت نفسي مغرمة بهذا العمل مع علمي بقصور باعني ولكن أودى ما في عنقي من الأمانة لا دافع بها عن نفسي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ثم قال انهم يذمون طريقة التعليم فهل توافق على ذلك قلت نعم فقال وكيف ذلك أليس التعليم عندنا يعلم فهم العبارات الصعبة فقلت له لم نخلق لذلك فهو ضياع للحياة في فهم اصطلاح بعض الأدمين وهم كثير من المؤلفين مع البعد عن المقصود الأصلي ولا ذكر كياسيدى بعارة منك في الدرس ألم تقل لنا (من اتبع الحواشي ما حواشي) فقال نعم فقلت وهل تركت الحاشية فقال لا فقلت له وما المانع من اتباع الحق فسكت فقلت له أجب أنا ان العادة جرت ان الطلبة لا يتعلمون إلا على شيخ يأتي لهم بالغرائب فاذا تركتم الحاشية ووجدوا غيركم يقرؤها ذهبوا اليه فقال نعم فتذكرت قول ابن خلدون إن العادة استحكت ولقد آن للمسلمين العدول عن هذه الطريقة المشؤومة وكل من سعى في ازالها فله أجر بني إذ يكون مجددا لهذه الأمة التي تنكست أعلام مجدها ودك سور مدينتها ولننقل من كلام ابن خلدون ما استحسانه في الكلام على التأليف وكثرتها واختصاراتها ووجه الصواب في تعليم العلوم قال رحمه الله تعالى فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم ان مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون مرتبة

التحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس والاعشى وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه على أنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر بدون ذلك وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضى عمره دونه ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهم لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتقاربه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغل بتعدد المذاهب والطرق والتأليف ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نواذر الوجود وإلا فإظهار أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يهديني له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

﴿ تذكرة ﴾ في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يؤلفون بها ويدونون منها برناجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في

الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسراً على الفهم وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصوله وابن مالك في العربية والخبزجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل وذلك لا بد فيه تخليط على المبتدئ بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن الألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك فالملسكة الحاصلة من التعلم في تلك المختصرات إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيد لحصول الملكة التامة وإذا قصر التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكئها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ تذكره ﴾ في وجه الصواب في تعلم العلوم وطريق افادته

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان بالتدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا ياتي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة وغايته أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شب فلا يترك عويصاً ولا فهماً ولا متعلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله فيخلص

من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل الثقيلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ويخلطون عليه ويلتقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا في الأقل وعلى سبيل التقريب والاحمال وبالمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى استيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعى وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنه وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما أتى ذلك عن سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكتب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله الى آخره ويحصل أغراضه ويستوفى منه على ملكة بما ينفذ في غيره لأن المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستوفى على غايات العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانظمس فكره ويأس عن التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم الفن الواحد بتقريب المجالس وتقطيع ما بينها لانه ذريعة الى البسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول ملكة بتفريقها واذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صيغة لأن الملكات انما تحصل بتتابع العقل

طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذه الايام ٢٨٩

وتكراره واذا تنوسى العقل تنوسيت الملكة الناشئة عنه والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجنية والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخطط على المتعلم علما معا فانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلطان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فر بما كان ذلك أجدر بتحصيله والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب اهـ

ولقد مشى على هذه الطريقة في الاختصار والتعليم مدرسو المدارس الأميرية في بلادنا المصرية ، فألفوا كتب العربية تباعا كتابا بعد الآخر ، واتبعوا قول ابن خلدون رحمه الله تعالى فالأول كتاب بسيط جداً والثاني عبارة عن الكتاب الأول مزيداً فيه عبارات أخرى وهكذا الثالث عن الثاني مع زيادة عبارات والرابع في فن البلاغة ونجحت نجاحا باهرا فما هي ذه مصر الآن فيها مدارس حسنة النظام وتعليمها علوم العربية وغيرها وتأليف كتبها أتى بالمقضود ، ألا فليعلم التعليم بلاد الاسلام على هذا النمط وأحسن منه

وأول الفيث قطر ثم ينسكب ولعمرك ليست علوم العربية مقصودة لذاتها ، فعلوم العربية والقراءات بل والتفسير والحديث إنما يراد بها الاطلاع على العلوم التي بها الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة وهي العلوم التي هي غذاء والتي هي دواء جسما وعقلا كما أوضحناه سابقا

ولقد جعل الغزالي رحمه الله تعالى علوم العربية كلها قشورا وجعل التفسير أسفل القشرة مما يلي اللب بل جعل المفسر كالقارىء ، غاية الأمر أنه أرقى منه ، إذ هو أقرب إلى العلوم . أما حافظ الروايات وقارىء علوم البلاغة فأنما هو في القشر البحت وكذلك عالم اللغة فالمدار إنما هو على نفس العلوم

الفصل السادس والسابع

في وجوب استعمال العقول وترك الفضول

وفي حكم النسخ في آيات القرآن والأحاديث وما مناسبتة لهذه الأحوال التي نحن عليها وما حكمته بالنسبة لنا الآن وما يجب على المسلمين أن يفعلوه في تعليمهم وسياساتهم وأحوالهم ولقد جعلنا الفصلين فصلاً واحداً لأن العقل يشهد أن نظام العالم ملازم للترقي المصاحب للنسخ الذي يشهد به العقل كما جاء به الوحي

لقد علمت أيها المطلع على كتابنا ههنا ما طبع عليه هذا الكون من التغيير والتبديل والنسخ فتري الليل نسخ النهار والنهار نسخ الليل وتتعاقب الفصول بالحر والبرد والرطوبة واليبوسة وبها يحصل خروج النبات ونمو الحيوان والانسان وكلها في تغير دائم ونسخ مستمر وما من شمس إلا وسيأتي لها أجل مسمى تمحي فيه من الوجود وهكذا الأقمار والسيارات والثوابت وذوات الأذناب وهكذا قرر علماء الفلك والطبيعة (كل شيء يجري لأجل مسمى) وهكذا كانت جميع المولدات على سطح الكرة الأرضية كلما غرب نجم أشرق نجم ويموت الحيوان ويعقبه الآخر وهكذا أنواعها فكم من أنواع عثر عليها في طبقات الأرض انقطع وجودها الآن بالمرّة وكم حيوان يتمتع بنسيم الهواء وروح الحياة ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً وهكذا سطح الأرض فكم من عامر أضحى غامراً وغامر أضحى عامراً وجبل صار بحراً وبحر صار جبلاً على هذا تطابقت آراء العلماء في كافة أنحاء المعمورة واليه الرمز بحكاية الخضر عليه السلام انه رأى أرضاً قفراء وبعد (٥٠٠) سنة رآها مدينة زاهرة وبعد ٥٠٠ سنة أخرى رآها بحراً وبعد مثلها شاهدتها مدينة زاهرة . وما ذكر الحكماء هذا إلا رمزاً لحال الأرض على حسب ما طبعت عليه وما نظمها به مبدعها وهذا كله نسخ حقيقى في الطبائع الكونية والكائنات العلوية والسفلية ولما كان هذا فعل صانع الكون وهو الحكيم في صنعه (كل يوم هو في شأن) فلا بد أن يكون حكماً في قوله وما أنزل على رسله إذ

الحكيم في قوله حكيم في فعله ولذلك تراه يغير الشرائع بتغير الزمان إذ لا جرم أن تغير الزمان وتتابع الأجيال يحدث تغيراً في الأخلاق وتبايناً في الطباع فيكون بلا ريب للناس شرائع توافق المشارب على حسب ما يقتضيه الزمان والمكان المتغيران فأنزل آدم وشيثا ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وجاء كل شرع يناسب أهل زمانه وكانت هذه الديانات كلها كسلسلة واحدة تتصل كل حلقة منها بالحلقة الأخرى والمتأخر يلهم بعض المتقدم ويزيد عليه بوحي من الله وإلهام وتعليم وإرشاد فتكون الشريعة متصلة بما قبلها من وجه منفصلة من أوجه أخر وكلما جاء شرع كان أرق مما قبله وأوفق منه لنوع الإنسان وكأنها سلسلة ترقى شخص فيكون جنينا فطفلا فشاباً فكهلاً وهكذا أو سلسلة ترقى حيوان من الحيوانات المكرسوية الصغيرة وتزيد شيئاً فشيئاً إلى الحيوانات العالية كالإنسان الذي يليه الملك فهكذا الديانات يظهر أنها ابتدأت من الأبسط إلى البسيط إلى المركب وهلم جرا فشرعة إبراهيم للتوحيد وموسى للتوحيد والأمور العملية وشرعة عيسى أفرطت في العلمية وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلمية والعملية بلا إفراط ولا تفريط فدين الإسلام في الديانات كالإنسان في الحيوانات ولذلك كان النبي خاتماً والخاتم بالفتح ما ينقش به صور كثيرة وخاتم بكسر التاء أى آخر الديانات ولذلك ترى العلوم عمت الكرة الأرضية وكثرت المواصلات وعم النشر وكل أخذ بما يلائمه من كفر وإيمان ولا بد أن يأتي يوم تظهر فيه الديانات محققاً ومبطلها لعموم البشر وبسرعة المواصلات فلا لزوم إذن لأنبياء يبعثون ويرسلون إذ الكتاب موجود وها هي ذه رسائل البريد غير ممتنعة التوصيل إلى جميع الأقطار وما أهل الكرة الأرضية إلا كأهل بيت واحد يتحدثون وهذا هو سر قوله خاتم النبيين ولم يحصل هذا بعد نبي من الأنبياء قط نعم هذه هي المعجزة العجيبة ثم لنرجع إلى ما نحن فيه فنقول :

جاءت الشريعة الإسلامية ونزل الوحي بآيات وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بأخرى نزل بها الوحي وسميت سنة وحديثاً ثم ترى الآية تنسخها آية والحديث ينسخه

حديث فعلمنا أن ناظم هذا الكون جعل نظامه واحداً فكأنه يقول ها أنا ذا أغير خلقى
بيدى (كل يوم هو فى شأن) وإلا كان الوقوف على نظام واحد قصوراً فى الحكمة
وجوراً فى الطبيعة وظلماً فى الحكم فلا بد من التغير وكل يوم لنا شأن فى أفعالنا وليست
الاقوال تخالف الأفعال فى سيرها

فهذه الديانات كل دين منها يوافق ما قبله فى بعض ويخالفه فى بعض على مقتضى
الحكمة ونواميسنا فهكذا أنزل القرآن وجعلناه كالشرائع قد تنسخ الآية الآية ،
والحديث الحديث لتقلدونا فى نظام مدينتكم مما لا يخالف آياتنا وسنتنا فنأتى بالحكم
اللى يوافق المصالح ثم نرفعه ونأتى بآخر لتغير الأحوال (ما ننسخ من آية أو ننسها
نأت بجيز منها أو مثلها) ولما كان هذا يوافق نواميس الكون كما ذكرنا أعقبه
بقوله (ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير) وإذا كان كذلك فوقوفه عند شئ دون
شئ هو الجور والظلم فى المادة ومثلها الأحكام التى نستبدلها بنجيز منها أو مثلها (ألم
تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكهم من دون الله من ولي ولا نصير)

وقد آن نذكر جملاً من الناسخ والمنسوخ لتعلم أن الله أراد أن ينبه أن أمة الاسلام
التي انخط مجدها آن أن تغير نظام مدينتها وتؤلف كتباً وتنشئ صنائع وتنسخ ما كانت
تصنعه من قبل نسخاً بلطف فتؤلف كتب قد حوت من علوم الأمة والعلوم الحديثة
لتبقى وحدتها بالأصل وتترقى مدينتها وتساكن الأمم المحيطة بها بالجديد كما اتفقت
الشرائع السماوية فى التوحيد (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم
أن اتقوا الله) ، (وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)
فانظر كيف اتفقت الأمم والديانات على نقطتين أصليتين وهما التوحيد ومكارم
الأخلاق واختلفوا فى أمور عملية

فهكذا ترى فيما سياتى فنسخ الآية بآية أخرى قد اشتركتا فى العدل وموافقة
الأمة واختلفتا فى الكيفية والهيئة وقد يكون النسخ تدريجياً كتجريم الخمر فهكذا
كتب العلوم ونظام المدنية يجب على علماء المسلمين وحكامهم أن يأخذوا فى تغييرها

مع ملاحظة القديم والحديث ولتكن الهيئة الاجتماعية قسمين قسم يحافظ على القديم وآخر يوسع بالحديث فتتوازن القوتان وينمو الترقى وحفظ كيان الأمة كما حفظت أمم الأنبياء وترقت شعوبهم وكما نرى في دولة انكلترا من المحافظة تارة والحرية أخرى وما جاء الشرع الاسلامي بالنسخ إلا ليرشدنا الى كثرة التروى والتفكر وأن ننظر في القديم والحديث وقد أرشدنا القرآن الى ذلك فقال (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)

ولعمري أن الأمة التي تقلد الشريعة الاسلامية في ناسخها ومنسوخها وتجري على منوالها هي التي استمعت القول فاتبعت أحسنه وهم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب سواء كان في نظام دينهم أم دنياهم ولا يظن غرّاً إنى أريد تغيير النظام مع مخالفة الدين كلا وإنما الدين قواعد كلية تحتمل فروع كثيرة فهي كمسألة حسابية كثيرة الحل أو كحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ولذلك كثرت المذاهب وكانت كلها صحيحة عجباً لجاهل يظن منافية النسخ في الشريعة لها وهو في الحقيقة نظام لا يجوز أن يهمل بل لابد منه لكل عمل وعليه فليستظر علماء الاسلام وأحكام في علوم الأحكام اولياً أخذوا ملخصاً من المذاهب المشهورة وغير المشهورة ويعملوها قانوناً تجري عليه الأحكام ويغيروها بقوانين أخرى مما يوافق مشارب علماء الاسلام إذا رأى أهل ناحية من نواحي الاسلام أنها أليق بهم وإذا لم يعرفوا هذا فليشروا بأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة) وإني أحمد الله إذ وجدت قضاة بلادنا فعلوا ذلك قريباً. أنظره في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن في سورة الكهف مطولاً عند قصة الخضر وموسى عليه السلام) وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل له من ربه الوحي بالآية ثم يأتي وحى آخر بآية أخرى فينسخها كذلك وكلاهما من عند الله يوافق الأمة فهكذا يجب على علماء الاسلام وحكامهم أن ينظروا ما يصلح للأمة زماناً ومكاناً وأن يأخذوا من أقوال علماء الأمة التي لانهاية لها في الكثرة ما يليق بهم زماناً ومكاناً ليوافقوا مصالح بلادهم إذ الشريعة دواء وأحوال الأمم تعثر بها الامراض فان لم يوافق الدواء الداء

هلك المريض وهكذا هلكت الأمة باستعمال مالا ينطبق على حالها والدين الاسلامي فيه جميع العقاقير التي تنطبق على عامة امراض الامم وحاجاتهم ولقد جعل من مبنى اصوله أن المشقة تجلب التيسير وأن المظطر يأكل الميتة وغير ذلك مما هو مذكور مسطر في الكتب

ولعمرك لم يعطنا الله عقولنا إلا لنعمل بها ونتصرف على مقتضاها بشرط أن يكون لها رئيس وهو الدين فالعقل لقوى الانسان الشهوانية والغضبية كالدين لعقول أفراد الأمة ومتى تركت عقولها ولم تطبق أحكام دينها على مصالحها واتكل أهل مصر على كلام البغداديين وهم على الحجازيين وهم على الفرس ضاعت الأمة وماتت بمرض الجهل وكانوا من الذين يستمعون القول فيتبعون ما يصادفهم منه ولم يتبعوا أحسنه إذ لم يفرقوا بين الأحسن والحسن حتى يختاروا ما ينفعهم ولقد هلكت أمة خالفت سنة ربها في كتابها من النظر للمصالح وتطبيق العلم عليها من الناسخ والمنسوخ

(١) انها فرضت الصلاة بالتوجه لبيت المقدس ثم أمروا بالتوجه للكعبة

(٢) وقد أخرج النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء يوم الخندق حتى كفى الله المؤمنين القتال فدعا بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى الصلوات الأربع بهياتها كما كان يصليها في أوقاتها فتسخ ذلك التأخير بقوله فان خفتم فرجالا أو ركباناً وصلاة الخوف مفصلة في السنة

(٣) وكان حد الزانيات الحبس والأذى بقوله . (واللآتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً) ونسخ بما ورد عن عبادة ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ثم جاء نسخ الجلد عمن زنى من الثيبين برجم ما غر بلا جلد له

(٤) ورد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انما جعل الامام ليؤتم به فاذا صلى قائماً

فصلوا قياماً واذا ركع فاركعوا واذا رفع فارفعوا واذا قل سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا
ولك الحمد واذا صلى جالساً فصلوا جلوساً أجمعين فنسخ ذلك بما ورد انه صلى الله عليه
وسلم خرج في مرضه فأتى أبا بكر وهو قائم يصلي بالناس فاستأخر أبو بكر فأشرب الله
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كما أنت فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب
أبي بكر فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الناس يصلون
بصلاة أبي بكر قال الشافعي وبه نأخذ وورد التصريح في رواية عائشة بأن أبا بكر
والناس قيام والنبي عليه الصلاة والسلام جالس في هذه الصلاة

(٥) وفرض الله على العشرين أن يقاوموا مائتين وعلى المائة أن يغلبوا ألفاً وما
علم ان في القوم ضعفاً جعل الواحد منهم باثنين فقال (خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا الْآيَة)

(٦) نزل يأنيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل
القرآن ترتيلاً فعمل فرض قيام النصف أو الزيادة عليه أو النقص عنه ثم نسخ بقوله في
السورة بعينها (ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة
من الذين ممعك والله يقدّر الليل والنهار علم أن أن تخصّوه فتأب عليكم فافقر أو
ماتيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض
يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فافقر أو ماتيسر منه وأقيموا
الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً) فوجب بهذا النص ماتيسر من القرآن
في الصلاة في الليل ثم نسخ هذا الوجوب أيضاً بقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة
لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ويدل له حديث طلحة ابن عبيد الله قال
جاء اعرابي من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا فإذا
هو يسأل عن الاسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم خمس صلوات في اليوم والليلة فقال
هل على غيرها فقال لا الا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا
شيئاً ولا أنقص منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلح ان صدق وروى عبادة

ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خمس صلوات كتبهن الله على خلقه فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة (٧) ورد وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآية (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنَاقِبِينَ) وللزوجة بقوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مِّنَ الْآيَةِ) فبهايتين الآيتين وجبت الوصية للوالدين والأقربين وللزوجة ثم نسخ هذا الحكم بآيات الميراث فبين فيها ميراث الوالدين والأقربين والزوجة من الزوجة والزوجة من الزوج وامتنعت الوصية للوارث وبقيت سنة في الأقربين الوارثين فالأباعد واختصت بالثلث فلقد أعتق اعرابي في مرض موته ستة مماليك فأجاز صلى الله عليه وسلم عتق اثنين لأنهما الثلث ولم يحز الباقي وجعل التصرف في المرض كالوصية

(٨) ومن عجائب النسخ ولطائفة مسألة تحريم الخمر ولا ريب أن فيها نفعاً من وجه وضراً من وجه آخر فهي من وجه نعمة ومن وجه آخر نقمة فذكرت من الوجه الأول في مقام الامتنان جرياً على ما يعلمون وأخذاً لهم بما يفعلون ومجازاة لافهامهم واستدراجاً لعقولهم فقال تعالى في تعداد النعم (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فجعله في مقام الامتنان

ولما كان كل شيء في العالم له نفع وضرر وكان التحريم والتحليل يرجع إلى غلبة أحدهما على الآخر فمتى غلب الضرر حرم ورد قوله تعالى بعد ذلك (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا) فأبان هنا بالحجة الاجالية أن الضرر أكثر من النفع ومتى كان كذلك فالقول السليمة تتركه ولذلك روى أن الصحابة اتقسموا بعدها قسمين فشر بها قوم لنفعها وغادرها آخرون لضررها فاستعدوا إذن لقبول التحريم نصاً فجاء قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فحرمت عليهم في وقت الصلاة فتركوها في الصلاة وشربوها خارجها ولما قبلوا ذلك وفهموه استعدوا للتحريم

فجاء قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَرْ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) إِنَّمَا يريد الشيطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرْ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

فتأمل كيف جعل التحريم تدريجاً ولم يذكره مرة إلا مقروناً بذكر سببه معه ذكر في التحريم المطلق سبب تحريمه من العداوة والبغضاء اللذين هما بعض خباياته لظهورهما بين الناس وشيوعهما في الشارعين حين الاسكار وفيما قبله ذكر العلم بما يقال في الصلاة وهكذا

(٩) ولما لاحظت هذا السيدة عائشة رضي الله عنها وعلمت ان كل شيء ينزل لمناسبة الأحوال قالت لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثه النساء بعده لمنعهن الخروج إلى المساجد فكأنها قارنت منفعة العبادة بمضرة الفتن فرأت المضرة زادت في زمان هذا القول وكانت أنقص في زمان النبوة اذن هي علمت ان الوحي كان ينزل لمقتضيات الأحوال والحكم

فهذه ثمانية النسخ والمنسوبة عرفت بها صنع الله وشرعه المتطابقين وانه مطابق لقوله — ألا ترى ان هذا الكون كله جار على نواميس وضعها مبدعها وقد علمت ان أحوالها متغيرة في أمور جزئية تتغير دائماً مع حفظ النظام العمومي ولما كانت أفعال العباد جزءاً من ذلك الكون ومن فعل مبدعه (والله خالقكم وما تعملون) وكان لهم نوع اختيار خالق لهم عقولاً وأنزل لهم وحياً فتراهم يستحسنون بعقولهم كل نظام يوافق الحالات الموافقة لأزمانهم وهكذا الوحي جاء بهذا التغيير للتنبيه على انكم ملزمون بحسن الفهم والتبصر ووزن الضر والنفع بميزان العقل فتغيرون الجزئيات من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان مع حفظ القواعد العمومية الشرعية كما تتغير المنظمات الكونية الجزئية مع حفظ النظام العمومي والقواعد والنواميس العامة — ألا ترون ان البحر قد يتقلب برأً والبر بحراً والنظام ثابت فهكذا يجب أن تفعلوا كذلك فيما

لا يخل بالشرع السماوى فياأيها المسلمون اخوانى هاهوذا فعل الله فى ملكه وكلامه فى تنزيله وفعل نبيه صلى الله عليه وسلم ونظام الدول الحالية جار على تلك النواميس بعينها كأنهم درسوا (يقلبُ الله الليلَ والنهارَ) وكأنهم فهموا (يحو الله مايشاء ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب) أتدرون ما الذى يفهمه الحكماء من هذه الحال يقرأون على صفحات الوجود خطابا من مديره يقول هذه العبارة (أيها المسامون ان لم تغيروا نظام مدنيتمكم التى شب الدهر وقد هدمت فلا بد من أن أسلط عليكم من يغيرها وأنتم ساهون لاهون فان لم تأتوا طوعا أخذناكم قهراً ولنسنا نترك سنة التغيير وهى من أجل نواميس الكون لجهلكم (كلاً سوف تعلمون ثم كلاً سوف تعلمون) ألم تعلموا ان فعلنا كاه ونظامنا جميعه لا يبق على حال واحد إلا فى العموم وتتغير الجزئيات فالى كم تذهبون فلا تزدجرون والى متى تقرأون ولا تفهمون ألم تقرأوا (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتيننا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) أعطيت صالحاً آية الناقة لقوم نمود فكذبوا وظلموا ثم أعطيت موسى آية العصا إذ انقلبت حية فآمنوا به ثم آمنوا بالعجل حين رأوا له خوارا إذ من آمن بالعصا حين انقلبت ثعباناً فهو أخرى أن يؤمن بعجل يخور وهو مصنوع من ذهب إذ هو أجمل من الحية وأرقى جسماً ونفعاً وهذه الآيات المجسمة لا نرسل بها إلا تخويفاً للأُم إذ لا تفيد اليقين وهذه الأُمم التى أرسلت فيها تلك الرسل ليس عندهم استعداد لفهم الحقائق العقلية لغلظ طباعهم وبلادة عقولهم فأعطيناهم من الآيات ما يناسبها وان كانوا يرتدون بسرعة لضعف الايمان بالمشاهدات المحسوسة والمعجزات المشاهدة التى لا نرسل بها إلا تخويفاً والتخويف أدنى الدرجات فى الارشاد ويليه الترغيب فالاقناع فالحجة ولذلك جعلناكم أمة وسطا معجزتكم هو القرآن تفهمون حججه فتكون هى المعجزة التى هى أرقى المعجزات المشاهدة بالبصر اذ هى انما هى بالبصيرة ولذلك لما طلب كفار مكة معجزات محسوسة (وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك

بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قلنا لنبيكم (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) لأن هذانبي وليس كأولئك الانبياء الذين أتوا بمعجزات محسوسة لا تثبت فلذلك كانت تلك الأمم تفضل سريعا وأما نبيكم فانه آخر الأنبياء فوجب أن تكون معجزته عقلية ثابتة مدى الأزمان ولذلك قال في آية أخرى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل إلا آيات إلا تخويفا) هذا هو الذي يقوله الحكماء في المحادثات في الوجود وإشارات الوحي وتتابع الديانات ويعلمون أن الله أرانا التدرج في المعجزات والترقى فيها من المحسوس إلى المعقول شيئا فشيئا حسب ترقى عقول الأمم المتتابعة فكل أمة جاء لها نبي تكون معجزاته على مقدار استعدادهم - ولا جرم أن التعليم يكون بالحجة فالوعظ فالجدل فالتهديد والتخويف فالهلاك فمعجزات الانبياء الأولين كانت للمرتبتين المتأخرتين ولذلك كان يعقب هذا هلاكهم كما في قوم وئود والذين من قبلهم ومن بعدهم فقد جاءت شرائعهم ولم تدم أما نبينا صلى الله عليه وسلم فجاء بالثلاثة الأولى غالبا لأن شريعته دائمة إلى آخر الزمان ولن تدوم إلا بالحجة والبرهان الذي هو القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة فهكذا فليكن نظام المدنية الإسلامية لتطابق فعل الخالق في الكون والديانات ونفس ديننا القويم ولعلك تقول ما الذي تريد بهذا التغيير - أتريد أن تحلل الحرام وتحرم الحلال أقول كلا فإنه كفر ومناف للشرعة التي نمدح بها وإنما أقول أعلم إن هذا الدين أصبح محجوبا عن أهله بغواش غشيته وجهل طمس على القلوب إن هذا القرآن الذي هو أساس الدين أصبح الناس في غطاء عن فهمه حتى انطبق علينا الآن معنى هذه الآية (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) وها هو الآن والحق يقال أننا لا نستطيع سماع القرآن ولا فهمه لدواع تبدت وأمر حدثت فأحدثت تقلب القلوب والأبصار فترى العالم إذا قرأ التفسير يجعل جل عنايته في تطبيقه على النحو والصرف ولولفت ذهنه إلى المعنى لم يجد مساعدا من نفسه للتلاوة لما ركز في نفسه من الصغر واعتاد عليه أن يقرأ ولا يفهم بقصد الثواب كما يقرأ العامة

وغرغاء الناس (كأنهم لا يعقلون) . وما زاد الأمة بلاء وجهلاً أنه ركز في عقولهم تقليداً أن الأحكام الفقهية هي ثمرات القرآن مع أنها ثمرة نحو (١٥٠) آية لا غير وبقية القرآن وهو ينوف عن ستة آلاف آية ما بين عظة واعتبار وأمثال وقصص الأمم وسياستها ومنتذرات هلاكها ونظام الكون وحكمه لينظروا فيه فيفقهوا لم خلقوا وما هي نظام المدن ويعيشوا عيشة لأحرار فالاعتصار على جزء من ثلاثين من الدين وترك الباقي إماتة للعقول وإضعاف للهمم وزاد الطين بلة ماتلقفه الأصاغر عن الأكابر أن المدار على فهم تلك الشرح والخواشي المعماة نعم صدقوا فأنها تشخذ الأذهان ولكن في أمور عرضية لاجوهرية ويا حبذا لو كانت هذه القوى في نفس القرآن والحديث والعلوم الكونية والصنائع البشرية والنظم والسياسات فتصبح معالم المدنية واضحة وأعلامها منشورة على أرجاء الإسلام ولقد زادهم بهدعشقا أحاديث جاءت في فضائل السور موضوعه جلب الرزق وصرف الضر مما جعل القوم يقرءون غاضين الطرف عن المعنى مع أنه إنما جاء للذكر والایفاظ قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ولا يتذكر أولوا الألباب) فتأمل كيف جعل نتائج البركات هي تدبر العقلاء وتذكر خواصهم لمعانيه ولقد شغل كثير من القراء بأن يجعل القراءة وسيلة إلى قضاء الحوائج وأما المعنى فإنه مهجور حتى يحق لنا أن يقول الرسول نبينا عليه الصلاة والسلام ما قصه الله (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) إذ الألفاظ وحدها ليست مقصودة فتمى هجر المعنى فسيان الألفاظ وعدمها عند التحقيق نعم نحن لا ننكر أن القراءة بلا معنى لها فوائد وثمرات وثواب ولكن تكون كما قال الله تعالى (أتستبدنون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فمن ترك الأعلى وهو المعاني هنا واستبدلها بالأدنى وهو مجرد التبرك مع العبادة في الفهم فقد استبدل الأدنى بالأعلى بل الجواد الذي يوضع عليه الأكاف ويحمل حمل الحمار فيه نعم ولكن ساء مثلاً القوم الجاهلون ويكنى هذا مقتاً وغضباً وتقرعاً وذمنا قول الله تعالى (مثل الذين حُمِّلُوا الثَّوْرَةَ فَمَ لَمْ يُحْمَلُوا بِهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلٌ

القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين)

فتأمل هذا المثال لتعلم كيف جعل من قرأ الألفاظ بدون معنى كالحمار يحمل الكتب وهو لا يقرؤها لأنه غير عاقل ثم لم يقتصر على ذلك بل قال بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله

ثم انظر كيف ذكر الحمار هنا وذكر الكلب في مسألة بلعام بن باعورا الذي علم ولم يعمل إذ الكلب أقرب إلى الفهم من الحمار ولكنه لا يرجع عن طبعه ويمجى على شهواته ولا ينفعه معاشرته للانسان وذوقه فضرب الحمار مثلاً للجاهل والكلب مثلاً للعالم غير العامل فما أرق هذا التعبير وما أطفه

ولقد سألتني شاب من ذوى الفهم قائلاً أهذه العتاقة التي يقرؤها الناس تنفع الميت فقلت له اعلم أن أحاديث كثيرة وضعت لمثل هذه الأمور وولع بها الناس وانظر كتاب الاتقان في علوم القرآن وما ذكره الشيخ السيوطي هناك من أولئك المتصوفين الذين وضعوا هذه الأحاديث قائلين نحن قصدنا بها صرف الناس عن الفقه الذي شغلهم إلى القرآن

ولقد أرادوا خيراً لصلاحهم فوقعوا في خطأ مجاهلهم إذ أصبح الناس يأخذون القرآن لجرد لفظه لامتعائه فيكررون سورة قل هو الله أحد مائة ألف مرة وهم لم يفهموا حكمة عالية ولا علماً نعم في هذا ثواب كما قلنا ولكن أين الثريا وأين الثرى . فقال لي لقد تبطلت همتي عن إكمال عتاقة بالصمدية فقلت له هل أدلك على عتاقة تنجيك من عذاب أليم فقال بسرور نعم فقلت امسك المصحف واقرا الجزء الأخير من القرآن أى من سورة النبأ إلى الفاتحة وافهم معناه بتفسير سهل وكرره مراراً مع استعمال المعنى حتى يرسم في ذهنك ثم هب ثواب ذلك إلى الميت فذلك خير من القراءة بلا معنى ويكون نوراً لك وتقريبك في الدارين فرأيت سر بهذا سروراً ظاهراً وانشرح قلبه وشرع في العمل . ولقد جاء بعض أهل العلم وقال ذكر القرآن وبركته في مجلس فقال بعض العلماء الحاضرين كيف تذكر البركة والله تعالى يقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك

وكان القائل أكبرهم مقاماً وأعظمهم قدراً فصفق له الحاضرون وطر بوا
فقلت له بعدها ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب مع ظنهم أن البركة إنما
تكون بالتأمم والرقى وهذه العادة زادت رسوخاً بكتب الروحانيات فقد أدخلت
كثيراً من الآيات في علوم الطلاسم وحساب الجمل ونحو ذلك مما دخل بها الصائبون
علينا وجعلوا يس تقرأ أربعين مرة مع شروط وأحوال ليست هي المقصودة بالذات
من إنزال القرآن

وكما اقتصر القراء على ألفاظ القرآن تراه كثيراً ما يقرأ على الأموات وفي الطرقات
كأنه قيل أن يقرأ على الأموات الذين لا يفهمون فنحن وهم سيان حتى أن العامة يحملون
قوله عليه الصلاة والسلام - اقرأوا على موتاكم يس على القراءة على القبور مع أن
مراده عليه الصلاة والسلام القراءة على المحتضر ليتذكر ما فيها من الحكم والعجائب
ويتفكر في خالقه فيموت موحداً . وعلى هذا صار القرآن حرفة للارتزاق ولما انقلب معناه
على الإفهام أصبح لا يسمع إلا بصوت حسن إذ هو المقصود لامعناه فانا لله

ولقد سرى الوقوف على الالفاظ والبطواهر في كل شيء فترى قواعد العلوم
العربية معتنى بها وإذا قرأ متعلم قصيدة وطالبتة بفهمها أو حلماً عجز وإنما يأخذ في
الاعراب ويضع زمانه ويخرج صفر اليدين وبالجملة فالالفاظ هي التي لها السوق الرابع
حتى أنك ترى الحريري جعل مقاماته كتابها كتاب غريب اللغة لا يفيد الأمة كيف
تكون الأفكار

ومما يقرب من هذا أن الشعراء كان جل قصدهم مدح الملوك ولم يعولوا على القصائد
التي ترفع الهمم إلا قليلاً وما الانشاء والشعر إلا ما خرج من وجدان القلب فيؤثر على
القارئ والسامع كما كان مؤثراً على المتكلم كما ترى في تأليف الجاحظ في الأدب
والسكاكي في العلوم العربية والغزالي في الاحياء أما هذه الحواشي والشرح والمتون
فهي مغلفة صعبة يجب استبدالها بأخرى أسهل منها لفهم القواعد ثم يتعمق في البحث
لأسماء في العلوم العالية فهذا الذي ذكرته في الكتب وفهم القرآن من أجل ما يجب أن

غير ومن ذلك الصنائع والعلوم المهجورة التي هي غذاء الأمة فلم تترك هذه ولا ريب أن علوم الدين دواء فلم تقتصر على قشر الدواء مع غفلتنا عن لبه (أن في ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين)

ولما صعبت الكتب فيها وتعاصت العبارات أصبحنا نرى أهل العلم يظنون أن الإنسان مني قدر على فهم العبارات فقد أضحي عالما مع أن القدرة على فهم العبارات شيء والفهم والتضلع من جميع العلوم النافعة شيء آخر حتى كان يتخيل الإنسان أن العرب الجاهلية يفهمون العلوم أقرب من غيرهم بسرعة فائقة مع أن اللغة شيء والعلوم شيء آخر وما اللغات إلا طرق لتوصيل المعاني إلى الأذهان وياليت شعري كيف تصبح الكتب التي هي معبرة عن أحكام القرآن والحديث أصعب منهما بكثير مع أن الأصعب لا يفسر الأسهل بل الأمر بالعكس والأعجب من هذا أن المؤلفين يتنافسون في تصعيب العبارات حتى استغفلت العلوم ولم يظهر من معاني القرآن وإشاراته في الكتب إلا كما ظهر من جرم الفلك على جسم السمك فاذا قرأت حديثا أو آية وجدتهما في غاية السهولة وإذا قرأت عبارات المؤلفين وجدتهما على الضد من ذلك . ولما تبادى أهل العلوم على هذا الفكر وتوارثوه ظنوا أن صعوبة العبارة هي أعظم ما يقصده القاصدون فتراهم يتركون الحديث لسهولة ولا تلتفت أذهانهم إلى ما فيه من حسن الأسلوب وذوق المعنى اذ ليس مما طبعوا عليه من جمود العبارات بل ربما ظنوا المؤلفين أكثر تدقيقا وأقدر وإن كانوا يتحاشون النطق بذلك فهذا تراكم السد بين أهل العلم والقرآن والحديث وإن حضروهما مرارا ولم يبحثوا إلا على العبارات المستصعبة ونبدوا كل سهل وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

ولما تبادوا في هذا أحبوا أن يعمموا الحكم في جميع أحوال الدين فقالوا أن القرآن لا يفهم ولا يفسر إلا بعد المشقة وعليه حرمت جميع الطبقات من فهمه مع أنه تعالى يقول (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

وياليت شعري كيف تقرأ الجغرافية وتفهم باللغة الانكليزية والفرنساوية في المدارس

الأميرية ويصعب القرآن ويتعاضى عن الفهم أم كيف تكون اللغة الفرنسية والانجليزية أسهل من اللغة العربية التي جاء القرآن أسهل منهما حتى قال (ولقد يسرنا القرآن للذكر) بهذا وأمثاله ضاع الاسلام وتفرق أيدي سبا وذهبت الدولة يقوم رعاكم الله أليس النصارى يقرءون إنجيلهم ويفهمونه فيأخذون المعنى من العبارات بلغاتهم فتهدب الاخلاق وتنمو العقول أليس القرآن أحق بذلك .

نعم ان في القرآن اشارات لعلوم كثيرة مثلاً قوله تعالى (والشمس تجري لمستقرها) لا تفهم حق الفهم الا بعلم الفلك ولكن هل هذا يمنع فهمها على طريق الاجهال حتى تحت القارىء على تعلم هذا العلم ومن العجيب أن كثيراً من أهل العلم إلى الآن يظنون أن مثل هذا العلم لا لزوم له فان قيل له أن هذا يحث عليه القرآن تراه يتلعم في الجواب ولعمري أن القوم في أطوارهم جميعاً متناقضون متشاكسون أفمن هذا الحديث يعجبون ويضحكون ولا يبكون وهم ساجدون

ومما يزيد العين بكى والقلب حزناً ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يذكرن الا مقرونين بالتواضع المفروض وأما تلك الحروب والشهامة العربية فلا ذكر لها الا عند تدريسها بعد ان تتمكن صبغة الضعف في النفس ويذهب منها رونق الشجاعة وعلو النفس واحترامها واعتبار الحياة اعتباراً حقيقياً مع ان هذا الدين ما جاء الا بالتوسط في كل شيء (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) فإين نحن من هذه المعالي والاخلاق والحكم والنصائح وعلو النفس وليس لهذا دواء الا أن يذكر النبي صلى الله عليه وسلم دائماً هو وأصحابه بصفة الحاسة وعلو النفس والمحافظة على الأمة واننا تقتدى به في أعلامها وتشریفها

والأدهى من هذا كله والأمر أنه دخل على علمائها وثبت في أذهان كل متعلم أن النظر في شؤون الأمة من الفضول وأنه ليس على الانسان إلا شخصه مع أن شرف الانسان في الدنيا والآخرة موقوف على نفعه العام لقومه والذي أراه أن هذه الدسيسة بثت في الأمة أيام تفرقها بعد صدر الدولة العباسية. ورأى الملوك أن العلماء بنصحاءهم

فما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة ٣٠٥

يفسدون عليهم ملكهم فتحاشى العلماء عن النصائح والنزوا في الزوايا والمساجد والتكايا وأضحوا لا ترى إلا أجسامهم وتركوا الامر في يد الحكماء يديرونه كيف شاءوا ومن آثار هذا أنك ترى الخطب المؤلفة في تلك الأزمان التي لم تزل معمولاً بها إلى الآن مقتصرة على ذكر الجنة والنار ويتركون كل ما به اعلاء الامة واتحاد كلمتها فيقوم إلى متى هذا الانحطاط ألم بأن لنا أن نغير هذه الخطب وهؤلاء الخطباء ونستبدلهم بقوم عالمين يعلمون ما يقولون انما الخطباء قوم لهم شعور يقولون ما به يشعرون أصل الخطب انما تكون للأمراء والملوك يسوقون الناس إلى ما به صلاحهم في الحياة الدنيا والذين فيسعدون في الدارين ويقولون (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)

هذا اجمال ما يجب تغييره ونسخه من الامة على التدريج كما جاء النسخ في الآيات والاحاديث والشرائع السماوية مع بقاء العدل والتوحيد وهذه كلها تنسخ مع المحافظة على آداب الدين وحفظ نظامه

الفصل الثامن

فما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة

اعلم أيها الذي أنى أكتب هذا وأنا منشراح الصدر واسع الأمل واثق بالمستقبل القريب أكتب هذا اليوم بعد الظهر يوم السبت ٢٥ يوليو سنة ١٩٣١ أكتبه وأنا قرير العين بما تقرأه في الجرائد من تقارب أمراء العرب وأمراء الاسلام عموماً هاهو ذلك الأمير فيصل يزور الأستاذة ورئيس الجمهورية التركية يقابله خير مقابلة وهاهو ذا الامام يحيى إمام اليمن يقابل الود العربي بمثله والوفود ذاهبة آتية بين هؤلاء الأمراء وهكذا ملك الأفغان كل هؤلاء وشاه العجم جميعاً يتبادلون المودات والتحيات هذه هي الحال التي طرأت على الاسلام لم تكن كما نراها اليوم بل الأمر

فوق ذلك هذه اليابان وأمم الصين والهند وجميع ممالك الشرق ساعية للاتحاد اللهم ان الأمم كلها أشبه بجسم واحد ولكنهم إلى الآن لا يعلمون ذلك بل الانسان اليوم أشبه بطفل بعد الفطام فهو حائر دائر لا يدري مصيره (وإلى الله عاقبة الأمور ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

الفصل التاسع

في الكلام على سياسة أوروبا واستطلاع علومها

لم يبق أقل ريب في ان الأمم اليوم كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا وقد جمعهم البرق والبريد وسفن البحر وقطرات البر فلا مناص من التداخل والتزاحم *
 لاهياة لأمة جاهلة ليقرأ المسلمون علوم أوروبا كلها ففريق لعلوم الطبيعة وفريق للرياضيات وفريق للسياسة وهذه فروع كثيرة توزع على الأفراد ولا يتركون أمة إلا نقلوا علومها على شريطة أن يجعلوها مقبولة في أحوال الأمة وعوائدها لأن الجاهلة اليوم لاهياة لها .

الفصل العاشر

قصص القراءان وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية

وفيه خمس مقالات

المقالة الأولى

الانسان في حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فإما أن يكون مكبا على وجهه أو يكون سويا على صراط مستقيم
 كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبنان أو الأقربون أو الأخدان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربي مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير

قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام ٣٠٧

أو الشر . ويقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان في سيره في نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الأصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولا جرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهي توازيخ الأمم الغابرة فهي المنظار المعظم تدرس بها الاخلاق في شكل بهيج جميل

لعمرك ليس كل تاريخ يغنى (وما كل مصقول الحديد يمانى) فقد يستمن ذو الورم وينفخ في غير ضرم يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر الا في آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر الحوادث بروق بهيج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارىء من بساطتها مقتطفا من رياضها أزهارا وجانيا من أشجارها أثمارا ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لا سيما المصريين وقد كان فرعون يقول (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون)

ذلك تذكرة للكاتب والقارىء . لأننا نعلم أنه لم يكن ليجمع حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارى رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو تعالى يقول (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفين الألفاظ الى جلبجلانه ويقول تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ويقول جل وعز (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام (ما تحت الشمس من جديد) ويقول علماء العصر (التاريخ يعيد نفسه)

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخيلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعاداً عن أسرار البلاغة

جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل

مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها

فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها أو المعاني دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام (شيبنتي هود وأخواتها) وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصاً تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام وتشير في القلب حمية وإقداماً أو خيفة وإحجاماً فزال المرء ورفع الغطاء ان الخبر في مغزاه كالسهم في مرماه فلنبداً بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشي الأُمم في قصص فرعون وموسى عليه السلام

المقالة الثانية

أشرنا في المقال السابق الى أن تاريخ مصر أُمس بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم الا أنهم كانوا في ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبي الله ادريس السمي بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيباً ومهندساً وأهياً وورد أنه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطبورة الآن في التواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا في ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثاراً للجلالة ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن وبقي التوحيد سرّاً مكتوماً عند حملة الدين وحرّموا العامة منه فأرسل النبي موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فتجع في الخاصة وهم القليل وآمن بنوا إسرائيل وبقي المصريون في عمائيتهم وجهلهم مع فرعونهم (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فأجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الآشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قبيز فلعمرك ما سدد سهمه عليهم فاصابهم وأقصد بالقلب إلا بقوس من شعائر دينهم

قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه وسلا ٣٠٩

عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قميز بين الجيشين فتخرج المصري
عن قتلها فصاحبها وأصابه قميز فملك وقتل وسبا وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل
المعبود وأغضب المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدوني وبعده البطالسة فاروومان الذين
استباحوا ما حرمة الظالمون فقتلوا الأبرياء واتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم
وجاء عمر مهيمننا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستاراً من العدل وحرسه بجنود من
الايمان وبني عليه هيكلًا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم
وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاء بثوب من الرغبة وقنعه بسوط
من الرهبة فوصمه بما وصم أمام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى
إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد
شفيت نفسى

كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا ولكن جئت فى الزمن الأخير

وأكثرهم أئيد بيد الفاتحين الظالمين وحق عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى
عن إدريس النبى عليه السلام

يا مصر يا مصر ستركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب
رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحبارك

والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر
كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون
وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى
الكتاب لعلمهم يهتدون)

العبرة فى هذا ان الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لا بد لها
من إصلاح فاما أن تنعظ الأمة بالمرشدين الناصحين وإلا فلا مناص لها من السير

على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة وإن الأمة اذا ظلت عاكفة على عجزول جهالتها فهي دابة كل راكب خادمة كل سيد طفلة كل مرب زوجة كل بعل وكالم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والأشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم عدا عليهم جبار فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فمادنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكايين فريسة القابضين ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملا (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض فانظر كيف كان عاقبة الجامدين أما أهل مصر الحاضرون فما غشيتهم ما غشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة في عرب البادية المصرية وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الأمصار والمدن الكبار إلا في أناس ارجعها لهم التعليم إن صح فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التي قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغايرين

هذه أمة عربية ظهرت منذ قرون وتتابعت في هذه الديار زمراً زمراً زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجري وإن ما في البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم فاذا قيل مصر بقيت في الذل ء آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين اقترضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقي في أقرب الأزمنة متى تعلموا وسندكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهي جنين وكيف تشب وهي طفلة لعبوب

المقالة الثالثة

في انشاء الأمم

(١) سبق القول انا سنبحث شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا محيص عنها للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكأنسان طفل فشاب فشيخ فميت وكالسنة ربيع فصيف فخریف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على شوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الافلاك أو بالولادة فى العناصر . ان الزوجين من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه لجمهور شأوا أم أبوا فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها بما تحت سيطرتها ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهورون (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من تمزق الرومان بأيدى الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دوة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذوقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى عصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر (وتلك الأيام نداوها بين الناس) هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فالرقى أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموموا والمصريين خصوصا ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغاير والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة (هو الذى جعلكم

خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقد استخلصنا أسباب الرقي اذا هي عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده من الهبات والمنح العشرة أولها أن تمنح الأمة رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فاخلصوا في أعمالهم لأمتهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لارياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام في سقي الغنم اذا (قالنا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) فرفع الحجر عن البئر (فسقى لها ثم تولى الى الظل) وكان ما كان من زواجه باحدى الأبتين ورعيه الغنم ١٠ سنين وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكيه وقد أبى القوم أن يضيفوها وما كان ذلك إلا عملاً أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(٢) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما في الامكان واجتذابها اليها بما تحمل من العلم والمعرفة كما وقع للنبي موسى عليه الصلاة والسلام إذ خاطب (اذهب انت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) الى أن قال (فارسل معنا بنى اسرائيل رلا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) فجمع بين الارشاد واللين في القول والشفاعة في قومه وهذا واجب شرعاً على كل من أوتى حكمة في القول وجاها وعلماً وقدرة أن يتذرع بها الى الامم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى في علو شأن أمته لهذا نزل القرآن لا تغنيا أو إعراباً فحسب أو تاريخاً ومن أعطاه الله حكمة أو جاها فانتبذ من أهله مكاناً قصياً عاكفاً على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعيش معيشة الحيوان مخالفاً حكمة عامة الأديان

(٣) القوة العلمية واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد يشير إلى الاولى قوله تعالى في موسى (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقوله (الذى جعل لكم

الارض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات
شتى) فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والانس الرقية وهى تشير إلى ما يعقله
العقل ويقتضى به الحكمة . ثم تلقت عصاه افك السحرة وأخرج يده فاذا هى بيضاء
وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٤) الانفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الدمار وخوف العار بأزالة المنكرات
جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى
(فوكزه موسى فقضى عليه) وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس
الحام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فرائد بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان
فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح فهذه أشجار هذا
زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٥) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه
بالتى هى أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بحرقها (وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وهكذا أم موسى وضعت فى التابوت لنجاته (فاذا خفت
عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)

(٦) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر الم تركيف خرج قوم موسى من البحر
سالمين ونجوا من الغرق (وجاوزنا بنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم
قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون الخ) هذا فى العلم وفى
المحاربة قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال ربى إني لا أسلك إلا
نفسى وأخى) وبهذه اعطى نبيا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلهم ولو وحدى
وليس قصدنا من هذا الا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الانبياء
عليهم الصلاة والسلام فمضى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل
أو ناقم

(٧) اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وان لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف.

وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بني اسرائيل في القرآن بهذه العبارة (واني فضلتكم على العالمين) تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهي ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخذي كيف وهذه الأمة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الارض مدنوا العالم منا الامويون والعباسيون والفاطيون وما الطولونيون والاششبدون إلا موالى أبائنا وما المالك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالى اسلافنا ولقد أدركت القوم في القرى ايان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرا الضيف وضرب السيف وينشدون الاشعار الحماسية وما عهدا كتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون بعيد

ولعمري لأن تمتلىء النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقدا ما خير من أن تراها ذليلة منكسة الاعلام مرتاعة الافئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

(٨) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتريص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقضوا ويموتوا كما وقع ببني اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا في أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبارة (قال إنها محرمه عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) (٩) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال تردبهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ألم ترالى موسى عليه السلام كيف مر ببني اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشر متى ظهرت في أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهي عشرة سنذكرها في مقال آت ان شاء الله تعالى

المقالة الرابعة

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال اخلاص العمل لأمتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أمتهم ومن غلبوا على أمرهم وما من أمة من الأمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخاصوا بلادهم في العمل رغبة في حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا في العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده في صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الدمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحام وجرعوه الموت الزوام فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة في بني اسرائيل ومع هذا فلم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأعدون وأشعار النفوس بمكائنها وشرفها فلا ينبغي أن تصفى الأمة إلى من يصفرها في عينها ولقد قال ابن خلدون رحمه الله ان هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية هم ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول أننا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطنناها وتغلبننا عليها من آماد وأجيال وهذه لا تقتضى أن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال في مصر (وهى لمن غلب) فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت (تلك أمة قد خات لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعسيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ هذا ملخص ما ذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الإلهام وذلك يكشف الغطاء عن العقول فتتنظر لهم وجوه المنافع ومساوى

المضار فإن النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حلالهم وما آلهم واليه الإشارة بقوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وهذا وإن كان بلا كسب ففيه إشارة إلى ما نحن فيه (٢) اجابة الدعاء والنصر (قال قد أحييت دعوتكما فاستقيما) (٣) شد الأزر وتقوية الأفتدة بالآخوان والأنصار قال (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا فلا يصلون اليكما آياتنا أتيا ومن تبعكما الغالبون) (٤) النصر وإنجاة من الضر (واقد مننا على موسى وهرون ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) (٦) الهداية إلى الطريقة المثلى (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناها الصراط المستقيم) (٧) حسن السمعة والذكر والصيت (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين) (٨) القربى من الله تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) (٩) التمكن من الخلافة في الأرض (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم وآثرين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ألم تر إلى حديث رجل من آل فرعون (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أقتلون رجلا أن يقول ربي الله) الآيات فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على اللغو أن قام رجل من أعدائه يطالبه قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك ان في هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أو جاهها أو حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عيقيا أن يقوم فيناضل عن أمته بما له أو جاهه أو قلمه فإن الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادي مواليا وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع مزارها ووسع نظامها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) ولما جاهد بنو اسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر في التلاشي إذ ذاك

ودوختهم الأمم الغيرة الفاتحة من فارس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة
(وتمت كفة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون
وقومه وما كانوا يعرشون)

المقالة الخامسة

في عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها

لما نظر المؤلف البحر الأبيض وهو في بور سعيد

دع بني إسرائيل وأخبارهم والمصريين وآثارهم وسر بنا رويداً الى ساحل البحر
والرياح عاصفة والأمواج مصطفة متتابعة كتائب ذات عجيج وزئير تسير جحافلها على
سطح الماء تستلصص الحصى وتلتزم أركان الشاطئ، ذهبية الأصيل وما أمامنا الا الماء
والسماء والهواء يزجي السحاب فيمور مورا ويشير الأمواج فتبني طوداً وتحفر سرباً وغور
قف بنا ننظر غروب الشمس في هذا البحر وكيف اقتنصها وهو ذرة صغيرة
بالنسبة لها . وأطلق نفسك سراحها لتجول في عالمها وعاطفها كئوس العلم في رياض
الفكر عليها تروى صداها وتشم شذاها فتسير في الأرض سيرة وتدور في الفلك دورة
قف وفكر فالعلم غذاء والتاريخ والعمران دواء . أيتها النفس فيم تفكرين وأى
مذهب تذهبين !! هذا البحر المحيط أمالك والشمس تنظر إليه باسمه وقد آذنت
بالرحيل مودعة تشير بطرف العين وراحة السحاب « السلام على العالم » « السلام على العالم »
نظر الشعراء . ماذا تنظرين أيتها النفس . أنتظرين نظرة الشعراء علماء الخيال
الناظرين للجمال يتخيلون تيجان ألماس مكلمة جند الأمواج ويسمعون أنغام الموسيقى
الناجمة من هبوب الرياح فيناجون الأرواح العالية فتنزل عليهم وحى المعاني الجميلة
فيصوغون من صفاء الماء ولطافة الهواء وزرقة السماء وذهب الأصيل صوراً تنعكس في
خيالهم عن عالم المشاهدة فتسمعها شعرا كالدر ونثراً كالجوهر . فان تصور صورة
الصبا قال :

يأبها الرشا المكحول ناظره بالسحر حبسك قدأحرقت أحشائي

ان انقماصك في التيار .حقق ان الشمس تغرب في عين من الماء
وان رجع وأناب وذكر الشيخوخة قال :

منع البقاء تقلب الشمس وظلوعها من حيث لا تسي
وظلوعها حرأ صافية وغروبها صفراء كالورس

نظر الكيماوى :ماذا تنظرين أيتها النفس ؟ أنتظرين الى ما أحاط بالكرة الأرضية
من الماء والملح ممتزجين فتجزئ ذراته وترجميه الى أصله وتحليله الى عناصره فلا يرى
هناك إلا مواد حارة هوائية طائفة وأخرى باردة تطاردها في الهواء والأولى هي
الاكسجين والثانية هي الادروجين . ومن عجب أن يكون هذا الماء من مادتين
هوائيتين لطيفتين لا يراها الراؤون ولا يتخيلهما الحادسون تضادًا طباعًا واتفقتا لطافة
أولاهما محبة بحرارتها وثانيتهما مميتة ببرودتها فكونتا هذا الشكل البهيج للعالم . طالما
قرأنا في الحديث أن البحر نار في نار فلا ندوق له طعما ولا ندرك له فهما فظهر الأمر في
المكتشفات الحديثة أن الماء $\frac{8}{9}$ ثمانية اتماعه المادة المحرقة (الاكسجين) وذلك في الوزن
ققط . وفي حديث آخر تحت البحر نار فظهر أنها تلك الكرة النارية المخلوقة قبل
الأرض وقودها المعادن والكبريت والزئبق مداخلها جبال النار (البراكين) فأنبتها
اعداد المعادن والآلات والصناعة والزينة لمن بعدنا من الأُمم وباليات شعري كيف تكون
من الحار والبارد هذا الجوهر اللطيف وهو الماء فأخرج به جنات وأعشاب وفاكهة وحيوان
وانسان وسمع وبصر وعقل وحكمة

نظر المؤرخ : أم تنظرين الى سطح هذا البحر العظيم وما تحمله الجوارى
المنشآت فيه كالأعلام كأنها مدن بنيت أساسها العلم صنعا والماء وضعا طيرها البخار
في البحار وكلها البرق في أسلاكه والأثير في خفائه وغيابته كأنها وقد جالت في البحار
(إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) عجبا هذه السفن الناهبة الآتية للتجارة
والربح والحرب والسلم . ارجعى أيتها النفس إلى القرون الماضية والأُمم الغابرة والدول
البائدة فكم لهم من غدوات وروحان هناك ترين سفن الفينيقيين وجوبهم هذا البحر

والفرس وقبيزهم الظلوم ، حمله هذا الموج فخذ الشوكات النافذة وقلم الأظفار الخادشة وأنزل الملوك والفراغة عن عروشها . وكانك بالاسكندر المحب في رعاياه يحجوب العباب ويقطع الصعاب وهو يهد شامخات الصروح ويبني المدن ويشيدها . وترين البطالسة وترفهم والرومان وغلبهم والامويين وفتوحهم والعباسيين وعلومهم وأمم الترك وما وراء ذلك من دول وملوك وأساطيل وجنود الاسبان (وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذرى للبشر) مروا سراعا ولولوا تبعاً وقلبوا وجه اليباسة كما قلب هذا الهواء لطيف الماء فهاج الناس وماجوا كما يمج هذا الموج ثم تولت دولهم وذهبت أيامهم كأن لم يغنوا بالأمس

أين الملوك التي كانت محجبة من دونها تضرب الأستار والكلل
نظر الطبيعي . أم تتأملين الاضواء وتركيبها وجمالها وكيف كانت سبعة ألوان تمازجت واتحدت وصورت شكلاً بهجا نضر اللون في الأودية والجبال والبساتين والأشجار والماء وأظهرت محاسن الصور الانسانية . ولولا الضوء ما كان اللون وظل العالم سواداً في سواد ثم نكر كرة عليه فنقول . أعرض هذا الضوء كالألوان والطعوم والروائح تابع لغيره لا استقلال له كيباض الأبيض وجمال الجليل أم هو جوهر كالأجسام يأخذ مقداراً من الفراغ وإذا اخترنا العرضية ونبدنا الجوهرية فكيف ينتقل من الكواكب إلينا ولا استقلال للأعراض فكيف حركتها ونقلها وكيف جاءنا ضوء الشمس في نحو (٨) ثمان دقائق مع أنه كالبياض لا حركة له إلا بحسبه وإذا رسمناه جوهرًا وقدرناه جسماً فما الذي أذهب من العالم إذا توارت الشمس بالحجاب وضربت عليها القباب وهل تذهب الثمرة بذهاب الشجرة أم الولد بموت أبيه ؟ كلا ! ! !

قفي أيتها النفس في حيرتك فاذا لم يكن عرضاً ولا جوهرًا فلا وجود له ! كيف هذا ونحن نشاهده بعيوننا بل لا حياة لنا إلا به . لا . إنما الضوء حركات في الأثير وموج كأماج الصوت في الهواء هذا آخر ما وصل إليه عقل الانسان
أم تنظرين نظرة الفلكي للشمس وانها لا تزيد على مقدار دائرة صغيرة في نظر

العين ولكن العقل أكبرها فنظرها العرب واليونان فأوصلوها ببراهينهم الى ٥٠ أو ٦٠ ضعفاً قدر الأرض وأوصلها علماء العصر الحاضر الى مليون و ٣٠٠ الف مرة مقدار الأرض .. ما أعجب الانسان وأبدعه أرى بعيني هذه الشمس صغيرة فكبرها العقل فتتضاءل علومها ومعارفها

نظر الحكيم : عجباً لك أيتها الشمس . كيف صغرت أيها الكوكب العظيم في العيون وما الذي أنزلت من سماء عظمتك وأنت سيد الكواكب السيارة حولك عطارد والزهرة والمشتري وزحل وأنت أنت الملك العظيم أنت الهيكل الكبير عبدك الأولون وسجد لك الفراعنة الأقدمون جلست على عرش عظمتك في سماء جلالتك بما منحك منشئت ومبدعك من القوة والعظمة فياليت شعري كيف حركتك العيون وأنت في سكون وكيف صغرتك الظنون وأنت ذوى الشئون لا أنا لا أعجب منك أنت إنما العجب من نفسى اذ النفوس الانسانية أعظم منك وأجمل وأبهى وأبهر فأنها بما لها من السلطان عليك والقهر والعظمة بما أوحى اليها من سماء العرفان وما أودع فيها من الحكم والحواس استنزلتك من سماء عظمتك وأغرقتك في البحر فتركتك كالدينار ملقى في الماء فوسعتك البحر وأنت عظيم وأدركتك العين وأنت كبير حتى وقف الاسكندر المقدوني على شاطئ بحر الظلمات وهو جزء صغير من المحيط ورأى الشمس تقرب فيه وما البحر وماؤه في جانب ما في العالم من الأجرام والكواكب الكبيرة الا جزءاً حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ممزوجة بالطين أو حامية حارة . أنت أيتها الشمس ذلك الذى يرسم الليل والنهار بمقدار ويكون الشهور والأيام أم أنت التى تدورين كالرحا على القطبين فتجعلين نصف السنة ليلة واحدة ونصفها الآخر يوماً واحداً ثم تتناقص الأيام والليالى الى شهور فشهرين فشهر فاسبوع فأيام معتادة على قرب المناطق وبعدها كما رسم في أيام المسيح الدجال وكان ذلك من أعاجيب النبوة ومرموزاتها المستورة عن النفوس الضعيفة والعقول الخاملة ؟

ثمرة هذا النظر

أراك أيتها النفس تلمحين من خلال مسطور أنوار العالم نورا وتكتبين على الخيال منه سطورا وقفت موقف الشاعر وأوقدت النار للتحليل السكبادى وأمررت الضوء فى البلور والنشور مع الطبيعى وتأملت معه فى سبعة الألوان فى قوس قزح وقطرت الماء وكررت راجعة إلى غابر الدهور مع التاريخى ونظرت الشمس وما رسمه الأقدمون لها لاحارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة وأما الضوء والحرارة بالانعكاس على الأرض وما قال به العصريون أنها حارة وتركبت من العناصر الأرضية

فيقول الأولون بأنها باقية أبد الأبدىن ودهر الداهرين وكذبهم الآخرون من العرب والأفرنج وأنها ستمحى من صحيفة الوجود كالإنسان وهذا سيرك مع علماء الفلك ثم سبرت الحكمة فى العقول والأبصار واختلاف مقادير الأشياء باختلاف درجاتها وعطفت على المفسرين فى قصص الاسكندر واشتيت مع الفقهاء فى تقدير الأيام إذا زادت عن المعتاد

وهل حظ عقولنا من هذا المجال البديع إلا ان نتعالى بنفوسنا عن الدنيا ونخطو إلى جلائل الأعمال مع عظام الرجال فلتكن النفوس الكبيرة شمس الأمم وبحار الحكم يصدر عنها سحب الطلاب والسائلين ويرد إليها جداول المدح وأنهار الثناء من الشاكرين . لعمرك ما العلوم على تباين أشكالها وتمايز أوضاعها وتكثر فروعها إلا كمال للعقول تستعد بها إلى العروج إلى سماء المدنية وترقى الأمة . عقل يحل الماء ويطيره فى الهواء ويحلل الضوء ويحكم ويتصرف أولى بالاحاطة والشمول وإدارة السبل والعقول

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر

فى ذكر علو همة الأفراد وتشويقهم وفى ذكر كيفية
التوصل بالقرآن الى هذه الطريقة وفى ذكر
ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه

اعلم ان علو الهمة لن يكون لامرئ إلا بما يرد على سمعه من تمجيد الأعمال التى
توافيه فلا تزال السير والقصص تترى على سمعه شهراً فشهراً وسنة فسنة حتى تتربى فى
نفسه الملكة التى استعد لها

ان الله أنزل فى القرآن قصص الأنبياء ومن عجيب أمرها انها كلها ترمى لأمر
واحد وهو جهاد فنصر

جميع قصص الأنبياء تبدأ بالدعوة ثم يكون العناء والقتال والعداوة واحتمال
المشاق ثم يتم نصرهم فى آخر الأمر وهل بعد هذا زيادة لمستزيد فليسر الناس على هذا
النمط ويسمع المجاهدون آيات الجهاد أحاديث وقصص الأبطال الحقيقية والروائية ويسمع
المعدون للعلوم الرياضية الآيات الدالة على الحساب والفلك والنظام وما أشبهها وسير
العلماء الذين نبغوا فى ذلك

وليسمع علماء العلوم الطبيعية ما يسمو بالنفوس اليها والقرآن مشحون بها وهكذا

الاقتصار على علم الفقه

واذا رأينا أumm الإسلام نبغت فى علم الفقه لما رأى علماءها من المشجعات عليه
فجهلوا سواه فى ألف السنة التى انقضت فأحربهم وقد حدثت لهم مشوقات ومرغبات
فى جميع العلوم اليوم وفتح لهم أبواب العلم على مصراعيه اليوم وعلموا علما يقينيا ليس
بالظن انهم مثابون على كل علم وعلى كل صناعة أكثر من ثواب الذين كانوا قانعين
بعلم الفقه الذين لم يسمعوا ما يشوقهم لغيره من العلوم وأنا أحمد الله إذ كتب

هذا وأنا مطلع على أحوال المسلمين اليوم وانهم تفضوا غبار الكسل والنوم وهبوا من رقدتهم واستيقظوا فأنا أحمد الله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده أنا اليوم أيقنت اننى نلت مرادى وهو ان أمم الاسلام حل عقالها وقامت من سباتها وهبت غفلتها وأقبل عزها فأنا أقابل الموت وأقابل الله بعد ذلك وأنا فرح لأن هذه كانت كل أمنيى وقد نالتها كما نالها الكتاب الذين يكتبون فى زماننا لانقاذ أمم الاسلام .

الفصل الرابع عشر

فى ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس بحرم
وفى توحيد العلوم وان الوحدة فيها نظام كل شىء

اعلم أيها الذكى ان الناس إذا عاشوا بحواسهم الخمس الظاهرة فانه لافرق بينهم وبين العجاوات ولقد وجدنا المتوحشين والمتمدنين كلهم يحدون فى نفوسهم اعتقاداً بما هو غائب عنهم فتسمع المتوحش يخاف من العفريت وهو لم يره ويخاف من السحر وهو أمر معنوى وأكثر الأمم مجمعات على الاعتقاد بخالق للعالم قادر وهذه العقيدة عامة وشذ قليل من الناس عنها وعمومها أشبه بعموم الطعام والشراب واللباس فهى ملحقة بالفطرة والحكمة فيها انها نقلت الناس من المحسوسات الى المعقولات فأيقظت عقولهم وذهبت بها فى حياتهم كل مذهب . ان المعقولات نتائج المحسوسات لا يعمل الانسان عملاً إلا بعد فكره فيه فالفكر أصل والعمل تبع وأدق الفكر ما بحث فى موجود ليس بجسم هو مبدأ كل موجود والله من ورائهم محيط ، واعلم ان العلوم كلها ترجع للوحدة ألا ترى ان علم ما وراء الطبيعة يبحث عن الوحدة وكل موجود يسمى واحداً فالعشرة والمائة والألف وما لانهاية له كانه يسمى واحداً فكل موجود نسميه واحداً من جهة ونسميه كثيراً من جهة أخرى فالعالم واحد ولكن عند التفصيل نقسمه إلى أقسام كل قسم نسميه مقولة والمقولات عشر مثل الكيف والكم والمقولات العشر التى قسمت اليها الوحدة تدخل فيها جميع العلوم ولقد وضحتها فى كتابى النظام والاسلام فلا تطيل

بها هنا ، واذا كان الله واحداً والعلوم كلها ترجع الى الوحدة العامة في العوالم فكيف لاتكون للمسلمين وحدة تجمعهم . نعم فرقهم الجهل ولكن اليوم أرسل الله لهم العلم واليوم عرفوا ان كل العلوم يشتمل عليها ديننا فما الذي يفرقهم اذن ؟ العلوم جميعها يطلبها القرآن ومن شك في ذلك فليقرأ كتي لاسيما كتابي الجواهر في تفسير القرآن فاذا قرأه وقرأ غيره أو قرأ هذا الكتاب فلا يسمعه إلا أن يقر ويؤمن بأن العلوم جميعها فروع لدين الاسلام وهذه هي الوحدة الاسلامية فما فرق المسلمين الا الجهل وهذا هو العلم والاتحاد فيه فكيف يتفرون

الفصل الخامس عشر

في ذكر السياحات وفوائدها شرقا وغربا

اعلم ان هذا الفصل كلتمم لجميع الفصول السابقة
إن السفر على قسمين سفر جسمي وسفر عقلي والانسان اذا سافر بجسمه فرأى بعينه وشاهد بحواسه الحس ما في تلك الأقطار من العجائب فانه لا يتم له النفع إلا بالبحث والتنقيب عما رأى وما شاهد . وذلك لا يكون إلا بالعلوم فالسياحات الجسميه كالتممة للسياحات العقلية

فالعالم الذي نبع في علم يزيد فهما بالسفر والاطلاع والمسافر الجاهل يزيد علماً اذا قرأ العلوم التي تبحث فيما شاهده

والله يقول في السفرين معاً (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانهما لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فقوله أفلم يسيروا للسفر الجسمي وقوله فتكون لهم قلوب الخ للسفر العلمي اشارة أي أن السفر الأول بغير الثاني لا قيمة له والمسلمون اليوم عليهم أن يدرسوا أحوال الأمم شرقا وغربا

وهذا من فروض الكفاية بحيث يكون فى الأمة الواحدة جموع لكل مطلوب لها كفايات لما طلبوا والحمد لله رب العالمين

الفصل السادس عشر

المقالات الأصبعية^(١)

المقالة الأولى

الترقى فى الأزهر

الارتقاء سنة طبيعية فى الكائنات من أدناها إلى أعلاها حتى يشمل الامكنة والازمنة والجادات والناميات والنواميس نفسها . ترى الأمم فى ارتقائها وتعديتها تكون آخرتها خيراً من أولها وشبابها خيراً من طفوليتها فاذا ذهبت وخلفتها أخرى إرقت عنها فى ظواهر الأحوال

عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبيها فهل تجد هناك إلا أدنى الحيوان إذ لاتصلح للسكنى فان ارتقيت إلى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والانسان على تمام التوفيقا ارتقاء فى المكان واذا نظرت إلى العناصر وجدت بعضها أرقى من بعض وتدخل فى تركيب النبات وبعضه أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالإنسان وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

وكما خدمت أمة وسكنت حرارة شبابها وتدأت فى الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها فان هبت للعمل ارتقت والافتتنزرها بالزوال من الوجود

هاهى الأمم ارتقت حولنا فى جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وهام أغلب المسلمين فى بقاع الارض ليس لهم نصيب من الترقى الا كسراب بقيعة فياليت شعرى ما الذى أصاب جسم هذه الأمة وأنى مكروب من مكروبات الاجتماع

(١) هذه المقالات كانت أدرجت فى جريدة المؤيد قبل دخولها فى هذا الكتاب

فتك بجسمها وما الذي دهي الاسلام ؟ لعمري أن الاسباب لكثيرة ومن أهمها وأعمها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفنا الآن في حيرة لا يدرى عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين فكان هذا هو العائق الأعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقى فيها حتى انك ترى الجامع الازهر أكبر كلية اسلامية يعتقد كثير من كبار الأمة وعقلائها ان أهله لو عرفوا غير العلوم الأحد عشر لاضمحل الدين وتقلص ظله وها هنا يحسن السؤال أهؤلاء العقلاء معذورون وإذا اتبعوا خطوات كثير من أولئك الزعماء في ذلك فهل ينجيهم عند الله قول أن هذا الداء عضال تمكن من جسم الأمة فلن يخرج إلا بقوة علمية وتأثير صحيح فوجب على من نظر بعين ارتسم على شبكتها علم تخطيط البلدان وما سطره أكابر علماء الاسلام أن يشرحه لعقلاء الأمة ويظهر ما في بطون الدفاتر مما سطره الاقدمون ليطلع عليه عقلاؤنا وكبرأؤنا ليحكموا بين عقل قديم راجح وجهل حادث فاضح ولينظروا في أمتهم وشؤونهم وسنين لعقلائنا ما نعلمه من آراء أكابر علماء الاسلام ولا تقصر فيما يجب علينا فان هذا الزمان هو الذي يجب فيه نشر العلم ولتكن أبحاثنا هكذا

كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

نظام الأزهر

الغزالي والعلوم في الأزهر

الكليات والترقى وهذا الفصل متمم لما قبله

الواقفون والعلماء

ونحو ذلك من المباحث ولنبين ما يجب علينا تلقاء أمتنا حتى نكون قد أرضينا ضميرنا وديننا ولكي يحاسب كل إنسان نفسه وينظر بعقله بين أقوال السادة الكبراء من علماء الاسلام فيما يجب على رجال الدين من العلوم ولا يخضع لبسيط حرم لذيذ العلم ووقف عند طرف قصير من الدين واتع خطوات الخبط في طرق التعليم وليتبين ذلك كله في مقالاتنا وهذا إن شاء الله تشرح به صدور الكبراء وأهل الذكاء ومحبو الإصلاح

الفصل السابع عشر

في المقالة الثانية الملقبة بالأصمعية

كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

يا قوم أرى الأمم تنظر في شئون الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها وقد ذهلت عما يصيب الأزهر الشريف فما أدري أفي جسم الأمة شلل أصاب أعضائها فلا تحس أم وقر في آذانها فلا تسمع أم تحب خطب عشواء في ليل بهم وجود الحياة عدم وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانا طويلة وأعصرأ وحقبا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والأندار بانويل والثبور

يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالأنوار وابتهجت والطرق في كليتنا العظمى في هرمها خالفت المعقول والمنقول والأوائل والأخرو ترى الناس سكارى وما هم بسكارى حيارى وما هم بحيارى ولكن عذاب التقليد والجهل شديد . يا قوم أيجمل في دين المروءة أن يتربع الطالب في الأزهر عشرين سنة مثلا في كتب طالت فقصرت وضخمت فاعتلت فيقرأ المتن والشرح والحاشية والتقرير ثم شرحا آخر وحاشيته وتقريراً وهلم جرا . وربما كان على الكتاب عشرون كتاباً وعلى القاعدة عشرون قولاً وهناك تكون الدهشة والحيرة في حفظ المشاغبات والمناقضات والسباب والشتائم والقذف بلغة انحطت درجتها وضاعت بلاغتها وذهبت ثمرتها ففي النحو يحفظ قول « ابن جني وابن عصفور والكسائي وسيبويه والفراء وغيرهم من الأئمة » والسجاعي والرضي ويس والصبان وغيرهم من المؤلفين وهكذا في كل فن حتى إذا وصل الى تفسير القرآن فانما يقرؤه للبركة لا للفهم واليقين مكثفيا بما رزى به الفؤاد من تلك المشاغبات مقتنعا بما عنده من العلم بل « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق

يهم ما كانوا به يستهزئون » نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواؤه كما قدمنا وقال ان المرض استحكم والشلل عم الأعصاب فهيهات هيهات أن ينجع الدواء . أحيل القارىء على المقالة التى ذكرناها عن ابن خلدون كيف أبان القول وحذر وأنذر وأوجب نسخ هذه الطرق بأقرب منها ووضع التعلم على ثلاث درجات لا غير فى كافة الفنون مبتدئ ومتوسط ومنته مع مراعاة أحوال الزمان والمكان

ومن العجيب ان الفزالى رحمه الله قال كقولہ (وبين الرجلين أربع قرون وقد مضى الثانى وله نحو خمسة قرون)

يا قوم قد حق القول علينا قد مضى اسلافنا وذهلوا عما أنذر به هذان المصلحان وجهلوا أو تجاهلوا حفظا للمرا كز وصونا للمقامات وسترا على الجهل فاستحكمت العادة بعدهم وتأصلت فينا فأصبح رجالنا وعقلاؤنا ونوابنا لا يدرون ما يقولون ثم هم بعد ذلك يرجعون الى سلالة تعلمت من أخرى صموا آذانهم عن النداء يا قوم رعاكم الله هلا قرأتم ففهمتم ما سطره ابن خلدون مما ذكرناه آتفا فان الرجل أسمى نظرا ممن تعظمون وأرق عقلا وأحكم رأيا ممن تعتقدون ألم يقع ما أنذر به من خمسة قرون ألم تكمل المدافع رؤس جبالنا وتتوج قلاعنا بأكاليل من نار ونحن صاغرون صامتون صابرون « إنا لله وإنا اليه راجعون » هل صواعق المدافع ونيران بارودها ورعد مقذوفاتها إلا أثر من آثار العلم وهل تفريق الجامعة والتصديق بالخرافات والتواكل والتخاذل إلا أثر من آثار الجهل حتى قبضت هولندا الغربية الصغيرة على جاوة الشرقية الكبيرة وأذاقتهم العذاب الهون بما كانوا يكسبون . يا قوم هذاكم الله ان أبيتم إلا التقليد فاقروا ما كتبناه عن ابن خلدون وإن حكمت العقل فما لكم لا تنظرون . وإياكم والرضا لقول أقوام عيونهم فى غطاء عن الذكرى فهم لا يبصرون (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وإن رأيتم أن الأمر ضاع والداء استحكم وعز استئصاله فلم لا تنشؤون كلية تحيون بها مجدا هدم وديننا عفا وديننا مضت ألحن أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة أ يكون ديننا أشرف الأديان ونحن أكسل الأمم حتى ترقى اليابانى

والأوروبي والأمريكي وارتقى المثلث وعابد الشمس وبقي الموحد يرسف في قيود الذل والنكال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ها هي صواعق نيران المدافع وكسف القلل النازلة من سماء المدينة الى أرض الجهالة (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين)

الفصل الثامن عشر

في المقالة الثالثة الأصعية

نظام الأزهر

الأزهر أجل مدرسة اسلامية منها ينبغ كثير من الفضلاء والعلماء على ممر الدهور والأجيال وقد سار على شاكها مدارس أخرى في مساجد أمهات القرى كرشيد ودمياط وغيرها فوجب علينا النظر فيها ومن أعجب العجب أن تتعاقب النذر ويتوالى الإرشاد والناس صامتون لا يبدون حرا كما . هذا النظام قد ندد عليه ابن خلدون وأكابر حكماء الاسلام بقى الى الآن . أول حركة للطالب أن يحفظ القرآن حفظاً بلا فهم فاذا أتته وهو في الغالب ابن ١٥ سنة انتظم في سلك تلك المدرسة الجامعة وهو لا يعرف من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ناشدتكم الله يا قوم أليس يضيع زمنه بلا علم ولا تعلم أليس التلميذ في المدارس قد يأخذ البكالوريا وسنه ١٥ فيكون حفظ القرآن وحده بلا معنى كالابتدائية والتجهيزية أليس من الصواب الرجوع الى ما قاله ابن خلدون ولا ريب أن طريقته تشبه طريقة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية ومدرسة القبة لخديوى مصر عباس

رأى الكاتب الأصعى

الذى أراه أن تجعل^(١) له مدرسة ابتدائية تحت نظر الأزهر وتدار بإدارته وتلك

(١) بعد ظهور هذه المقالة قام بهذا العمل العلامة الشيخ محمد شاكر فنحمد الله ونشكره

المدرسة يدخلها من عرفوا مبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب ثم يقرؤون النحو والانشاء والحساب وعلوم الأشياء ممزوجة بمبادئ التوحيد وعلوم الأخلاق ، وبالجملة تكون على مقتضى نظام المدارس الخيرية مع حفظ القرآن وفهم معناه بوجه بسيط كما هو الحال في مدرسة القبة التي هي حنة كبرى من حسنات الخديوى عباس حتى إذا أتم الطالب سنين معدودة امتحن فإذا نال الشهادة انتظم في سلك الطلبة الذين يخوضون في غايات العلوم ولعلك يا أخى تقول أن الأزهر ليس عنده استعداد لانشاء مدرسة قلنا لم لا يجعل قسم خاص يكون فيه الدرس على هذا النمط حتى يكون القرآن معروفاً لفظاً ومعنى ، فان قلت أن القديم يبقى على قدمه أقول هذا هو الانحطاط بعينه وإذا كانت الأمة تشكو من القضاء الشرعى وانحطاطه وتدعو بالويل والثبور مع انتشار الخرافات بين الخاصة والعامة .

ألم يكن ذلك من تلك التربية الضعيفة ، وكيف يبقى الطالب ١٥ سنة أو نحوها وهو لم يدر في الدنيا شيئاً ثم يتعلم بعد ذلك .

أليست الملكات قد رسخت عنده وتفسر اقتلاعها ، أليس ابقاؤه تلك المدة بين يدى معلم جاهل كافياً لذهاب الفطنة من رأسه وخروجه من الحياة صفر اليدين أليست العلوم تبقى بعد ذلك سطحية إذ المؤثر على المرء ما يسمعه في أول حياته ويتلقاه في مبدأ صباه وهل أذاك نأ التدريس بعد ذلك وهو لعمر ك نأ أعظم لا يدخل العلم في الأذهان إلا من وراء حجب الجدال العنيف

يبتدىء الطالب وهو لا يحسن قراءة سطرين ولا فهم جملتين ولا إعراب كلمتين وأول ما يبدأ إذ ذاك بالبسملة وإعرابها وإن لها تسعة أوجه ويقال بسم الله الرحمن الرحمن الرحمن وإن هذه الأوجه الثلاثة مع أوجه الرحيم الثلاثة بضرها في بعضها تبلغ تسعة ثم يقال له هذا هو النعت المقطوع ففي حال النصب يكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره أمدح الرحمن أمدح فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا والرحمن منصوب وعلامة نصبه فتحة

ظاهرة في آخره وهذا بعض اعراب وجه من الأوجه التسعة ويجرى الباقي على مقتضاه
فيكون إعراب الأوجه التسعة شاغلا كراسة بتمامها ثم يحفظ هذا النظم ليعلم أن وجهين
منها ممنوعان وليكون ضابطا وقائدا

أن ينصب الرحمن أو يرتفعاً فالجري الرحيم قطعاً منعا
وأن يجر فاجز في الثاني ثلاثة الأوجه خذ بياني
فهذه تضمنت تسعا منع وجهان منها فادر هذا واستمع

ومن المدهشات أن علم الفقه تقرأ عباداته ومعاملاته من البيع والشراء والقرض
وغيرها تعبداً ، ويبقى الطالب ما بين العشرة إلى الخمس عشرة سنة وهو يتعلمها ثم
يجلس على منصة الأحكام فيفضل فيها بعد أن ضاع الزمان ومات شطو من عمره وهذا
التلميذ يدخل مدرسة الحقوق ويقرأ لغتين فيها ويلم بأطراف القوانين والأحكام ، ثم
يكر كرة على اللاتينية فيتعلمها ليعرف كيف يفهم القانون الروماني كل ذلك في أربع
سنين وكيف يرى ذلك القاضي الأهل نفسه أرفع مقاما من ذلك العالم الديني أليس
هذا كله من جراء طريقة التعليم ورداءتها

أقول هذا وأنا أعلم أنه لن يقدر هذا القول حق قدره إلا علماء الأمة وأكابرها
والمأمول من أولياء الأمور أن ينظروا في هذه المدرسة وينقلوا طلبتها وطلبة مدارس
أخرى ربما بلغت ١٥ ألفاً من الضياع .

وإذا كان نظام التعليم يبقى على ما هو عليه الآن ، فلا غرابة إذا كان القاضي
والمفتي المتخرجان يقضيان ويفتيان بما نرى ونسمع كل يوم وكيف يجوز السكوت على
هذه الوصمة وقد أحاطت بنا الأفرنج من كل جانب وأحدثت بنا الأعين تزلزلا
بأبصارها فمهما سهونا أو لهونا فدوسنا بالقدم وسوقنا إلى العدم أسرع من لمح البصر
سنة لله في خلقه ولن تجد لسنة تبديلا

الفصل التاسع عشر

في المقالة الرابعة الأصمعية

الغزالي والعلوم في الأزهر

ذكرنا فيما سبق ما قاله علماءنا رحمهم الله تعالى وما يوجب العقل والنقل في طريقة التعليم وتغييرها واتباع أحسنها ، والآآن نبحت في العلوم الواجب على الأمة معرفتها والاستبصار بها فاني علمت أن كثيراً من عقلائنا يخذعونهم قول القائلين إن علوم الدين إذا صحبت غيرها أضر ذلك بها موهمين الناس أن علوم الدين الاسلامي قاصرة على ما يقولون ولا شاهد على ما يقولون

من لى بأن يقرأ العقلاء ما سطره الغزالي في الجزء الأول من الاحيا من الحط على العلماء وذمه الاقتصار على فنون محدودة وترك الطب الذي يعتبره علماء الشريعة حجة في الفتاوى وبين الأسباب الداعية للتوغل في الفقه وأبان أن ذلك للدنيا وحدها لا للدين وقال ما نصه (أعلم أن الغرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالاضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه كالحساب والتجربة مثل الطب والسمع مثل اللغة .

فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفرضه

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فانه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها .

وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا أن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة، بل الحياكة والحياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وعرضوا أنفسهم إلى الهلاك فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج، وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم السحرة والتلبيسات. وأما المباح فالعلم بالأشعار التي لا تخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه (ثم قال بعد كلام طويل ما نصه) فإن قلت لم ألحق الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا — فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق فأخرجهم من الأضلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للميعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود

فلو تناولوها بالعدل لا تقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطها لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ولعمري أنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة فإن الدنيا مزرعة للآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا والملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فهدوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة

الأولى بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم ان الحج لا يتم إلا بيزدقة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق الى الحج شيء ثان والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ومعرفة طرق الحراسة وقوانينها شيء رابع وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ثم قال رحمه الله (ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وإن احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً في حفظه ودرسه ويفعل عما هو مهم نفسه في الدين وإذا روجع فيه قال اشتغلت لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه والقطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء الأمر في فرض الكفاية لتقديم عليه فرض العين بل لتقديم عليه كثيراً من فروض الكفايات، وكـم من بلدة ليس فيها طبيب من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به ويتهاقنون على علم الفقه لاسيما الخلافات والجدييات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال مالا قائم به هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر للوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقليد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتبليس علماء السوء فأنه المستعان واليه الملاذ في أن يعيدنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان

الفصل العشرون

في المقالة الخامسة الاصمعية

الكليات والترقى

قال رحمه الله (لا ينبغي للطالب أن يدع فنا من فنونه المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم أن ساعده العمر طلب التبصر فيه ولا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية فإن العلوم كثيرة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الأنفكاك من عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) قال الشاعر

ومن يك ذا فم مرمريض يحجد مرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها اما سالكة بالعبد إلى الله تعالى أو معينة على السلوك نوعاً من الاعانة ولها منازل مرتبة في القرب والبعد والمقصود والقوام بها حفظة كحفاظ الرباط والتفوق ولكل واحد مرتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة) انتهى كلامه بالحرف الواحد ثم يقول عجباً كيف يدعى قوم أنهم عرفوا التوحيد وهم يجهلون ما ذرا الله في الكائنات أم كيف يقرأون القرآن وهم عن آيات الله في السموات والأرض معرضون (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) من لى بأن يقف عقلاء الأمة على ما بين أيدي القوم الآن من عبارات مشوشة مشؤومة وما سطره المتقدمون هذا اعظم كتاب بين ظهرانينا (جمع الجوامع) وكم يطنطنون بقولهم « شكر المنعم واجب » وكثيراً ما جعلت هذه العبارة امتحاناً للطالب في علم الأصول حتى يقرر علماً فيا ليت شعري ما الذي يستفيدة القارىء من تلك العبارات والمجادلات والمناقضات والخلاف بين أهل السنة والمعتزلة وبعد هذا وذاك تقول احدى الحواشي لم يرد في علم الفقه ان شكر المنعم واجب ..

دعنا من هذا الخطب الجلل المدهم العظيم وانظر الشكر في الجزء الرابع من

الاحياء وكيف فصله وقسمه وتأمل كيف ذكر سعادة الانسان في دينه ودينه وكيف فصل السعادات تقسيما عجز عنه فطاحل علماء الغرب وهاهو العلامة جون لباك الانجليزى أحد أعظم الانجليز الآن الذى يشار اليه بالبنان بين أمتة وجميع علماء أوربا قد ألف كتابا في سعادة الحياة وترجم الى اكثر اللغات وإذا قارناه مع ضخامته وحسن تركيبه وترصيعه وما حوى من حكم وأمثال وجمال لانهجده قسم السعادة وفصلها ورتب أقسامها واستوفها كما فعل الغزالي في باب الشكر مع الوجازة فليراجعه من أراد ولينظر ويقارن بين عالم شرقى مضى له تسعة قرون وعالم غربى ولينأمل فلسفة الفريقين وحكمة الرجلين في باب السعادة (الذى جعله الغزالي استطرادا في باب الشكر كما قدمنا) وكيف أدخل رحمه الله جميع أقسام العلوم والمعارف وأحوال الدنيا والآخرة فيها ثم لنكر كرة على جمع الجوامع ونقرأ شكر المنعم فيه فبماذا يا قوم تحمكون قال علماءنا علوم العربية كلها من علوم الدنيا يقرؤها المسلم واليهودى والنصرانى والمجوسى وعابد الشمس وكل صاحب دين ونحلة ولكن يتوقف عايتها معرفة الكتاب والسنة وعلم الطبيعة ومعرفة ما خلق الله في الارض والسماء مما يتوقف عليها معرفة الله وجماله وحكمته في خلقه وأن آيت يا صاح الا الافصاح فاقراً باب التفكير في الاحياء فهل ترى النظرة في علم الطبيعيات التى حرم منها طلبة العلم وتعلمها أصغر تلميذ في مدارس أوروبا هاهم يا قوم أهل الغرب قاطبة وتبعهم يابان الشرق يدرسون من كل علم طرفا أولا حتى إذا نالوه وصلوا غايته الوسطى (الشهادة الثانوية) رأيت كل واحد اختار فنا للتضلع فيه وصار ركنا في الأمة لهذا الفن يا قوم أليس هذا ما قاله الغزالي من نحو تسع قرون. يا قوم كناملوكا على الأسرة فأصبحنا أذنا بالالتقليد والجهل فهل أنتم منتهون... أحيل القارىء على تفسير الرازى لينظر كيف ذكر فيه من كل فن من الطبيعيات والرياضيات والالهيات أتقول بعد هذا أن هذه العلوم ليست من الدين يا قوم مالنا أصبحنا ننكر الضروريات وعميت علينا السبل يا قوم ان فؤادى لينفطر الآن على ما أصاب جسم الأمة ومادهى رجالها وهذا مقدورى وغاية وسعى به أخرج من حد الكتمان وهل يجوز بعد هذا أن ينكر من تربوا تربية ناقصة حتى اذا مروا على حكمة من حكم الله أو عجيبة من عجائبه

قالوا هذا ليس من الدين . العلوم شجرة أصلها ثابت في الأفئدة فروعها كل علم ثمرتها الأعمال وأصل العلوم معرفة الله تعالى وجماله ولا سبيل الى ذلك إلا بالعلوم الطبيعية التي جعلها الله أول واجب على الانسان لمعرفة كما في مثات الآيات وأقوال أكابر العلماء وسنبين ذلك في المقال الآتي من كلام ابن رشد صبحاً . أليس الصبح بقريب

الفصل الحادى والعشرون

في المقالة السادسة الأصمعية

الأزهر وابن رشد

ذكرنا في سابق قوتنا طرفاً من كلام ابن خلدون والغزالي في رداة التعليم والقصور في العلوم وهاهو ذا ابن رشد رحمه الله قال (أن فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع أعني من جهة ما هي مصنوعاته فان الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعها وانه كما كانت المعرفة بصنعها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك فبين ان ما يدل عليه هذا الاسم إما واجب بالشرع وإما مندوب اليه فاما ان الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى أو العقلى والشرعى معاً ومثل قوله تعالى (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) وهذا حث على النظر في جميع الموجودات واعلم انه ممن خصه الله تعالى بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (وكذلك فرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت) وقال (ويتفكرون في خلق السموات والأرض)

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة اه ثم قال في موضع آخر (اعلم ان الذي قصده الشرع من معرفة العالم هو انه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له وانه لم يوجد عن الاتفاق من نفسه فالطريق التي سلك الشرع بالناس في تقرير هذا الأصل ليس هو طريق الأشعرية فانا قد بينا ان تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ولا هي من الطرق العامة المشتركة بالجميع وهي الطرق البسيطة أعني بالبسيطة القليلة المقدمات التي نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها وأما البيّنات التي تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التي تنبني على أصول متفنتة فليس يستعملها الشرع في تعليم الجمهور ومن سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق أعني البسيطة وتأن ذلك على الشرع فقد جهل مقصده وزاغ عن الطريقة وكذلك أيضاً لا يعرف الشرع بأمثال هذه المقاييس من الأمور إلا ما كان له مثال في الشاهد وما كانت الحاجة إلى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك بأقرب الأشياء شها به كالحال في أحوال المعاد وما لم تكن لهم به حاجة إلى معرفته في هذا الجنس عرفوا انه ليس من علمهم كما قال تعالى في الروح واد قد تقرر لنا في هذا الأصل فواجب ان تكون الطريقة التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع وواجب ان كان حدوثه ليس له مثال في الشاهد أن يكون الشرع استعمل في تمثيل ذلك حدوث الأشياء المشاهدة فاما الطريق التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور ان العالم مصنوع لله تبارك وتعالى ، فانه اذا تؤملت الآيات التي تضمنت هذا وجدت تلك الطرق هي طريق العناية وهي احدى الطرق التي قلنا انها الدالة على وجود الخالق تعالى وذلك انه كما ان الانسان إذا نظر إلى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل وبغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع ان لذلك الشيء صانعا صنعه ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة وانه ليس يمكن أن يكون اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق مثال

ذلك انه إذا رأى انسان حجرا موجودا على الأرض ووجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ووجد أيضا وضعه كذلك وقدره علم ان ذلك الحجر إنما صنعه صانع وهو الذى وضعه كذلك وقدره فى ذلك المكان وامامتى لم يشاهد شيئا من هذه الموافقة للجلوس فانه يقطع ان وقوعه فى ذلك المكان ووجوده بصفة ما هى بالاتفاق ومن غير أن يجعله هكذا فاعل . كذلك الأمر فى العالم كله فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التى هى سبب الأزمنة الأربعة وسبب الليل والنهار وسبب الأمطار والمياه والرياح وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس وسائر الحيوانات البرية وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية والهواء للحيوانات الطائرة ولو انه اختلف شئ من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التى ههنا علم بالقطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التى فى جميع اجزاء العالم للإنسان والحيوانات والنبات بالاتفاق بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراحه هو الله عز وجل وعلم على القطع ان العالم مصنوع وذلك انه يعلم ضرورة انه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع بل عن الاتفاق فاما ان هذا النوع من الدليل قطعى وانه بسيط فظاهر من هذا الذى كتبناه وذلك إن مبناه على أصليين معترف بهما عند الجميع أحدهما ان العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التى ههنا والأصل الثانى ان كل ما يوجد موافقا فى كل جميع أجزائه لفعل واحد ومسدد نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة فينتج عن هذين الأصلين^١ بالطبع ان العالم مصنوع وانه له صانع وذلك إن دلالة العناية تدل على الأمرين معا ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع وإما ان هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود فى الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التى يذكر فيها بدء الخلق فمنها قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) الى قوله (وجنات ألفافا) فان هذه الآية اذا تؤملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان وذلك انه ابتداء فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الأبيض والأسود وهو أن الأرض خلقت يأتى لنا المقام عليها

وانها لو كانت متحركة أو بشكل آخر غير شكلها أو في موضع آخر غير هذا الذى
هى فيه أو بقدر غير هذا القدر ما أمكن ان توجد فيها ولا أن نخلق عليها وهذا كله
محصور في قوله تعالى « ألم نجعل الأرض مهادا » وذلك ان المهاد يجمع الموافقة في الشكل
والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثابة واللين فما أعجب هذا الاعجاز وأفضل
هذه السعادة وأغرب هذا الجمع وذلك انه قد جمع في لفظ مهاد جميع ما في الأرض من
موافقتها لكون الانسان عليها وذلك شيء قد تبين على التمام للعلماء في ترتيب من الكلام
طويل وقدر من الزمان غير يسير والله يختص برحمته من يشاء وأما قوله تعالى « والجبال
أوتادا » فانه نبه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الأرض من قبل الجبال فانه
لو قدرت الأرض أصغر مما هي كأن كانت دون الجبال لتزعزعت من حركات باقى
الاسطوانات أعنى الماء والهواء ولتزلزلت وخرجت من موضعها ولو كان ذلك كذلك
هلك الحيوان ضرورة فاذن موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض بالاتفاق
وإنما عرضت عن قصد قاصد وإرادة مريد فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه
وموجودة له على الصفة التى قدرها لوجود ما عليها من الموجودات ثم نبه أيضاً على
موافقة وجود الليل والنهار للحيوان فقال تعالى « وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا »
يريد ان الليل جعله كالسترة واللباس للموجودات ههنا من حرارة الشمس وذلك انه
لولا غيبة الشمس بالليل هلكت الموجودات التى جعل الله حياتها بالشمس وهو الحيوان
والنبات فلما كان اللباس قد يقي من الحر مع انه سترة وكان الليل يوجد فيه هذان
العنيان سماه الله لباساً وهذا من أبداع الاستعارة وفي الليل أيضاً منفعة أخرى للحيوان
وهو أن نومه يكون فيه مستغرقا لما كان ذهاب الضوء الذى يحرك الحواس الى البدن
الذى هو اليقظة ولذلك قال تعالى (وجعلنا نومكم سباتا) أى مستغرقا من قبل ظلمة
الليل ثم قال تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شديدا وجعلنا سراجا وهاجا » فعبّر بلفظ البنين
عن معنى الاتقان الموجود فيها والنظام والترتيب وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من
اللقوة على الحركة التى لا تفتر عنها ولا يلحقها من قبلها ملال ولا تخاف ان تنخر كما تنخر

السقوف والمباني العالية الى هذه الاشارة بقوله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) وهذا كله تنبيه منه على موافقتها في أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها حتى انه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة لفسد ما على وجه الأرض فضلا عن أن تقف كلها وقد زعم قوم أن النفخ في الصور الذي هو سبب الصعقة وقوف الفلك ثم نبه على منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض فقال تعالى « وجعلنا سراجا وهاجاء » وإنما سراجا لأن الأصل هو الظلمة والضوء طارىء على ظلمة الليل ولولا السراج لم ينتفع الانسان بحاسة بصره بالليل وكذلك لولا الشمس لم ينتفع الحيوان بحاسة بصره أصلا وإنما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط دون سائر منافعها لأنها أشرف منافعها وأظهرها ثم نبه تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر وأنه إنما ينزل بمكان النبات والحيوان وأن نزول المطر بقدر محدود وفي أوقات محدودة لنبات الزرع ليس يمكن يعرض عن الاتفاق بل سبب ذلك العناية بما هنا فقال تعالى (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) والآيات التي في القرآن في التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبئكم من الأرض نباتا) ومثل قوله تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) ولو ذهبنا لنعدد هذه الآيات ونفصل ما نهت عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصنوع لما وسع ذلك مجلدات كثيرة وليس ذلك قصدنا في هذا الكتاب ولعلنا أن مد الله في الأجل ووقع لنا فراغ أن نكتب في العناية التي نبه عليها الكتاب العزيز وينبغي أن تعلم أن هذا النوع من الاستدلال في غاية المضادة للاستدلال الذي زعمت الأشعرية أنه الطريق الى معرفة الله سبحانه وذلك أنهم زعموا أن دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من أجل حكمة فيها تقتضي العناية ولكن من قبل الجواز أي من قبل ما يظهر في جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه الصفة أوضدها فإنه ان كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ولا توجد ههنا موافقة أصلا بين

الانسان وبين أجزاء العالم وذلك انه ان كان يمكن على زعمهم أن تكون الموجودات على غير ما هي عليه كوجودها على ما هي عليه فليس ههنا موافقة بين الانسان وبين الموجودات التي اتمن عليه الله بخلقها وأمره بشكره عليها فان هذا الرأي الذي يلزمه أن يكون أمكان خلق الانسان جزء من هذا العالم كأمكان خلقه في الخلاء مثلا الذي يرون أنه موجود بل والانسان عنده يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقة أخرى ويوجد عنه فعل لانسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم آخر يخالف بالحد والشرح لهذا العالم فلا تكون نعمة ههنا يمتن بها على الانسان لأن ما ليس بضروري ولا من جهة الافضل في وجود الانسان فالانسان مستغن عنه وما هو مستغن عنه فليس وجوده بانعام عليه وهذا كله خلاف ما في فطر الناس وبالجملة فكأن من أنكر وجود المسببات مرتبة على الاسباب في الامور الصناعية أو لم يدركها فهمه فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الاسباب في هذا العالم فقد جحد الحكيم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقولهم أن الله أجرى العادة بهذه الاسباب وأنه ليس لها تأثير في المسببات باذنه قول بعيد جدا عن مقتضى الحكمة بل هو معطل لها لان المسببات ان كان يمكن أن توجد من غير هذه الاسباب على حد ما يمكن أن توجد بهذه الاسباب فأى حكمة في وجودها عن هذه الاسباب وذلك أن وجود المسببات عن الأسباب لا يغلو من ثلاثة أوجه اما أن يكون وجود الاسباب لمكان المسببات من الاضطرار مثل كون الانسان متغذيا وإما أن يكون من أجل الافضل أعني لتكون المسببات لذلك أفضل وأتم مثل كون الانسان له عينان واما أن يكون ذلك لا من جهة الافضل ولا من الاضطرار فيكون وجود المسببات عن الاسباب بالاتفاق وبغير قصد فلا تكون هنالك حكمة أصلا ولا تدل على صانع أصلا بل إنما تدل على اتفاق وذلك انه ان كان مثلا ليس شكل يد الانسان ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضروريا ولا من جهة الافضل في الامساك الذي هو فعلها وفي احتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل وموافقتها لامساك آلات جميع الصنائع فوجود أفعال اليد الذي هو

عن شكلها وعدد أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق ولو كان ذلك كذلك لكان لافرق بين أن يخص الانسان باليد أو الحافر أو بغير ذلك مما يخص حيوانا من الشكل الموافق لفعله وباجته متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن ههنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق أعني الذين يقولون لا صانع ههنا وان جميع ما حدث في هذا العالم إنما هو عن الاسباب المادية لأن أحد الجائزين هو أحق أن يقع عن الاتفاق منه أن يقع على فاعل مختار وذلك انه إذا قال الاشعري أن وجود أحد الجائزين أو الجائزات هو دال على أن ههنا مخصصا فاعلا كان لأولئك أن يقولوا ان وجود الموجودات على أحد الجائزين أو الجائزات هو عن الاتفاق لأن الارادة إنما تفعل لمكان سبب من الاسباب والذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق إذ كنا نرى أشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة مثل ما يعرض للاستقساط أن تخرج امتزاجا بالاتفاق فيحدث عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر فتكون على هذه جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق أما نحن فلما كنا نقول أنه واجب أن يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه وأن الامتزاجات محدودة مقدرة والموجودات الحادثة عنها واجبة وأن هذا دائما لا يختل لم يمكن أن يوجد ذلك عن الاتقان لأن ما يوجد عن الاتقان هو أقل ضرورة وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وأى إتقان يكون ليت شعري في الموجودات ان كانت على الجواز لأن الجائز ليس هو أولى بالشئ من ضده وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) وأى تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة فمن زعم مثلا أن الحركة الشرقية لو كانت غربية والغربية شرقية لم يكن في ذلك فرق في صنعة العالم فقد أبطل الحكمة وهو مكن زعم أنه لو كان اليمين من الحيوان شمالا والشمال يميناً لم يكن في ذلك فرق في صنعة الحيوان فان أحد الجائزين كما يمكن أن يقال فيه إنما وجد على أحد الجائزين من فاعل مختار كذلك ممكن أن

يقال أنه إنما وجد على أحد الجائزين بالاتفاق إذ كنا نرى كثيرا من الجائزات توجد على أحد الجائزين بالاتفاق وأنت لتبين أن الناس بأجمعهم يرون أن المصنوعات الخسيسة هي التي يرى الناس فيها أنه كان يمكن أن تكون على غير ما صنعت عليه حتى أنه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق وأنهم يرون أن المصنوعات الشريفة هي التي يرون فيها أنه ليس يمكن أن تكون على هيئة أتم وأفضل من الهيئة التي جعلها عليها صانعها فاذن هذا الرأي من آراء المتكلمين هو مضاد للحكمة والشريعة ومعنى ما قلناه من أن القول بالجواز هو أقرب إلى نفي الصانع عن أن يدل على وجوده مع أنه ينفي الحكمة عنه وأنه متى لم يعقل أن ههنا أواسط بين المبادئ والغايات في المصنوعات تترتب عليها وحدها وجود الغايات لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب واذالم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة أن لهذه الموجودات فاعلا مريداً عالماً لأن الترتيب والنظام وبناء المسببات على الأسباب هو الذي يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة وأما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل غير حكيم عن الاتفاق عنه مثل أن يقع حجر على الأرض عن الثقل فيه فيسقط على جهة منه وعلى موضع دون موضع أو على وضع دون وضع فإن هذا القول يلزم عنه ضرورة إما ابطال وجود الفاعل على الإطلاق وإما ابطال وجود فاعل حكيم عالم تعالى الله وتقدس أسأؤه عن ذلك وأما الذي قاد المتكلمين من الأشعرية إلى هذا القول فالهروب من القول بفعل القوى الطبيعية التي ركبها الله في الموجودات التي ههنا كما ركب فيها النفوس وغير ذلك من الأسباب المؤثرة فهربوا من القول بالأسباب لئلا يدخل عليهم القول بأن ههنا أسبابا فاعلة غير الله وهيئات لا فاعل ههنا إلا الله اذا كان مخترع الأسباب وكونها أسبابا مؤثرة هو باذنه وحفظه لوجودها وسنين هذا المعنى بيانا أكثر في مسألة القضاء والقدر وأيضا فانهم خافوا أن يدخل عليهم من القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادرا عن سبب طبيعي ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة وأنه لا شيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة في الاحكام

لعلمو أن القائل بنفى الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيماً من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم بمجده جزءاً من موجودات الله وذلك أن من جحد جنساً من المخلوقات الموجودات فقد جحد فعلاً من أفعال الخالق سبحانه ويقرب هذا ممن جحد صفة من صفاته فإما كان نظره هؤلاء القوم مأخوذاً من بادىء الرأى وهو الظنون التى تخطر للإنسان من أول نظرة وكان يظهر فى بادىء الرأى أن اسم الإرادة إنما يطابق على من يقدر أن يفعل الشيء وضده رأوا أنهم إن لم يصلوا إلى أن الموجودات جائزة لم يقدرُوا أن يقولوا بوجود فاعل مرید فقالوا إن الموجودات كلها جائزة ليشبثوا من ذلك أن المبدأ للفاعل مرید كما أنهم لم يروا الترتيب الذى فى الأمور الصناعية ضرور ياوهو مع ذلك صادر عن فاعل مرید وهو الصانع وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفي الحكمة عن الصانع أو دخول السبب الاتفاقي فى الموجودات فإن الأشياء التى تفعلها الإرادة لا لمكان شيء من الأشياء أعنى لمكان غاية من الغايات فهى عبث ومنسوبة إلى الاتفاق ولو علموا كما قلنا أنه يجب من جهة النظام الموجود فى أفعال الطبيعة أن تكون موجودة عن صانع عالم وإلا كان النظام بالاتفاق لما احتاجوا أن ينكروا أفعال الطبيعة فينكروا^(١) جنداً من جنود الله التى سخرها الله تعالى لايجاد كثير من موجودات بآذنه ولحفظها وذلك أن الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها لها من خارج وهى الأجسام السماوية وبأسباب أوجدها فى ذرات تلك الموجودات وهى النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ بذلك وجود الموجودات وتمت الحكمة فمن أظلم ممن أبطل الحكمة واقتدى على الله الكذب فهذا مقدار ما عرض من التغيير فى هذه الشريعة فى هذا المعنى وفى غيره من المعانى التى يتناها قبل ونبيها فيما يأتى إن شاء الله تعالى فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق له ومصنوع هى ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التى فيها وبخاصة

(١) إن آراء العلامة ابن رشد فى هذا المقام كنت اطلعت عليها بعد أن ألفت كتابى جواهر العلوم وميزان الجواهر فسررت هذا القول الذى وافقتى فيما أكتبه وهما ذا كتابى نظام العالم والأسم على النمط الذى اختاره ابن رشد وهكذا كتابى الجواهر فى تفسير القرآن اه المؤلف

بالانسان وهى طريقة نسبتها فى الظهور إلى العقل نسبة الشمس فى الظهور الى الحس
واما الطريق التى سلك بالجمهور تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد وان كان ليس له
مثال فى الشاهد اذ ليس يمكن للجمهور أن يتصوروا كنهه ما ليس له مثال فى الشاهد
فأخبر تعالى ان العالم وقع خلقه اياه فى زمان وان خلقه من شىء إذا كان لايعرف فى
الشاهد مكون إلا بهذه الصفة فقال سبحانه مخبراً عن حالته قبل كون العالم وكان عرشه
على الماء وقال تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وقال
(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) إلى سائر الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا
المعنى فيجب أن لا يتأول شىء من هذا للجمهور ولا يتعرض لتنزيهه على غير هذا التمثيل
فانه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية فلما أن يقال لهم ان عقيدة الشرع فى العالم
هى انه محدث وانه خلق من غير شىء وفى غير زمان فذلك شىء لا يمكن أن يتصوره
العلماء فضلاً عن الجمهور فينبغى كما قلنا أن لا يعدل فى الشرع عن التصور الذى وضعه
للجمهور ولا يصرح لهم بغير ذلك فان هذا النوع من التمثيل فى خلق العالم هو الموجود
فى القرآن وفى التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ومن العجب الذى فى هذا المعنى أن
التمثيل الذى جاء فى الشرع فى خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذى فى الشاهد أطلق
ولكن الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ وذلك تنبيه منه للعلماء على أن حدوث العالم
ليس هو مثل الحدوث الذى فى الشاهد .

وأما أطلق عليه لفظ الخلق ولفظ الفطور وهذه الألفاظ تصلح لتصور المعنيين
أعنى لتصورا لحدوث الذى فى الشاهد وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند
العلماء فى الغائب فاذن استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة فى الشرع وموقع فى شبهة
عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة الجدليين منهم ولذلك عرضت أشد حيرة تكون
وأعظم شبهة للمتكلمين من أهل ملتنا أعنى الأشعرية وذلك انهم لما صرحوا ان الله
مريد بارادة قديمة وهذا بدعة كما قلنا ووصفوا ان العالم محدث قيل لهم كيف يكون
مراد حادث عن ارادة قديمة فقالوا ان الارادة القديمة تعلقت بإيجاده فى وقت مخصوص
وهو الوقت الذى وجد فيه فليل لهم ان كانت نسبة الفاعل المريد إلى المحدث فى وقت

عدمه هي بعينها نسبتها اليه في وقت ايجاده فالمحدث لم يكن وجوده في وقت وجوده أولى منه في غيره إذا لم يعلق به في وقت الوجود فعل انتفى عنه في وقت العدم وان كانت مختلفة فهناك ارادة حادثة ضرورة والاوجب أن يكون مفعول محدث عن فعل قديم فان ما يلزم من ذلك في الفعل يلزم في الارادة وذلك انه يقال لهم اذا حضر الوقت وقت وجوده فوجد هل وجد بفعل قديم أو بفعل محدث فان قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود المحدث بفعل قديم وان قالوا بفعل محدث لزمهم أن يكون هنالك ارادة محدثة فإن قالوا الارادة هي نفس الفعل فقد قالوا محالاً فان الارادة هي سبب الفعل في المراد ولو كان المريد اذا أراد شيئاً ما في وقت ما وجد ذلك الشيء عند حضور وقته من غير فعل منه بالارادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجوداً من غير فاعل وأيضاً فقد يظن انه ان كان واجباً أن يكون عن الارادة الحادثة مراد حادث فقد يجب أن يكون عن الارادة القديمة مراد قديم والا كان مراد الارادة القديمة والحادثة واحداً وذلك مستحيل فهذه الشبهة كلها إنما أثارها في الاسلام أهل الكلام بتصریحهم في الشرع بما لم يأذن به الله فانه ليس في الشرع انه سبحانه وتعالى مرید بإرادة حادثة ولا قديمة فلا هم في هذه الاشياء اتبعوا ظواهر الشرع فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ولا هم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين فكانوا ممن سعادته في علوم اليقين ولذلك ليسوا من العلماء ولا من جمهور المؤمنين المصدقين وإنما هم من الذين في قلوبهم زيغ وفي قلوبهم مرض فانهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم وسبب ذلك العصبية والحبة وقد يكون الاعتقاد لأمثال هذه الأقاويل سبباً للانحلال عن المعقولات كما نرى يعرض للذين مهروا بطريق الأشعرية وارتاضوا بها من الصبا فمؤلاً لا شك محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فهذا الذي ذكرناه من أمر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا) اه كلام ابن رشد فترى بهذا أنه قد أنحى على رداءة تعليم التوحيد وفصل ما يدرس الآن في الأزهر منه تفصيلاً وأخذ يشرح العقائد واحدة واحدة وقال ان هذا غير ما شرحه القرآن وما طلبه الرسول واقتضاه الدين وأشار بتغيير هذه الطرائق بطرق أخرى تطابق كتاب الله الذي طلب النظر في العوالم ومعرفة

الحكمة وإلا فكل ما بيننا الآن إنما هي فضلات من حثالات اليونان القديمة الخشوة في الكتب المنافية لشريعتنا ومن العجب أنك ترى الكتب تحارب أعداء ماتوا ليس لهم وجود وما مثل هذه في محاربتهم لليونان وجذاهم في الكتب وذمهم على الألسنة إلا كمثمل قوم من الخوارج الآن يحاربون معاوية واليزيد وغيرهما ويتكون كل ما أحاط بنا من كل جانب كأنه كتب علينا أن نذر مصالحنا ونندب ما مضى وليت شعري هذه أوروبا وأمريكا أخذ أهلوهما يحظ وافر من العلم واهتدوا بهدى علمائهم وحكائهم وهذه الأمة مضى لها قرون طويلة وأعمار وهى تنبذ الحكماء وتبغض المصلحين . هاهم نبذوا ما أشار به الغزالي وما فسر به ابن رشد وما أنذر به ابن خلدون وكل أمة هذا شأنها حق عليها ما ذكر الله عن اليهود (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرقا كذبهم وفرقا يقتلون) نادى ابن رشد بالاصلاح فطرده الأندلسيون فأزال الخرافات والضلالات من أنفس امتلأت من ترهات الأخبار والرهبان وأطلقها من أغلال الأوهام فرعت في أرض جنة الحكمة وشربت سلسيلها فانظر كيف تدلت الأندلس إلى حضيض الجهالة فزقت كل ممزق وتفرق أهلها أيدي سبا وكيف ثم كيف سارت أوروبا من يومئذ في سبيل الرقى المادى والأدبى وكان ما كان من انتشار العلم والتعليم واكتشاف الأرض الجديدة كأمریکا والأقيانوسية كما يشهد بذلك كريستوف كولمب نفسه إذ قال انى علمت إن فى الأرض قسما آخر من تعليمات ابن رشد ثم تغلب الاسبانيون على المسلمين وأجلوهم وأوسعوهم قتلا وسبياً وأسراً أليس ذلك عبرة للباقيين من الأمم الاسلامية أيطن قوم انهم علماء وهم لم يدرسوا ما سطرته يد القدرة فى أكناف البسيطة من سطور الحكمة وآثار العظمة ومن سمع قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) عرف ان العلماء هم الذين يعرفون علوم الطبيعيات من النبات والحيوان والانسان واختلاف الألوان إذ أعقبه بقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) هل ضل الرازى فى تفسيره واهتدى

البطاء ها هو الرازي شرح عند كل آية ما يناسبها من الحكم المودعة في الطبيعة وجمال الألوهية اللهم انا نضرع اليك أن ينظر عقلاء الأمة وحكماؤها في مستقبل بلادهم وأمتهم . هل من العقل والحكمة أن ينبذ الرازي وابن خلدون وابن رشد والغزالي وأحزابهم ونصفي الى قوم أسفل منهم بدرجات باعترافيهم أنفسهم وقولهم هؤلاء أرقى منا عقلا وأرفع شأنا وأعلى كعباً ونحن قوم ضعفاء فيالله وبالله والعار وبياضية الاسلام والمسلمين وباحسرتنا على هذه الأمة ذهبت ريحها

معاشر الاغنياء والعقلاء ها أنا ذا قصصت عليكم ما يخرجني من التبعة والاثم والكتمان إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله فهل أنتم مستمعون وإن عجزتم عن اصلاح الأزهر وظل سائرا نابذا سنة الترقى فلماذا لا تتشؤون الكليات والا بقى التعليم منحطاً أبداً الآبدىين ودهر الداهرين (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) وهامى ذه كسف المدافع لم تبق ولم تذر في أقطار البلاد وما هي الا نتيجة العقول المثقفة والآراء المهذبة والعلوم المدونة فما الماديات الا نتائج للعقلية فغلبة المدافع والبنادق ترجحان عن عقول منيرة وحكم صافية فاذا لم تستر العقول بالحكم احترقت الاجسام بالكسف والقلل اذ العالم في ترقى مستمر فمن حاد عنه كان نصيبه الزهاب من الوجود وسنذكر في المقال بعد هذا ناموس الترقى من القرآن ونقابله بأعمالنا الآن عبرة لمن اعتبر

الفصل الثاني والعشرون

في المقالة السابعة الاصلية

كليات الاسلام وناموس الترقى

هل درى أولئك الذين يبنذون معرفة ما فطره الله في الكائنات وما سطره على صفحات الطبائع في الارض والسماء أن الترقى سنة في الحياة وأن القرآن هو أول مقرر

لمبادئه حاث عليه وقد بينه على طرق شتى تارة بتعاقب الأديان وطوراً بالطبيعيات وآونة
بالأقوال وكثيراً بالقصص وسنة المناضين

(١) الأديان : تعاقبت الأديان وناسب كل زمانه ومكانه فنسخ ما قبله فكلها
سلسلة يتبع بعضها بعضاً وكان آخرها نزولاً هذا الدين الذي سمح بالترقى لكل فرد
وعمل وندد على من وقفوا على ما خطه رهبانهم وحرره أخبارهم وتحكمت به قسيسهم
وأفهم أن ذلك داعٍ للانحطاط والتدلى والذهول عن الترقى فقال (اتخذوا أخبارهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الله واحداً) ثم
قال يريدون ليطنوا نور الله المنبعث الى لعقول بفطرتها وبوحي آخر مما أنزل وأطفاؤه
بالافتراء من الأخبار والرهبان الداعى الى انعكس الرجاء والوقوف أمام ترقىها
(والله متم نوره ولو كره الكافرون) فالترقى محتم على العالم ومن وقف أو رجع خسر
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

الناس في الدنيا مسافرون إلى الكمال متوجهون الى العلا كوكب سائر في طريق
فيه الدهمات مشعلات والخاف مخيطات من كل جانب فأى راكب توقف وسط
الطريق عن السير أو قفل راجعاً تناوشته السباع وانتشته الذئاب وهلك من الجوع والعري
وظمأ الهواجر ونار السعير ولكن الركبان مأمورون أن يسيروا مسوقون بقوة القاهرة
وسلطة قوية مضروبون بيد من حديد مكسوة بألين من الحرير وإذا كان الترقى هو
سنة الله وهو النظرة فمن خالفها فقد ضل وغوى وأهلك نفسه يوادى الخسران وهلاك
الفرد أخرى من هلاك الجماعة ومن العيب أن تقف الجماعة لواحد أو ينبذوا مقرهم
ويتبعوا هذا السكسل

ولما لم يعلم الناس ذلك بعقولهم أنزلت الكتب السماوية لا يقاظهم فلما غفلوا أرسل
الصواعق النارية عليهم ليعظهم بالعمل بعد العظة بالقول (والله يؤتى ملكه من يشاء)
رأينا رقى الأمم حولنا ووقفنا نحن وتركنا مدارسنا السكليات في أمهات مدن
القطار وبقي القديم على قدمه وبيننا العقلاء والأذكياء فما لهم لا يقرؤن وما بالهم

لا يتكلمون وما للعامة لا يسألون أخرج التلميذ من مدارس الأجانب بعد الخامسة عشر عارفاً أربع لغات مع نحو عشرة علوم ونحن في تلك السن لا يعلم متعمداً إلا كلمات لا يعقل معناها ثم يقضى حياته في لغة لا يقدر أن يحجز بها خطاباً هان على الأملس مالاقي الدبر . يقف التلميذ في أول أمره على أقوال العلماء في أوجه البسمة وإعرابها وكون الباء حرف جر زائد أو أصلي والنعت مقطوع أو غير مقطوع رموز لا يفهمها إلا بعد سنين فأين سنة الترقى

(٢) الطبيعيات . وتارة ترى ناموس الترقى في الكتاب بضرب أمثال طبيعية مما يشاهده الناس من الماء والمعادن يعلوها عند نزول الأول وجريانه وسبك الثاني وغليانه زيد فاذا تمايزا ذهب الزبد جفاء وبقى الماء والحلى نافعاً للناس هذا هو المثل المضروب في الكتاب (أنزل من السماء ماء فصالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)

(٣) القول . هل قوله (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الا نفثة من نفثات ناموس الترقى وهل حسن القول إلا بمعناه وهل هو إلا انتخاب الأحسن واختيار الأجل فيتبعوها هو مشاهد محسوس أن البشرية تابعة لمن سلك مسلكاً راجحاً (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

(٤) وهل ذكر عاد وثمود وقصص نوح وغيره الامذكرات لناموس الترقى وهل قوم نوح لما طغوا وبندوا ما وعظوا به فأغرقوا إلا عبرة للأمم ان يهلكوا كما هلك أولئك لما تتابع الانذار فيهم حيناً بعد حين قرونا وعلم أنهم لن ينجعوا وليس فيهم قابلية ذهبوا من الوجود حتى قيل (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وملخصه ألا يبقى إلا الأصلاح للوجود وهو عينه ناموس الترقى

(٥) علم الله أن ستنام أعيننا وقلوبنا ونحبط خبط عشواء فنسخ آيات وأحاديث

بغيرها كما هو رأى كثير من العلماء كأنه يقول النسخ فى كل شىء على شريطة أن يكون الثانى أصلح وهنا أنا نسخت آية بآية وحديثاً بحديث فوجب عليكم أن تتبعونى وتنظروا ما يصلح من المنافع والعلوم فى كل زمان ومكان وما كان هذا إلا كالا وشرفا فيا قوم ها هو ذا القرآن وقصصه والأمم وأخبارها والطبائع والشرائع كلها داعية للتغير والنسخ ومناسبة الزمان والمكان فلماذا يادعاه الإنسانية ورجال الأمة يبقى القديم فى السكليات على قدمه ولا تنظرون فى أمرها ولئن نسيت من الأزهر إصلاحه وعجزتم وتركتموه هكذا فناشدتكم الله لماذا لا تنشئون السكليات لتعوضكم ما فقدتموه يا قوم لم تضنوا بالأموال وها نحن أولا نرى اليابانى يجرى بروحه ^(١) لسد مدخل بوراثرو والانجليزى بالانفاق على مدرسة غوردون فى السودان والروسى يخرج من ماله لوطنه ومالنا والأمة القاصية هاهم أولا إخواننا القبط بين ظهرانينا نحو نصف مليون وهم نصف عشرينا كيف يجمعون فى جلسة واحدة لمدرسة صنائعهم أربعين ألفاً من الأصغر الرنان وهل أصبحنا أقل أهل الأرض قاطبة نبذنا الأقربون والأبعدون حولوا نظركم عن المشرق والمغرب وولوها شطر أسلافكم الماضين وآبائكم الأقدمين ماذا فعلوا جادوا بالمال والرجال فبقى ذكركم وإن غابت أشخاصهم خرج أبو بكر يوماً من ماله كله وعمر من نصفه فوقفا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا القول فقال عليه الصلاة والسلام « بينكما فى الفضل ما بين كلمتيكما » فماذا يجيبون وعلى ماذا تقدمون . لقد رأيت سلطانا من سلاطين الاسلام فى جزائر المحيط قد أخرج من دياره وأمواله وأولاده وبساتينه لا يملك شروى تغير أخرجه الفرنسيون فهاذا أفادت هذه الأموال يا قوم لأن لم تنفقوا طوعا وتنشئوا السكليات لحفظ جامعتكم لبث الصنائع والعلوم الافرنجية ليذهبن ما بقى من آثار مجدنا ولا تظنوا ان الاحتلال شىء مذكور فى جانب احتلال الصناعة وانتشار مدارس الأجانب وتقدم تجارتهم ولئن تركنا الأمور على هذا التقفلن دور وتذهب أموال وثروات ولا تفرنكم النداء . (قل ان كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم

(١) بعد هذا النداء فى الجرائد أنشئت الجامعة والسكليات بعد الطبعة الأولى

بسين المؤلف

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره)

الفصل الثالث والعشرون

في المقالة الثامنة الاصلية

الواقفون والعلماء

الناس في الدنيا درجات بعضها فوق بعض فمن كان علمه أدام نفعاً وأتقن صنعاً وأرقى للمدنية كان أقرب زلفى لله وأكثر ثناء من الناس فيقدر ما تدوم المنافع والثمرات تبقى الذكري والشكران ويتجدد الأجر والثواب والأعمال هي الميزان المعنوي تقاس بها فضائل العمال وهذه هي المضاعفة (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أُنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) أعلى الاتفاق نشر الحكمة بين الناس وأرفع الناشرين لها مقاماً الأنبياء فعلى قدر أهمهم والتابعين لهم تكون منزلتهم في القرب من ربهم وارتفاع شأنهم في الدنيا والآخرة يليهم الحكماء فالعلماء ومعيارهم في التفضيل ظهور الثمرات في تابعيهم كثرة وقلة وبالجملة ففضل الرجل على مقدار ظهور أمره في الناس كفضل الشمس على القمر والقمر على السيارات فكما أن مقادير تلك الكواكب متفاوتة بتفاوت أضوائها فهكذا العلماء يتفاوتون بتفاوت هدايتهم في الأمم ولذلك يفضل النبي الحكيم والحكيم العالم والعالم العابد قال عليه الصلاة والسلام (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي) ثم التفاوت بين الملوك يجري على هذه النسبة فمن أراد المقايسة بين عالم وملك فليُنظر لمقدار أثرهما في إصلاح العالم فهما كان الملك أكثر تأثيراً في سياسة الأمة من العالم فهو أفضل منه بتلك النسبة ومهما كان العالم أكثر هداية في الحال والاستقبال فهو أرقى من الملك بنسبة ذلك من الملك وبالجملة فالأعمال زرع والمنافع العامة في الأمة

ثمراتها والعمال زارعون وعلى هذه القاعدة يجرى الواقفون والمصلحون فمن وقف لأرباب التكايا والمساجد والكتاتيب الصغيرة والأضرحة فلتنفس نتائج أفعاله بهؤلاء ومن غزر علمه وعقله وفهم حكمة الله في خلقه علم أن ثمرة العلماء أرقى فإن العالم يهتدى بعلمه خلق كثير ويتسلسل الأمر فيكونون كمثل حبة أثبتت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة فالواحد على الأقل يهتدى سبعة والسبعة قد يهتدى كل واحد مائة وكل واحد من المائة قد يهتدى آلاف وتزكو الأمة ويتضاعف عدد الهداة والمهدين وتعم الحضارة والعمران وترتقى الأمة فهذه نسب درجاتهم عند ربهم يوم القيامة (أن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) فالمضاعفة قد رأيتها والأجر العظيم يكون على وفقها (جزاء وفاقاً) وقال الغزالي (الأفضل أن يكون المتصدق عليه من أهل العلم خاصة فإن ذلك اعانة له على العلم) والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النيات وكان ابن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم فقليل له لو عممت فقال أنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل أحدهم بحاجة لم يتفرغ للعلم ولم يقدر على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل ومن أراد أن يظهر له ذلك رأى العيان فليتأمل الأمم الراقية كيف يبذل الأغنياء أموالهم في سبيل المنافع العامة وكيف أثمرت ذكراحياسهم في الدنيا وورق أمهم فيها والجزء للمؤمن يكون على هذه النسبة فوا أسفاً على أغنياء الاسلام نبذوا المرشدين فضلوا في طريق الانفاق والوقف فترى همهم على قدر عقولهم وتعليمهم فأغلب الأوقاف للأمور القاصر نفعها ولعمري أن بين العالم والعابد كما بين النبي وأدنى رجل فهكذا فلتكن النسبة بين الواقف للأول والواقف للثاني هذه أموال المسلمين تهال جزافاً على التكايا فما الذى أفاد المسلمين منها إلا ضحك الأفرنج على أمور تنكى وتبكي وتؤلم العقلاء

من ذا الذى كان يظن أن تصل هذه الجامعة لدرجة تحت الصفر يملوها تلج ركام فيموت علماءها ويحجى جهالها حتى دك شامخ مجدها وباذخ سعداء
يا قوم رعاكم الله هل أصبحنا أقل الأمم ادراكاً وفهماً هل فقدنا رشداً حتى احتججنا

لقيم علينا أيذكرك اللهاء اليونان والطلديان والانكليز والألمان والفرنساويون والأمريكان واليابان والهند فيتبرعون بالمال للكتليات ونبقى نحن في حضيض الجهل . مات رجل ألماني وترك سبعة ملايين جنيه فأوقفت ابنته نصف هذا المبلغ لعلوم الطبيعة التي يظن المسلم أنها تنافي دينه الآن . هذا القول فهل من سميع هذا الارشاد فهل من محب قام سسل رودس الانكليزي فأوقف ماله كله على المنافع العامة لأئمة خاصة بل لها وللأمم كلها والسلام العام

أنفقوا ياقوم أموالكم الآن وأحيوا كتليات القطر في الأزهر والمساجد لتحملوهم على قراءة العلوم كلها وإن أبي العلماء ووقفوا في منار واحد على نمط مخصوص فدعوهم وشأنهم وأوقفوا لمدارس كتليات بشروط تناسب الزمان والمكان أفلتتفقوا فقد سبقكم الأمم . أنفقوا أوقفوا قبل أن تذهب ربحكم وتزول البقية الباقية من الأمة فقد غلبتم على الزراعة والصناعة والتجارة (ياأيهاالذين آمنوا أنفقوا بما رزقكم الله من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة) ان لم تتحدوا على الكتليات وتعميم التعليم الآن فما تمضي سنون قلائل إلا ويقفل باب الإصلاح وينادي من قبل السماء فيقال (أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين) . (الصيف ضيعت اللبن) . (سبق السيف العذل) ياقوم أيجمل أن يتخطى الانجليز جزائرهم التي هي في بحر الظلمات بعيداً عن المعمورة تكتنفها الأمواج في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ووراءها الحج لاآخر لها ولا منتهى إلا في الشرق تسعى لإنشاء مدرسة غوردون في البلاد السودانية وتدفع مائة ألف جنيه ونحن نأبى أن نصرف مثل هذا المبلغ على أبنائنا فتباً لقوم لا يفهمون وتعمساً لنا إذا تمادينا في الضلال . هذه ثمرات الأعمال ظهرت في الأمم حولكم مصداقا لكتابكم فياقوم لم قصرت همم الواقفين ولاأى شىء قصرت إرادتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة . هل كتب علينا الشقاء فمن ذا الذي يضع الحجر الثاني بعد الأول للذى وضعه (المحسن الكبير الذى علمنا انه سعى في انشاء كلية) ومن ذا الذى يقرض الله قرضاحسنا ويفقه الحكمة العامة

فى الأم ورقها فىض الحجز الثانى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) وليس الصالح هو ذاك المنتكس على الرأس فى أعماله وأقواله فى التكايا كلائم كلاً انما الصالح هو ذاك الذى يصلح لمارة الأرض ويعرف حكمة ربه فىضعها فى موضعها . الانتكاس فى الفهم جر الى نوم الغفلة والجهالة حتى انك لترى الأوقاف القديمة كلها راجعة إلى أمور قاصرة على ثمرات طفيفة فكانت النتيجة مانحن فيه الآن . فهل لنا من رجل يقول هاأنا ليشجع غيره وينبوا الكليات ويعمموا العلم (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم علما ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما)

الفصل الرابع والعشرون

فى المقالة التاسعة الأصمعية

خطاب لوجهاء الأمة

أدعو بقولى الآن وجوه الأمة وعقلاءها وأغنياءها دعوة مخلص فى قوله ناظر لمستقبل أمتك كيف وجهتم التفاتكم إلى شؤون الحياة صغيرها وكبيرها وعظيمها وحقيقها وقديمها وحديثها حتى شملت العناية المراحىض وبيوت الخلاء وتركتم كليتك العظمى وهى الجامع الأزهر تندب حظها وتشكو زمانها وتنادى بالويل والثبور مدبوا أيديكم رعاكم الله إلى اصلاحها فان أبى القائمون بها وغلبوكم على أمركم فالسكم لاتسمعون فى انشاء كلية اسلامية تكون ملجأ لبني العظماء يتعلمون فيها ويتخرجون وقد درسوا أنواع العلوم يا قوم مالى أرى الحركة بطيئة والنوم طويل والنفس فى حجاب والعقول فى غفلة وهل أتاكم نبأ اليابان وقد قامت من غفلتها فى سنين معدودة وهل يسبقنا الهنديون ونحن لا نبدي ولا نعيد اللهم إنا نضرع اليك أن تهدي سرائنا وأغنياءنا سواء السبيل من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط

ألا نفوس أليات لها هم ألا كريم على الخيرات معوان

هل من عظيم من العطاء يقوم فيمد يده بما يدونه له التاريخ في الإصلاح ومستقبل الزمن فيقتدى به الباقون والأمل عظيم في الأسرة الخديوية وعباسها العظيم وكم من سامع هذا القول يتأجج نفسه ومن أنا حتى أجدد مجدا عفا وريحا ذهب فينام نومة لا قيامة بعدها

ولو درى ذلك ما توميء اليه قطرتان في السحاب تناجتا بلسان يفهمه العلماء المتبصرون ويجهله المقلدون الغافلون

قالت إحداها للأخرى (وقد رأيت زراعا في حقله واضعا رأسه على كفه نادما حزينا كئيبا) اننى أرى لهذا الفلاح ولقد احترق فؤادى وانضى جسمى حتى أحسبني استسلمت دمة باك بعد قطر ساق فقالت الثانية ما أنت أيتها المسكينة ومثلك لا يملك للرجل نقما ولا ضرا ولو قطرت من السماء ونزلت لم تغن عودا من القمح فضلا عن الحقل كله وماهى إلا لحظة تبقيين فيها على ورقة ثم تنشفك الرياح أطرق كرى ان النعام فى القرى

فقالت الأولى ان الوجود خير من العدم ووجودى فى الحقل ينعش فؤاد صاحبه فقهته الثانية ضحكا وقالت ما أقبح الحزن بعد الفرح والبكاء بعد الضحك فقالت الأولى ان لى فى ذلك ثلاث خصال الأولى ان أدخل السرور على قلب صاحب الحقل الثانية أن أودى ما على من الخدمة الصادقة وأظهر ما كمن فى من الفضل الثالثة أن تقتدى القطرات الأخرى وبها يسقى الحقل ويتم الأمر وما كادت تتم قولها حتى سقطت على ساق من نبات القمح فتبعها الثانية وغيرها وهلم جرا فروى الحقل ونما القمح وما مثل القطرتين المتناظرتين إلا كرجلين أحدهما يطلب الإصلاح والآخر يئأس منه وهذه فى الحقيقة طريقة الأنبياء والحكماء ألم تركيف يقول الله لرسوله (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) على إنه لا يأس من روح الله فقد دلت الحوادث على ان من سعى فى أمر باخلاص ناله كله أو بعضه وهذا

سر التوكل على الله وهو الاعتماد على النفس في العمل مع توجيه المهمة لمدير العالم كله وبه يصرح (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والمراد بالايتمان إيقان النفس بأن ما تعمل حق وعسى أن نسمع مجيباً لندائنا يرفع صوته لتحي الأمة ليحي الوطن لترتق الصناعة والزراعة والتجارة

من ذا الذي يضع الحجر الثاني في بناء هيكل مستقبل الاسلام فأما الحجر الأول فقد وضعه المحسن الكبير وإني أحذركم ذهاب الأمر من أيدينا في كافة شئون الحياة أو نذل إلى الأبد

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد
فدا على الحسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

فإن سمعتم النداء فهذه الحياة الطيبة وإلا فالذل أولاً والدمار آخراً (قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل الخامس والعشرون

في المقالة العاشرة الأصمعية

العالم مدرسة كبرى والله سيدها والناس الطالبون

انتبذت من القاهرة مكاناً قصياً يوماً مع أخ من أصدقائي وتزهنا في فلاة ذات أشجار وأنهار ومزارع وحقول وقد ضربت السماء علينا قبة زرقاء تحجبها أخرى من السحاب الملون بالسواد في موضع والبياض في آخر والنسيم يلعب بالأغصان وهو عليل فأخذنا نحوب أطراف الفيضة ونتمشى في جوانبها وقد خلا لنا فسيح الجو وعرفنا نعمة سكون الضوضاء والجلية خارج القاهرة وتذكرنا حال الجنة وإنها لا لغو فيها ولا تأثيم لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاماً فاهتاجت نفوسنا لمحاسن جمال الطبيعة وتأملنا فيما حولنا اذ بمجماعات من النحل وأخرى من النمل وغيرها من الطيور فصفا الفكر الى تذكر

ما عرفنا وما كاد قلبي يذكر إلا وقد فاجأني صاحبي بقوله نحن عرفنا في المدرسة اتقان هذه الحيوانات في غدوها ورواحها ومستقرها ومستودعها وإنى لا ذكر ما قرأته آنفاً عن النمل وأنها تهندس مساكنها بأعمدة منتظمة وترضع أولادها وتغسلها لتنظيفها وتأخذ الأسرى تحت سيطرتها وتقتنى حشرات كالأنعام عندنا لتقتص لبنها بخرطومها وترزع الأرز بهندسة عجيبة في حقولها وهكذا النحل يشاهد لبعضه أسفاط (مقاطف) على مؤخر أرجله ليضع فيها مادة الشمع وينجز منها الأولاده وغير ذلك وإنى أشعر بلذة عند تذكر هذه المعلومات ويأليت شعري ما فائدة هذه اللذة وهل دراستها ترقى المدنية أم هي من المسليات للإنسان كآلات الملهى فقلت إن الشيء كلما كان نفعه أعظم كانت اللذة به أكبر فبقدر اللذة به يكون نفعه وهذه السماء ذات نجوم بأقمار متباينة وأحجام وأضواء وحساب مختلفات يتكون منها علم الفلك وهذا العالم الطبيعي ذو صنائع متقنة مما ذكرت وما لم تذكر كل هذه من علويات وسفليات تذكرة للناس وميزان لهم فأى أمة أخذت حظها من العلوم واقتدت بملك الملوك في معرفة مخلوقاته كانوا هم خلفاءه في الأرض وسيطروا على الأمم وكل قوم ضلوا فهم هذه وفرحوا بما عندهم من العلم حاق بهم ما كانوا يستهزئون قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فما العالم إلا مدرسة وما الناس إلا متعلمون والله بيده الميزان يرفع ويخفض فمن رآهم تأملوا صنعته وقلدوها في الأحكام والأتقان وسابقوا كل حيوان في عمله والفلك في حسابه فازوا بالسبق في الدنيا ومن نكصوا على أعقابهم عوقبوا بالحرمان والخذلان (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب)

ولعمري كيف تكون الأمة خليفة في الأرض إذا لم يقم كل جماعة منها بصناعة أو علم كما أن كل أمة من الحيوان اختصت بصناعة أو علم وكيف يمكن التوغل في ذلك لا بالمدارس الكليية الكبرى وهل يمكن في بلادنا إلا ببذل المال من ذوى الثروة الواسعة وقد أصبحت بلادنا مزدحم الأمم جميعا في التجارة والصناعة والزراعة وتلك

لعمرك يتضائل في جانبها المزاحمة الإدارية فاذا لم يقم الوطنيون بمدارس كلية فلا بد من تغلب العناصر الأجنبية على الثروة وينقرض العنصر الوطنى على تماندى الزمان كالأمريكان الأصليين واليه الإشارة بقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) وقد خربت كثير من بلاد الاسلام وغيرها قديماً وحديثاً كاسبانيا وأهل أمريكا الأصليين (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجون)

دعوة عامة للناشئين الى جمالى العالم والعلوم

أيها الناشئون هلموا الى كمال النفس الناطقة بالعلوم والعرفان وزينوها بالنظر والفكر وحلوها بمقود راق منظرها وحسن نظمها من مناظر الافلاك البديعة والطبائع المتقنة وعجائبها البهجة وغرائبها المدهشة قف في الفضاء والليل ساكن الحركات هادىء الانفاس وحدق بصرك الى قبة تراها أينما حلت أو ارتحلت مرصعة بالدرارى اللامعة المشرقة في جوانبها كأنها سممت فيها رقشها مبدعها بما لا يصل اليه أمكان الانسان في كل زمان ولو أن صانعا سقف منزله بقبة مزرقه اللون وزينها بالمصابيح الجميلة وراعى بينها مسافات بالنسب الهندسية والابعاد الحكيمة التى بين الكواكب فى ما يوازيها من قبة السماء ثم وضع هذا أملس خاليا من الفطور بريثا من الشقوق ناهجا نهج ملك الملوك لكان سقفه أعجوبة الاعاجيب وخلابة الفطن اللبيب ولو خطر هذا الخاطر لأحد المهندسين لهرعت اليه الناس أفواجا من كل حذب يفسلون ولتنافسوا فى سقوفه

ولو تأملت النجوم لرأيت أشكالا هندسية ما بين مثلث ومربع ودائرة وخط مستقيم وآخر منكسر وأخرى حيوانية فهذا كأسد وهذا عقرب وهذا حمل الخ .. ونراها ما بين أحمر وأبيض وصغير وكبير وان عددها تجدها ثلاثة آلاف بالعين العادية

وان أخذت صورتها (بالآلة المصورة) الفتوغرافية بلغت مائة مليون^(١) وهناك ما أعجز الناس ببصارهم وآلاتهم واختراعهم عن معرفته مصداقا لقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون والله واسع عليم) فإذا راقك هذا المنظر ترى النفس قد أشرقت وابتهجت وفرحت بما لاحظت من جمال هي به أخرى وتقرأ في سطور تلك النجوم كلمات العبر وآيات الحكم تعبر عن صانع قادر وحكيم عظيم وتدخل اذ ذاك في عداد من ذكر الله بقوله (أن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا)

فإذا شأقتك نفسك إلى مرتبة العلماء والسادة الحكماء ولم تتمتع بأول مراتب الجمال ولم تستطع صبرا على مبدأ الكمال فخرج على علم القلک وشاهد ذلك الجمال بالبصيرة بعد البصر وادخل جنة العلوم والعرافان في هذه الدنيا تقدك إلى الجنة الأخرى (جنة عرضها السموات والارض) فانظر نتيجة التقويم واقرأ ما سطره علماء حسابها من تلك الرقوم الدالة على سير الشمس والقمر والكواكب سنة فسنة فاعلم أن منظرها الجميل وراءه ما هو أجمل منه وأبهى وأن الظاهر عنوان الباطن فكما جمل منظرها بالعيون حازت في حسابها الدقيق العقول وترى نظاما متقنا غفل عنه الجاهلون ووصل اليه العارفون فان رغبت مع هذا أن تعرف رايها وابعادها ونسب بعضها إلى بعض فهناك البهاء وتخرج من زمرة من غيرهم الله بقوله (ما شهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وتدخل في عداد من مدحهم وأثنى عليهم فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)

العالم السفلي

وليس العالم السفلي كما يراه العامة مبثرا مشوش التركيب بل هو محكم منظم عجيب وإذا اتبعت مارسمناه في هذا الكتاب وقرأت ما سطرناه في كتابنا (العقد

(١) كان هذا المقال في هذا الكتاب منذ نحو ٢٥ سنة ولكن الان عرفوا أن النجوم التي تمكن معرفتها تبلغ ٢ مليون مليون مليون انظره في كتابنا الجواهر في تفسير القرآن المؤلف

الثمين في آراء العرب ومذهب (دروين) الذي مضى في هذا الكتاب لعجبت كيف اتسق خلق الجاد والمعدن والنبات والحيوان والانسان وصارت هذه كلها سلسلة واحدة أخذ بعضها بحجز بعض فترى الجاد تتلوه المعادن من قصدير وورصاص ونحاس وحديد وفضة وذهب يرتقى عنها النبات أصغر فصغيراً فكبيراً فأكبر حتى تصل النخل ثم الصلة التي بينه وبين الحيوان وتدخل في عالم منظم من هوام في البحر والبر فحشرات فحيوان بحري فطيور فجوارح فبهائم فأنعام فوحوش فسباع وهكذا حتى يصل إلى الانسان نازل الترييه فأخر فاصل حتى يصل إلى الأنبياء فلئلا تسكة الكرام وأريد أن تلاحظ جمال العالم ملاحظة دقيقة وتقف على ما سطره علماء الافرنج وتلاحظ الترتيب العجيب وتقرأ قوله تعالى (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حير) ومن ذا الذي يعد نفسه في مصاف العلماء وهو لم يشهد الابداع ببصيرته وكيف يظن أنه من أولى العلم ما لم ير هذا الترتيب العجيب والخلق الجميل الذي يعرب إبداعه عن القسط والعدل ولعمري من ذا يدعى أن بينه وبين رب العزة في العطف مرتبة واحدة في قوله (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) وهو لم يشهد بنفسه قيام الله بالقسط والعدل في إبداعه ولم يلاحظ هذا الاتقان البديع وبأسبحان الله كأن مبدع الكون ألهم النوع البشري من آدم فمن دونه أن يبحث أولهم وآخرهم عن ترتيب الكائنات كأنه نقش على ألواح بصائرهم وكتب في مكنون نفوسهم إن ربكم حكيم في صنعه مبدع في نقشه فترى العرب وضعوا له الجدول الدال على أبعاد الكواكب الذي رأيته في العلويات ولاحظوا السعد والنحوس والافرنج وضعوا آخر وحسبوه من واحد الى مائة فيها وهكذا ترتيب الكائنات العضوية والعنصرية سائر بنسق واحد كنسق الكواكب وهو عند العرب أمر شائع في كتبهم أما الافرنج فلم يوقفهم له إلا (دروين) مع ما في سيره من انتائج الخالقة واعلم أنك إذا لاحظت هذا العالم السفلي ونقشه وإبداعه وصوره وأشكاله وعجائبه وغرائبه من النبات والحيوان ولاحظت ما خط على جلودها وصورها دخلت في عداد من أثني

عليهم الله فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) فانظر كيف خص خشية الله بمن عرف هذه العلوم بدليل ذكرهم بعد هذه المعجائب وأعلم أن هذا الفكر كان شائعاً في العصر الأول زمن دولة العباسيين وفي قرون أخرى قليلة ولما انقطع سند كثير من العلوم ظن الناس أن الفقه والآلات كافية في هذا الوصف مع أن أدنى التفاتة إلى تاريخ أسلافنا رحمهم الله تعالى وإلى معنى هذه الآية وغيرها يريك أن خشية الله مختصة بمن عرف هذه العلوم التي رسمناها لك في كتبنا وأمثالها من عجائب صنعه عز وجل وهذه المرتبة لا تنال إلا بعد العمل بالشرعة والتخلق بها بقدر الامكان ومقدمته الفقه فلما ضعفت مدنيتنا وقفنا في مبدأ الطريق هذا وكيف تخشى النفوس الانسانية من لا تعرف إبداعه ولا أعماله ولا آثاره . الرقى في الحياة الدنيا مداره على هذه العلوم وكيف ترتقى أمة وهي تجهل ما حولها وما يحيط بها ولقد أنذر الله أمة هذا شأنها وهددها وأوعدها فقال (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فيا حصرة على بلاد الاسلام وشبان الشرق وأبناء العرب جاء القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم ينادى في آلاف من الآيات بالعلوم الطبيعية والفلكية والنظر في الأمم وفي كل شيء وأوعدهم وهددهم فجاء من صدم عنها من ذوى القصور فأصبحوا وقد صدق عليهم (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) اللهم إني دعوتهم بما أودعته فيما كتبت إجابة لدعوتك وحباً إليك ورغبة إليك وشوقاً لذاتك وأنذرت وحذرت معذرة إليك وإن عسى أن يعلموا فضل الأمم الراقية في الحياة الدنيا ونكون في الآخرة مع الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله

الفصل السادس والعشرون

في المقالة الاولى الملقبة بالرازية

هذه العلوم فأين الرقي

تساءل الاصحاب فيما بينهم آسفين حزنا وأنا بينهم صامت لأسمع ما يقولون قالوا يا ويلتنا ما لنا لا نرى رجالا نعدهم من الأخيار إلا نورا ولا حكاما نابغين ولا مرشدين ولا مصلحين إلا ركزا . بلادنا والحمد لله غنية . مصر محط رجال الشرق والغرب فينا جم غفير ادمغتهم ملاءى باللغات العربية والفرنسية والانجليزية والالمانية من مقتصد وسابق وأيديهم ملاءى بالكتب وشوارعهم بالمدارس يتناولون الفنون أنواعا ويزاولون الصناعات تباعاً

هل نالنا ما نال القدماء من يونان ورومان ومصريين من اختصاص طائفة بشرف التعليم ! أم انقضت علينا ضائعة محكمة التفتيش تنقب على القلوب الواعية والافئس الراقية (كما كانت) في أودها حكمة حار فيها الفطن . خلت المثالات وتعاقت . التذر واعتاص الجواب فهل من محجب

قال قائل . حوادث الايام وصروف الدهر وكوارث الزمان وأرزاء الهون والهوان واستبداد الملوك السالفين وظلم الظالمين من صناعقة المالك البرية والبحرية من التركان وتآله الفاطميين وغيرهم من الفاتحين المستبدين . فقال الآخر لكل من الامم نصيب وافر من انظلم وهذه أوروبا خلقوا عبيدا للأشراف غنا لهم طعمة هنيئة بلا ثمن ومع ذلك لم يعفهم عن الاشراف على المدينة والرقى فيها ولم نسمع قط أن أحدا من آبائنا الأولين سيم خسف الاستعباد ولا ضرب عليهم الرق ولا بيع مع الارض والماشية كما بيع الافرنسي والسكسوني والجرماني وغيرهم ثم التفت إلى وقال ماذا ترى ؟ فقلت لتعليم اليوم ولو صح ما عاقبتنا شبا الطيأة ولا زحزحتنا قليل المدافع وما مثل العلوم في الامم إلا كمثل النار تنقد فاذا غشيها الوقود راد لهيبها والتهب سعيها وتطايير شررها

وأرعد زفيرها فتشخص لها الابصار وتحديق بها الاظفار
أو مثله كمثل الماء يسيل فيجول في كل واد إذ لا يصدده سد العرم ولا الحجر
الصلد ولا التراب ولا الطين وكل شىء .

نعم عندنا تعليم مبدؤه جثمانى . أسه الالفاظ بناؤه الاعراب سقته التفهيق
والثروة زخرفته النكت الادبية غايته خبز سميد وعجل حنيد وشرب النبيذ وثوب
من باريز

فويل لأمة كانت علومهم قشورا ودارهم يورا وأمرهم مأمورا . وبعبارة أجلى
وأوضح . العلم غایتان عليا وسقلى جسمية وعقلية كما أن للانسان جزءين جسما وروحا
يحمل الاول الثانى ويسيطر الثانى على الاول فهكذا العلم له غایتان تحمل الاولى الثانية
وتسيطر الثانية على الاولى

فاذا أردت بالعلم الكمال عقلك وشغل فؤادك بما حمل وحلا فلا ريب تنال بالاولى
ما يقيم جسمك فاما أن أردت حظ الجسم نابذا حظ العقل والفهم نبذا النواه فلن تصل
اليه أمد الدهر (وأن ليس للانسان الا ماسعى . من كان يريد حرث الآخرة نزد له
في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب)

وسأتلو على مسامعتك قصصا يوضح المقام ويزيل الابهام فيما سترى ان شاء
الله تعالى

الفصل السابع والعشرون

في المقالة الثانية الرازية

هل لك أن تتوضح ما قررت لك أمس من أن الامم اذا كانت وجهة علومها
جثمانية محضة - زالت الصلة بينها وبين مبدعها وتدهورت في مهاوى الخسران وباءت
بالنكال ولا أقص لك قصصا يوضح ما انبهم وبخل ما استعقد
كان في الامم الفائرة عالم يسمى بلعام ينبغ بين اخذاته فاستظهر العلوم العقلية

والنقلية وصار يشار اليه باطراف البنان وسارت بذكره الركبان وإذا دعا ربه أجاب
 وكان النبي موسى عليه الصلاة والسلام مرسلًا إذ ذاك فسار في جيش من بني
 اسرائيل إلى أرض بلعام فأجمع القوم أمرهم أن يستظهروا ببلعام فأبى لعلمه أن النبي من
 عند الله فاحتالوا على زوجته بالمال فغروها فأضلته فاتبع هواهم فانقلب علمه جهلاً فاتبعه
 الشيطان فأخذ يفكر في الحيل والدهاء والمكر وأساليب الخبيث السياسي فانسلخ من
 الكمال فكان من الغاوين . والخلاصة أنه حول العلم الذي ضاء به قلبه إلى دهاء ومكر
 لينال به أشباع بطنه وسد عوز شهواته فكان من الخاسرين وكان قبل ذلك محاب
 الدعوة فأقتل بابه بعدها وحرم بهجة العلم وروقه وأنذر بالحرمان والطرود وذلك مثال
 لكل عالم في الارض لا يريد بالعلم إلا أن يكون آلة

والمثل الأوضح أنك إذا أحضرت كلباً لدى ملك عظيم وألبسته بزة نصرية وتاجاً
 مرصعاً وأجلسته في تخت الوزراء وأوقفت الجند حرساً والأشراف خدماً والحكام حشماً
 ثم رأي عظماً معروفاً أو لحماً متروكاً على سدة باب جرى مسرعاً إليها شرهاتاركا ما كان
 معظماً حاملاً موقراً لابساً مجملًا نائله

فهذا هو حال الكلب إن حملت عليه بالعصا لهث فأخرج لسانه مندلعاً وإن
 تركته لم يزل على حاله جشعاً لا يعرف المشقة من الراحة ولا الجحيم من النعيم
 بل ذلك مثل كل متعلم نال أمنيته من العلم ثم سولت له نفسه أن ذلك لشهوة
 النفوس فحسب وصد النفس عن جنّتها ونعيمها من الارتواء من أنهاره وورود حياضه
 وسلسبيله وأشجاره واقتطف أزهاره وجنى ثماره ذلك هو العائق عن الوصول الى
 المدنية كما وصلت الأمم المحيطة بنا من كل جانب فاذا شئت أن تقرأ هذه المعاني
 والقصص وتناجحه في القرآن فاقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف

(وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) إشارة إلى بلعام وكل من تعلم علماً ما حتى
 الجغرافيا والأشياء (فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) إشارة الى
 اتخاذ العلم آلة فحسب مع نبذ رقى النفس والعقل به ثم أوضحه فقال (ولو شئنا لرفعناه

بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) ثم أوضحه بمثل الكاب فقال فمثله كمثل الكاب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) وأبان أن تلك المثلثات إنما هي غواش من الحجب النورية أو سرادقات من العلم تضم فيها أسراراً من الحكمة فلم يدعها عند حد التمثيل بل صرح وأوضح فقال (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وجهلوا نفوسهم وغرتهم الأمانى فبأوا بفضب الكسل على غضب الجهل . ثم أبان أن الغرض من القصص آثارها ومن المثلثات علومها وفهمها ومن النار نورها ومن القصص مغزاها ومقصودها وأن الجامدين على أحاديثها والمتكبين على إعرابها وبيانها والغافلين عنها ساء مثلهم فتسربت إليهم التعاسة والشقاء فقال (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) ثم أخذ يشرح صفات رجال الأمم المنحطة وعقلايتها وذوى النفوذ فيها وأنهم يقنعون بحسوم العلوم دون أرواحها أو المبادئ دون المعانى أو يسمعون القصص فيتخذونها سلوة وإذا رأوا حكمة رددوها للشهوات فقلوبهم غلف وآذانهم صم وأعينهم فى غطاء فقال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

ميزان وبرهان

إذا شئت أن تسبر أمتك بهذا المسبار فانظر خواصها فان ألفتهم متكالبين على الرسوم لذاتها والوظائف رابضين قانعين بما أوتوا من الرزق متكالبين عليه وشغلوا القوة العاقلة بهذا وحده فبشرها بالحياة الحيوانية والاستعباد الأدنى وبضدها تنمير الأشياء

كيف السبيل

إنما السبيل لذلك أن تؤلف الرسائل المشوقة للعلم الحائثة عليه كالأحاديث المحببة فيه حتى يرغب لذاته كقوله عليه الصلاة والسلام (أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

العلم رضا بما يطلب) وقوله عليه الصلاة والسلام (من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا الى الجنة) اهـ

الفصل الثامن والعشرون

في حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى

يا قوم ألم يأن لنا أن ننظر فيما حولنا من الكائنات (أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأَ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ مَا فِيهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) يا قوم نرى كل يوم خبراً جديداً ساراً بإنشاء مدرسة كذا وتبرع بكذا ووقف فلان مائة فدان على المدارس وثلاثمائة وهكذا ثم نبحت فلا نجد الا أموراً تافهة لا ترضى أى دولة فى المدينة عجباً وألف عجب قامت النهضة فى بلادنا وظهر لأغنيائها أن الفضل والفخر فى البذل وانتشار الصيت ولكن قصرت تبرعاتهم على الأمور الجزئية دون الكلية والصغيرة دون الكبيرة

عار على أمة يبلغ أهلها نحو عشرة الملايين ولا يكون فيهم مدرسة جامعة للعلوم مازجة لمصالح الدين والدنيا مدخلة فى غضون ذلك ان هذه العلوم لأبائنا الأولين حاث عليها القرآن الشريف بكثير من الآيات وكذا الأحاديث ونذكر أيضاً تلك الآيات ولا تقتصر على نحو (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) فالقرآن مملوء بذلك بل أكثره فيه

أليس من المحزن أن يظهر فينا محسن كبير ومحسن صغير وسيظهر (أظن) محسنون على تمامى الأزمان ولا يجدون من يفهمهم ان مدرسة عليا (بشروط مخصوصة) تجعل مصر فتاة فى ريعان شبابها الا يحمل بنا وقد عجز مصلحو الأزهر عن القاء ما يفرض الدين علينا من الخلال الجميلة والاستعداد للطوارئ ان تنشئ مدرسة جامعة تكون ملجأ للسورى والبغدادى والتركى والهندي والجاوى والمراكشى والجزائري

والتونسي مع شرائط مخصوصة كما فعل سيسل رودس الإنجليزي ، زار العلامة المستر دوارد براون الإنجليزي مصر وتحادث مع عقلاء المصريين في أمور شتى ، وتكلم في مسألة مدرسة يراد انشاؤها بهمة أحد الأغنياء ، وما الذي يجب بالنسبة لها فقال لكتاب هذه الأسطر أن فلاناً أوجب أن تدرس فيها لغة أجنبية فما تقول ؟ فقلت أما أنا فان اهتمامي راجع الى الكليات لا الجزئيات والذي أعتقده ان مؤسسى هذه المدارس جهلاء لا يعرفون من العلوم الا مبادئها ولا تجمعهم جامعة الامع من لم يدرسوا من أحوال المدنية شيئاً ولا تاريخ أسلافنا الأولين كيف لا وهم لم يزيدوا شيئاً على ما هو حاصل فالأزهر والمدارس الاسلامية في المساجد وكتاتيب نظارة المعارف ومدرسة دار العلوم تغنى عن مثل هذا وانما أقول كان يجب أن تجعل مدرسة تعلم فيها العلوم العالية ويجعل هؤلاء صلة بين المسلمين عامة ان أمكن

يا قوم انى ليحزنى أن يكثر عددنا ولا نجد من رجال العلم من يمدّهم بشأن مدرسة جامعة هل قل المحققون من العلماء نعم نعم والنفر القليل منهم محسودون . هل تخطى العلم الشرق وذهب الى الغرب ، هل كانت ثمرة القرآن محرمة علينا . هل ختم على قلوبنا وسمعنا وأبصارنا ، هل رفع القرآن فنعذر في الجهل . نحن أمة حق عليها القول (وقال الرسول يا ربَّ إِنَّا قَوْمٌ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) جهلنا الأشياء ولم نحط علماً بما بين أيدينا فضلاً عما عداه فحق علينا القول (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) والآية شاملة لكل مالم يحيط بعلمه ثم هدد بقوله (كذلك كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) الحوادث متشابهة والأيام متتالية والأدوار متتامة كان الأمراء في دولة الجراكسة لبساطتهم وعدم اهتمامهم بالاسلام عموماً يقصرون أنظارهم على وقف تكية ومسجد وكتاب ، والآن ترقى العمل الى مدرسة صغيرة . ألم يأن لنا أن نصل الى الدور الثالث فنقلد المعز الفاطمي في بناء أزهره

انى يا قوم ليسرنى أن تبني مدرسة يجعل فيها على الأقل قسم تعلم فيه العلوم العالية

لا كالنورمال ومدرسة دار العلوم بل يوسع فيها أكثر من ذلك ، ولنا في همة الواقفين وجههم للخير وغيرتهم الوطنية وصدقاتهم الدينية وحميتهم المالية خير نصير وهنا نذكر شيئاً لا يجوز لنا إغفاله وهو أن نذكر أفاضل رؤساء الجمعيات الاسلامية أن يلفتوا أنظارهم لموضوع مهم إلا وهو أن يدرس في السنين الأولى نباتات وحيوانات البلاد درساً طبياً زراعياً توحيدياً فيذكر أن الفجل مثلاً يدر البول ويطرد حصة الكبد ورمالها ويسكن آلامها وأنه يشير شهوة الطعام وأنه يحدث انتفاخات غازية وإن البقدونس يدر البول نافع لأمراض الكلى وأن الشعير مأوه ملطف مبرد مغذ مدر للبول وإن البصل يصدع الرأس ورائحته تورث عداوة الأصدقاء ولذلك كان أكله مكروهاً في الشرع ولكنه يصلح السائل المنوى ويقتل بعض المكروبات ويصلح الهضم ونحو ذلك مما هو مشهور عند الأطباء

ثم يقال لهم تأملوا حكمة الخالق وصنعه وكيف صور وخلق وقدر وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى (وفي الأرض آيات للموقنين . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وأنبأنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين) وهكذا مما لا يحصى . ويدكرون مثلاً النحل وكيف يبني بيوته ويشرب من الأزهار وكيف يأتي لنا بالعسل وكيف سخر الله هذا الحيوان الضعيف نافعا للإنسان وكيف نفع الإنسان بالعسل الناتج منه وما منفعه الطبية وهكذا وأنه ذكر في القرآن الشريف ويعلمون حسن الملاحظة كما في العنكبوت وكيف هندس وبنى بيتاً محكماً أقفله من الداخل واحترس من الأعداء . لعمري إن هذا الشكل يشوق التلاميذ لفهم جميع العلوم ولا يخرجون من سنتهم الأولى إلا وقد درسوا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فانتفعوا ونفعوا . وإني أكرر القول إن رؤساء الجمعيات مسؤولون بين يدي الله تعالى وبين يدي النوع الانساني عن هذا الأمر وهل يليق أن يعلم الانكليز والفرنساويون أبناءهم في الكتب الصغيرة تلك العجائب الكونية ونحرم نحن منها . نعم نحن نحالفهم في شكل التعليم فيجب علينا أن نجعل للأحاديث والقرآن وكلام علمائنا الحظ

الأمر عند الكلام على كل علم والإضاع شكل هذه الأمة ومزقت كل ممزق كأهل سبا مزقوا تمزيقا جسمانيا فهكذا نحن ممزق تمزيقا عقليا فيصبح هذا درويشاً وذاك أباً وهكذا . وكان تذكرة دودة القطن وكيف وضع الله أبا دقيق ملوناً بلون جميل وكيف يموت الذكر بعد اللقاح وكيف تموت الأنثى عقب ترتيب البيض ووضعه وضعاً متقناً هندسياً وكيف علمت هذه الهندسة وكيف تكون الشرقة معرضة للتقنيات الجوية وهي سلة منها بحيث تقاوم مالا تقاومه كثير من الحصون والبيوت العظيمة الانسانية أليس ذلك لحكمة باهرة وعظة ظاهرة (ان ربك هو الخلاق العليم) ويذكر كيف يعرف الورق الذي عليه الدود وكيف يحترس منه فينزع وهكذا . فيخرج التلميذ من المدرسة وهو رجل المستقل وقد عرف ربه ووحدته وعرف دينه ودنياه . ودرس قطنه وخلصه من الهلاك وعرف الصحة والمرض والنداء والدواء وقد صار رجلاً عظيماً كبيراً وقد أنتجت وحذرت وكررت مراراً ونحن سألت خاصة المسلمين وعامتهم وعلماءهم وجهلهم عن سبب انحطاط هذه الأمة لأجابوك بلسان واحد هي المعاصي هي المعاصي ثم تسألهم عن تعدادها فلا يجيبونك إلا بالغبية والتهمة والأزبكية وما شا كل ذلك ويقولون (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا) فتري هذا الجواب منطيقاً تماماً على الآيات القرآنية وهذا حق وصدق يطابق القرآن والوجدان ولكن هل تفسير المعصية بما ذكر كاف كلاً ثم كلا . هذه المعاصي المذكورة هي الظاهرة وهناك أخرى باطنة تربو على هذه في العقاب آلاف مرة كالأمراض القلبية والأخلاق السيئة والجهل العظيم بل أكبر معاصي المسلمين الآن الجهل قبح الله الجهل قبحه . نادى القرآن على الجاهلين وغيرهم ووبخهم وأنذرهم بخراب مدبرهم فقصرنا على أمور قليلة وفاتنا العلم بما حولنا من الكائنات والمواليد الثلاثة حتى جهلنا النبات المحيط بنا والحيوان والإنسان فلم نتفهم بالأولين ولم نتفهم من خطر الأخير (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الجهل بالنبات والحيوان أورت الأمراض وهلاك الزرع . لكل ذنب عقاب يخصه . فليس عقاب أعضاء الجسم الانساني

أكل الدودة لا تقطن كلا . وإنما هو عقاب الجهل والتفريط وعدم البحث من أهلها بالعلوم والمعارف (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) العلوم كلها والصنائع فرض كفاية على المسلمين عامة اقرأ كتب الأئمة الأربعة تر صدق هذه القضية . يعذب المسلمون أميرهم وصعلوكهم وكبيرهم وصغيرهم على تفريطهم في العلوم والصناعات من القدوم والمسمار إلى الكهرباء والبخار ومن السكين والسيوف إلى المكسيم والدم دم وأكبر صواعق العذاب تنزل على أغنيائها إذا لم ينفقوا وعلمائها إذا لم يندروا فيحق العذاب على الأمة في الدنيا فيجعل عاليها سافلها وأعزة أهلها أذلة ويحتم على الأفواه فلا تنطق إلا بما يوافق أهواء القابضين على الأئمة ويسامون في الآخرة عذاب النار (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

الفصل التاسع والعشرون

محاورات لطيفة في الاسلام

ونظامه وأسباب انحطاطه وسبيل ارتقاؤه^(١)

اجتمع رجال من ذوى الفضل يوماً في عالم العجائب وكنت أسمع ما يقولون فنقلت ما دار بينهم وكان فيهم الحكيم والشجاع والمجتهد والواعظ والمحتسب والمقتصد والعالم والصوفي والمتبحر في العلوم والصانع والتاجر والفنى والاخلاقى والصانع والسائح والرياضى اذ الامة كالجسم فلتمثل الامة الاسلامية به والحكيم رأسه (١) والشجاع بأسه (٢) والمجتهد فكره (٣) والواعظ لسانه (٤) والمحتسب سمعه وبصره (٥) والمقتصد

(١) تنبيه هذا الكتاب ألف من نحو سبعة سنين أى سنة ١٩٠١ ولقد كنا أزمعنا إذ ذاك أن نلخص أم القرى ونضمها هذه المحاورات التى نراها الآن وبعد أن لخصنا شذرات منها رأينا العدول عنها لاسباب لا محل لذكرها وقصدنا الى مباحث أخرى هى أهم وأولى فأثبتنا ذلك النزر اليسير منها والكثير الذى وضعناه ليكون تذكرة لأولى الالباب اه مؤلف

اعتداله (٦) والعالم عظمه (٧) والعامه لجه (٨) والصوفية دهنه (٩) والأديب المتبحر في العلوم والصنائع قلبه (١٠) والتاجر عروقه (١١) والفقى معدته (١٢) والاخلاقى جماله (١٣) والصانع يده (١٤) والسائح (١٥) رجلاه وبعضهم قرأ مقالات في الجرائد والكتب الحديثة .

ولما رأيتهم جالسين وقد أخذ كل مكانه خيل لى هيئة الأمة الاسلامية مجتمعة وقلت فى نفسى ياليت شعرى ما الذى يتفاوضون فيه وجال فكرى قبل أن يتكلموا فى حال الأمة الاسلامية وقلت انى أخاف أن يقبل بعضهم على بعض يتلاومون وذلك انه جرت عادة الله فى خلقه ان كل أسرة أو أمة ذك شامخ مجدها وذهب عزها تلاوم أعضاؤها وتقاطع رؤساؤها وكل منهم يحمل الآخر تبعته وهذه سنة الله فى الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا وذلك عام فى حال الحياة وبعد الموت ومنه ما نص الله بقوله (حتى اذا أركوا فيها جميعاً قالت أورايم لا ولا هم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأورايم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ولما تلوت هذه الآية فى ضميرى قلت وهذه وان كانت فى الآخرة فهى حاصل نظيرها فى الدنيا عند كل اجتماع على غير كمال ونظام اذ للأمة موتتان أدبية عند الانحطاط فى الدنيا وموتة جسمانية عند انتقالهم الى الدار الآخرة فاذا ذهب مجدها فى الدنيا فهذا هو المسمى عذاب الخزي فى الحياة الدنيا واذا ماتوا ردوا الى عذاب أليم وفى كل من الموتين يتلاومون كأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصر منها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون الا بدخلنها اليوم عليكم مسكينٌ وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا ان كنا طاغين وهكذا الرؤساء والمرءوسون وهكذا آيات كثيرات فى الجدال والملاومة بين

الرؤساء والمرؤسين والذين اتبعوا وان كلا يبرأ من الآخر ويود عذابه حتى رد عليهم بقوله تعالى (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون) وهكذا زى كثيراً من الآيات ذاكرة هذه المحاورات بين الفريقين ولقد علمت علم اليقين أن الكون متشابه وأن أحوال الدارين متشابهة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وما الأخرى الا نتيجة الدنيا أو ثمرتها والثمره تكون على حسب الشجرة

ولذلك ترى هذه المجادلات والمحاورات جارية بين علماء الاسلام وحكامهم وعامتهم ان لم يكن علانية فهو سرى مجرى على القلوب ولا يظهر على الشفاه وهكذا أفراد كل أمة وكل جيل من الناس عند وقوعهم في عذاب ناشئ عن تقصير منهم يلوم بعضهم بعضاً مع انهم في الحقيقة متضامنون فلذلك يشتركون في العذاب في الدارين

ومن العجب أن الله تعالى ذكر أن أعضاء الانسان تشهد عليه يوم القيامة وقد قلنا أن الأمة كالجسم فانظر كيف ترى انها تشبهه في ذلك فترى كلام من رجال الامه بعد انحلالها يحمل التبعة على سواه مع أن الجميع مسؤول فيختم على فم الرؤساء اذ لا وجود لهم بعد انحلالها وينطق أعضاءها بما فعلوا من الشرور التي أوجبت الهلاك فمن العجيب أن هذا مع ذكره لأعضاء الجسم الواحد يوم القيامة تراه بعينه حاصله للأمة حين انحطاطها ليتحقق معنى قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) وقد علمت أن النفس الواحدة تشهد عليها أعضاءها اذا ماتت فهكذا الأمة اذا خمدت أنفاس حياتها نطقت أعضاءها المتفرقون المتشاكسون المتنافرون فتأمل في التشابه بين هذا العالم وموافقته لحسن النظام العام في السموات والأرض وسيره على أحسن نظام ونسق بديع

وبينا أنا تائه في بحر عميق من هذه السوانح العجيبة وقد طننت أن هؤلاء الأعضاء سيجرون على هذه القاعدة اذ رأيت منهم أمراً عجيباً وأروني ما لم أر وعلمت منهم أننا أمة لم تزل حية ولم يميت والحمد لله جسمها نعم رأيت منهم بعض التلاوم ولكن

لتلافى ما فرط وظهور لى من كلامهم أن فى المستقبل أملا وطيدا وان من أصولهم التى بنوا عليها (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) * (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) فلتسخت شمس أممهم ظلام يأسى وهناك ما سمعته منهم ونقلته عنهم لما انعقد المجلس قام الحكيم وقال مقتطعا بعض أقواله من أم القرى يجب على كل منا أن يصرح برأيه ولا يخاف فى الحق لومة لائم ولا يخاف انتقادا وليس من يبدى رأيا ملزما به بل قد يبدىه من لا يعتقده لينظر الجماعة هل يستحسنون وله أن يرجع عنه إذا شاء لأنها خطرات وآراء تعرض للبحث والانتقاد والاستدلال

كلكم تعلمون أيها الاخوان أن مسألة الخطاط الاسلام بنت ألف سنة أو تزيد وإذا استحكم وطال عليه الأمد استحق مزيد عناية فى البحث عن الدواء ووصف العلاج الوافى واعلموا أن هذه المسئلة أجل من أن يقوم بها إنسان واحد وكيف يقوم الواحد بما بناه ألوف الملايين إذن لابد من رجال وجمعيات ينظرون ويتفكرون وقد جرت سنة الكون أن العمل يحتاج الى زمان مناسب له إذ كل شىء بمقدار فالنخل لكثرة منافعها وجزيل خيراتها لا تثمر إلا إذا مرت عليها سنون بخلاف الحشائش والنباتات المعروشات والمتمدات كالبطيخ والقناء فانها تمتد سريعا وتنفى سريعا على هذه القاعدة ليس ينفع هذه الأمة مجرد عصبية تقور فتقور سريعا أو جمعيات غير ثابتة تقوم فتسقط أو ثورات حضرية حمقاء لانلبث أن ينقلب بها الزمان ويحطها الحدثان وانما لابد من التناوب بين الشىء ومقدماته

وهذا الاسلام تفرق شيعا وذاق بعض المسلمين بأس بعض من قرون فقاموا آمنين مطمئين وكانت الأمم المجاورة لهم أحط منهم فأخذوا يحارونهم حتى ساووه فى القرن التاسع من الهجرة ثم ازدادوا عليهم فى هذه الأربعة القرون بمراحل وأخذوا المسلمين من كل جانب فهب من كل جهة جماعة واستيقظوا لما حل بهم وحق بهم من المكروه فأخذوا يصفون الحال الحاضرة واعراضها بوجه عام وصفا بديعا يفيد التأثير ثم سبب الخلل النازل والجهل الشامل مع الاجال والتلميح مع أن المقام يأبى إلا التشرىح والتفصيل

ثم أخذوا يندرون قومهم ويصفون هول المطلاع وسوء المنقلب في هذه النوازل ثم يلقون التبعة على الأمراء والعلماء والعقلاء والكافة لتقاعد الجميع عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ومع كل هذا لم يحصل نتيجة معهم الى الآن وقد آن استثمار تلك الأقوال ولا يئسناكم ما ترون من انحلال جمعياتنا الشرقية سريعا فان هذه الجمعيات الصغيرة مقدمات للجمعيات الكبيرة الثابتة والشرق مشرق العظام ولا تياسوا من روح الله فانه ما أضر هذه الأمة في هذه الأيام إلا اليأس إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

وما مثل الجمعيات المنحلة في الشرق إلا كمثل الإرهاب للنسبة فترى الإرهاب الانبياء منبثات عما سيجرى على أيديهم فتستعد النفوس للتلقي عنهم ولا يفرنكم الكلمة المشهورة أن الأمة اذا سقطت وكسرت لا ترجع شابة فهذه القاعدة لا ثبات لها

وها نحن أولاء نرى الطليان واليونان والأمريكان واليابان كل هؤلاء استرجعوا مجدهم بعد أن فقدوا معدات الحياة وسقطوا في الهوة فاستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وليس بيننا وبين غيرنا فرق إلا في العلم والأخلاق وأمد العلم عشرون عاما والأخلاق أربعون

وهؤلاء قوم موسى لم يرجعوا لمجدهم بعد خروجهم من مصر إلا بعد الأربعين استعملوا فيها الأخلاق وعلا شأنهم

فهلما للبحث عن داء هذه الأمة ودوائها ولا يفرنكم اختلاف المذاهب فاننا كلنا تابعون للسنة والقرآن والمجتهد المصيب له أجران والخطيء له أجر واحد ولم تنقطع هذه الأمة إلا بتفرقها مذاهب وشيعا كل حزب بما لديهم فرحون مع تركهم مقاصد ذلك الأصل وهو الدين الجامع لجميع المذاهب الموجب لاتحادهم وتصلحهم ضد كل من ناداهم وعاداهم

ولتعلموا أن ظواهر الأسباب تبشر بنيل المأمول وحسن المستقبل فإن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء النبي ونزل جبريل بالقرآن ونجم في هذه الآية رجال في أقطار متعددة يعد الواحد منهم بألف

ثم قال أني جيت البلاد شرقا وغربا وعرفت أهل المل وجبت الهند والصين وبلاد أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقيا فوجدت أن المسلمين أينما كانوا أحط من غيرهم صناعة ونشاطا وانتظاما في أمورهم الخاصة والعامة والدينية والسياسية حتى أنك لترى بيتين متجاورين أحدهما فيه مسلمون والآخر فيه غيرهم فيظهر لك الفرق بينهما في ملح البصر فياليت شعري ما السبب الذي دعا لذلك حتى قال بعض السواس أن الاسلام والتمدين لا يجتمعان ومع هذا ترى المسلمين في كل بلدة محافظين كل المحافظة على أمهات الأخلاق من الشيم والرفعة والكرم وحسن الأخلاق والعفة والأمانة وليس ينحط عنهم في النشاط وجميع الأعمال إلا أهل الديانات المتشددة المغالية في التشديد كالصابئين حول دجلة الذين يضعون أوقاتهم منغمسين في الماء تعبداً وكالكنفوس من الزنوج واللبودية من الهنود المعتقدين أن كل مصائبهم حتى الموت الطبيعي من السحر فهو لاء أكثر فتوراً من المسلمين ويلحق بهؤلاء الدهريون والطبيعويون الذين يدينون في نفوسهم الى قوة عظيمة وسموها الدهر والطبيعة ويقولون نحن أشقى الناس لما يرون من مستقبل مظلم وحياة رديئة

فالناس كما قال علماء الأخلاق لهم نوع دين ولا يصح أن نسمى إنسانا لا دين له بالمره وهذه أوضحت معنى (واثن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وهذا آثار أخذ العهود على البشر بالتوحيد والإيمان فالفطرة عليه اشترك فيها الناس ثم إن الدين الصحيح إن عمل به ساق الى نظام ونجاح في الدارين وقد يدخل الفساد على عقول أهله فلا يفهمون معناه كما هو فينقصون أو يزيدون عليه شيئا أو يجمعون بينهما فإن كان الأول فقد ينجحون في الدنيا ويكونون ناقصي الدين وإن كان الآخر انفسدت المدنية وخسروا الدنيا والآخرة

وكل دين باطل قد ينشأ عنه فاسد بزيادة أو بها مع نقص عنه وهاتان توجبان خسران الحياتين أما اذا نشأ فاسد مع النقص فقد يرون مدنية زاهرة اذا هم نظروا بالعقل فى أحوالهم المعاشية وبنوا على أساس علم العمران فى الأعمال وهكذا اذا بقى كما هو باطلا فتلخص أن الصحيح يقود الى العمران بنفسه والباطل لا يعطل عن المدنية وهكذا الفاسدان منها ينقص إذ لا تعطيل فى أعمال الحياة أما الفاسدان بزيادة أو بها مع نقص فانه بهما تتشوش أعمال الحياة فلا دنيا ولا دين

وهذه الاسلامية محجة بيضاء قامت بها هذه الأمة ألفا وثلاثمائة سنة مع ما طرأ من النقص فى الفهم تارة والزيادة فى الخرافات أخرى ومع ذلك حفظت إلى هذا الزمان وما ذلك إلا لقوة المتانة فى أصولها

فالمسلمون ليسوا الآن أحط أهل الديانات جميعاً ولا أرفعهم وإنما هم أرفع من كثير منهم ولقد عرفنا ان دينهم صحيح فيا ليت شعرى ما الذى طرأ على الأفكار حتى شوشها وعلى القلوب حتى فرقها فهذا هو الذى يجب البحث عنه

فقال العالم الذى أراه أنه طرأ عليه بعض قواعد اعتقادية وأخرى أخلاقية كمسئلة الجبر والتزهيد فى الدنيا والحث على اماتة المطالب وترك المفاخر والزينة وعظام الأمور ولعمري ان الأولى بعد كل تحوير وتهذيب جعلت الأمة قدرية باطناً مختارة ظاهراً والثانية منافية لما كان عليه الصدر والسلف الصالح من اعتلائهم قمم المجد والشرف فى المطالب ولهذا نرى سيدنا عثمان أباً ذر الغفارى الى الرتبة

فقال السياسى ما نزل دين من السماء إلا وجاء مضاداً للطبيعة البشرية فاذا رآها مالت لجهة عدل هو إلى الأخرى ليقف الانسان فى الوسط ويكون على الصراط المستقيم وهاك مسئلتى القضاء والتزهيد لم يختص بهما الاسلام بل هما فى كل دين ليتسلى العاجز ولا يئأس الطالب بالأولى ويقف شره الطبيعة حينئذ فى الوسط بالثانية لأن الديانات أدوية بها يرجع إلى الصحة ولا صحة إلا بالتوسط وبهاتين العقيدتين تكون الأعمال من الانسان بنشاط وتتقدم المدنية والحضارة اذ كل يسعى بلا قنوط فيوجه

هتته إلى نفع أمته. أو لا يرى أن كل الأديان على اعتقاد القدر خيره وشره من الله أو خيره منه وشره من الشيطان أو من النفس ولكن قتل الانسان ما أ كفره فانه لا يلبث أن يعكس القضية فان جاء له خير افتخر وشيخ بأنه وقال هو من عندى وان جاء له الشر نسبته لله ولذلك لا ينسب البشر أمراً إلى القدر الا عند الجهل بسببه سترأ جهلهم أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر سترأ للعجز . ولما غلب أخيراً على المسلمين جهل أسباب المسببات الكونية والعجز عن كل عمل التجأوا إلى القدر والتزهد تمويهاً لاتديننا . والمشايق والعظائم التي اقتحمها الصحابة والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم لنيل الغنى والرئاسة فضلاً عن الثواب كفاية برهان مع ان الأمة كانت زاهدة فعلاً لا كالزهد الذي تدعيه الآن كذبا ورياء.

فليس القصد من التزهد التعطيل والفقر بل توجيه الهمم إلى النفع العام الذي عليه ينشأ الاسلام اما اذا تعطلت الأعمال فلا اسلام ولا ايمان . والسعى في النفع العام هو المعبر عنه بالجهاد الذي يشمل جميع الأعمال العامة لا خصوص جهاد الكفار كما تظنه العامة والجهاد يكون لا عزاز الجامعة الاسلامية أولاً والجامعة البشرية ثانياً إذا الأمة الراقية ديناً وعالماً ومدنية يجب عليها رعاية الأمم المنحطة كالأب يربي أولاده ومثل الأمم المنحطة كالطفل يربي بين أبويه حتى يصير مثابها لهما . ثم قال والذي أراه أن سبب هذا الفتور العام تحول مجرى السياسة العام فانها كانت بعد زمن الوحي نياية اشتراكية أى (ديمقراطية) تماماً في زمن الخلفاء الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية بعدم سبب الحروب والانقسامات بين أ كابر الأمة ثم صارت أشبه بالملقة وذلك ان الأحكام لم تكن مدونة في زمن الخلفاء بل كانوا مجتهدين بما وقر في صدورهم ولما تفرق الصحابة في البلاد قيدوا الأحكام في زمن الأمويين ومن بعدهم فتشعب الخلاف وبنى على تشعب السياسات فأصبح بأس الأمة بينها شديداً وقلوبهم شتى وأصبحت الأمة جنديّة محضة وسارت في تيار المحاربات الداخلية والخارجية وآل الأمر إلى أن صارت أمة حندية صفة وأخلاقاً بعيدة عن انكسب بالوجوه الطبيعية

نعم قد كانت تصادف في سيرها فترات قليلة يقف فيها دولاب الحرب فتترق في العلوم والمعارف ثم تذهب في تيار حرب آخر ولا زالت تعثر تارة وتقوم أخرى إلى أن سبقنا الأمم من حولنا بأن صارت الجندية عندهم صناعة ذات قواعد مقررة مفقودة عندنا وذلك من نحو قرنين تقريبا فكانت أولا داخلية وخارجية للمدافعة تارة والفتوحات أخرى ثم صارت للمدافعة فحسب ثم صارت في القرنين الأخيرين داخلية لا غير وتركت المدافعة لجهلنا بالصناعة الحربية وأصبح بأسنا بيننا شديداً نعيش بالتعاقيل على الكسب من وجوهه الطبيعية وهذا أجل ما عيبت النشاط ويولد الخمول

فقال الأديب : ان غيرنا من الأمم قد وجدوا في انقسامات سياسية وتباينات مذهبية وحكومات مطلقة وفي حروب مستمرة ولم يشملهم الفتور بوجه عام كجرمانيا ثم قال والذي أراه ان هذا الفتور العام انما جاء من تأصل الجهل في غالب الحكم المترفين الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا حتى بلغ جهل هؤلاء إلى منزلة أخط من منزلة العجماوات التي لها طبائع ونواميس فمنها ما تحمي ذمارها وتمنع عن حدودها وتدافع عما استحفظت عليه وهؤلاء ليس لهم طبائع ونواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون ومنهم البعض ضالون على علم وهم الذين يشتكون ويبيكون حتى يظن انهم مغلوبون على أمرهم ويتشدقون بالاصلاح السياسي مع انهم وأيم الحق يقولون بالسنتهم مالم يس في قلوبهم يظهرون رغبة الاصلاح وهم يبطنون الاصرار على ما هم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مباني مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين وهذا داء عياء لا يقر صاحبه لفاضل بفضل له لأنه داء الغرور ولا يجارى حازما في مضمار وقد سرى من الأمراء إلى العلماء إلى الكافة فلا يرجى معه شفاء فأجابه الشجاع الحر وقال :

من هم الحكم أليسوا منا ونحن منهم فما الحاكم الا فرد من القوم ترأس عليهم وطبعه من طباعهم ولذلك ورد كما تكونوا يولى عليكم فلو لم نكون نحن مرضى فمن أين يأتي المرض لأمرائنا والحكام أبناء الأمة تسربوا في حجرها والابن يرث غالبا

صفات أليه فتحميل التبعة على الأمراء وحدهم غير سديد
ثم قال والذي أراه ان سبب هذا الفتور العام هو فقدان الحرية وما أدراك ما الحرية
هى ما حرمتنا معناه حتى نسيناه وحرمت علينا لفظه حتى استوحشناه
والحرية هى أن يكون الانسان مختاراً فى قوله وفعله ومن فروع الحرية تساوى
الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء وعدم الرهبة فى المطالبة وبذل النصيحة
ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والطبوعات والمباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها
حتى لا يخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار مقتال
ومنها الأمن على الدين والأرواح والأمن على الشرف والأعراض والأمن على
العلم واستثماره فالحرية هى روح الدين ولا يمكن أن يقوم بدونها وكيف يقوم الدين
بدون النصيحة المتوقفة على الحرية وقد روى البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وروى البخارى أيضاً ان
صحابيا قال :

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم قلت أبايعك على الاسلام فشرط على والنصح
لكل مؤمن مسلم فالنصيحة مما تجب المبايعة عليه وانها من أصول الدين العليا الكلية
وهذا النصح لا يتم الا بالحرية ومما يحسن ذكره فى فروع الحرية قول سيدنا حسان بن
ثابت الشاعر الصحابي

وما الدين الا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب
فانظر كيف حصر الدين فى اقامة الشرائع وتأمين الناس ولعمرك أن الحرية
بفقدائها يعم السكل أفراد الأمة ويتمادى فيهم ويرثه عنهم أبناءهم لما يرون من ذهاب
آراء سديدة وأموال وأعراض ونفوس وشرف ومقتنيات فتقبض الأيدي عن العمل
والأرجل عن السعى والقلوب عن الأمل والافكار عن التفكير والاستنباط وعليه
تدهور الأمم تدهوراً فى أسفل سافلين . أجابه الفاضل المحتسب ان هذا الداء وهو
نزع الحرية من الافراد غير عام مع عموم الفتور وكيف ينتج العام عما ليس بعام هذا
مما لا يمكن

والذى أراه فى سبب عدم التنوير اننا كنا خير أمة أخرجت للناس بأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونعبد الله وحده أى نتذل ونخضع له أمرنا شورى بيننا نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب منه وما هان .

وقد يظن أن أصعب هذه الأمور النهى عن المنكر مع ان ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فباللسان فان لم يكن فبالقلب وهذه المرتبة الثالثة متيسرة وذلك بالأعراض عن الحائث والفاسق والفاجر وتجنب مجاملته ومعاملته ولا شك أن ايتاء هذا الواجب الدينى كاف للردع . ولا يتصور العجز عنه مع انه أعظم ما يقوم الممالك قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال صلى الله عليه وسلم لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب

وبالجملة فترك هذه الخصلة منذر بأقراض الأمم التاركة له من الوجود ، ولقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمن الصحابة والخلفاء الراشدين صادرا من كل مسلم ومسلمة وكانت معيشتهم بسيطة فخلف من بعدهم خلف توسعوا فى الحاجيات والكاليات فشغلوا بنفوسهم فأقاموا محتسبين ثم زاد تفرق الدولة تفرقا عظيما فبطل الاتساب كما بطل التناصح العلم فأصبح بأسنا بيننا شديدا وأصبح الاتساب مقام الاحتساب وصارت الأمة أشبه بالجندية المحضة

فقال الحكيم أن هذا يصلح أن يكون سببا من جملة الأسباب ولكنه لا يكتفى وحده لا يراث ما نحن فيه من الفتور والذى أراه ان أعظم مآلها هذه الأمة وأوقعها فى فتورها اعتقادها ان الساعة على وشك القيام كأنهم ظنوا انها تقوم علينا وحدنا وتترك الأمم مع ان علم الساعة عند الله

فقاطع الفنى الحكيم قائلا : هذه المسئلة تجول فى أذهان عامة الناس وخاصتهم

ولم يوضحها لنا أحد ولم يكشف عنها حجاب الحفاء ولذلك أصبح كثير من مريدى الإصلاح يثنون غرائمهم عما قصدوا لاسيما اننا نسمع كثيراً من أهل العلم يقول فيها قولاً اجمالياً وان هذه علامات صفوى وهناك علامات كبرى قد آن وقتها مع ان هذا شىء مضى عليه ألف سنة ونيف وثلثمائة وهذا أورث القوم فتوراً عظيماً مع اننا نرى نشاط الأمم وتسابقهم إلى الخيرات ونظام المدنية فأرجوك بلسان الاخوان أن توضح لنا هذا الاشكال فقد غمض معناه وأبهم على الجميع فأننا نراك من المحسنين المحققين

فقال الحكيم : من الحكم العجيبة هذه العقيدة عقيدة قرب قيام الساعة مع الجهل وهكذا القضاء والقدر وزمان الموت فكل هذه انبهمت على الناس مع علمهم بها ليدوم الخوف والرجاء وجميع أعمال الانسان في الحياة دائرة على محورين هما الخوف والرجاء كالأكل والتزوج فألم الجوع سائق ولذة الطعام قائمة وهكذا ألم الشهوة للتزوج سائق ولذة التزوج قائمة وهكذا جميع أعمال الانسان لا بد لها من لذة مطلوبة وألم منفور عنه حتى يعمل الأعمال بنظام فلولا خوف الفقر ورجاء الغنى ما باع التاجر ولا اشترى وهكذا الملوك والأمرأ كل يخاف الزوال ويرجو المزيد وهذه سياسة لا بد منها

ولما علم مدير الكون أن لنا أرواحاً ستبقى بعد خلاصها من الأبدان وبعد خروج الأمم من أسر الطبيعة أراد أن يعلمنا بلذة الجنان وخوف النيران لنعمل للرجاء ونتقى للخوف ومع هذا العلم أبهم الوقت ليتمكن الرجاء والخوف ولو علمنا الوقت بعينه لغلّب اليأس على الناس فلم يكن هناك رجاء البتة ولو ترك أعلامنا بالمرّة لم يبق هناك خوف قط فهذه هي الطريقة الوسطى التي تدعو إلى قيام الأمم وأفرادها وترقيها إلى أوج الفلاح والعلا والسعادة

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمر على حقيقته هو وأصحابه والصدر الأول من الأمة فأسس دولة وشيد ملكاً عظيماً وبنى عليه من بعده من الخلفاء الراشدين وبنو أمية وصدر العباسيين ثم خلف من بعدهم خلف وملوك ودول صغيرة استبدوا

بالملك وعزلوا العلماء جانباً عن تنبيه الأمة لما ينفعها وتدهورت الأفهام كلها تدهورت الأمة (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) فلم يكن ظهور البرق فى السماء ليعتقد الانسان أنه سيحرقه وأن المطر سيملاً الفضاء بدون رجاء نفع وإلا كان البرق عذاباً واجباً وإنما جاء للخوف مع رجاء أن ينزل المطر فيحيى الأرض بعد موتها فجاء البرق للخوف والرجاء معاً ومما مثل يوم القيامة إلا كمثل البرق فذا قصر على الخوف دون الرجاء أحدث اليأس والقنوط فاذا تغير ما فى النفوس من الأمل ولم يبق إلا القنوط انحطت الأمة (أنا عند ظن عبدي بي)

ونرى أن أمتنا غلب على عامتها وكثير من خاصتها هذا اليأس لاعتقادهم أن قرب الساعة زاد جداً حتى أنه ليس للإسلام قائمة تقوم مع أنه ورب الكعبة لا بد من بقاءه الى آخر الدنيا بحيث تقوم القيامة على مسلمين وغيرهم كما ورد فى حديث البخارى عن معاوية بن أبى سفيان وهو يخطب على المنبر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من يرد الله به خيراً يقمّه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله) فهذا نص فى بقاء هذه الأمة

ومن المبكيات أن الأمة كما تفهقت اعتقدت اشتداد القرب مع أن هذا لا يخطر فى بال السواس الذين شيدوا مدنهم وحصنوا بلادهم ورفعوا أعلام المدينة

ثم سكت الحكيم فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فإنه جدير بالبحث فقال قسم العلماء اشراط الساعة الى قسمين صغرى وكبرى وقالوا أن الصغرى تأتى مقدمة للكبرى وإيضاحه أن هذه الأمم على سطح الكرة الأرضية يتلو بعضها بعضاً وكما ذهبت أمة اتبعها أخرى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) وكما أن الشخص الواحد ينذر

بالهلاك وهو الشيب والهرم والأمراض المتنوعة فكل هذه تنذر بالاستعداد للرحيل (وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) ويحيى البرق ليستعد الناس للمطر فهكذا الأمم لكل أمة عند إرادة خرابها نذير ينذر بانقراضها وتلاشيها من الوجود أو دخولها في عناصر أمة أخرى وجميع الأمم على سطح الكرة الأرضية ينقرضون ويذهبون من الوجود وتتمزق الأرض كل ممزق باجماع الشرعيين والفلكيين والطبيين وجميع علماء الأرض قاطبة في هذا العصر من الافرنج والشرقيين

ونذير الأمة عند انقراضها حلول الأمراض فيها أي أمراض الاجتماع وداء الشقاق (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) وذلك أمور : —

- (١) عموم الترف فيها وتطاولهم في البنيان حتى يعم الطبقة السفلى من الأمة
- (٢) اختلاط الأنساب وأن يتزوج الشريف وضيعة الذنب فتى تبادوا عليه حصل الانقسام وذهب التناسب واستحكمت الشقاق
- (٣) ظهور الزنا وانتشاره جداً فتى طال أمده كثرت قتل الأجنة فذهبت الأمة من الوجود

- (٤) قلة العلم وظهور الجهل فيتولى الجهلاء الرئاسة فيظلمون الناس فتضيع الأمة
- (٥) شرب الخمر وكثرته والإدمان عليه فانه كما قال علماء العصر الحاضر سبب لتلاشي الأمم الشرقية ولذلك قال هنرى فى كتاب خواطر وسوانح أنه الطريقة الوحيدة فى إبادة الشرقيين هى حرب حقيقية معنوية

- (٦) أن يكتر الرجل من النساء عنده كما كان عند الشيخ المهدي السوداني والتعايشى
- (٧) أن يتولى أحكام الناس الذين لا قدرة لهم على ضبط المثلث من لاعصبه لهم ولا قوة ولا بأس ولا شجاعة ولا علم

فهذا من أعظم النذر فكل أمة غلبت عليها هذه الصفات أو أغلبها غلبت على أمرها ودخلت فى جسم أمة أخرى وحكمها الأقوى منها فانقرضت من الوجود حقيقة كما

في عاد وثمود والذين من قبلهم وبعدهم أو حكما كما في الأمم التي احتلتها أمم أخرى وتسلطوا عليها (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) وهذا كعاد وثمود ومن قبلهم وبعدهم (أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) وهذا كالأمم الباقية في حكم غيرها وهذه هي التي عملت عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ويخرجون من الاستعباد الى الحرية

فهذه الصفات السبع التي ذكرناها علامات لانقراض الامة واضمحلالها وهي بلا ريب علامات أجمع عليها جميع العمرانيين الشرقيين والاوروبيين وما من نبي أو حكيم أو سياسي إلا وأذرقومه وأعظم الناس الحكماء وأجل منهم الأنبياء وأعظمهم نبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذي ظهر وبرع في علوم العمران فان هذه الاسباب السبع ذكرت في الاحاديث مفرقة فأشار الى الأول والثاني في حديث البخاري وهو سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاسلام والإيمان والاحسان والساعة وهذا نصه : عن أبي هريرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال له ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الاسلام قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أسرارها اذا ولدت الأمة ربها (أى سيدها) واذا تطاول رعاة الابل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم اهـ

فقوله اذا ولدت الأمة ربها إشارة الى ما أحدثه بنو العباس وملوك الاسلام قاطبة وأمرؤهم وأغنياؤهم من اتحاد نساء السبي المباحات لهم شرعاً وخرج منهمن أولاد صاروا ملوكاً وأمرأء سادة على هؤلاء النساء وغيرهن فلما تمادى الأمر على ذلك زالت العصبية

وذلك حاصل في بلاد المغرب والشام وجميع أقطار الاسلام إلا جزيرة العرب فانهم ما زال بينهم النسب محفوظاً الى الآن

فالقصد من هذه العبارة ترك الجنسية وعدم الرابطة القومية فانها من أمهات النذر للانقراض إذ الرابطة تكون بالجنسية والدين واللغة والوطن والصفات المشتركة والجنسية من أقواها .

وقوله وإذا تطاول^(١) رعاة الابل الخ فالقصد منه عموم الترف في الأمة فتنتقطع الاعمال وتكثر الجبايات ويحتبسون الحرب كما حصل في أمة الرومان ودولة العرب (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) . فقدم العامة فتطاولوا في البنيان وزخرفوا منازلهم وشيدوا قصورهم وأكثروا من المعاصي (فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) ثم أشار الى أن هذا علم بقوله (ولم أهسكنكم من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) والذنوب هنا كل ما يخل باصلاح الأمة كعموم الترف والزنا وغيرها من الأمور السبعة المذكورة وأشار للثالث والرابع والخامس في حديث البخاري عن أنس قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا) وليس رفع العلم إلا ما ورد في حديث البخاري أيضاً بسنده الى عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

فمن هذا تبين معنى رفع العلم ولا يظن اخواننا أن علم الفقه وحده كاف في نظام الأمة فلقد سمعت من مشايخنا أنهم يقولون أن قضاء هذا العصر قضاء ضرورة وذلك لأنهم لم يستوفوا شروط القضاء الشرعي ومن لنا بقضاء كعلي رضي الله تعالى عنه وشرع ومن بعدهم فهذا اعتراف بأن القضاء عندنا أصبح ركناً مهدداً وهو تفسير حديث النبي

(١) قد مر هذا في الفصل الاول في هذا الجزء واتضح فيه اسراف الامويين العباسيين الخ

صلى الله عليه وسلم ولذلك لما ضعفنا في غالب الأقطار عن ضبط العامة اغتالتنا الأمم وأصبحنا معرضين لأخطار كثيرة وارتزعت بلاد وخربت أمم ودخلت أخرى في جسم غيرها من الأمم ولقد حل بنا ما حل بعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وذلك في بلاد الاندلس فانهم أجلاوا عن بلادهم وأهلكوا وهكذا الأمم الأخرى أصبحت في الاختلال فأخذها الاحتلال جزاء وفاقا (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فانه عز وجل يحب البقاء والسعادة لا الشقاء والدمار فان لم تصلح الأمة بنفسها أرسل لها من يصلحها وما كان الله ليضيع العباد فيربح الضالة باحدى أمرين . إما الهلاك من الوجود أو تحكها أمة أخرى وهذا هو سر هذا الوجود .

ومن أسباب هذا الجهل أن أهل العلم يظنون أن المدار على تعلم قواعد العلوم العربية والأصول وأن تحصل للانسان ملكة الفهم في العلوم الشرعية وبها يصلح أن يكون قاضياً ، مع أنه قد أضاع حياته فيما لا يفيده ولا يفنيه فترك فهم القرآن والحديث وتهذيب النفس فأصبح من الضالين المضلين فالاعتدال على الفهم شيء والفهم شيء آخر والعمل هو النتيجة فاذا ترك هذا كله لم يبق إلا علم الفتاوى وهو لا يهذب النفوس وانما جعل سلاحاً لاصلاح منازعات العامة وأشار الى السادس والثالث والرابع بحديث البخارى :

قال أنس ألا أحدثكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء وتقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد .

وهذا نراه حاصلًا في كل أمة كثرت حروبها حتى قربت من الاضمحلال في كثير من أمراء الشرق الذين يكثرون من الترف وهو علامة على الاضمحلال ودمار الأمة وأشار الى السابع في حديث البخارى بسنده عن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاء اعرابي قال متى انقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم بل لم يسمع

حتى اذا قضى حديثه قال أين أراء السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال فاذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة

ولما أتم الحكيم كلامه قال له التاجر انا نسمع في هذه الأحاديث التي تقصها علينا ذكر الساعة ولقد حصل لنا ريب في هذا فان الساعة هي القيامة وأين القيامة وأين خراب أمة مخصوصة نحن علمنا من هذا التقرير الذي أوضحته لنا ان هذه الأمور توجب دمار الأمم وخرابها لا خراب الكرة الأرضية كلها إذ هي أمور ترجع الى صلاح العمران وفساده واذا فسدت أمة لم يلزم منها فساد أمة أخرى بل الهدي دلت عليه التواريخ وجميع التجارب والعلوم انه كما هلكت أمة أحدث الله بعدها أخرى كما انه كما هلك انسان أخلفه آخر في الوجود ليدوم العمران مع أننا نسمع عن أسرار الساعة عن كل نبي من الأنبياء فلقد أشكل علينا الأمر وزاد أشكاله فأزل الريب عن قلوبنا فقد قرب أن نصل الى فهم هذا الموضوع من حسن بيانك فان نظرنا لايضاحك وجدنا هذه منذرات بخراب الأمة التي تقع فيها فقط وان نظرنا لألفاظ الأحاديث وجدناها تذكر الساعة مع ان الأمم كلها لا تنمحي من الوجود الا اذا جاء لها نذير عام وهو المعبر عنه بالاشراط الكبرى كأن تطلع الشمس من مغربها وهذا بلا ريب عند اختلال سير الشمس واضطرابها في سيرها بحصول تصادم أو نحوه من الأمور السماوية التي يعلمها الله تعالى ويجهلها العلماء كافة وبعد ان تأخذ الأرض زخرفها وتزين ويظن أهلها انهم قادرون عليها ولا يبقى حرب في الأرض ويظهر جميع أهل الأرض بمظهر الجمال في الاخلاق والآداب وذلك عند ظهور عيسى كما في الحديث ويزول الضلال والرجل من الأرض ولا يبقى سوى السلام وهذه الاشرط لا وجود لها الآن البتة فان المدنية التي تراها الآن ملأت الكرة الارضية ظلما وحربا فأين الهدى وأين السلم وما البهتان والزور الا من الأمم الحاضرة الذين هم أساس كل ظلم وعتو فأوضح لنا هذا الموضوع تنل الثواب الجليل

فقال الحكيم : ان اشراط الساعة ذكرت على لسان كل نبي يندرون قومهم بها وكلهم كانوا يأتون بالتسمين فلنقدر ان الامم التي قدر الله وجودها على سطح الكرة الأرضية من آدم الى خراب الأرض ألف أمة مثلاً فاذا قدرنا الامم التي مضت من قبلنا تسعمائة وخمسين وبقى الآن ٥٠ ونحن لا نعلمها فكلها هلكت أمة من الحسنين الباقين وهم بلا ريب أقل من التسع مائة والحسنين انذرت بانقراض الدنيا إذ هذه الأمة واحدة من الحسنين الباقية فكلها غرب نجم واحدة قربت القيامة بمقدارها ولذلك سميت السبعة العلامات الصغرى وذلك انها تنذر بأمرين بهلاك أمة عاجلاً وبقرب الساعة فبعد ان كانت بقي عليها خمسون أمة يبقى تسع وأربعون

فهنا أمران هلاك لجزء من الناس وانذار لقرب خراب الأرض كلها فاذا بقيت الدنيا بعد هلاك أمة آلاًفاً مؤلفة من السنين فيقال ان علامات انقراضها من اشراط الساعة فاذا تتابعت الامم واحدة بعد الأخرى حتى جاء أمر الله جاءت العلامات الكبرى وتحطمت الأرض والسماء وانقلب هذا الوضع الذي نراه . وفائدة هذا الانذار أن الامة قد يكون بها رمق الحياة فتستعد للرجوع ويخلفهم أقوام يجددون مجداً جديداً ويسابقون الناس وربما فاقوا آباءهم الأولين وهانحن نرى الآن اليابان والطلليان والأمريكان واليونان استرجعوا مجدهم بعد خروجه من الاستعباد وهكذا بنو اسرائيل رجعوا مجدهم لما استكملوا العلم والاخلاق في أربعين سنة حتى مات الجيل الجبان وأخلفه أهل الشجاعة والبأس (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) وهذا هو الدواء الذي تستعمله الامم لرجوع مجدها وعظمتها . ولعمرك لم يقصه الله في القرآن الا ليرينا كيف نسترجع مجدنا القديم

وأما الاحتجاج بقرب الساعة فجعل عظيم فانه من تدلى الفهم الدال على تفاقم الخطب ولذلك قال العزيزي في شرح الجامع الصغير نقلاً عن بعض العلماء حديث (الدنيا سبعة آلاف وأنا في سابعها ألفاً) ما معناه انه حديث مكذوب لا أصل له بل هو قلق التركيب شخيف العبارة سنده فيه وضاع

أظن أن هذه الفكرة جاءت من أمة اليهود التي شاع فيها هذا الكلام تسلياً عما فاتهم من الملك ولما ضعف المسلمون ورثوا هذا الكلام عنهم وهذه طبيعة في النوع الانساني كلما ضعف عن شيء أحب التسلي كما يتسلى العاجزون بالقضاء والقدر والبطالون بلعب الطاولة والورد والسكرارى يسلون أنفسهم عما أصابهم من هموم الدنيا وأحزانها غاية الأمر أن هذا سكر ظاهر وذلك خفي يأخذ بالعقول عن النظر في الشؤون وكما يتسلى العاجزون عن الفتك بالعدو بتمنى زوال النعم والحسد وما يفتكون الا بأنفسهم وما يشعرون فالأمة التي تتشكل على قيام الساعة تدل بذلك على دنو أجلها وموتها وهلاكها ما لم يتداركها حكماء علماء ويأخذوا بيديها من وهدة الضيق والهلاك

ومن طبق هذا على أحوال الأمم جميعها رآها مطابقة تمام المطابقة وهذه الأمة العربية لما شاعت هذه الأمور السبعة فيها الى القرن التاسع من الهجرة ابتداء الدمار فيها تنبيهاً من الله لأهلها ليأخذوا حذرهم ويرجموا مجدهم وقد ورد في الحديث ان فتح القسطنطينية من أشراط الساعة وقد جاء مصداقه حين فتح أحد الاسبانيين بلاد الأندلس وقتلوا أهلها وسبواهم فأخذوا وهم لا يشعرون

وذا ذهبت تلك الدولة شرع الافرنج في احتلال الجهات الأخرى وامتلاكها من الغرب والهند وغيرها (وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) فقوله مهلكوها كخراب الأندلس وقوله أو معذبوها عذاباً شديداً كالبلاد التي أهلكتها أو ملكها غيرهم كالغرب والهند ومصر والجاوه وكل على حسب جريمته في الابتعاد عن نظام البلاد وإدارتها المعبر عنها بالقواميس الشرعية والقوانين السياسية المطابقة لها وليس هذا كله مانعاً من الترقى مرة أخرى بل جرت سنة الله أن الأيام يداوها الله بين الناس (وتلك الأيام نداولها بين الناس) وهذا الدين لا يزول من الأرض بل آية أمة أضاعته حملته أخرى تقدر على حمله (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

ولما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وكان سلمان الفارسي جالسا قال مشيراً
إليه هم قوم هذا وقد ظهر هذا فان الفرس هم الذين أبرزوا علوم الإسلام وأغلب حملة العلم
منهم كما قرره العلامة ابن خلدون هانحن ان لم نتم بهذا الدين فربما يأتي المستر والمسيو
الانكليزي والفرنساوي فيسلم فيغلبون على أمرنا ونحن الآن فينا بقية من روق الحياة
فهموا للعمل وثقوا بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويرجع مجدكم
وربما فقم الأولين وهنا يظهر سر التوكل على الله تعالى فلما سمع القوم منه
ذلك قالوا :

لقد شفيت قلوبنا والحمد لله الذي جعل في الاسلام رجلا حكيما مثلك يبين للناس
مانزل اليهم وأكثر فيه من أمثالك

فقال المجتهد أن بيان أخينا الحكيم الفاضل كف شاف في هذا الموضوع ولقد
بدأ لي فهم انخبيته من فحوى كلامه ومرامى أغراضه وذلك ان القيامة قسمان صغرى
وكبرى فاذا مات انسان فهي قيامة صغرى له والقيامة الكبرى هي عند خراب الارض
وبين موت الشخص وخراب الأرض يموت أنفس كثيرون وكلما ماتت نفس قربت
الساعة الكبرى بمقدارها إذ النفوس الانسانية معدودة محدودة وما مثل النفوس
بالنسبة للأرض الا كمثل الانفاس بالنسبة للنفس الواحدة فكما تنفس الانسان مرة
ذهب من حياته جزء وقرب موته بمقدار ذلك النفس فاذا ذهب نفس آخر ازداد
القرب وهكذا إذا مات شخص ممن قدر وجودهم على سطح الكرة الأرضية قربت
القيامة بمقداره وهكذا كلما هلكت أمة دلت على قرب الساعة أو اشتداد قربها وعلى
ذلك فهم قوله تعالى في عيسى وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها وقوله صلى الله عليه وسلم
بعثت أنا والساعة كهاتين وقوله (أنا النذير العريان) وكان إذا ذكر الساعة أو خطب
يظهر الغضب في وجهه عليه الصلاة والسلام

وقد ورد في حديث أن جماعة جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن الساعة فقال (إذا مات هذا فقد قامت قيامتكم) وأشار إلى أصغرهم فيفهم منه أنها اسم جنس وهذا هو الذي فهم من الأحاديث وهو المطابق للأخبار ولكن هذا غير ما يفهم عامة الأمة في هذا الزمان . ولقد كان النبيون يندرون بالأمرين الاشرار الصغرى والكبرى وكان أكثر عنايتهم بالصغرى لأنها هي المهمة القريبة وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد اقترب ماذا أنزل الليلة من الفتن لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج كذا وحلق بالسبابة والوسطى) مشيراً الى فتح مسألة التتار وذلك أن الاسلام كان آخذاً في الانتشار ولما انتشر جهة فارس وخراسان قربوا من بلاد التتار وهم يأجوج ومأجوج فعبر عن مقدمات فتح السد بفتحه كما يقال الصحة مفتاح المرض والشباب مفتاح الشيب والحياة مقدمة الموت اذ كل من التوالى نتائج فهكذا ظهور التتار وهم يأجوج ومأجوج نتائج اتساع الفتوحات ومتاخمة بلادهم لبلاد التتار وانظروا كيف ظهر أثر هذا الكلام بعد ٦٠٠ سنة وخرجوا ودوخوا الاسلام كما أوضحناه في هذا الكتاب

ثم ان كلام الأنبياء عام لا يخص أمة بعينها فحق القول على أمة هلكت واضمحلت وقد تكون لها بقية فترجع كما كانت ولذلك كانوا يعلمون العلامات الصغرى والكبرى لأن أحوالهم عمومية وكان الكون كله أمامهم ينظرونه بمنظار الكشف فيعبرون عنه بما يوحي اليهم والوحى أمر سماوى عمومى فاذا جاء للأمة أخذ كل بما يناسب قواه العقلية فاذا أراد الله هلاك أمة فهمت أن القيامة ستقوم عليهم ووقفت حركتها واذا أراد اعزازها كان هذا سبباً في نشاطها وعلمت أن هذه المنذرات يقصد بها الأخذ في أسباب السعادة مرة ثانية أو تكون عقولهم ارتقت ويقارنونها بقوله تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا يئأس من روح الله الا القوم الكافرون)

والأمة إذا يئست من روح الله عدت كافرة ولكنه كفر دون كفر لأن هذا يوجب عذاب الدنيا والكفر الآخر يوجب عذاب الآخرة فقال آخر .

هذا السبب لا يصح أن يكون سبباً لآحداث هذا الفتور العام في الأمة إذ فكرة قرب الساعة كما قلنا شائعة في جميع الأمم فلم تختص بأمة دون أمة على أن فهمها على غير وجهها جاء من انتكاس القرائح والافهام على الرأي الناشئ من الخول العظيم المستولى على الكافة وهذا ما نبحت عنه والذي أراه يصلح أن يكون سبباً عاماً لقطع سلسلة الولاء في الأمة بين الحاضرين والماضين فلم تتطلع الانفس لمجدها القديم وذلك أن غيرنا من الأمم إذا مات عظيم من عظمائهم نصبوا له التماثيل وألقوا الكتب في تقریظه وذكر أعماله ونشروا أخباره حتى يعرفه الناشئون في المدارس والمنازل وعلى ألسنة الناس في المجالس حتى ينسج الناشئون على منواله ويتبعونه اقتداء بما فعل لما يتولد من روح النشاط وحب التقليد فإذا جاءوا عند تمثاله وقفوا أمامه لم يروا شخصاً أمامهم إلا تذكرة لجميع أعماله في حياته ويتمثل لهم أن هذا الهيكل رمز لتلك السجايا الحميدة والصفات العديدة الجليلة فيشب الناشئون على سير الآباء ومحبتهم والافتداء بهم ويحبون أوطانهم أما نحن فإن عطمانا وهم الأولياء والملوك والعلماء لا تقرأ في سير الكثير منهم إلا الكرامات وخوارق العادات ونترك كل عمل جليل عملوه مما ينفع الأمة حتى إذا وقفنا عند الأضرحة لم نعمل بما صرح به علمائنا من أننا نقف معتبرين في أحوال دنيانا وآخرتنا ونقارن بيننا وبين صاحب ذلك الضريح . وكيف كانت حياته ونفقه للناس واقتداؤه بالأنبياء ونطلب له الرحمة مكافأة على إحسانه (فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وتقتدى في أفعالنا (فبهدهم اقتده) وعلى ذلك تخطينا كل الأعمال الشريفة ووقعنا في هاوية لا مرد لها إلا إذا عقلنا وفهمنا كتاب الله على وجهته

ولذلك لا ترى انتشار سيرة سيدنا عمر وعثمان وعلى وغيرهم من أكابر الصحابة ولا التابعين ولا الملوك العادلين من العباسيين والأمويين وإنما المنتشر على الألسنة بين العامة والخاصة بعض كرامات الأولياء الصالحين والاقتصار عليها مع ترك ذكر الأعمال العظيمة لنفع الأمة وهذه قصة سيدنا الحسين وعلى ومعاوية نراها شائعة ولا

تذكر فضائلهم إلا تبعاً وإنما المذكور في الغالب المشاجرة التي أمر العلماء الاتذكرو كان الواجب أن تنشر فضائلهم بين الأمة ليقننوا الناس بهداهم . ونرى أن المؤرخين يجمعون الحوادث من حيث هي بقطع النظر عن تأثيرها في النفوس وإنما يأتون بكل ما سمعوا مع أن التاريخ حدث في الأمم للاعتبار والاقتداء ولم نجد منهم من ألف تاريخاً يقصد النفع والتأثير على الافئدة والنفوس بفضائل الاعمال العمومية فيرون التاريخ من حيث مصدره لا من حيث نفعه وتأثيره مع أن الأمم الغربية عرفت تأثير ذلك فبحثوا عن سير علمائهم وخلصوا الحوادث تلخيصاً يولد في الناشئة رغبة صالحة . ولعمري أن الناشئة متى سمعوا قصص أسلافهم مشحونة بالحرب والضرب والقتال والحداد قلدهم في أعمالهم وعلى ذلك نرى قصة أبي زيد الهلالي والزناقي خليفة وعذرة العيسى وهبله شائعة بين عامتنا .

فياليت شعري كيف يفلح قوم شاعت هذه القصص الجاهلية بينهم حتى أننا نرى العامة في القرى والامصار عندنا بالبلاد المصرية مولعين بهاتين القصتين شبانهم وشيوخهم وصفارهم وكبارهم فلانا لله وانا اليه راجعون^(١) .

وما قصص الغابرين من الأمة مع الحاضرين إلا كسلسلة اتصل أولها بآخرها فاذا قطع ذكرهم انقطعت السلسلة من الأذهان فتدهورت الأمة وضلت تأهية حتى تأخذها أمة أخرى وتحفظ أنسابها وأشعارها وتاريخها وتنسى سلسلة قومها

ولقد عرف الانكليز ذلك فجعلوا قومهم قسمين محافظين وأحرار فالمحافظون يدرسون الماضي وييقنون كل قديم على قدمه ليبقى نظام الأمة متصلاً كما كان أولاً ويتصل أولها بآخرها وتبقى رابطتها قوية والأحرار يأتون لكل جديد فيمزجونه بالقديم فيأتون بكل اختراع حادث علما منهم انهم ان انقطع نسبهم عن الأمم المجاورة لهم في المعمورة تألبوا عليهم وغلبوهم في الصنائع والمعاملات فأخذوهم فكل أمة تركت مجدها القديم أولم تنظر للجديد ولم تجار جيرانها هبطت وانحلت واختلت

(١) ليفكر من بعدنا في هذه القصص وليهذبوها ويبقوا النافع منها حتى تصلح لسماع الجمهور

فبالأول تذهب قوتها وجيشها و بالثاني تنقض عليها الأمم وتنقطع عن سابقتها فتتدهور في الهاوية وبئس المصير فوجب علينا أن نسلك الطريقتين ونعمل بالأمرين وتقرأ سير الأواين منا ونؤلف تأليفاً نافعا مؤثراً وأن نجارى الأمم حولنا ونستعين بالله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

فقال الأديب اننا نرى في الأمة جزءاً صالحاً من شعائر القومية وارتباط السلسلة ولكنه يحتاج إلى اصلاح وتقليح فلا يصلح هذا أن يكون سبباً بل هو من العوارض والذي أراه يصلح سبباً عاماً جهلنا بأساليب الروايات وهى من الفنون الجميلة أضاعته الأمة وحفظه الغربيون والفنون الجميلة كلها مشوقة للنفوس إلى ما يراد منها والخياليات والروايات أعظم ما يقود الأمم للترقى والنجاح وما تركنا هذا إلا لجهلنا بمقصود القرآن والحديث فاننا قصرنا أفكارنا وأضعنا أعمارنا فى استنباط الأحكام الفقهية التى بها نعبد وبها نحكم بين الناس مع أن كلا من العبادة والفقهية والاحكام بين الناس انما هى ظواهر ومقدمات ولها نتائج ونهايات فالعبادات لتفريغ النفوس عن الشواغل إلى المعبود وهذا هو المقصود وإذا لم يحصل فهى قاصرة وهكذا الأحكام بين الناس ما شرعت إلا لفساد الأخلاق والمنازعات بين الأفراد وأرقى منها تهذيب أخلاقهم التى لا يحتاج معها إلى تلك الأحكام ولا ريب أن فن الخياليات والروايات كما قيل يسوق النفوس بالوعظ إلى الخالق يشوقها إلى الكمال والآداب التى هى الثمرة المطلوبة فلا يكون هناك دعاوى ولا بينات فهذا الفن يوصل للقرب من الخالق والخالق وهما نتائج جميع الديانات إذ السكون مؤسس على الحب وهو أرقى من الخوف والعبادات والأحكام السلطانية أقرب إلى الخوف وصلاح النفوس وكلها بالحب وهما النهاية والحب أقوم الأمرين وأفضل الطريقتين وأعدل الحكيم .

ولهاتين الغايتين جاء القرآن بقصص الأنبياء والصالحين والملوك والفرعنة والجبابرة وذكرها فيه أكثر من ذكر الأحكام والعبادات إشارة إلى ما قلناه والروايات إما على السنة الحيوانات أو الجمادات أو الانسان وهذه الأخيرة تارة عن رجال معروفين وتارة عن مجهولين والأولى إما أن تكون حقيقية أو غير حقيقية ومن الحقيقية

قصص القرآن ومن غير الحقيقية مقامات الحريرى و بعض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الطرفاء ومما جمع بينهما ألف ليلة وليلة ومما جاء على السنة الحيوانات كتاب كليله ودمنه وكثير من السكتب توضع على هيئة محاوردة بين الجمادات ولكل وجهة هو موليتها ووضع على السنة الحيوانات والجمادات أسلم عاقبة وأنفع مما وضع على لسان الانسان ون أصل لالتباس الحق بالباطل ولذلك كثر الخلط في التاريخ بشيوع ألف ليلة وليلة ومحوه من كتب الروايات ما علمنا وما لم نعلم فلكونها على السنة الانسان اشتبه الحق بالباطل وفست العقول بعلم التاريخ لما يوردون عن هارون الرشيد وخلفاء العباسيين مما لا يجوز فاقتدى بهم كثير من أمراء الأندلس والشرق فضاعت الدول الاسلامية ولم يكن مثل هذا من كتاب كليله ودمنه الذي وضعه الهنود وترجمه الفرس فالذى على السنة الحيوانات لا خلط فيه فمثل رواياتنا جعلت لترقية العقول ولذكى نعم السير على بس العير أما قصص القرآن فقد جاءت حكاية عن الأنبياء ولم يكن فيها إلا الحث على كمال النفوس الانسانية

ولعمري أن الناظر فيها يعجب جدا من اقتناص مارق وراق من توارىخ أولئك الأنبياء مما يلائم التوحيد وتهذيب الأخلاق والعدل وحسن النظام مع أن حياة كل منهم فيها أمور متفرقة لا تنحصر فواجبا لحسن هذا النظام البديع المبهج الجميل ولقد عرف من نزل عليه الناموس مغزى تلك القصص وهو الاعتبار فأباح الروايات على اختلاف أنواعها وقال عليه الصلاة والسلام حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج فالقصود من الحكايات مصادرها لا مواردها لأن في النفوس البشرية ميلا إلى الكمال والحاسن بفطرتها وتلك الأقاصيص الروية عن بنى اسرائيل التي كان يحذتهم بها في أغلب الليالى ولم يجعل عليهم حرجا فيها إذ هي تحرك مافى النفوس من التحسين والتبجح بالفطرة وأباح عليه الصلاة والسلام للأمة أن تأخذ الروايات من حيث هي حكم ومواعظ بقطع النظر عن مواردها وانما المعتبر مضارها كما قاله علماء البيان من أنها جميعها استعارات تمثيلية وقال تعالى (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ولهذا

شجنت كتب التفسير بروايات بني اسرائيل وكان الصدر الأول يعرفون ما قلنا فخلف من بعدهم خلف غيروا ما بأنفسهم من العلم فتشربت الأوضاع فظنوا ما نقل عن سليمان وأيوب ويوسف مما ذكر خارج القرآن في الروايات أمورا محققة فضل البعض فيها والبعض كذبها وقال لا أصل لها ثم خلف آخرون وصاروا يقولون أن الأمة العربية قوم يجمعون الخرافات ويؤلفون المفتريات وهذه كلها من الانكسار على الرأس وإتيان البيوت من غير أبوابها حتى زاد بعضهم في الطين بلة ورجع إلى قصص القرآن وأخذ يطبقها على التاريخ وتارة يثبت وأخرى ينفي.

ولعمري أن قصص القرآن لم يكن القصد منها أن تأتي لتراجع على التاريخ وإنما القصد نتائجها والنظر في عجائبها والانتفاع بها وأما النظر إلى أصل القصة فهو جهل وشك وإن كانت نفسها حقيقة ومتى عدل بالشئ عن قصده كان ضره أكثر من نفعه فساء مثلاً القوم الجاهلون ولقد أشار عليه السلام إلى ذلك بقوله لا تضر بوا القرآن بعضه ببعض .

النظر في الروايات أمر طبيعي في البشر هو مبنى قوامهم وعليه يدور رحي مجدهم فهمما عرفت الأمة أن القصد منها غاياتها فهي بخير ومهما رجعت إلى أصلها فهي ضالة وشاهدنا على ذلك ما كان من الصدر الأول من المسلمين فانا لم نسمع منهم غير الفهم والتفهم والتعقل وهما هي أمة الإفرنج الآن لا يزالون يؤلفون الروايات وهم يعلمون أنها خيالية ولعلها إذا مضت فترة من الزمن يأتي قوم آخرون فلا يفهمون ويقولون أنهم مخرفون كما جاء متأخروا الاسلام فظنوا أن أسلافهم مخرفون في كتب ألف ليله وليله وغيره ومن جهلنا بالقصد من قصص القرآن أن الكثير من المتعلمين أصبحوا لا يلوون على الاعتبار بها ولا تذكرها بل علماء الفقه أنفسهم والمحدثون لم نرهم يستيقظون قط اليها لظنهم أن الفقه هو المقصود والمهم من القرآن فضيعنا جزءاً عظيماً من ديننا

وبعض الناظرين في تلك القصص يقول مالنا تراها مكررة وهلا ذكرت مرة واحدة ساء ما يفهمون أو ما علموا أن القصة تذكّر تارة تفصيلاً وأخرى اجمالاً وأخرى بين

ذلك بحسب المقامات واختلاف الأحوال وتباين الأغراض فيستشهد في كل مقام بحسبه بحال من أحوال صاحب القصة ولنوضح هذا الاجمال بقصة ابراهيم إذ ذكرت في سورة الانعام لمجرد الاستدلال على الله تعالى

فذكر ذم الأصنام ثم البرهان بأفول الكواكب والقمر والشمس على مدبر الكون كله وفي سورة الأنبياء ذكر محاورة بينه وبين قومه في الأصنام وتكسيرها وادخالهم له في النار ونجاته منها وانعم الله عليه بعد ذلك فقال : ولقد آتينا ابراهيم رشده الآيات :

وذكرها في سورة الشعراء فشرح كيفية دعائه فقال وان من شيعته لا ابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم فذكر محاورة بسيطقة في الأصنام ثم شرع يصف الخالق وتدبيره فقال الذي خلقني فهو يهدينى والذي هو الى أن قال رب هب لي حكما والحقني بالصالحين وضمن دعاءه ذكر الجنة والنار والتعريض بقومه أنهم غاؤون

ففي المرة الأولى أرانا الحجج العقلية وفي الثانية كيف يكون أنعام الله على من نصب نفسه لنفع الأمة وكيف يؤيده متى صدق في نيته ولذلك صدرها بقوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فأشار إلى أن الخالق متى علم من عبد صدق نيته في نفع أمة نجاه من الاعتداء ونصره وفي الثالثة أرانا كيف يكون الاخلاص لمدير الكون وكيف يكون الدعاء والتعريض في الكلام لجلب الخصوم ومقامنا هذا لا يسع تفصيل القصص وأنتم أيها السادة خلاصة من الأمة فمثلكم من يكتفى بالقليل عن الكثير وجميع قصص القرآن على هذا النمط على أن في تكرارها فوائد تعلم الأمة كيف تؤلف الكتب ومثل القصة في القرآن كمثل كتب تؤلف في موضوع والنفس كثيرة السامة فلا تكاد تثبت على حالة واحدة فإذا قرأت القصة في موضوعين أو مواضع في كتابين أو كتب كان لها أشوق وأثبت ولقد نعلم أن الأمم الغربية والشرقية يحيلون على المؤلفات في تأليفاتهم فينشط القراء لها وهي من أجمل الحيل في التعلم

ولما غفلنا عن تلك القصص هدمنا كثيرا من بنيان مجدنا وسبقنا اليه الغربيون

وتفرقنا شيعاً وذاق بعضنا بأس بعض ولو عقلنا بعضها لم تفرق ومن لنا بحكيم يجمعنا على كلمة واحدة ويقص علينا موضعاً رائقاً من قصة ابراهيم وهو قوله وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات الى قوله (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) فان هذه الآيات تعلمنا كيف تجتمع الأمة وهي متفرقة فقد ذكر فيها اخلاص ابراهيم واسماعيل في بناء البيت ودعائهما وأنه لما مات وصى بنيه وذكر ان من المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يأمر بالنصرانية ومنهم من يأمر باليهودية وتعالى بعضهم فادعى ان أولاد ابراهيم كانوا يهوداً أو نصارى فأمرهم بالرجوع الى ملة ابراهيم وهو أصل هذا الدين وهو التوحيد بالبرهان وأن النصرانية واليهودية أشبه بالفروع من الأصل وبينهما فرق في الأعمال والاحكام لاني التوحيد والأعمال والاحكام تتغير بتغير الزمان وقد ذهب الزمان المناسبة له تلك الاحكام فبطلت ببطلانه فلنرجع الى أصل دين ابراهيم وهو التوحيد ولا جرم ان كل أمة من الامم راضية عنه فالمرجع اليه أولى من الشقاق والاقسام هذا هو مغزى تلك الآيات

ولعمري الله انها لم توضع في القرآن لمجرد سرد حكاية وإنما علم الله اننا سنقع في هذا الاقسام فذكرها ليأتى قوم حكما فيقلدون سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويجددون شريعته التي مزقتها الخلافات وصاروا فرقاً شتى ويقولون أن علماء الأمة كأنبياء بنى اسرائيل ومثلهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم كمثل أولئك الانبياء لابراهيم وكلهم مصدق بره ونبيه وكتابه فوجب أن نترك المنافسة في أمر الصحابة والخلفاء ، لأن هذا ليس من الدين في شيء وإنما هي أمور عارضة ليس لها دخل البتة وتتحد في الامر العام وهو الخلق والقرآن والنبي وكل يعمل على شاكلته ولا ندخل الاشخاص والمشييع في ديننا ونقول لمن يتعرض لأحد الأئمة رضوان الله عليهم من آل البيت أو غيرهم من العلماء وأكابر الأمة . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ويترك كل واحد التعصب لمذهبه ، فمثل

الحكيم منا كمثل النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء كالأَنْبياء وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كإبراهيم ودعوة نبينا لتابعي الأُمم بتوحيد العقيدة مع الأمر باحترام جميع الأنبياء كدعوة حكيمنا باتباع القرآن والخالق والنبي ونبذ الشقاق واحترام كل مذهب بدون تعصب لأحدهم من آل البيت أو غيرهم وتعظيم كل عظيم من عظماء الأمة فيقول آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد فلم هذا الشقاق ولقد علمت أن قصص إبراهيم جاءت لأُمور كثيرة :

(١) برهان التوحيد

(٢) كيفية الحاجة وبيان صنع الله بمن صبر على الجهاد

(٣) كيفية الدعوى وإدخال النصيحة في قالب الدعاء

(٤) كيف تجتمع العناصر المختلفة من البيانات المتفرقة

وغير ذلك مما لم نذكره وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لوحدة الدين مع اختلاف الأنبياء فما بالك بمن يدعو لاتحاد أجزاء دين واحد فهو أسهل ولذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك لا ذاق ككسرى وقيصر وغيرهما وعما كتبه إلى هرقل عظيم الروم :

(و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وما يشير إلى هذه الطريقة قوله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) كأننا مأسورون بالدعوة لأصل الدين عند الاقتراف كما دعا صلى الله عليه وسلم إلى اتباع الأنبياء له عند اختلاف البيانات

مقاصد علم التاريخ

ومما تفيده تلك الفصص من حيث الأسلوب أن يكون تأليف علم التاريخ لمقاصد

وغايات ينتحلها المؤلفون كما يفعل مؤلفو الأُم الأُخرى فأننا ما رأينا قصة في القرآن. ذكرت إلا لغاية مطلوبة اختلفت طرقها واتحدت وجهتها وعندى أن هذا أعظم معجزة إذ كيف يستخلص من قصص كثيرة متفرقة متباينة نبذاً مخصوصة لمعان متقاربة تنحصر في الله والرسول والمحاجات وتهذيب الأخلاق والبعث والحشر والميعاد من الثواب العقاب فعلياً أن نتحرى هذه الطرق ونسلك عند تأليفنا مسلك الارشاد لا الأخبار وإذا كان المقصود من القصص الحث على الفضائل والعقائد فمن قارنها بالتاريخ فقد رجع بها عن أصلها وضل سواء السبيل ومثل من يقرأ هذه القصص ويرجعها إلى التاريخ الأصلي كمثل من يقرأ القرآن والتفسير ويطبقه على النحو والصرف وعلوم البلاغة مقتصر على ذلك فهو لاء قوم ما علموا المقصود منه بل خرجوا به عن موضوعه وآتوا البيوت من غير أبوابها فلم يفلحوا

فباب القرآن ليس هو التعمق في العلوم العربية ونحوها ولا التطبيق على التاريخ. ساء مثلاً القوم الغافلون ولسنا بهذا نذم هذه العلوم فأننا ما عرفنا إلا بها وإنما قلنا أن المقصود وراءها لاهى فمن وقف عليها فهو الضال سواء السبيل .

ففي الجملة فمن الروايات فن جميل جهله المسلمون في كتابهم فجهلوا ثمرته وغفلوا عن أفهام أسلافهم فيه وضلوا ما في كتب التفسير من تلك الروايات عن الأنبياء ظناً منهم أنها حقيقية مع أنها خيالية وليس الحقيقي إلا ما جاء به لفظ القرآن منها فحسب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث بها الحديث الليل كله لعلمه أن القصد ثمرة الحديث لا هو وفرق ما بين ما يراد لنفسه وما يراد لغيره وإن هذه كلها استعارات تمثيلية ولقد سبقنا الغربيون إليه وضللناه . على هذا أصبح الناس يقرءون سورة يوسف في القاهرة كسماع قصة عشق وما علموا أنها مقصودة للعفة والصبر والاحسان إلى العشيرة والعفو عن المذنب عند القدرة وحسن السياسة وترك الزنا وحبس النفس عن الشر وإكرام الأخوة وعدم مؤاخذتهم وغير ذلك ولقد خصت قراءة القرآن بأوقات الأفراح والمآتم وما علموا أنها إنما تكون لنفوس تحيا حياة طيبة بالفهم والعلم .

البرهان والتقليد

فقال السائح هذا أقرب الى الدواء منه الى الداء اذ هو جاء لبيان طريقة الاصلاح ونحن الآن نبحث عن الداء والذي أراه أن هذه الأمة لم تتعمق إلا في مسائل الأولياء والكرامات وخوارق العادات فقال له الصانع أنتكر كرامات الأولياء فقال لا ولكنى أقرر ما خطر بنفسى فيها وما حكمتها فقالوا امض في هذا الحديث فقال :

إن هذا الكون مؤسس على نظام وحكمة عليّة فائقة ومنها أمر الدين . فآية أمة كان فكرها راقياً عرفت دينها بالبرهان وإن سقطت أفكار أفرادها وتفرقت أهواء عقلائها فأنهم لا يعرفونها إلا بخوارق العادات وقد أرسل صلى الله عليه وسلم والقرآن أعظم معجزته لأنه راجع الى العقل والفكر وهو الباقي لآخر الزمان أما تلك الخوارق فاذا توقف عليها إيمان الأمة دل على انحطاط أفكارهم ونكوصهم وضعفهم عن فهم دينهم كما نص على ذلك الشعراى وكان الله لما رأى سرعة شكهم أتى لهم بتلك الكرامات ليطمئنوا علماً منه بأنهم ليسوا مستعدين للتصديق والإذعان بنفوسهم

وهذه الاسلامية فى صدرها لم تكن فيها تلك الكرامات الا قليلا مما وقع لعمر وأبي بكر ونحوهما رضى الله عنهما والايمان المبني على الخوارق وحدها ضعيف كما حققه الغزالي فى قوم موسى اذ ارتدوا حين رأوا عجلا من ذهب جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى وذلك لأن عالم الشهادة والحس يكثرفيه الخطأ والغرور وطى هذا ورد قوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً

ولقد علم الناس ناقة صالح وكيف شاهدها قومه فكفروا فأراد الله أن يجعل معجزات نبيه فى أفكارهم وعقولهم لا فى حسهم الذى يقع فيه الغلط وكان ارسال الآيات الحسية لمجرد الأخذ بحسب الظاهر أو التخويف ولا ريب أن الخوف لا يدوم الاتعاظ والانزجار به انما الذى يدوم الاعتبار بالعقل والفهم والحكمة والموعظة الحسنة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (أناجيلهم في صدورهم) كسحرة فرعون الذين آمنوا
 ايماناً ولم تتغير عقيدتهم بعد بخلاف قوم موسى
 وبالجملة فأمتنا الآن تحتاج الى زيادة نور في الايمان وتثبيت في العقيدة وفهم
 للقرآن كما كنا زمن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين وينبى على ذلك علو
 الفكر فيسمو من البسائط الى المركبات ويعلمون أن التوحيد ليس أمراً بسيطاً فاذا
 بقى التوحيد في القلب ولم يصل للعمل فهو ناقص وما الدين الا قول واعتقاد وعمل فاذا
 اعتقدنا ولم نعمل أو قلنا ولم نفعل فنحن لم نزل في البسائط ولم نخرج منها الى المركبات
 ونبقى عبرة للأمم وأول الدين أمر بسيط ونهايته سياسة

العلوم الرياضية والطبيعية

نقال العالم المتبحر في العلوم أن هذا يصلح أن يكون من الأسباب الداعية لموت
 الشعور اذ الناس تبقى أفكارهم من- صرة في أمور جزئية ولا ينظرون للكلية ولكنه
 لا يكفي وحده لعموم هذا الفتور

والذى يصلح أن يكون سبباً في عموم هذا الفتور اهمالنا العلوم الرياضية والطبيعية
 مع أنها أصبحت لازمة للحياة لزوم الجسد للروح وأصبحنا نحتاج اليها في أصغر الصنائع
 وأدقها وأكبرها وأعظمها وليس احتياج الحياط لها أقل من مسيس حاجة مدير الكهرباء
 والبخار في سير القطار وليس لزومها للماديات بأقل من لزومها للعقلية

وهاهو القرآن الكريم يقص علينا قصص الأمم الغابرة تارة ويذكر حكم الكون
 اخرى وهذه العلوم قد أبانت في الاكتشافات الحديثة ما يدهش الحكماء من أعاجيب
 الخلقة وبدائع الحكمة في الطبيعة والكيمياء وما فيهما من مقادير معينة في المركبات
 وتناسب المقادير تناسباً عجيباً حتى أنها سارية بقوانين لا تتعدها فأتضح بيا قوله تعالى
 وكل شيء عنده بمقدار وقوله وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وقوله وهو أسرع
 الحاسبين وقوله ان الله سريع الحساب وقوله والذي خلق كل شيء فقدره تقديراً وقوله

الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقوله انا كل شىء خلقناه بقدر وقوله الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وقوله والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيمة وقوله وأنزلناه من السماء ماء بقدر وقوله وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وقوله الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً وقوله وكفى بنا حاسبين وقوله أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد وقوله شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير وهذه الآيات كثيرة يطول شرحها منتشرة فى القرآن كأنها جواهر منتثرة فانتقصر على ما ذكرنا وكفانا هذا الاجمال .
فقال له الأديب

ايضاح فى العلوم الطبيعية

أيها الفاضل أفض فى هذا الموضوع وفصل الكلام تفصيلاً فان الاخوان كلهم آذان صاغية وأننى طالما كنت أقرأ فى كتب الأقدمين أن جميع الموجودات وضعت بمقادير هندسية وحسابية وكنت أراهم يسمونها نسباً تأليفية ويقولون انها أفضل النسب لجمعها بين الهندسية والحسابية وهذه العلوم المكتشفة حديثاً قد أوضحت الأشياء إيضاحاً تاماً وأنت بها خبير فأوضح المقام وغرابته فانه من ملحقات البحث فى الاسلامية وما آل اليه أمرها وعلاقة هذه العلوم بها فان المسلمين اذا علموا أنها تفسر القرآن وتجعل معناه ظاهراً فى الطبيعيات نشطت عقولهم من عقال الجبل الى حرية العلم فقال إن العالم مركب من أجسام كثيرة وعناصر متباينة تزيد عن سبعين عنصراً وهذه العناصر هى التى وصل إليها الاستكشاف الآن وقد كان الأقدمون يعتبرون البسائط أربعة فقط وهى الماء والتراب والهواء والنار فأصبح ما كان بسيطاً عند

الفر بين والمراد بالعنصر ما لا يمكن تحليله إلى جسمين آخرين وهذه العناصر منقسمة إلى قسمين معادن وغير معادن تسمى أيضاً فلزات والمعادن أجسام صلبة كلها إلا الزئبق وهى موصلة للحرارة والكهربائية بحيث أن الكهرباء والحرارة إذا وصلت إليها أسرع فيها كما تسرع النار الاشتعال فى الحطب وهى تلع متى صقلت كما هو مشاهد فى النحاس والحديد والذهب والفضة والخارصين والرصاص وغيرها حتى أن الأقدمين كانوا يتخذون المراءات من الحديد فيصقلونها حتى تصير كالزجاج .

والعناصر التى ليست معدنية وتسمى لافلزية تكون على الأحوال الثلاثة للمادة وهى الغازية والسيولة والصلابة كالهواء وكالماء وكالأحجار ومنها عنصر يسمى الأكسوجين وآخر يسمى الأودروجين وهما يتكون منهما الماء ومتى حلل بالآلات انفرد كل عنصر بنفسه كما يحلل الماء إلى أكسوجين وأودروجين ومن عجيب الاتفاق أن كل عنصر له هيئة مخصوصة فالأكسوجين الذى هو أحد ركنى الماء جسم كثير الوجود فى الكون داخل فى الهواء والماء والصخور والأحجار فإذا انفصل منها صار جسماً غازياً كالهواء عديم اللون والطعم والرائحة يقبل السيولة بضغطه ضغطاً عظيماً أو تبريده تبريداً شديداً وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان فى الماء وليس الاشتعال الذى نراه فى غاز الاستصباح والبتترول والزيت إلا من اتحاد عناصر هذه الأجسام وإذا اتحد معه الأودروجين صار ماء طهوراً والأودروجين اسم مشتق من كلمتين يونانيتين معناهما المولد للماء ووجوده على حالة الانفراد نادر جداً ولكنه كثير الوجود فى الكون على حالة الاتحاد فى الماء والمواد العضوية الحيوانية والنباتية وهو غاز يسيل بضغطه ضغطاً قوياً وبتبريده تبريداً شديداً وهو أخف الأجسام المعروفة يلتهم بلهيب باهت قليل النور شديد الحرارة وإذا وضع فيه جسم متقد تاراً ينطق . بسرعة فهذا الغاز غير صالح للاحتراق ولا للتنفس فإذا وضع فيه حيوان مات مختنقاً لعدم وجود أكسوجين معه وهذه الصفات بلا ريب تخالف صفات الأكسوجين وذلك أنه إذا وضع فيه سلك من حديد ملتف لفاً حلزونياً وفى طرفه قطعة من الصوفان متقدة فإن السلك يلتهم

وينتشر منه قطع صغيرة وصلت حرارتها إلى درجة الاحمرار وهذا الاحتراق حاد جداً يدوم بدوام الأكسوجين

وبالجملة فالأكسوجين والأدروجين مختلفا الصفة فالأول يحرق والثاني يطفى والأول حار جداً والثاني بارد جداً والأول يتجه عند تحليله إلى القطب الموجب فتكون كهربائته سالبة والثاني إلى القطب السالب فتكون كهربائته موجبة فان الأجسام المكهربة تطلب أصدادها دائماً

فتأملوا أيها الاخوان كيف وضع صانع هذا الكون هذين الجسمين مع بعضهما وهما متنافران متضادان في الصفات فكونا شيئاً واحداً آخذاً صفات متوسطة وهى الماء الذى جعله الله حياة كل حي وما أشبه هذا التركيب بتركيب نوع الحيوان من ذكر وأنثى واتحادهما دام الوجود

وما ذكرت هذا إلا مثالا واحداً لتعلموا أن كل جسم في الكون سار على هذا النسق أفراداً وتركيباً واختلافاً واتساقاً . ولاذكر لكم كيف اتحد هذان الجسمان وما مقاديرهما وكيف ظهر هذا السر ووافق المعقول المنقول لتقيسوا عليه جميع المقادير في الكيمياء فان جميع التراكيب في الكيمياء تنقاد لقانونين القانون الأول قانون (المقادير المحدودة) وهو أن نسبة مقادير الأجسام المركبة لبعضها تكون ثابتة لا تتغير وبعبارة أخرى أن اتحاد الأجسام ببعضهما يكون بمقادير محدودة ثابتة في كل حركة . القانون الثانى قانون النسب المتضاعفة ويسمى قانون دالتون وهو (إذا اتحد جسمان ببعضهما وتكون عنهما عدة مركبات فلو بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة) .

ولنوضح القانون الأول في مثالنا وهو الماء فنقول :

إن الماء مركب من ذرة واحدة من الأكسوجين وذرتين من الأدروجين فإذا حللنا الماء نجد الذرات الداخلة في تركيبه من الأكسوجين نصف الذرات الداخلة فيه من الأدروجين فأني مقدار من الماء حللناه وجدناه هكذا الثلث في الحجم أكسوجين

والثلثان أودروجين وفي الوزن نجد أن ذرة الأوكسوجين (الذرة عندهم هي أصغر جزء وصل إليه العنصر) قدر ذرة الأودروجين ست عشرة مرة والذرة الواحدة من الأوكسوجين معها ذرتان من الأودروجين وحينئذ يكون نسبة الأوكسوجين إلى الأودروجين كنسبة ثمانية إلى واحد

وحينئذ يقال :

١ : ٨ :: ٢ : ١٦ :: ٣ : ٢٤ :: ٤ : ٣٢ :: ٥ : ٤٠ وهكذا إلى ما لا يتناهى من مياه الأرض جميعها وهذه نسبة هندسية وبالنظر لمقادير أحدهما وحده تكون نسبة عدديه فكان العنصرين لم يتحد إلا على نسبة عددية ونسبة هندسية معاً وهذه القاعدة كما قلنا سارية في الماء كله

وهذا بعض الحساب والميزان وغيرها الذى ذكره الله فى القرآن حتى أن الماء لو دخل فيه ذرة من الأيدروجين مثلاً زائدة عن هذه النسبة فإنه لا يقبلها كما يشاهد فى العمليات الكيماوية فى تحليل المواد وبهذه نفهم قوله تعالى (يا بنى إنا إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) فانظروا كيف عبر بالذرة التى عبر بها الكيماويون وفهموا أن جميع الذرات فى الصخر وجميع الأجسام لا يمكن أن تختل عن مقاديرها المعينة ثم أعقبه بقوله (إن الله لطيف خبير) مشيراً إلى اللطف فى التدبير ومعرفة بواطن الأشياء فهذا وأمثاله يفهم آيات القرآن . وقال تعالى (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال وما تكون فى شأن وما تتلومنه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) فتأملوا كيف ظهر وزن الذرة المذكورة وكأن الناس أصبحوا بهذه العلوم يشاهدون هذا الحساب المتقن الذى هو كتاب مبين وإنما قال ولا أصغر من ذلك ولا أكبر مع أن الذرة لم يمكنهم تحليلها

الذى أزاحته إحداها إلى الذى أزاحته الأخرى وهكذا الحجر النازل والنسبة التربيعية التى يتوالى تضعيفها بقانون محدود كلما نزل الحجر فكل هذه تعرفنا ما ذكر من الآيات وقوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان)

فها نحن من هذه العلوم أصبحنا نعرف معنى هذا الميزان الذى سرى فى الكون كأنه مشاهد بالبصر من شدة وضوحه وهذا هو القسط والوزن والحق ولما كان فن الكيمياء مبنياً على نسب هندسية وحسابية وضعوا معادلات كمعادلات الجبر حتى أصبح معنى هذه الآيات محسوساً وحق علينا قوله تعالى

(وكأى من آية فى السموات والارض يملكون عليها وهم عنها معرضون)

وإنى أعوذ بالله أن تقول أن قلوبنا غلف كما قال اليهود لصاحب شرعنا فحق عليهم القول فى أمم قد خات من قبلهم من الجن والانس إهم كانوا خاسرين ولقد عرف علماء الغرب أن جميع هذه الذرات المكونة منها العوالم متحركة دائماً حركة سريعة كحركات الكواكب وهذا غامض جداً على من لم يقرأ علوم الطبيعة وإذا كانت كلها متحركة وهى على تلك النسب المذكورة فحركاتها موسيقية طبعاً وتكون أصواتها لذيذة إذا صفت النفوس وخلصت من عالمنا الذى نحن فيه وبهذا عرفنا معنى قول فيثاغورث أن العالم مركب من موسيقى . وهناك تفسير آخر لهذا القول وهو أن الموسيقى لا يقصد بها إلا النسب المحدودة المذكورة آنفاً وإنما ذكرت الموسيقى لأنها أظهر منها وأسهل وأوضح

وأما المركبات العنصرية فهى صعبة الفهم على غير المتعلمين وإذا فرغنا من ذكر القانون الأول فلنبين الثانى وهو قانون النسب المتضاعفة ومثاله اتحاد الأزوت بالأكسوجين فبه يكون خمس مركبات الأول يحتوى على ١٤ من الأزوت و١٦ من الأكسوجين والثانى على ١٤ من الأزوت و ٢ × ١٦ من الأكسوجين ، والثالث على ١٤ من الأزوت و ٣ × ١٦ والرابع على ١٤ من الأزوت و ٤ × ١٦ من الأكسوجين والخامس على ١٤ من الأزوت و ٥ × ١٦ من الأكسوجين

فنسبة مقادير الأوزوت لبعضها المساواة ونسبة مقادير الأكسوجين لبعضها عديدة لأنه يزيد ١٦ دائماً ونسبة مقادير الأوزوت في كل واحد من المركبات إلى الأكسوجين تكون هندسية ولا أكتف بهذا القدر فإني أثبتت فيه ما أرى من تناخل عقلائنا وخاصتنا وعامتنا في العلوم ، وظنهم أنها تخالف الشريعة مع أنها هي سرها وخلاصتها إذ بهذه المقادير والنسب المحفوظة ، ذقنا الطعم وشمعنا الريح وسمعنا الصوت وأبصرنا الكون ولسنا النعمومة مثلاً فما كان على النسبة الجميلة قبلته تلك الحواس وما ليس عليها لا تقبله

فالسَّمْع إنما يلنذ بما كان على تلك النسبة في الشعر وبقية الحواس لا يلذ لها إلا ما كان بتلك المقادير والتناسبة في تركيب المركبات (إن ربك هو الخلاق العليم) ، وليس القبول وعدمه إلا الحب أو البغض ومنه ثبت أن العشق سار في الكون كله وأنه تابع للحساب والهندسة بل أضحى المسلمون محتاجين إلى الحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا بكل حسي حتى ديننا كاستدلالهم بالمقاييس على أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين عقلاً وأخلاقاً وكان ثباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية وعندي أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور

والأمل بعناية الله تعالى بعد زمان قصير أو طويل أن يلتفتوا لهذه العلوم النافعة فيستعيدوا نشأتهم بل يجلبوا إلى دينهم العالم المتمدين لأن نور المعارف بقدر ابعاده العقلاء عن دياناتهم يقر بهم من الإسلامية لأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المتنور لا يجتمعان في دماغ واحد ، ثم أن تبعة التقصير تشمل علماء الأمة المتقدمين والمتأخرين وهؤلاء الذين عاصروا الأورباويين أكثر انهماً وأشد عذاباً بتقصيرهم وتقصارهم على تدريس شيء من اللغة والفقه وقطع من المنطق مظامة متلبسة غير مستعملة وشيء من الحساب إكالا للفرائض والمواريث تدريساً غير مرتب قلما يفيد ، فهؤلاء العلماء المتأخرون هم المسؤولون يوم القيامة عن هذه الأمة وضياعها ووقوعها في شرك الردى والهوان لتركهم البحث في الأحوال الحاضرة والعلوم النافعة في هذا العصر .

وكما شمل التأخر علماءنا شمل الوعاظ والزهاد فالأولون مقتصرون على حكايات زهاد من صحيح وموضوع ورواية كرامة الانجباب والاقطاب والنقباء والابدال وعلى بعض الاناشيد فى الحفلات والترنمات ولا تنس خطباءنا واقتصارهم على تكرار عبارات فى الدعاء للغزاة والمجاهدين وتعداد فضائل العبادات .

وبالاجمال فابتعادنا عن العلوم النافعة وانحيازنا فى جانب عظيم من الجهل هو الذى جعلنا أخط الامم ولو بقينا على هذا خمسين سنة بعدت النسبة بيننا وبين جيراننا كبعدها بين الانسان والحيوان ، والنتيجة أن ناموس الارتقاء هو الذى سبب هذا الفتور العام كما قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

فقال المجتهد هنا يعد سبباً فى الانحطاط ولكنه لا يكتفى وحده لهذا الانحطاط العام ، وفقد الاحساس الملى ، والاخلاق الفاضلة ، والذى أراه يصلح سبباً لذلك أننا كنا قادة للامم سادة هداة فاعتررنا ونمنا آمنين مطمئين وتنبه غيرنا ونحن لانشعر وسبقونا ونحن لاندري حتى اذا تيقظنا من كهفتنا رأينا الشوط بعيداً فيئسنا من المبارة واليأس أعظم مسقط للامم قال تعالى (ولا تيأسوا من روح الله انه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون) فما أخرنا الا يأسنا من المبارة والحقاق للامم الراقية واليأس فى الحقيقة كفر بالمواهب التى أفرغها الله عز وجل فى الوجود وجهل به وأى كفر أطم وأعم من جهل الوجود وما حواه ، فقال السائح هذه شكاية حال ولا تنفى بالعرض ولا توضح السبب .

وما المسلمون بالأبعدين كأهل الصين ولا المتوحشين العريقين فى التوحش كأهل أمريكا الأصليين .

والذى عندى اننا فقدنا الهداة والمرشدين والأكابر المصلحين فلم نجد أميراً يدخل الأمة فى حكمه آخذاً بنظام الرغبة أو سائقاً بسوط الرهبة ولا حكماً معترفاً بفضلهم ولا تربية متحدة المبادئ، فيشيب الولدان ويشبون وهم بها متحدون ولا جمعيات منتظمة تسمى للخير ولذلك حل فينا الفتور وإلى الله ترجع الأمور . فقال التاجر

إن ما ذكرته من الأمر المطاع والحكيم المتبع لا يكونان في الأمم المنحطة إلا اتفاقاً وأما الرأي العام والجمعيات فلا يفقدان إلا بفقد احساس العام وهذا ما تتساءل عنه ثم قال والذي أراه أن الداء العام هو فقد المال والفقر الآخذ بالزمام فالفقر هو السبب الأكبر في جهلنا وفساد أخلاقنا وتشنت آرائنا حتى في ديننا وقد احساسنا وهكذا من كل ما حل بنا

هذه فطرنا لا نقص فيها عن غيرنا وعددنا كثير وبلادنا متواصلة وأرضنا خصبة ومعادننا غنية وشرعنا قويم وفخارنا قديم فلا ينقصنا من الأمم الحية غير القوة المالية التي أصبحت لا تحصل إلا بالمال الطائل فوقعنا في مشكل الدور فنحن نحتاج للعلوم وهي لا تحصل إلا بالمال والمال لا يكون إلا بالعلوم وهذا الدور إن لم نهتد لحله دخلنا في قانون فناء الضعيف في جانب القوى من قانون الارتقاء

تنازع البقاء

فقال الفقيه اشرح لنا تنازع البقاء وأفض فيه أيها الفاضل فانك مغوار في البحث فقال : اعلموا اخواني إن هذا الكون مؤسس على أن الأقوى يغلب الأضعف وليس هذا خاصاً بالإنسان بل هذا حكم سار في النبات والحيوان والصنائع فالنبات الأقوى يغلب الأضعف متى تجاوزا فتى زرعت بذور من أنواع مختلفة منه وتمت في تربة واحدة ثم حصدت معاً وزرعت كرة أخرى وهكذا مراراً لا يبقى منها إلا أقواها وأوقها للأرض وأكثرها تحملاً للحوادث الجوية ولو تنازع نباتان في قفر لما بقى إلا أقواها على احتمال القبط كما لا يفوز بالبقاء في زمن القحط إلا من كان أشد صبراً على الجوع كما ذكره ابن خلدون . وأما الحيوانات المنفردة بالبقاء المنازعة لغيرها فأمثلتهما كثيرة إذ رأوا أن الخيل والبقر الوحشية التي تسرح قطعاناً لا يحصى عددها في سهول أمريكا الجنوبية الواسعة إنما أصلها عدد قليل أنها من أوروبا يوم غزوة الاسبانيول وقد قدر بعضهم عدد الخيل الوحشية في سهول بلادها الواسعة بنحو ثلاثة ملايين ثم النباتات

والحيوانات التي أدخلت من أوروبا إلى استراليا المكتشفة حديثاً قد تكاثرت حتى كادت تغطي الأرض هناك وفازت في الأرض بالبقاء ولا يخفى أن الذي يفوز بالبقاء على مساواه انما هو ما تميز بصفات جسدية أو عقلية تجعل له هذا الفوز .
وهذه الصفات كثيرة جداً فقد تكون في الإقدام أو القوة أو كبر القد أو صغره أو وسائط الهجوم والدفاع أو الجمال أو السرعة أو الصبر على الجوع أو حسن الكساء أو الحيلة أو حسن التدبير في تحصيل القوت أو الحكمة في اتقاء الشر وبعض الحيوان يفيد لونه كالجلل الأبيض والدب الأبيض اللذين يقطنان في الجهات القطبية المغطاة بالثلج دائماً وكذلك الذباب الأخضر الذي يعيش على أوراق النبات وبعضها يفروم الذي يتلبد إذا أقبل الشتاء وبعضها يسرعه في الهرب أو شدته في القتال .

ثم لتعلموا أيها الأخوان أن التنازع إنما يكون بين الأنواع الأقرب بعضها إلى بعض لا شترا كما في المتنازع عليه ويقل كلما ابتعدت بعضها عن بعض حتى يفقد وكلما كانت الصورة قديمة ضعفت عن مقاومة أخصامها الاحداث لاتخاذ الاحداث في التنازع صوراً تناسب التغييرات الحاصلة في أحوال الحياة فتجعلها أقوى وكل صورة غابت لاتعود أبداً إذ لا تعود قادرة على الثبات في التنازع وإذا أردت مثلاً زيادة عما تقدم فهناك بلاد هولاندا الجديدة (استراليا) فإن هذا القسم لانعزاله عن العالم مرة واحدة وعن كل منازعة بقيت نباتاته وحيواناته متأخرة جداً فأعلى حيواناته رتبة ذى الجراب الذي عاش في أوروبا في الدور الثاني وتلاشى لتغلب أنواع أخرى عليه أقوى وأكمل وإنما بقي مثل هذا الحيوان في استراليا إلى يومنا هذا ولم يضمحل لعدم وجود منازع شديد البأس ولكن من يوم دخلها الانكايز أخذ كل ما فيها في التلاشى حتى كاد يضمحل لعدم صبره على منازعة ما أدخلوه معهم ولم يسمع قط ضد ذلك فلم يسمع أن حيوانات ونباتات استراليا أمكنها أن تتأصل في أوروبا .

فمن هذه الأمثلة التي رأيتها في كتاب لويز بختر الألماني المترجم إلى اللغة العربية تعلمون أيها الاخوان كيف تغلبت نباتات أوروبا وحيواناتها على نبات وحيوان

فارتى أستراليا وأمريكا ولم يمكن تلك الحيوانات والنباتات أن تقف أمام هذه القوى دخلت عليها

غلبة الرجال

ولست الغلبة خاصة بنوع الحيوان والنبات بل سرت الى نوع الانسان فأصبح الأوربي هو العنصر الوحيد في أمريكا أما أهلها الأصليون فأصبحوا آلافا معدودة بعد ان كانوا ملايين فانقرض جُلهم ودخل بعضهم في العنصر الأقوى وتناسلوا وهكذا أصبح العنصر الاسود في استراليا يقل أمام الجيش الجارف من أوروبا وهكذا أهل جنوب افريقيا كل ذلك جار على الناموس العام من فناء الأضعف في الأقوى كما فنى المسلمون السابقون في الأمم التتارية الآتين لهم من الجنوب ففرقوهم شذر مذر واحتلوا بلادهم وأخر بوها وملكوا ديارهم وأموالهم واعتنقوا دينهم وصاروا هم أغلب المسلمين اليوم في الهند والصين ومنهم تكونت أغلب أمم أوروبا الآن فقد تكاثرت دخولهم اليها حين اختلطوا بالمسلمين وحاربوهم في القرن السابع من الهجرة واغتالوا روسيا وقد تغلبوا من قبل ذلك مراراً عليها قبل زمن النبوة فمنهم هذا العنصر كما أثبتناه في كتابنا هذا

مهم بقايا يأجوج ومأجوج الذين كانوا من كل حذب ينسلون

غلبة الآلات والصنائع

ومن العجيب أن الغلبة لم تقتصر على الحيوانات والنباتات والانسان بل سرت أيضاً الى الآلات فهأنحن نشاهد في بلادنا كيف غلب وابورهم طواحيننا وسواقينا ونواعيرنا وشادوننا تلك الآلات القديمة الضعيفة وكيف تقاوم هذا السيل الجارف وكيف يسامى الخبيث الطيب وكيف يقف الضعيف أمام القوى أم كيف يقوى الضار على مقاومة النافع قال تعالى (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وقال تعالى (يريد

الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وهكذا غلب وابدور حرثهم محراثنا بل مخض اللبن واخراج الزبد منه وتربية الخيل والبهايم كل ذلك تقدموا فيه تقدماً باهراً ولا دليل أقوى من العيان

وما عليكم الا أن تنظروا نظرة واحدة تروا الأمر واضحاً جلياً في مراعيينا وبيوتنا وأحوالنا المعاشية كلها وفي الزراعة وتربية المواشي وهكذا غلبت منسوجاتهم وخبزهم وطحنهم منسوجاتنا ومطبوخنا ومخبوزنا واضحى تجارهم أقوى من تجارنا ومر بيتهم أقوى من مر بيتنا وسماويهم أقدر من سماويننا وسواسهم أقدر من سواسنا ورؤساء دينهم أقوى تأثيراً على النفوس في دينهم من رؤساء ديننا في نفوسنا وجمعياتهم المؤلفة ثابتة لها نتائج مهمة دينية وسياسية وتجارية وصناعية حتى جالهم أرقى من جالنا فغلبوا ذاتاً وصفة وتجارة ورئاسة وجمعية ان في ذلك لعبرة لمن يرى وما سبقونا الى ذلك حتى تقدموا في الصفات النفيسة كالصدق والأمانة وغيرها بل متدينهم أصدق من متديننا في دينه كما أخبرنا به غير واحد ممن جابوا تلك الأقطار

فهذا يا قوم معنى فناء الضعيف في جانب القوى وهذه سنة في الكون سارية فيه لا تتجاوزها . فكل أمة تمسكت بالقديم جداً من الأعمال ولم تحسنه ولم تبادر الى الاعمال دخل الجديد عليه فأباده

وهذا مصداق قوله تعالى كل يوم هو في شأن فآية أمة وقفت على قديمها ولم تعبأ بما طرأ ولم تغير الأساليب حسب الزمان أهلكها الله وهذا هو السر في أمره تعالى بالسير في الأرض لتعلم أن الكون متغير دائماً

والسير في الأرض يهدي الانسان الى كل ما حدث وعندى أن السير في الارض الآن ومعرفة الصنائع الحديثة فرض وتركها اثم كبير بل هو أضر على الأمة من كل معصية هذا هو اجمال ما نعلمه من الكلام على فناء الضعيف في جانب القوى وناموس

الارتقاء. وهذا وإن لم يكن من موضوعنا الآن ولكن شرحته اجابة لطلب حضرة
الفاضل الفقيه

ولنرجع الى مبحثنا الأصلي في أن السبب في ضعف الأمة هو فقرها وهو أصل
كل تأخر ماديًا وأدبيًا فقد سبقونا في كل ما سمعتم من الصنائع والتجارات والزراعات
بالمال والفنى وهما حاصلان بالعلم والعلم متوقف على المال فمن لنا بحل هذا الدور المشكل
حتى نسير على صراط مستقيم

فأجابه الفاضل الفقيه فقال أن المسلمين من حيث مجموعهم أغنياء لم يعوزهم المال
للتدرج في العلوم حتى للسياحات البحرية الى الجهات القطبية لأن فريضة الزكاة على
مالك النصاب والكنارات جاعلة لفقراء الأمة وبعض المصاريف العمومية نصيبا غير
قليل في مال الأغنياء بحيث اذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا الفقر . وعاشوا
عيشة الاشتراك العمومي الذي يسعى لأمثاله كثيرون من الجمعيات كطائفة السوسيات
(الاجتماعيون) والنهليست (العدميون) وهم يريدون اعدام البشر لأنه أصبح
في نظرهم شرورا وقبائح تجب ابادته والكومونولست (الاشتراكيون)

فكل هؤلاء يسعون لغرض واحد وهو الاشتراك العمومي في المال وهم وإن
اختلفت أغراضهم ظاهراً فباطنهم إرادة ذلك وهذه الجمعيات مكونة من ملايين يريدون
التساوى أو التقارب في الأموال وملوكهم وأغنيائهم أحبوا الاختصاص والشرع الاسلامي
جاء طريقاً وسطاً بين هذا وذاك (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)

فتمطيل الزكاة والكفارات أوجب بعض هذا الفتور المبحوث عنه كما أوجب
ترك الزكاة فقد ثمرات عظيمة بين المسلمين وهي أن يعرف المسلم مقدار دخله وخرجه
عند الحصاد أو حولان الحول في السوائم فتعلمه كيف يقتصد وبالجملة فليس المسلمون
فقراء وإنما هم لم يحسنوا التصرف في المال .

الاجتماعات

والذى أراه يصلح سبباً حقيقياً لهذا الفتور العام جهل المسلمين بما فرض الله عليهم من الاجتماعات الدينية التى هى أساس كل مقالوطة سياسية فمدموا حكمه تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج وترك خطبائهم ووعاظهم الوعظ والارشاد والتعرض للشؤون العامة كما أن علماءهم صاروا يسترون جهلهم بجعلهم يتحدث فى الأمور العامة والخوض فيها من اللغو الذى لا يجوز وربما اعتبروه من التجسس أو السعى بالفساد فسرى ذلك من الخاصة والعلماء الى العامة والجهلاء ، وصار كل واحد لا يهتم إلا حظ نفسه وحفظ حياته فى يومه كأنه خلق أمة واحدة ويموت غداً جاهلاً ان له على الجامعة الاسلامة والجامعة البشرية حقوقاً وأن لها عليه مثلها ذاهلاً عن أنه مدنى بالطبع لا يعيش إلا بالاشتراك ناسياً أوامر الكتاب والسنة

ولما مضت قرون وتوالت عصور على الأمة وهى بتلك الحال تأصل فقد الاحساس فى الأفراد وتبعثرت الجامعة تبعثراً لم يبق معه إصلاح

والمعجب من شريعة هذا شأنها من الحكمة قررت اجتماعات متكررة وجعلتها فرضاً دينياً لازماً ومضى زمان طويل فنسوا المقصود منها

ولعمري أن هذه الأمة محتاجة إلى رجال مجددين للنهضة مقررین ومشوقين الى علوم القرآن فى قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم الى المعالى والشرف والاجتماع ونحن الآن كما ذكر الله (ولا تكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

قست قلوبنا وما قسوتها إلا من عدم معرفة الحكمة فى المشروع لنعمل للفرض المطلوب

أما الغربيون المعاصرون لنا فلما لم يكن لديهم من الدين اجتماعات كافية استدعوا طرقاً واحتالوا بحيل الاجتماعات استرعاء للاسماع بوسائل شتى . فيخصصون أياماً

لذكري مهات الأعمال لأعظم رجالهم الماضين لينسج على منوالهم الحاضرون ويعدون في مدتهم ساحات ومنتديات يسهل الاجتماع ويكثر اللقاء الخطب وإبداء المظاهرات ويكثر من المنزهات الزاهية العمومية ويجرون فيها الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات ومنها أعدادهم في التشخيص أما كن بقصد اراءه العبر واسترعاء الاسماع للحكم أو لوقائع واستسهلوا ما تضمنته الخلاعة المتخذة شيا كالمقاصد الجمع ويعتبرون نفعها أكثر من ضررها ويعتنون غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريحهم المالية المفصلة المدججة بالعلل والأسباب تمكيننا لحب الجنسية ويحرصون على حفظ العادات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوّهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر . وقيمون النصب المذكرة بما نصبت له من مهات الوقائع القديمة وينشرون في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية ويسدون الأغاني الوطنية المبهجة للشعب الى الحمية الوطنية

فهذه عشرة أنواع من أهم اجتماعات الغربيين جعلوها شيا كالاجتماعات وأما المسلمون فلهم من الاجتماعات ما يغنيهم عن مثل هذه وترانا في مصر لم نصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فقد أصبحت أما كن اجتماعنا للفجور والفسق لا غير والأبرة الخديوية بات ضررها أكثر من نفعها وهذه تواريحنا مصمتة مقفلة ولقد حفظنا الآثار العربية ولكن ليس في القوم شعور بأنها آثار آبائهم الأولين وأقنا تمثال المرحوم ابراهيم باشا ولكن ما ذكرنا الا بوقوع بأسنا بيننا وأن قلوبنا شتى . أما الجرائد فعندنا منها جملة صالحة والأغاني الوطنية قليلة

وبالجملة فنحن أضعنا ثمرة الاجتماعات الدينية وقلدنا في اجتماعات الغربيين ولم نصن الأول ولم نعرف الثاني فخرنا الصفتين ورجعنا بنحى حنين

فأجابه الحكيم أن هذا بالدواء أشبه منه بالداء وهو المبحوث عنه ثم قال والذي أراه أوجب هذا الفتور العام اننا فقدنا الحكماء المسيطرين على العلماء والعامه وذلك انه ما من أمة من الأمم الا وجرت العادة أن يكون فيها حكماء يرشدون

العلماء فالأمراء فالعامة وهم الوارثون حقاً للأنبياء وهم المسمون بأهل الحل والعقد وهم الذين كانت تتعقد بهم الإمامة وأمر صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم فقال : (وشارهم في الأمر) وشارهم أول خلفائه الراشدين رضى الله عنهم واقتدى به الثانى حتى ترك أمر الخلافة لهم وهكذا كان معاوية وتبعه خلفاء بنى أمية فكانوا يتبعون مشورة سرقة المؤمنين لاسيما بنى أمية

وهذا صدر دولة العباسيين كانوا مدعنين لسيطرة رؤساء بنى هاشم ولما استبدوا بالرأى ولم يكن أمرهم شورى بينهم ذهب الملك منهم وتفرقوا أيدي سبا .
وهكذا كل فرع من فروع الاسلام بل هى حالة كل فرد من نوع الانسان يستقيم أمره بالاستشارة ويعوج ويضل بالاستبداد

وما مثل أهل الحل والعقد في المسلمين إلا كمثل الأشراف ومجالس النواب في الحكومات المقيدة ومقام الأسرة الملكية التى لها حق السيطرة على الملوك في الحكومات لمطلقة كالروسيا والصين ومقام شيوخ الأخاذ في أمراء العشائر الغريبة فأولئك الأمراء يس لهم من الأمر غير تنفيذ ما يبرمه الشيوخ وبالجملة فقد الحكماء في الملة الاسلامية هو السبب الأعظم في هذا الفتور

والمسلمون من حيث الحكماء الآن ينقسمون ثلاثة أقسام قسم فيهم حكماء ينصحون وهم في الصين وقسم فيهم حكماء مسيطرون وهى فارس وقسم ليس فيه حكماء أو فيه وهم متروكون وهى بقية البلاد ما عدا القليل منها كبعض من نبغوا في مصر .

فأجابه السامع قائلاً

ان فقد الحكماء لا يصلح سبباً عاماً وهذه الصين كم فيها من الحكماء وهم لا يخافون سطوة الجبارين ومع ذلك لا تزال ترى الفتور شاملاً لهم
والذى أراه يصلح سبباً عاماً أمران ترك أمور كثيرة في الدين وزيادات بدع فيه خالز زيادة والنقص هما اللذان أوجبا هذا الفتور العام .

ألم تروا أن إخراج الزكاة وإعداد القوة ما استطعنا صارتا منبوذتين الآن أليس

غلاة الصوفية وجهلاؤهم اخترعوا أناشيد لم ينزل بها سلطان واعتنوا بما زادوه وتهاونوا بالغروض الأصلية فلم يوفوها حقها ثم صار التشديد حتما لازما وأصبح المؤمن يلتبس عليه كثير من أمور دينه ويضل في الفروع الكثيرة فأجابه العالم قائلا :

وما للدين والاضططاط في شؤون الحياة الدنيا فإذا حصل تشديد في الدين أوتنوع في طرق العبادات أو بدع مستحدثة فكيف تؤثر على شؤون الحياة الدنيا مع أن الدين غير الدنيا وكيف يعقل ذلك وهؤلاء معاصرونا من الغربيين بالغوا في هذا حتى ظن بعض حكمائهم أن مدينتهم لم يستقم أمرها إلا بعد عزل الدين عن شؤون الحياة الدنيا . فقال السائح :

اعلموا أن سير نوع الانسان في أعمال الحياة الدنيا كله تعاريج وضرر وآلام ونصب إذ الحياة جارية على تنازع البقاء والاضرار بالغير ومحبة النفس وحب الغلبة مع مر العيش وكدر الحياة وهذه كلها آلام عظيمة فلا بد لها من ناموس يخفف وطأتها ولا يكون ذلك إلا الاعتقاد بأمر عام شريف يعم سكان سطح الكرة كلها كما أن الانسانية مشتركة بينهم

وهكذا المادة تنموع الى صور كثيرة وهي في الحقيقة واحدة فهكذا نوع الانسان مهما تنوعت أصنافه فلا بد له من اعتقاد واحد يلم شعثه وهو الاعتقاد بقوة غالبة عالية . تتصرف في الكائنات بنظام محدود يعبر عنها الجاهل بلفظ (الطبيعة) والمهتدى الراشد بلفظ (الله)

وكما ان كل قوم اشتركوا في المعيشة لابد لهم من قانون يجمعهم ودستور يشملهم حتى يرجعوا اليه عند التنازع يناسب أحوالهم المعاشية وكل فرد من أفراد ذلك الشعب لابد أن يجرى على مقتضاه وإلا كان وحشيا منقورا منه .

فهكذا كل أمة مع الأمم المجاورة لها على سطح الكرة أرضية لابد من عموم أمر بينهم يجمعهم كلهم يكون أعم مما اشترك فيه الأفراد وأبسط إلا وهو الاعتقاد

بالغالب القاهر المتصرف فى العالم على ابدع نظام وإلا كانت شريرة متوحشة تنفر منها جيرانها .

ثم أن هذا الاعتقاد لابد منه للأفراد والأمم ليخفف مرارة الحياة ويدفع الناس الى التساوى والانصاف فى الحقوق والرجوع الى الحق وإلا هلكوا أو ضلوا وصارت الحياة أشق شىء (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وكلام الله حق وصدق لا مبدل لكلماته فكل فرد وأمة أعرضت عن ذكر ربها ضلت سواء السبيل فى الحياة الدنيا وساءت عقباها

واذا دققنا فى حال جميع الديانات التى ينزل بها الرسل الكرام مجدها فى مبدأ أمرها بسيطة سهلة تقود الى الخير فاذا تمادى الزمان دخلها كثير من الشرك الخفى والتشديد وهما مطنية الدمار والخراب فاما أن تبقى على ما هى عليه فتصير الى الخراب والدمار واما أن يرسل الله لها حكما يهدون الناس ويجددون ما اندرس ويحتفون ما ابتدع فترجع الى مجدها وسابق عزها فاذا لم يتداركوها هلكت أو اندجت فى أمة أخرى

وذلك كما حصل فى كنعان وبنى اسرائيل فقد كانت تتوالى فيهم الرسل المندرون والمبشرون كما قصه الله فى القرآن فترجع مدينتهم زاهية زاهرة

وكما حصل فى عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم فانهم بادوا بالاهلاك العالم وبالجملة فقد وضع ان الأمم كما انه يجمعها نوع واحد وهو الانسان جمعها فكر واحد فى الدين وهو مدبر الكون المعبر عنه بالعبارات المختلفة وكما انهم أصناف مختلفون فمنهم الساميون والهاميون واليافيثيون فهكذا تنوعت طرق الديانات باختلاف

الأنبياء والأزمان والأمكنة فتطابق الخلق والأمر (الأله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

اعلم أن الإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر والروح والنفس من أعظم داع
تتمو المدنية وتقدم الحضارة اذ هذه مع غموضها على العقول كلف العقلاء بمعرفتها
بالبراهين وهي صعبة المرام بهذا فقامت لهم الزموا أن يدرسوا العالم درسا صحيحا
ويخرجوا من الماديات الى المجردات وهذا لا يتسنى لهم الا بعد فحص الكون من
علويات وسفليات ويفتفون بذلك في دنياهم

فانظروا كيف كانت علوم التوحيد مبدأ للترقى في المدنية والحضارة داعية الى
المتقدم السريع في الماديات والأديان بل مثل البحث عن المجردات كمثل بحث علماء
المتقدمين عن علم الكيمياء ليصنعوا منه الذهب فكان القليل منهم يصل الى المطلوب
والكثير يعثرون على أشياء كثيرة نافعة في الحياة والزراعة والجمالة وغيرها
أيها الاخوان ما ذاترون في هذه العجائب فلولا بحث الأقدمين عن الذهب
ما وصل المتأخرون الى هذه العلوم الناجمة عن علم الكيمياء واليه الرمز بحكاية آدم
وشيث في كلام الأقدمين وأنه علمه الكيمياء

فمن هنا عرفنا كيف كان البحث بالبراهين العقلية في الله واليوم الآخر هو
السبب الوحيد في ترقى الأفكار وتمدين الأمم واثارة الخواطر وقيام الناس من رقدة
الجمالة ولذلك لا نرى أمة إلا ودرست الرياضيات ثم الطبيعيات وأعقبت ذلك كله
بالالهيات وأدخلت فيها الملائكة والأرواح وأعقبت ذلك كله بالسياسة والأخلاق
فتأملوا كيف احتاج نوع الانسان في تدينه الى الإيمان بالمجردات ليرتبط بعضه ببعض
أولا ويبحث عن الحقائق ثانيا ولقد جعلوا العلوم جميعها أنواعا وأصنافا متفرقة مختلفة
المشارب والأذواق وكل علم يبحث عن شيء مخصوص من هذا العالم وكل علم تحته
فروع ترجع اليه وهذه العلوم يرجعونها الى أصل واحد وهي الهيات عند اليونان
والتوحيد عند المسلمين واللاهوت عند الأوروبايين كما رجعت الدول لنوع الانسان

ورجعت العقائد الى مدير الكون المحرك له ورجعت العلويات والسفليات لأصل واحد
وهى المادة

والذى يهمننا من ذلك كله ملوك الاسلام وأمرأؤه ان لم ينسجوا على هذه الحكمة
الباهرة فيكون لكل قوم منهم أمور خصوصية ومدنية تناسبهم كما هى طبيعة الكون
ولكن تكون بينهم جامعة عامة تشمل الأمم الاسلامية فى جميع الكرة الأرضية
فيتناقل العلماء الكتب فيترجم المصرى لكتب الفارسمى والفارسمى لكتب المصرى
وهم جميعا كتب التركى والثلاثة تأليف الهندى وبالعكس وهكذا

ويتعارف العلماء بالأفكار والآراء ويتزاورون وهذه اللغة العربية هى السر الوحيد
والترجمان العام فان لم يتواصل ملوك الاسلام ونام العلماء ولم يتعارفوا باخوانهم فى أقطار
المسكونة فليشروا بخراب عام وقيامه تقوم عليهم وحدهم ويخلون الأرض لله يورثها من
يشاء من عباده قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

وهذا العذاب ليس خاصا بالآخرة بل هو فى الدنيا وكفى بما فيه المسلمون عذابا
فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم منه شيئا

وكل فرد من أفراد علماء الاسلام وملوكهم مطالب بهذا التواصل فان أبوا فجزأؤهم
ما حل بنا اليوم فليجتهد العلماء فى التواصل وليتحدوا على التعاون والا عوقب كل
فرد بالآثم وحده فاذا فعلوا ذلك فقد ساروا على السبيل الذى فى الكون وهبوا
منهج القرآن المطابق تمام المطابقة للحكمة الالهية وهذه هى حدود الله (ومن يتعد حدود
الله فقد ظلم نفسه)

فتكون أمم الاسلام راجعة لأصل واحد وهو التواصل بين الملوك والعلماء بوجه
عام فيكون الهندى مع الصينى مع المصرى كالألماني مع الفرنساوى مع الانكليزى
كرجوع العقائد والعلوم والأجسام وأمم نوع الانسان وأسرار الملكة وفروع الشجرة
وأوراقها إلى اعتقاد واحد وعلم الالهيات والعنصر البسيط وهو الأثير والانسان ورب

المنزل والملك المدبر العام والشجرة فان هذا الملك متشابه يشبه بعضه بعضا وانوسدة شيء السر الساري فيه فيقدر ظاهرها يتم وبقدر اختفائها يكون ثقبه .

وها أنا أيها الاخوان أوضحت هذا المقام وهو حكمة الايمان بما غاب عنا من الاله وملأثكته وإلى هذا المبحث أشار الله في أول مرة من الكتاب المبين وهي : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

فانظروا إخواني كيف كانت آية في القرآن من حيث التلاوة نهاية ماتصل إليه المدنية في كل أمة .

فالإيمان بالله والمجردات أول العلوم ومنتهاه ومبدؤها ونهايتها (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

لاغنى للمدنية عنه وإن تظاهروا بضمه هذا أمام المسلمين السياسيين فذلك ليرجعوكم إلى التفريق وهم متحدون فليتبذر المسلمون ان كانوا يعقلون .

فقال الحكيم إن هذا من أهم الأسباب وبواعث الانحطاط ولكنه وحده ليس سبباً لكل ما نحن فيه من هذا السقوط السبب الوحيد في ذلك قصر نظر الأفراد وضعف الهمم والبعد عن المفاخر والتزهد عن المطالب والانتقاض عن المكاسب والرضى بالذل والهوان

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح يمت ايلام

فالأمم إذا هانت ونبتت شرف النفس لم يقدموا على عمل واستكبروا كل ما يروونه وأعظموا الأمور التي يشاهدونها وعجزوا صراحاً وأضحوا في انحطاط وخمود وفي الحديث القدسي أنا عند ظن عبدي بي وفي التنزيل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وفي الحديث النبوي ومن أراد الخير يعطه ومن توى الشر يوقه فكل من كان أقدم على الأمور وأقل تهيباً فاز بالمرغوب وسعد في الدنيا .

ويشير لذلك قصة زكريا ومريم وأنه رآها تأكل فأكهة الشتاء صيفاً وبالعكس
فتمنى أن يكون له ولد له صفات كصفاتهما وكان في الحراب فجاءته الملائكة وهو قائم
يعلى في الحراب كما كان وقت دخوله على مريم فبشر بيحيى مصداقاً بكلمة من الله
وهي أيضاً صدقت بكلمات ربها (وسيداً) ومريم سيدة نساء العالمين (وحسوراً)
لآياتي لنساء وهي أيضاً كذلك لا يقر بها الرجال (ونبياً من الصالحين) وهي كانت
من الصالحين وقيل بنفوتها فانظروا كيف جاء المثنى حين صورته في نفسه جازماً به
وبالجملة فمعرفة أفراد الأمة أقدر أنفسهم وشرفهم هو الذي يعلى شأنهم ولا يصل بالأمة
أوج العالي سوى تثبيت هذه الفكرة في أذهانهم ولذلك لما كان بنو إسرائيل مستعبدين
بين المصريين وأرسل الله سيدنا موسى لهم فأول فكرة بثها فيهم أنهم أفضل العالمين
فقال: (وإني فضلتكم على العالمين) ولما لم تكن هذه الفكرة كافية وحدها بل لا بد
من العمل التابع أردف هذا بأن أضلهم في التيه حتى ناد الجليل السبع الشرث على
الذل والانقياد وجاء آخرون تربوا على شظف العيش في مدة الأربعين التي مضت
في التيه فأمكنهم فتح قرية الجبارين فهذه سنة الله في الأمم التي يريد ارتقاءها وما
من أمة حية إلا وتجده هذه الفكرة منبثة فيهم ويرون أن سواهم أحق بأن يكونوا
عبيداً لهم ألا ترى أن أمة انكلترا ذكر في قانونهم أن الدم الانكليزي أشرف السماء
فلا يراق إلا لأشرف المطالب . وقام بسمارك في ألمانيا خطيباً وقال نحن الالمانيين
لا نخشى إلا الله وجاء في القرآن قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكولوا
شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ، وقال (كنتم خير أمة أخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان
خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

فاذن يجب على علماء الأمة وشعرائها أن يوقدوا في نفوس أفرادها نار الغيرة
وشرف النفس

فأجابه العالم قائلاً أن المتعلم الذي قرأ علوم الإسلام يرى من أسانده ومحدثهم

ومحاورتهم في تقطيب جباههم ما ينفرو ويصغرو في عينه كل أمة من الأمم عند ذكر أمتنا فتحن من هذا الوجه آمنون ولم يبق علينا إلا أن يعرف الشبان وجوه المطالب وتترقى فيهم ملكة الاستعلاء وها هو القرآن بين أيدينا فيه آيات لكل خلق من أخلاق الانسانية كالكرم والشجاعة والمحبة والاحتراس من الأعداء والاعتقاد وطلب التفكير وحوز العلوم والجهاد .

فلو أن كل فريق من الناس كالشجعان في الحروب والأطباء في المستشفيات والأشياء حفظوا آيات في النوع الذي هم بصدده لكان ذلك داعيا للإقدام على الأعمال فيقرأ المجاهد وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم والغنى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والطيب كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين والعالم المتفكر قل انظروا ماذا في السموات والأرض وهكذا مما لا يحصى المقام

ولقد ألف الشيخ الغزالي كتاباً في بعض ذلك سماه علوم القرآن وذكر نحو ٧٠٠ آية في تهذيب الأخلاق ومثلها في النظر في ملكوت السموات والأرض واقد علمت أن أهل أوربا نهجوا هذا المنهج فذكروا آيات من كل نوع من هذا على حدته ليقف كل قوم على ما هم بصدده .

ولقد سمعت ممن اثق به أن أحد مدرسي مدرسة الطب بمصر قال له عند ذكر أمراض العيون أن أهل مصر لا يلزم لهم قانون صحة قانونهم كتابهم . أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) حكيم باشا إذ الوضوء في الأوقات الخمس والمحافظة على النظافة في هذا الدين تنبذ جميع الأمراض بالسكينة وتستأصلها منهم ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذي أوجب الأمراض

ومن العجيب أن الله يأمر بالنظافة لأجل الصلاة وقد أراد أن تكون صحة لنا جهلناها وعرفها الغربيون ولا يتم ذلك إلا إذا عرف كل قوم الآيات الدالة على ما هم بصدده وهكذا قال بنظام الانكليزي أن المحافظة على نظام الدين الاسلامي توجب

عدم ارتكاب الذنوب بالكلية وهذا أيضا لاطلاعه على الآيات الدالة على النظافة كما هو مقرر أن النظافة سبب للصحة الجسمية ولقلة الذنوب والردائل فله شريعة سمحاء جهلها الأقربون وعرفها الأبعدون

ومع هذا فيجب على كل طائفة أن تتعلم القدر الضروري المشترك بين الجميع. كآيات العبادات بأنواعها ويكون ذلك بفهم وعلم وب عقل لا كالقراءات الآن ويمنع الحكم قراءة القرآن في الأما كن التي لا تنيف وعلى المعتبر ويعظمونه ويجلونه ثم يلقى في أذهان القارئ وجوب فهم المعنى ويعرفون قوله عليه الصلاة والسلام اقرأ القرآن ما نهاك فان لم ينهك فليست تقرأ وهكذا حتى تشب الأمة على مبادئ الدين

خاتمة

وحينئذ قام فاضل من فضلاء الجمع وقال يا قوم انى تأملت ما دار بينكم فالفيتته جمع شتات المسائل وخلاصة الأسباب ونموذج الرقى وظواهر الاصلاح وبهجة السعادات ونظام الحكومات فلتدرسوا العلوم وتنشئوا الصناعات ولتبشروا بالنجاح ولا تفرطوا فى صغير أه كبير مما أفضم فى شرحه اليوم واصبروا على الأعمال صبر أولى العزم يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ما

(تم الجزء الثانى من كتاب نظام العالم والأمم وهو نهاية الكتاب)



تقريظ

وردت للمؤلف قصيدتان غراوان مرتبتان على مقتضى رويهما وأول اسمي
منشئيهما الفاضلين

الأولى مدبجة بقلم الأديب الفاضل العلامة الشيخ حسين والى من أجلاء علماء
الأزهر الشريف ووكيل الأزهر سابقا فاستحسننا نشرها لاشتمالها على أقسام الكتاب
التسعة ولصدورها من صديق للمؤلف حميم قال حفظه الله :

إذا قيل من أذكى فؤادا	وأدرى بالحقائق فى الرجال
وأصفى جوهرا وأعز نفعا	أنفوس الجوهري ولا أبأى
تزكت نفسه فعلت علوا	فجاءتها الحقائق بامثال
على جئانها غلبت فكانت	لها أحكامها لا للخيال
رأى بالجنم مبدأ كل شيء	وبالنفس اجتلى غيب المآل
وحظ النفس عند الجسم نزر	وعند تغلب حظ الكمال
وإن الله برهن للبرايا	بآيات تدوم على التوالى
ولكن عميت زمنا لأمر	وصار قريبا صعب المنال
وغشى وجهها مركوم سحب	فصاروا فى ظلام أو ضلال
وظنوا الشمس اذ زالت أتاها	من الرحمن تكوير الزوال
وما علموا بأن الشأو ناء	وأن الشمس صاحبة انتقال
فإن هي لم تكن طلعت بشرق	تكن طلعت بغرب غير آل
لها الطوران فى الدنيا جميعا	كما الحصين كانا فى سجال
بدت بالغرب دهرا فاستبانو	أعاديهم ففازوا فى القتال
فلما أثروا فينا اتبهننا	وأودى الضعف بالاسل الطوال

ولیس لنا من الضوء المزجی سوی سم الخیاط لدى النضال
أصاب الجوهری به فأنمی کما یسمى المصید لدى الحبال
هو النظارة الكبرى تریه الـ أمور بعینها لا بالمثال

ولولا آیه فیہ لشرق لدام مجهلا فی شر حال
کأن الله أثره فأضحی وما وافق بمشیهه الیالی
دری سر الكتاب وكان غیبا فباح بسرہ قبل السؤال
وبوح السر أفتح ما نراه اذا لم یلف فی شرف الخصال
فشوق نفس کل نحو علم فكان مقالہ فوق المقال
وقد أبى بحسبان کینا یرى الـ سافلا منها لعال
وفکر فی السموات الفتکارا وجلوز شمسین مع الهلال
تبین ما حوى الافلاك بما جرى جهة اتصال وانفصال
وبعد تبین الأرضین حتی تبدت فی عوالمها الثقال
أرته جمادها فرآه حیا یسبح إربه بفصیح قال
أرته نباتها نضرا بهیجا تزين بالنظام وبالجمال
أرته أعجم الحيوان یزى بذی نطق عن العرب العوالی
أرته حقیقة الانسان فیها عجائب فوق أعداد الرمال
أرته النفس فی شرف خطیر وأمرآ آتیا من ذی الجلال
أرته سياسة الأمم الاوائی وراء سياسة الأمم الخوالی
أرته عجائب العمران طرا وشرعة ربها بین الموالی
فهذی تسع آیات کموسی ولكن نفعها بادی اقتبال
تکفلها کتاب منه سام منظمة کوعده منه خال
ألا یا جوهری رعاک مولى أرادک المعارف والمعالی
فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسک بعض دم الغزال

القصيدة الثانية لسعادة الفاضل المرحوم يحيى بك قدرى مأمور إدارة أوقاف الحلمية
من بحر المتدارك (الخبب) وأهداها للمؤلف فشكرنا له وآثرنا نشرها لعدوابة أفاظها
وروتق أسلوبها ولصلة المودة بينهما قال حفظه الله

ان رمت الفلسفة العليا	لبنى الإسلام والأمم
أوشئت الحكمة مستقياً	من غيث العلم المنسجم
بادر لجواهر قد نسقت	فى شعر يزهو بالحكم
يهدى الحيران ويرشده	لنظام الكون المنهم
فيه التطبيق على حكم	من يحكم تنزه الحكيم
فيه الآيات نعم	ما فى الملكوت من العظم
فيه التفصيل يشوقنا	لجمال الصنع المنتظم
صنع الافلاك وأنجمها	كنظام الشمس المبتسم
وثلاث مواليد وجدت	فى الارض بخلق من سدم
وسياسات وتدابير	جاءت كالنور على علم
قرنت بمسائله تحف	عن أهل العلم ذوى القلم
زانت براهين سطعت	كشفت عن سر مكتهم
قد صيغ الرشد بأسطره	كنجوم ضاءت فى الظلم
فالفضل لمنش عنونه	بنظام العالم والأمم



فهرست الجزء الثانى

من نظام العالم والأمم

صفحة

الباب السادس

٣	بيان ما فى الباب السادس من الفصول والمباحث والطوائف
٤	الطائفة الأولى — الشعراء
٥	الطائفة الثانية — الناظرون فى الرياضيات
٧	الطائفة الثالثة — علماء التشريح
١٢	معنى قول القدماء الصفراء والسم والبلغم والسوداء
١٢	أقوال القدماء وحكاماء العصر فى الكبد وظهور حكمة الله فيه
١٣	موزانة حيرة علماء الفلك بحيرة علماء التشريح
١٤	ترتيب الأعضاء الباطنة فى جسم الإنسان
١٥	الرئة
١٦	الدورة الدموية
٢٥	أعضاء التوليد
٣٠	أبداع غريب وحسن وضع وترتيب فى الكبد والرئة والحواس
٣٥	فيما هم من حقائق علم التشريح
٣٧	الفصل الأول — فى أن جسم الإنسان كالألة البخارية الطاحنة
٣٩	تركيب جسم الإنسان

صفحة

٤٠	وظائف جسم الانسان
٤٣	جهاز الحركة
٤٤	الفصل الثانى — فى الكلام على ما يوافق من الأغذية ومالا يوافق
٥٠	الفصل الثالث — فى بيان أن هذه الأغذية مقسمات على ما فى الجهاز الهضمى
	من الآلات المعدة للهضم بالطبقة
٥٦	الفصل الرابع — فى بيان الجهاز التنفسى
٦٠	الفصل الخامس — فى الدورة الدموية
٦٢	القلب قصر يباهى إيوان كسرى
٦٨	جمال الوضع وبهجة الصنع وجمال الحكمة
٧٢	الفصل السادس — الجهاز العصبى
٧٩	شرح رؤية العين
٨٧	عجائب العيون

٩٠ الباب السابع

فى الطائفة الرابعة وهم علماء الفلسفة العالية الذين درسوا علم النفس

٩٤	المحسوسات
٩٥	المذوقات — المشمومات — المسموعات
٩٧	المبصرات
١٠١	الحس المشترك
١٠٢	الخيلة أو المصورة
١٠٧	القوة العاقلة
١٠١	أقسام العلماء — أقسام العلوم
١١٢	التقسيم الحديث

صفحة

- ١٢٢ مسامرة فى علم الحكاء والفلاسة
 ١٢٧ الارادة والاختيار
 ١٢٧ السعادة والاختيار
 ١٢٨ حكمة تامة ونظام عجيب
 ١٣٠ ابداع العقل والمنطق والخط
 ١٣٢ ضرب مثل لحال النفس مع الجسم
 ١٣٤ قوى الإنسان كلها ترجع إلى نفس واحدة
 ١٣٥ برهان أن النفس وقواها واحدة
 ١٣٦ المادة والنفس
 ١٣٦ المادة والنفس والعقل والملائكة
 ١٤٠ لطيفة
 ١٤١ آراء الناس فى النفس
 ١٤٥ عموم الوحدة فى الموجودات

الباب الثامن

١٤٧

بيان ما فيه من المواضع

- ١٤٨ (١) الوحدة فى الأمم ترجع إلى قوتي العلم والعمل
 ١٥٠ (٢) كيف تصير الأمة كلها جسما واحدا وكيف تقارن بجسم الانسان
 ١٥٢ (٣) تأثير الاعتقاد فى الأمم
 ١٥٣ (٤) مابه نظام الدنيا والدين
 ١٥٠ (٥) مآل أهل المدينة الفاضلة بعد الموت
 ١٦٠ (٦) الأمة تصارع العالم كله فى نظامه

- ١٦٣ (٧) مزج الاسلام مصالح الدين بالدنيا
 ١٦٤ (٨) الترقى سنة العالم شرحها القرآن قبل داروين باثنى عشر قرنا
 ١٦٧ (٩) أقسام أهل المدينة الجاهلة وأعمالهم
 ١٧٠ (١٠) أهل المدن الجامعية
 ١٧١ (١١) في أعماء الثروة
 ١٧٢ (١٢) في الخشوع
 ١٧٣ (١٣) اعتقادهم في العدل
 ١٧٤ (١٤) المدن ذات الروح أو الجسد والروح ثم الضالة والفاقة

الباب التاسع

١٧٩

- في أمة الاسلام ونظامها وما يجب على أهلها أن يتخذوه في هذه الأيام
 ١٨٢ الفصل الأول — في ذكر أحوال المسلمين من القوة في عصر النبوة ومن
 الضعف الطارىء بعد ذلك ثم استيقاظها الآن
 المبحث الأول — في قوة أمة الاسلام في عصر النبوة وصدر الاسلام
 ١٨٤ ثروة الخلفاء وعملهم
 ١٨٦ المبحث الثاني — فيما طرأ عليها بعد ذلك في أيام بني أمية وأيام بني العباس
 وكيف أزالها التتار وفي الدولة الأندلسية وكيف أزالها فرديناند وإيزابلا
 ١٨٦ شيوع التبذير في الدولة
 ١٨٩ الاسراف أيام بني أمية
 ١٩٣ دولة بني العباس والاسراف فيها
 ١٩٤ ثروة نساء الخلفاء
 ١٩٦ الجوارى والغلمان
 ١٩٧ الوزراء
 ٢٠٢ كثرة الأسرى أو الأرقاء

صفحة

٢٠٣	الخصيان
٢٠٤	مقاومة الخلفاء للغناء
٢٠٥	دار الشجرة
٢٠٧	قصر الحمراء وأمثاله
٢٠٨	البذخ فى الألبسة
٢١٠	القرش والأثمان عند الفاطميين
٢١٠	أثمان الجوارى
٢١١	سخاء البرامكة
٢١٣	التهتك
٢١٥	يأجوج وماجوج
٢٢٥	تأسيس بنحس شباب المسلمين المتعلمين نحر عذب قرطبة
٢٢٧	مصير براق ابن عمار
٢٣٧	قصيدة للسيد يحيى القرطبي
٢٤٠	الأمم الاسلامية جميعها متشابهة
٢٤٩	سرمكنون
٢٤٢	المبحث الثالث — فى حال المسلمين فى عصرنا الحاضر
٢٥٩	الفصل الثانى — فى السعادة والاختيار والعمل والتوكل
٢٦١	الكلام على العمل والتوكل
٢٦٦	الفصل الثالث — توزيع الأعمال على الأفراد وما حكم الشرع فى فروض الكفايات
٢٦٧	باب العلم
٢٧٢	الفصل الرابع — العلوم التى يجب تحصيلها والصنائع

- ٢٧٩ تمة هذا الباب
- ٢٨٠ الفصل الخامس — طرق التعليم وما يجب على المسلمين أن يصنعوه في هذا الأيام
- ٢٩٠ الفصل السادس والسابع — في وجوب استعمال العقول وترك الفضول
- ٣٠٥ الفصل الثامن — فيما يجب على ملوك الاسلام وأمرائه من التعاون والمحبة
- ٣٠٦ الفصل التاسع — في الكلام على سياسة أوربا واستطلاع علومها
- ٣٠٦ الفصل العاشر — قصص القرآن وذكر أحوال الدول وقصص فرعون وموسى عليه السلام وبعض المشاهد الطبيعية
- ٣٠٦ المقالة الأولى
- ٣٠٨ المقالة الثانية
- ٣١١ المقالة الثالثة — في انشاء الأمم
- ٣١٥ المقالة الرابعة
- ٣١٧ المقالة الخامسة — في عجائب الوجود من بحر وشمس وغيرها
- ٣٢١ ثمرة هذا النظر
- ٣٢٢ الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر — في ذكر علو همة الافراد وتشويقهم وفي ذكر كيفية التوصل بالقرآن إلى هذه الطريقة وفي ذكر ما اقتصر عليه المسلمون من علم الفقه
- ٣٢٢ الاقتصار على علم الفقه
- ٣٢٣ الفصل الرابع عشر — في ذكر حكمة التكليف بالايان بما غاب عنا مما ليس يحرم وفي توحيد العلوم وأن الوحدة فيها نظام كل شىء
- ٣٢٤ الفصل الخامس عشر — في ذكر السياحات وفوائدها شرقاً وغرباً
- ٣٢٥ الفصل السادس عشر — المقالات الأصمعية . المقالة الأولى الترقى في الأزهر
- ٣٢٧ الفصل السابع عشر — المقالة الثانية كليات الاسلام وطريقة التعليم في الأزهر

صفحة

- ٣٢٩ الفصل الثامن عشر - المقالة الثالثة نظام الأزهر
 ٣٢٩ رأى الكاتب الأصمعى
 ٣٣٢ الفصل التاسع عشر - المقالة لربعة الغرائى والعلم الازهرى
 ٣٣٥ الفصل العشرون - المقالة الخامسة الكليات والترقى
 ٣٣٧ الفصل الحادى والعشرون - المقالة السادسة الأزهر وابن رشد
 ٣٤٩ الفصل الثانى والعشرون - المقالة السابعة كليات الاسلام وناموس الترقى
 ٣٥٣ الفصل الثالث والعشرون - المقالة الثامنة الواقفون والعلماء
 ٣٥٦ الفصل الرابع والعشرون - فى المقالة التاسعة خطاب لوجهاء الأمة
 ٣٥٨ الفصل الخامس والعشرون - المقالة العاشرة العالم مدرسة كبرى والله سيدها
 والناس الطالبون
 ٣٦٠ دعوة عامة للناشئين إلى جمال العالم والعلوم
 ٣٦١ العالم السفلى
 ٣٦٤ الفصل السادس والعشرون - المقالة الأولى الرازية هذه العلوم فأين الترقى
 ٣٦٥ الفصل السابع والعشرون - المقالة الثانية
 ٣٦٧ ميزان وبرهان
 ٣٦٨ الفصل الثامن والعشرون فى حاجة المسلمين الى مدرسة جامعة كبرى
 ٣٧٤ الفصل التاسع والعشرون - محاورات لطيفة فى الاسلام ونظامه وأسباب انحطاطه
 وسبيل ارتفاعه
 ٤٠٦ مقاصد علم التاريخ
 ٤٠٣ البرهان والتقليد
 ٤٠٤ العلوم الرياضية والطبيعية

صفحة

٤٠٥ لمضاج في العلوم الطبيعية

٤١٣ تنازع البقاء

٤١٥ غلبة الرجال

٤١٥ غلبة الآلات والصنائع

٤١٨ الأجسام

٤٢٩ خاتمة

٤٣٠ تقرّظ

٤٣٣ الفهرست



الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الجهاز	الجهر	١٣	٣
	الطائفة الثانية	١	٧
(١) ظواهر علم التشريح (٢) وما يهم من الحقائق (١) أما ظواهر علم التشريح			
يقرون	يقرون على	١٥	١٣
يحسبوا	يحسبون	١١	٢٣
الكوكب	الكواكب	٢	٢٤
مع حرمان	من حرمان	٢	٢٤
المختص بهم	المختف بهم	١٦	٢٩
المهمة	المهملة	١١	٣٥
الفقد	المقد	٥	٤١
تخلصه	يخلصه	٢٢	٤١
	الكرنب	٨	٤٥
	والقنبيط		
	والبطاطس	١١	٤٥
يعوزه	يعوده	٢٢	٥٢
الجزر	الجذر	١٩	٥٥
فيهما	فيها	١٩	٥٦
من الرثة	من القلب	٦	٥٩
العجيب	العجيب	٢	٧٩
كورنى	كورنى	١١	٨٢

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
القيح	بالقيح	٣	٨٩
تسمى	تسمى	١٤	٩٨
فاذا	فلو	١٦	١٠٢
وما دامت	ما دامت	٢١	١٠٢
العالم	العالم	١١	١٠٥
العلوم	العلوم	٣	١١٢
تكنلت	تكلف	١٠	١١٢
متساويين	متساويان	٧	١١٦
حيل	احيل	١٠	١٢٩
امرين	ثلاثة أمور	٢٠	١٣٤
بذل درس	من درس	١٣	١٣٥
العلوم	العلوم		
مثلها	قبلها	١٩	١٣٦
دحضه	ادحضه	٢١	١٣٨
ويفعلون	ويفعلون	١٦	١٣٩
والصورة	او الصورة	٤	١٤٠
ادمع	اوسع	٨	١٤٠
واضل	واضل	٣	١٥٠
دفع الله	دفع الله	١٩	١٦٢
القبائل	البائل	٤	١٦٤
قلاقل	قلاقل	٤	١٦٤
المدينة	المدنية	٩	١٦٧
ما ترى	ما يرى	١٣	١٦٧
في اليوم الآخرفهم	واليوم الآخرفهم في	١٢	١٧٥

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
الألفاظ	الالفاظ	٨	٢٨٢
والانتطس لم	الاندلس اذم	١٤	٢٨٢
منصرفه	متصرفه	١٣	٢٨٣
بسيلهم	يسيلهم	١٥	٢٨٣
يكفى	يدينى	١٩	٢٨٦
يوفى	يستوفى	١٨	٢٨٨
الفعل	العقل	٢٣	٢٨٨
الفعل	العقل	١	٢٨٩
بسرعة	وبسرعة	١٧	٢٩١
مسطور	مطر	٤	٢٩٤
عاد وعود	وعود	١٢	٢٩٩
وما نظام	وماهى نظام	٥	٣٠٠
انه يقرأ	ان يقرأ	٨	٣٠٢
متى	مى	٥	٣٠٣
يخيل	يتخيل	٦	٣٠٣
سامدون	ساجدون	١٦	٣٠٤
وأحاديث	أحاديث	١٢	٣٢٢
علماءها	علماءها	١٧	٣٢٢
من غفلتها	غفلتها	٣	٣٢٣
اشارة الى	اشاره اى	٢٠	٣٢٤
توجد	توجد	٢	٣٤٠
عندهم	عنده	٥	٣٤٢
يطلق	يطاق	٥	٣٤٥
ذوات	ذرات	١٦	٣٤٥

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٤٦	٢	وإن كان ليس له مثال في الشاهد	
٣٤٧	١٤	فكانوا ممن إلى قوله أهل اليقين	
٣٥٠	١	على	عليه
٣٥٢	٢٠	احتلال	اختلال
٣٥٧	١٠	لم تقف	لم تقف
٣٥٨	١٩	الجلية	الجلية
٣٥٨	٢١	اذ	إذا
٣٥٩	٣	وترضع	وتغذى
٣٥٩	٢	لا بالمدارس	إلا بالمدارس
٣٦٠	٥	كاسبانيا	كالاندلس
٣٦٢	٧	الترييه فأخر فاصل	التربية فأخر فاصل
٣٦٣	٢١	مع الآخرة	
٣٧٤	١	والذين	الذين
٣٧٦	٢٠	جر	أجر
٣٧٦	٢٣	نادام	ناوأم
٣٧٧	٢	الآية	الأمة
٣٧٧	٧	لفرق	لفرق
٣٧٨	٥	ينقص	بنقص
٣٨٠	٢٢	فلو	فاذا
٣٨٠	٢٣	تسربوا	تربوا
١٨٢	٤	في أحوالها	في أحوالهم
١٨٦	١٠	ومزود	ومذود
٢٠٧	٧	فخما	فخما
٢٢٤	١٦	بن بي	بن

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
أقبل	فاقبل	٢	٢٢٥
قتلوا	قبلوا	١٤	٢٢٧
فمَسَّ	فتمس لي	٢٣	٢٣٤
يملك	يملك	٨	٢٣٨
حيران	حسران	١٧	٢٣٩
الامة	الاية	٢١	٢٤٢
يكونون	يكونوا	٣	٢٤٣
جاء	صار	١٣	٢٤٤
يدل	يه دل	٩	٢٤٨
تنضم	نضم	٢	٢٤٩
لانقاد	لانقاذ	٢٢	٢٥٣
الغرب للشرق	الشرق للغرب	١٣	٢٥٥
لا تقسها	لا تقسها	١٣	٢٦٠
وأية	وأى	١	٢٦٠
ممتزجان	ممتزجتان	٢	٢٧٣
اتبعا	اتبعا	٨	٢٧٣
كالطبيب	كالذى يكون مريضاً	٧	٢٧٦
فأية	فأى	١	٢٧٩
وخسروا	أوخسروا	٨	٢٧٩
على	عل	٦	٢٨٢